الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز
١٧

رواية

@ketab_n
Follow Me
12.2.2016

إسحق باشيفيس سنجر

# شوشا

ترجمة : سمير أبو الفتوح

# شوشا

رواية

إسحق باشيفيس سنجر

ترجمة : سمير أبو الفتوح

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٧

Twitter: @ketab_n

سنجر ، اسحق باشيفيس
شوشا : رواية / اسحق باشيفيس سنجر؛ ترجمة :
سمير أبوالفتوح . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠٠٧.
٤٨٨ ص ؛ ٢٢ سم .
تدمك X ٥٧١ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص البولندية
( أ ) أبو الفتوح ، سمير (مترجم)
(ب) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٥٧/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 571 - X

ديوى ٨٥٣, ٨٩١

Twitter: @ketab_n

● الكتاب: شوشا SHOSHA
● تأليف: إسحق باشيفيس سنجر
Isaac Bashevis Singer
● ترجمة وتقديم: سمير أبو الفتوح
● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.
● جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.
● جميع الحقوق الأخرى محفوظة للناشر الأصلى:
Copyright © 1978 by Isaac Bashevis Singer by arrangement with lescher & lescher. Ltd.
● الطبعة الأولى ٢٠٠٧.
● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
● التصميم الجرافيكى: دكتور مدحت متولى.
● الإخراج الفنى: صبرى عبد الواحد.


Twitter: @ketab_n

# سلسلة الجوائز

تواصل **سلسلة الجوائز** تجديد نفسها فى الأعداد التالية، ومازالت تحاول جاهدة استيعاب أبرز ملامح المشهد الإبداعى عربيًا وعالميًا، هادفة إلى تقديم أعمال تتميز بالخصوصية والجودة، التى اتفقت عليها لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتاب.

واستنادًا إلى الاحتفاء الذى لاقته السلسلة فى أعدادها العشرة الأولى، ومع تشجيع المثقفين والقرّاء، رأينا أن نعيد نشر بعض الأعمال الأدبية التى نالت جوائز قديمة، والتى شكلت علامة فارقة فى السرد العربى والعالمى، تلك الأعمال التى نالت منذ نصف قرن أو أكثر جوائز عالمية ومحلية، ولكن طبعاتها نفدت منذ فترة، ولم تعد متاحة للأجيال الجديدة؛ ولذا رأينا أن تضاف للسلسلة أعداد خاصة مميزة لإلقاء الضوء على تلك الأعمال وهذه الجوائز من خلال عنوان فرعى هو «**ذاكرة الجوائز**».

وستكون باكورة هذه الأعداد الخاصة، نشر رواية «الفسكونت المشطور» ١٩٥٢، للكاتب الإيطالى «إيتالو


Twitter: @ketab_n

كالڤينو» (١٩٢٣ ـ ١٩٥٨)، الحاصل على عشرات الجوائز المحلية والعالمية، والتى شكّلت ثلاثيته «الأسلاف» إضافة للسرد العالمى. كما نعيد نشر رواية «قرية ظالمة» ١٩٥٤ الحاصلة على جائزة الدولة للأدب عام ١٩٥٧، للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ١٩٠١ ـ ١٩٧٧.

هذه الرواية شكّلت نقطة مضيئة فى الأدب العربى، وتم الاحتفاء بها حينذاك عربيًا وعالميًا، وترجمت إلى إحدى عشرة لغة، وكانت ومازالت إنجازًا يسعدنا أن نعيد طبعه فى هذه السلسلة.

كما نواصل نشر ماتم ترجمته وإعداده لتقديم المزيد من الأعمال الجديدة الحائزة على جوائز تمتد من نوبل إلى الجوائز المحلية الكبرى فى كل بلدان العالم، لكى يضمن القارئ العربى قراءة عمل متفق على جودته وجديته، ولكى يتسنى له الاطلاع على أحدث الاتجاهات فى الكتابة الأدبية بكلّ أنواعها. ومنها «منزل للسيد بيسواس» للكاتب ف.س.نايبول الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠١ «ثلاثة أيام عند أمى» للكاتب الفرنسى «فرانسوا ويبرجان» الحاصل على جائزة الجونكور ٢٠٠٤، «المستبعدون» للكاتبة النمساوية«إلفريده يلينك» الحاصلة على جائزة نوبل ٢٠٠٤، «مارتش» للكاتبة الأمريكية «جير الدين بروكس» الحاصلة على جائزة البوليتزر عام ٢٠٠٦ ، «أسطنبول الذكريات والمدينة» للكاتب التركى «أورهان باموق» الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠٦.

**د. ناصر الأنصارى**



Twitter: @ketab_n

# إسحق باشيفيس سنجر

- ولد إسحق باشيفيس سنجر عام ١٩٠٤ فى حى فقير بالقرب من وارسو عاصمة بولندا.

- كان والده وجده لوالده حاخامين، وتلقى تعليمًا دينيًا ملتزمًا، ومع ذلك ظهر ميله إلى الأدب منذ الصغر، وبدأ يكتب القصائد والقصص وهو فى الرابعة عشرة من عمره مما سبب الكدر والغم لوالديه كثيراً، إذ كان الأدب فى نظرهما تخليًا عن العقيدة وسوء خلق.

- قضى ثلاث أو أربع سنوات أثناء فترة المراهقة فى قرية جده المسماة «جوراى»، وقال عنها فى حوار له إنها «كانت قرية قديمة الطراز لم تتغير أبدًا منذ عدة أجيال، إذ مازالت التقاليد تحيا فيها كما كانت منذ مئات السنين، ولا يوجد بالقرب منها خط سكة حديد؛ لأنها تقع فى قلب الغابة»، وقد ألهمته تلك الفترة بعض أعماله القصصية والروائية.

- عاد إلى وارسو عام ١٩٢١ ليلتحق بكلية إعداد الحاخامات، ولكنه تركها بعد عام واحد فقط ليشتغل


Twitter: @ketab_n

بالصحافة والأدب، وهو ما صنعه من قبل شقيقه الأكبر (إسرائيل) الذى كاد يصبح واحدًا من أبرز كُتَّاب اليدية[1] فى زمنه.

- راعى فى كتاباته الخطوط الأساسية لتقاليد اليدية ووجهات النظر الأخلاقية والاجتماعية السائدة لدى يهود بولندا، مع تأثره الشديد بالكتابة الغربية وخاصة ذلك النوع من الرواية المتسم بروح العائلة والذى كان يلقى قبولاً ورواجًا فى أوروبا فى القرن العشرين.

- هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥، إذ قر لديه أن غزو هتلر لبولندا أمر محتم بعد توليه السلطة فى ألمانيا، وقد استقر هو فى بروكلين، وعمل صحفيًا وصاحب عمود فى جريدة «نحو الأمام» اليومية اليهودية النيويوركية. وقد كتب كل رواياته وقصصه لهذه الصحيفة باليدية، فيما عدا أعماله المبكرة التى نشرها فى وارسو، حتى غدا كاتب اليدية الأول فى مجال الرواية والقصة القصيرة والمقال، فقد جال بقلمه فى شتى الموضوعات التى تمس الحياة اليهودية مكرسًا حياته - كما يقول أحد النقاد - للكتابة عن عالم تحطم بطريقة وحشية وقاسية، وأنجز عمله بلغة هى نفسها على وشك الانقراض والاندثار.

- حصل على جائزة الكتاب القومى مرتين (الأولى عام ١٩٧٠ والأخرى عام ١٩٧٤)، ثم توجت أعماله


Twitter: @ketab_n

بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٧٨، وذلك - وفقًا لما ورد بتقرير اللجنة المانحة - بسبب «فنه الروائى البليغ الذى يفيض بالعاطفة ويضرب بجذوره العميقة فى التقاليد الثقافية اليهودية البولندية، فيبعث إلى الوجود حالات إنسانية عالمية عامة الانتشار».

- ومن أعماله المنشورة «الشيطان فى جوراى»، و«يوم جمعة قصير، و«جميل الأبله»، و«أسبينوزا شارع السوق»، و«صديق كافكا» و«العبد»، و«جلسة تحضير الأرواح»، و«مالك الضيعة» و«الضيعة»، و«فى محكمة والدى». و«ساحر لوبلين»، و«تاج من ريش الطيور»، و«أعداء: قصة حب وأهواء» و«صبى صغير يبحث عن اللّٰه»، و«عائلة موسكات»، و«شوشا» وقصص أخرى.

- توفى عام ١٩٩١.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# توضيح للمؤلف

هذه الرواية لا تمثل يهود بولندا فى سنوات ما قبل هتلر بحال من الأحوال، وإنما هى قصة بضع شخصيات متفردة فى ظروف متفردة ظهرت فى جريدة «نحو الأمام» اليومية اليهودية عام ١٩٧٤ تحت عنوان «رحلات نفس»، وقد قام ابن عمى «يوسف سنجر» بترجمة الجزء الأكبر منها إلى الإنجليزية، كما أمليت عددًا من فصولها على زوجتى «ألما» وعلى أمينة سرى «دفوراه مناش»، وتولى تحرير العمل بالكامل وإعداده للنشر كل من «راشيل ماكنزى» و«روبرت جيرو»، فلهم جميعا امتنانى وحبى.

المؤلف

أ.ب.س



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الأول

## (١)

تربيت على ثلاث لغات ميتة: العبرية والآرامية[٢] واليـيـديـة، وعلى ثقـافـة تطورت فى بابل: التلمـود[٣]، وكـان الحـدير[٤] الذى درست فيه حجرة، فيـها يأكل المعلم وينام وتطهو له زوجته الطعام، ولم أدرس فـيـه حسابًا أو جغرافيا أو فيزياء أو كيمياء أو تاريخًا، بل القـواعـد التى تحكم بيضـة مـوضـوعـة فى يوم عـيـد دينى، ومـا كـان يقـدم من ذبائح أو قـرابين فى المعـبـد الذى تحطم منذ ألفى عام، ومع أن أجدادى استقـروا فى بولندا قبل أن أولد بنحو ستمائة أو سبعمائة عام، فـقـد كـانت مـعـرفـتى باللغـة البـولندية لا تـعـدو بضع كلمـات فـحـسب، وقـد عـشنا فى شـارع كـروتشـمـالنا بوارسـو الذى سمى بحق «جيتو»، وإن كان يهود بولندا المحتلة من روسيا- فى الواقع. أحرارًا فى أن يقيموا حيثما شاءوا، وكنت مفارقًا لزمنى من كل الوجوه، بيد أنى لم أكن أدرك ذلك، تمامًا مـثلمـا كنت لا أدرك أن الألفـة بينـى و«شـوشـا» ابنة جارتنا «باشـيل» وزوجـهـا «زيلج» لا شأن لها بحب أو غرام، فقد كانت العلاقات



Twitter: @ketab_n

الغـرامـيـة تتم بين الشـبـان الدنـيـويين الذين يـحلقـون لحـاهم ويـدخنون الـسـجـائـر فى يوم الـسـبـت وبين الفـتـيـات اللائى يـرتدين بلوزات ذات أكـمـام قـصـيـرة وفـسـاتين مـقـورة (ديكولتـيـه) - ولم تكن مـثـل هذه الحماقات لتؤثر فى صبى حدير عمره سبع أو ثمانى سنوات من بيت حسيدى[٥]، ومع ذلك كنت مشدودًا إلى «شوشا»، وأقطع الصالة المظلمة الموصلة ما بين شقتنا وشقة «باشيل» كلما أتيح لى ذلك، وكانت «شوشا» فى مثل سنى تقريبًا، ولكن على حين كنت أعد أنا أعجوبة، إذ حفظت عن ظهر قلب صفحات عديدة من الجمارا[٦] وفصولا من المشنا[٧]، وكتبت باليدية مثلما كتبت بالعبرية، وبدأت أمعن التفكير فى الله والعناية الإلهية والزمن والفضاء واللاتناهى، كانت هى تعد بلهاء صغيرة فى عمارتنا رقم (١٠)، إذ كانت تتكلم كطفلة فى السادسة وهى فى التاسعة من عمرها، و تخلفت عامين فى صف بالمدرسة العامة التى أرسلها إليها والداها، وكانت ذات شعر أشقر ينسدل على كتفيها عندما تفك ضفائرها، وذات عينين زرقاوين، وأنف مستقيم، وعنق طويل، وقد أخذت ذلك عن أمها التى اشتهرت بالجمال فى شبابها، وكانت أختها «يبى» وهى أصغر منها بعامين فى مثل سمرة أبيها، وتضع سِنادًا لساقها اليسرى وتظلع فى مشيتها، أما «تيبل» وهى أصغرهن جميعًا فكانت حديثة عهد بالفطام وترقد فى المهد حين


Twitter: @ketab_n

أخذت أتردد على شقة «باشيل»، ويومًا ما عادت «شوشا» من المدرسة تبكى، إذ طردها المعلم ومعها خطاب مؤداه أن ليس ثمة مكان لها لديهم، وجاءت بكتابين إلى المنزل، أحدهما بالروسية والآخر بالبولندية، فضلاً عن بعض كتب التمارين وعلبة بها ريشات معدنية للكتابة بالحبر وأقلام رصاص، ولم تتعلم شيئًا من الروسية، وإن أمكنها أن تقرأ البولندية ببطء، وكان الكتاب المدرسى البولندى يحوى صور رصيد فى قرية وبقرة وديكًا وقطة وكلبًا وأرنبًا بريًا وأنثى لقلق تطعم أفراخها حديثى الفقس فى عشهم، وكانت «شوشا» تحفظ عن ظهر قلب بعض القصائد الواردة فى الكتاب، وكان والدها يعمل فى مخزن للجلود، ويغادر المنزل مبكرًا فى الصباح، ويعود إليه متأخرًا فى المساء، وكانت لحيته السوداء قصيرة ومستديرة دائمًا، وقال الحسيديون فى عمارتنا إنه يشذبها منتهكًا العرف الحسيدى، وكان يرتدى سترة قصيرة من الجبردين وياقة منشاة وربطة عنق ويلبس وحذاءً من جلد الماعز ذا ساق مطاطية، وفى يوم السبت يذهب إلى الكنيس الذى يتردد عليه التجار والعمال، ومع أن «باشيل» كانت تضع شعرًا مستعارًا، فلم تحلق رأسها مثلما صنعت أمى: زوجة الحاخام «مناحم مندل جريدنجر»، وكثيرًا ما قالت أمى إن ابن الحاخام الدارس للجمارا يخطئ إذ يصاحب فتاة، وكذلك حذرتنى أن أذوق شيئًا من عندهم، لأن


Twitter: @ketab_n

«باشيل» قد تطعمنى لحمًا غير شرعى بالمعنى الدقيق، وإلى هذا ينحدر آل جريدنجر من أصلاب حاخامات ألفوا كتبًا دينية، فى حين أن والد «باشيل» كان تاجر فراء، وقد خدم «زيلج» فى الجيش الروسى قبل أن يتزوجا، وكان الأولاد فى منزلنا يسخرون من كلام «شوشا»، لأنها تأتى أخطاء مضحكة فى بيديتها، فهى تبدأ الجملة وقلما تنهيها، وحين ترسلها أمها إلى البقال لشراء طعام تُضيع النقود؛ ولذا قال الجيران للأم إنه يحسن أن تذهب بها إلى طبيب، لأن مخها لا يتطور، على أن الأم لم تكن تملك لا الوقت والمال للأطباء، وكيف لهم أن يساعدوها؟، إن «باشيل» نفسها ساذجة كالطفلة، قال عنها «مايكل» صانع الأحذية إن فى وسعك أن تجعلها تصدق أنها حامل فى قطيطة، وأن البقرة طارت فوق سطح المنزل، ووضعت بيضًا من نحاس أصفر، لكم كانت شقتنا مختلفة عن شقة «باشيل»!، فلم يكن لدينا أثاث تقريبًا، والحوائط مغطاة بالكتب من الأرض إلى السقف، ولم يكن لدينا أنا وأخى «موشيه» لعب، فكنا نلعب بمجلدات والدنا وبريشة كتابة مكسورة وزجاجة حبر فارغة، أو قطع ورق، وكذلك لم يكن بحجرة جلوسنا أريكة أو كراسى منجدة أو خزانة ذات أدراج، بل كان لدينا فحسب صندوق للفائف الورق ومنضدة طويلة ودِكاك، حيث يصلى الناس هناك يوم السبت، ويقف والدنا طوال النهار إلى مقرأ، وينعم النظر فى


Twitter: @ketab_n

الكتب الضخمة المفتوحة الموضوعة أمامه على هيئة كومة كبيرة ويكتب الشروح والتعليقات محاولاً حل التناقض الذى وجده شارحًا فى مؤلفات آخرى، وكان قصيرًا وذا لحية حمراء وعينين زرقاوين، ويدخن بيبة طويلة، ومنذ وعيت على الدنيا وأنا أسمعه يكرر عبارة «هذا منهى عنه أو هذا حرام»، وأن كل ما أتوق إلى أن أفعله إثم وخطيئة، فلم يكن مباحا لى أن أرسم أو أصور إنسانًا، فهذا خرق للوصية الثانية، أو أن أقول كلمة فى حق صبى فهذا اغتياب، أو أن أضحك من أى شخص فذاك سخرية، أو أن أؤلف قصة، فذلك كذب وتلفيق، وكذلك لم يكن مباحًا لنا فى أيام السُبُوت أن نلمس شمعدانًا أو عملة أو أى شىء آخر نتسلى به، وكان والدى يذكرنا باستمرار أن الدنيا ممر على المرء أن يدرس فيه التوراة ويأتى الأعمال الفاضلة لكى ينال الأجر الذى ينتظره متى قدم إلى القصر الذى هو الدار الآخرة، واعتاد أن يقول: كم يعيش الإنسان على أى حال؟ قبل أن تلتفوا بوجوهكم ينقضى كل شىء،وحين يأثم الإنسان تغدو آثامه شياطين وعفاريت ومردة، وتطارد جثته وتجرها بعد الموت عبر غابات مهجورة وصحار لم يسلكها بشر أو تطأها ماشية، فكانت أمى تغضب من أبى أحيانًا لكلامه معنا على هذا النحو الكئيب رغم حرصها على الخلق الكريم وتمسكها به هى نفسها، وكانت نحيلة ذات وجنتين غائرتين وذقن مدبب وعينين رماديتين


Twitter: @ketab_n

نجلاوين تعبران عن الحدة والقلق معًا فى آن واحد، وكان والداى قد فقدا ثلاثة أطفال قبل أن أولد، وعند شقة «باشيل» كنت أشم قُتار الطبيخ أو الشواء أو الحلوى حتى قبل أن أفتح الباب، وكان مطبخها يحوى صفوفًا من أوعية نحاس أصفر ونحاس أحمر، ومقالى وصحونًا مزخرفة ذات أطر مذهبة وهاونًا ويده وطاحونة بن، وكل أنواع الصور والتحف الرخيصة، وكان لدى الأطفال صندوق على هيئة قفص ممتلئ بعرائس وكرات وأقلام رصاص ملونة وألوان مائية، وكانت السرر مغطاة بأغطية جميلة، واستقرت على الأريكة وسائد مطرزة، وكانت «يبى» و«تيبل» تصغرانى بكثير، أما «شوشا» فكانت فى مثل سنى تمامًا، ولم يكن كلانا أنا و«شوشا» ننزل إلى الفناء نلعب فيه، حيث سيطر عليه بالعصى أولاد جفاة غلاظ القلب كانوا يستأسدون على من هم أصغر سنًا منهم أو أقل جسمًا، وكان كلامهم نابيًا، وقد استفردوا بى بوجه خاص، لأنى ابن حاخام، وأرتدى ثوبا طويلا من الجبردين وطاقية من المخمل، فكانوا يتهكمون علىَّ بألقاب مثل: «ذو الزى التنكرى» أو«الحاخام الصغير» و«الطفل المدلل»، وإذا ما رأونى أتحدث إلى «شوشا» سخروا منى ودعونى بالمخنث، وكانوا يعايرونى بأن لى شعرًا أحمر وعينين زرقاوين وبشرة بيضاء على غير العادة، ويقذفوننى أحيانا بحجر أو رقاقة خشب أو قطعة طين أو يطاردوننى كى أسقط


Twitter: @ketab_n

فى البالوعة أو يحرضون علىَّ كلب حارس المنزل لعلمهم أنى أخاف منه، أما فى شقة «باشيل» فلم أكن ألقى مضايقة أو إساءة، ولحظة وصولى تقدم هى لى طبقًا من البرغل وكوبًا من البرش[8] وكعكة صغيرة محلاة، وتنتقض «شوشا» صندوق لعبها وعرائسها وأطباقها الدقيقة وأدوات الطهى البالغة الصغر ومجموعتها من الأشكال الحيوانية والآدمية وأزرارها اللامعة وشرائطها المزوقة، ونلعب «السيجة» و«البراجم»[9] و«الاستخفاء» و«زوج وزوجة»، وأتظاهر بأنى ذاهب إلى الكنيس، وهى تعد لى وجبة عندعودتى، وقد لعبت يومًا دور رجل ضرير، فتركتنى ألمس جبينها ووجنتيها وثغرها، وقبلت هى راحة يدى قائلة: لا تخبر أمى.

وكنت أعيد عليها القصص التى قرأتها أو سمعتها من أمى وأبى، وأجملها بحرية، وحدثتها عن الغابات الطبيعية غير المأهولة فى سيبيريا، وعن قطاع الطرق المكسيكيين وآكلة لحوم البشر الذين يلتهمون أطفالهم، وكانت «باشيل» تجلس معنا أحيانًا وتصغى إلى ثرثرتى، وأتباهى أمامها بأنى على دراية بالقَبَّالاة[10]، وبأنى أعرف عبارات تخرج النبيذ من الحائط لفرط قداستها وتخلق حمائم حية، وتجعلنى أطير إلى مدغشقر، فضلا عن اسم واحد هائل يتكون من اثنين وسبعين حرفًا حين ينطق به أحد تحمر السماء ويهوى


Twitter: @ketab_n

القمر وتهد الدنيا، فتمتلئ عينا «شوشا» بالتحذير قائلة:

- أريل، لا تنطق به أبدًا.

- كلا يا شوشيل، لا تخافى، لسوف أنجح فى ذلك كى تعيشى إلى الأبد.

## (٢)

لم أكن ألعب مع «شوشا» فحسب، بل كنت أطلعها أيضًا على ما لم أجرؤ على البوح به لأى مخلوق آخر فصورت لها كل ما حلمت به فى يقظتى أو تخيلته، وأسررت لها أنى أخط كتابًا طالما رأيته فى منامى، وأن كاتبًا قديمًا يخطه معى أيضًا على الرَّق بخط روسى، وأنى أعتقد أنى ألفته فى حياة سابقة، وكان والدى قد نهانى عن تصفح كتب القبالاة ونبهنى إلى أن من ينغمس فى القبالاة قبل سن الثلاثين يكون عرضة للوقوع فى الهرطقة أو الجنون، ولكنى أعتقد على أى حال أنى كنت نصف مارق ونصف مجنون، فقد قامت على رفوفنا كتب: الزوهار(١١)، وشجرة الحياة، وكتاب الخلق (أو النشأة)، وبستان الرمان، ومؤلفات قبالية أخرى، ووجدت تقويمًا به كثير من الحقائق المدونة عن الملوك والساسة وأصحاب الملايين والعلماء، وكثيرًا ما كانت أمى تطالع كتاب (العهد)، وهو مقتطفات مختارة حافلة بالمعلومات العلمية،


Twitter: @ketab_n

وفيه قرأت عن «أرشميدس»[١٢] و«كوبرنيكوس»[١٣] و«نيوتن»[١٤]، وعن الفلاسفة «أرسطو»[١٥] و«ديكارت»[١٦] و«ليبنتز»[١٧]، وكان الكاتب «رب إيليا»، وهو من فيلنا، قد اشتبك فى مجادلات طويلة مع المنكرين لوجود الله، ومع أنى نهيت عن كتابه فقد تحينت كل فرصة لقراءته، ومن ثم وقفت على آراء أولئك المنكرين، وأشار والدى يومًا إلى الفيلسوف «إسبينوزا»[١٨] - محا الله اسمه - ونظريته القائلة بأن الله هو العالم والعالم هو الله، فأحدثت هذه الكلمات اضطرابًا فى عقلى، فلو كان العالم هو الله لكان ذلك معناه أنى أنا الصبى «هارون» وثوبى الجبردين وطاقيتى المخملية وشعرى الأحمر وحذائى جزء من الألوهية، وكذلك تكون «باشيل» و«شوشا»، بل وأفكارى أيضًا، وفى ذلك اليوم ألقيت محاضرة على «شوشا» عن الفيلسوف «إسبينوزا» كما لو كنت قرأت كل مؤلفاته، وهى ترتب مجموعة أزرارها المموهة، ورغم تأكدى بأنها لم تفقه كلمة واحدة مما قلت، فقد سألتنى على أثر ذلك: هل «ليبل بونتز» إله كذلك؟ وكان «ليبل بونتز» مشهورًا فى فنائنا بالشراسة واللصوصية، وبالغش كذلك حين يلعب الورق مع الأولاد، وكان لديه - إلى ذلك - كل أنواع الحيل والمبررات لإيذاء طفل ضعيف والاعتداء عليه بالضرب، كأن يقترب منه قائلا: أخبرنى شخص ما أن مرفقى يصدر رائحة كريهة، فهلا صنعت فىَّ


Twitter: @ketab_n

معروفًا وشممته، وحين يتفضل الصبى الصغير عليه بذلك يعاجله بضربة شديدة فى أنفه، ومن ثم قضت فكرة أن «ليبل بونتز» جزء من الإله على تحمسى لفلسفة «إسبينوزا»، وطورت النظرية فى الحال بأن هناك إلهين: واحد خيرٌ وواحد شرير، وإلى الأخير ينتمى «ليبل بونتز»، وتقبلت «شوشا» صيغتى الجديدة عن طيب خاطر، وكان ثمة رجل يدعى «يوشع» تاجر رنجة - ويلقب بيوشع الفيلسوف - اعتاد أن يأتى كل يوم إلى بيت الدرس برادزمين، حيث يصلى والدى، وكان قصيرًا نحيفًا ذا لحية تجمع بين الأصفر والرمادى والبنى، يبيع الرنجة بنوعيها المملحة والمدخنة، وتخلل زوجته وبناته الخيار، وكان يصلى متأخرًا وبسرعة بالغة بعد أن ينصرف المتعبدون الآخرون، إذ يضع شال الصلاة والتمائم فى دقيقة ثم يخلعها فيما يبدو لى بعد دقيقة، وكنت قد توقفت عن الذهاب إلى الحدير لعدم قدرة والدى على الوفاء بأجر المعلم، وأصبحت قادرًا على قراءة صفحة من الجمارا بمفردى فى ذلك الوقت، ولذا كثيرًا ما ذهبت إلى بيت الدرس برادزمين للتحدث مع ذلك الرجل، إذ كان بارعًا فى المنطق، وقد حدثنى عن التناقض الظاهرى فى أقوال الفيلسوف «زينون»(١٩)، كما حدثنى عن إمكان تقسيم الذرة إلى ما لا نهاية من الوجهة الرياضية، مع أنها أصغر حجمًا من المادة كما يفترض، وشرح لى معنى كلمة «العالم الأصغر»


Twitter: @ketab_n

و«العالم الأكبر»[٢٠]، وتحدثت إلى «شوشا» عن هذا كله فى اليوم التالى، فأخبرتها أن كل ذرة هى عالم قائم بذاته يضم آلافًا مؤلفة من الكائنات الإنسانية الدقيقة والحيوانات والطيور، وأن فيه يهودًا وغير يهود، وأن البشر يشيدون المنازل والأبراج ويقيمون المدن والجسور دون أن يدركوا كم هى صغيرة إلى أبعد حد، ويتحدثون لغات متعددة، وختمت قولى بأن قطرة الماء الواحدة قد تحوى آلافًا لا تحصى من هذه العوالم، فسألتنى «شوشا»:

- ألا يغرقون؟

ولكى لا أعقد لها الأمور أجبتها:

- إنهم يجيدون السباحة جميعهم.

ولم يكن يمر يوم دون أن آتى «شوشا» بقصص جديدة، منها أنى اكتشفت شرابًا لو شربته هى لجعلها فى قوة «شمشون»، إذ شربته أنا من قبل، وأنى أصبحت من القوة بحيث أستطيع طرد الأتراك من الأرض المقدسة، وأصبح ملكًا على اليهود، وأنى قد عثرت على طاقية لو وضعتها على رأسها لجعلتها غير مرئية، وأنى على وشك أن أصبح فى حكمة الملك سليمان الذى تكلم لغة الطير، وحكيت لها عن ملكة سبأ التى جاءت لتتعلم الحكمة من الملك سليمان، وأحضرت معها عددًا كبيرًا من العبيد، فضلاً عن الجمال والحمير التى حملت الهدايا لحاكم إسرائيل،



Twitter: @ketab_n

وقبل أن تأتى أمر الملك سليمان أن تُبَدَّل أرضية القصر زجاجًا، فلما دخلت ظنت الزجاج ماءً، فشمرت إزارها، وكان الملك سليمان جالسًا على عرشه الذهبى، فرأى ساقيها، فقال:

- لقد اشتهرت بجمالك الفائق، ولكن لديك شعرًا على ساقيك كالرجل.

فسألتنى «شوشا»:

- أهذا حقيقى؟

- أجل، حقيقى.

فرفعت «شوشا» جُونِلتها لتنظر إلى ساقيها، فقلت:

- أنتِ أكثر جمالاً يا شوشا من ملكة سبأ.

ووعدتها أن أتخذها زوجة عندما أُمسح بالزيت وأجلس على عرش سليمان، وأن تكون هى الملكة، وتضع على رأسها تاجًا من الماس والزمرد والياقوت الأحمروالياقوت الأزرق، وتنحنى أمامها الزوجات الأخريات والسرارى ووجوههن إلى الأرض، فسألتنى:

- كم من الزوجات سوف تتخذ؟

- ألف زوجة بك.

- لماذا هذا العدد الكبير جدًا؟

- كان للملك سليمان ألف زوجة كما هو مدون فى نشيد الإنشاد(٢١).



Twitter: @ketab_n

- أهذا جائز؟

- للملك أن يصنع ما يشاء.

ـ إذا اتخذت ألف زوجة فلن يكون لديك وقت لى.

- لسوف يكون لدى وقت من أجلك دائمًا يا شوشيل، ولسوف تجلسين على العرش بجوارى، وتريحين قدميك على مسند من التوباز، وعندما يأتى المسيح فلسوف يعتلى كل اليهود سحابة تطير بهم إلى الأرض المقدسة ويصبح غير اليهود عبيدًا لليهود، ولسوف تغسل قدميك ابنة قائد.

فأخذت «شوشا» تضحك كاشفة عن أسنانها وقالت:

- أوه، سوف تتدغدغ قدماى.

لقد كان اليوم الذى انتقل فيه «زيلج» و«باشيل» من رقم (١٠) إلى رقم (٧) بشارع كروتشمالنا مثل يوم التاسع من آب[٢٢] بالنسبة لى، إذ وقع ذلك فجأة، ففى يوم سرقت جروشنًا[٢٣] من كيس نقود أمى، وابتعت به قطعة حلوى لشوشا من محل إستير للحلوى، وفى يوم بعد ذلك فتح الناقلون باب شقة «باشيل»، وأخرجوا خزانات الملابس والأريكة والسرر وأطباق عيد الفصح[٢٤] والأطباق المستعملة على مدار العام كله، ولم تتح لى حتى فرصة وداع الأسرة بكلمة، والواقع أنى كنت قد كبرت على مصادقة فتاة، ولم



Twitter: @ketab_n

أعـــد أدرس الجـــمـــارا فـــحـــسب، بل ودرست التـوسافـوت[٢٥] أيضًا، وفى صباح يوم انتقالهم كنت أطالع مع والدى كتاب «مساعد الكهنة» للحاخام تشنينا، وأُلقى نظرة على الشارع من آن لآخـر، إذ وُضعت مقتنيات «باشيل» على عربة مسطحة مشدودة إلى جـوادين بلجيكيين، وحملت هى «رتيبل»،، ومن خلف العربة سارت «شوشا» و«بيى»، وكانت المسافة من رقم (١٠) إلى رقم (٧) مبنيين فقط، ومع ذلك أدركت أن ذلك يعنى النهاية، فقد كان التسلل من شقتنا والمروق بسرعة من صالة مظلمة والطرق على باب «شوشا» شيئًا واحدًا متصلاً، أما القيام بزيارة فى مبنى غريب فشىء آخر تمامًا، إذ كان أفراد الجماعة التى تدفع لوالدى مكافأته الأسبوعية متيقظين دائمًا ومستعدين لتسقّط هفوات أولاده، وفى صيف عام ١٩١٤ بعد مرور شهر على ذلك أطلق صربى النار على ولى عهد النمسا وزوجته، ولم يلبث القيصر أن حشد كل قواته المسلحة، وشاهدت الرجال الذين كانوا يتعبدون فى حجرة جلوسنا يوم السبت وهم يمرون من أمام منزلنا بأزرار لامعة مستديرة على طيات صدور ستراتهم إشارة إلى أنهم قد أُستدعوا للقتال ضد الألمان والنمساويين والإيطاليين، ودخل رجال الشرطة حانة «إليعازر» برقم (١٧)، وأفرغوا كل مالديه من فودكا فى البالوعة، ففى زمن الحرب يجب أن يكون المواطنون متيقظين متمالكين


Twitter: @ketab_n

لقواهم العقلية، ورفض أصحاب الدكاكين بيع السلع مقابل نقود ورقية، وطلبوا عملات فضية أو قطع ذهب، وأبقوا أبواب الدكاكين نصف مغلقة، وسمحوا للزبائن الذين يحملون هذه العملات أو القطع فقط بالدخول، وبدأنا بعد قليل نعانى الجوع فى منزلنا، وفى الفترة بين الاغتيال الذى حدث فى سراييڤو واندلاع الحرب قامت كثير من ربات البيوت الثريات بتخزين الدقيق والأرز والفاصوليا والبرغل فى حجرات المئونة فى حين انشغلت أمى بقراءة كتب الأخلاق، فضلا عن أنه لم يكن لدينا نقود، فقد توقف اليهود فى شارعنا عن الدفع لأبى، ولم يعد هناك مزيد من الأفراح أو الطلاق أو الدعاوى القضائية فى قاعة محكمته، وامتدت طوابير طويلة أمام المخابز من أجل رغيف خبز، وارتفع ثمن اللحم ارتفاعًا باهظًا، ووقف الجزارون والسكاكين فى أيديهم فى سوق «ياناش» يترقبون امرأة معها دجاجة أو بطة أو إوزة، وطفق ثمن الطيور يرتفع من يوم إلى يوم، ولم يعد من المستطاع شراء الرنجة على الإطلاق، وبدأت ربات المنازل تستخدم زبدة الكاكاو بدلاً من السمن، وكان ثمة نقص فى الكيروسين، وبعد عيد المظال[٢٦] بدأ المطر والثلج والصقيع، ولم نعد قادرين على شراء الفحم لتسخين الفرن، وكف شقيقى «موشيه» عن الذهاب إلى الحدير، لأن حذاءه تمزق، فأصبح أبي معلمًا له، وكانت الأسابيع تمر دون أن نذوق اللحم



Twitter: @ketab_n

حتى فى يوم السبت، وكنا نشرب الشاى الخفيف بدون سكر، وعلمنا من الصحف أن الألمان والنمساويين قد غزوا كثيرًا من المدن والقرى فى بولندا، ومن بينها مدن وقرى يسكنها أقاربنا، وأصدر العم الأكبر للقيصر والقائد العام «نيقولاى نيقولائيفتش» مرسومًا بإقصاء كل اليهود عن المناطق الواقعة خلف الجبهة باعتبارهم جواسيس للألمان، وغصت الشوارع اليهودية فى وارسو بآلاف النازحين، فكانوا ينامون فى منازل الدرس، بل والمعابد اليهودية أيضًا، ولم يمض وقت طويل قبل أن نبدأ فى سماع طلقات المدافع الثقيلة، وشن الألمان هجومًا عند نهر «بزورا»، وقاد الروس هجومًا مضادًا، وكان زجاج نوافذ شقتنا يهتز ليل نهار.

## (٣)

غادرت أسرتنا (وارسو) صيف عام ١٩١٧، وانتقل والداى إلى قرية يحتلها النمساويون، لأن الطعام هناك كان أرخص، وكان لأمى أقارب فى ذلك الجزء من الريف، فضلاً عن أن مدينة (وارسو) كانت على شفا الخراب، إذ استمرت الحرب من قبل ثلاث سنوات، وقام الروس بتحريرها، وعند انسحابهم نسفوا جسر براغ، وخسر الألمان، الذين كانوا يسيطرون على بولندا المعركة فى الجبهة الغربية، وتركوا السكان يموتون جوعًا، فلم يكن لدينا قط ما


Twitter: @ketab_n

يكفى لنأكله، وقبل أن نرحل عنها - أى وارسو - سقط «موشيه» مريضًا، ونُقل إلى مستشفى الأمراض الوبائية فى شارع بوكورنا، ونُقلت أنا وأمى إلى محطة تطهير فى شارع سيزليفا بالقرب من الجبانة اليهودية، فحلقوا لى خُصل الأذن، وأطعمونى حساء له نكهة لحم الخنزير، وكان هذان الأمران بالنسبة لى - أنا ابن الحاخام - كارثتين دينيتين، كما أمرتنى أيضًا ممرضة غير يهودية بأن أتجرد من ملابسى تمامًا، وأعطتنى حمامًا، وعندما دعكتنى بالصابون دغدغت أصابعها جسمى فأحسست بما يشبه الضحك والبكاء معًا، ولابد أنى وقعت فى يد «ليلت»[٢٧] شريرة أرسلها زوجها «أسموديس» لتفسد طلاب المعهد التلمودى وتجرهم إلى هاوية الدنس، وعندما رأيت نفسى فى المرآة فيما بعد، ولمحت صورتى بدون خُصل الأذن والرداء الشعائرى، وقد ارتديت نوعًا من برنس الحمام لم أره من قبل على صبى يهودى، ووضعت فى قدمى قبقابًا خشبيًا، فلم أعرف نفسى، ولم أعد على الصورة التى صاغنى الله عليها وقلت لنفسى إن ما حدث فى ذلك اليوم لم يكن مجرد نتيجة للحرب أو القرارات الألمانية، بل على الأرجح عقاب على خطاياى وتزعزع إيمانى، فلقد قرأت خلسة أعمال «مندلى موخير سفوريم»[٢٨] و«شالوم عليخيم»[٢٩] و«بيريتس»[٣٠]، واطلعت على ترجمات ييدية أو عبرية لـ «تولستوى»[٣١]، و«دوستوفسكى»[٣٢] و«سترندبرج»[٣٣]



Twitter: @ketab_n

و«كنوت همسن»،[٣٤] كما اطلعت على الترجمة العبرية التى اضطلع بها الدكتور «شلومو روبن» لكتاب «الأخلاق» لإسبينوزا»، وإلى ذلك درست بدقة التاريخ الميسر للفلسفة، وعلمت نفسى الألمانية - وهى تشبه اليدية إلى حد كبير - وقرأت الأخوين «جريم»[٣٥] و«هينى»[٣٦] بلغتهم الأصلية، وكل ما وضعت يدى عليه، وأخفيتُ ذلك عن والدى، وفى وقت معاصر لوجود الجنود الألمان غزا التنوير شارع كروتشمالنا، وسمعت عن «داروين»[٣٧] ولم أعد واثقًا من المعجزات الواردة فى «مجمع القديسين»، ومنذ اندلاع الحرب فى يوم التاسع من آب كانت الجريدة اليدية ترد إلى منزلنا يوميًا، فقرأت فيها عن الصهيونية والاشتراكية، وفى وقت لاحق عن جلاء الروس وتوقفت الرقابة الروسية على المطبوعات فقرأت سلسلة مقالات عن «راسبوتين»[٣٨]. وفى تلك الآونة اجتاحت الثورة روسيا وعُزِل القيصر، وحفلت الأنباء بالصراعات والنزاعات بين الثوريين الاشتراكيين: المناشفة[٣٩] والبلاشفة[٤٠]، والفوضويين، وبزغت أسماء جديدة وأفكار غير مألوفة،واستوعبت كل هذا بنهم لا يعرف الشبع، وفى السنوات من ١٩١٤ إلى ١٩١٧ لم أر «شوشا»،ولم أقابلها مرة واحدة فى الشارع لا هى ولا غيرها من الأطفال، واشتد عودى، وقضيت فصلاً دراسيًا فى معهد سوتشازوف التلمودى، فضلاً عن فصل دراسى آخر فى «رادزمين»،


Twitter: @ketab_n

وأصبح والدى حاخامًا فى قرية صغيرة بجاليشيا، وبدأت أكسب قوتى، على أنى لم أنس «شوشا» قط، وكنت أحلم بها فى الليل فتبدو لى حية وميتة معًا، وأرانى ألعب معها فى حديقة هى مقبرة كذلك، وتنضم إلينا الفتيات الميتات وهن يلبسن أردية هى أكفان مزخرفة، ويرقصن فى دوائر، ويرددن الأغانى والأهازيج، ويتأرجحن، ويتزحلقن، ويحلقن فى الهواء أحيانًا، وأتمشى أنا و«شوشا» فى غابة من أشجار عملاقة تصل إلى السماء، وكان ثمة طيور تختلف عن أى طيور أعرفها، فهى ضخمة كالنسور وملونة كالببغاوات، وتتحدث اليدية، ومن الأدغال المحيطة بالحديقة تظهر وحوش لها أوجه آدمية، وتستقبلنى «شوشا» فى هذه الحديقة، وبدلا من أن ألفت أنا نظرها وأشرح لها كما كنت أصنع فى الماضى تكشف لى هى عن أمور أجهلها، وتهمس فى أذنى بأسرار وقد طال شعرها حتى خاصرتها، وتلألأت بشرتها كعرق اللؤلؤ، وكنت أستيقظ دائمًا من هذا الحلم وفى فمى مذاق حلو، وانطباع فى ذهنى بأن «شوشا» لم تعد حية، وقلما فكرت فيها وأنا مستيقظ خلال سنوات تجوالى فى قرى بولندا للإنفاق على نفسى عن طريق تعليم العبرية، وقد أغرمت بفتاة لم يسمح لى والداها بالاقتراب منها، وبدأت أكتب العبرية ثم تحولت إلى اليدية، ورفض رؤساء تحرير الصحف كل ما قدمته لهم، ولم يلح لى أنى سأجد الأسلوب الذى


Twitter: @ketab_n

يخلق لى مجالا أدبيًا يخصنى وحدى ويميزنى عمن سواى، فتخليت عن الأدب وأنا مثبط الهمة، وركزت عنايتى على الفلسفة، على أنى لم أجد فيها ما كنت أنشده، فأدركت أنى لابد أن أعود إلى «وارسو»، بيد أن القوى التى توجه مصير الإنسان كانت تقذفنى إلى القرى الموحلة مرة تلو مرة، وفكرت كثيرًا فى الانتحار، وعندما نجحت فى الوصول إلى المدينة أخيرًا للحصول على عمل - كمصحح تجارب ومترجم، ودعيت إلى نادى الكُتَّاب كضيف أولا، ثم كعضو أحسست بأنى كمن أفاق من غيبوبة، ومرت السنون دون أن أدرى، وقد حقق أقرانى من الكتاب الشهرة والمجد وأنا مازلت مبتدئًا، وكان أبى قد توفى وتفرقت مخطوطاته، وضاعت مثلما حدث لمخطوطاتى، وإن كان هو قد نجح فى نشر كتيب واحد، وفى وارسو بدأت علاقة غرامية مع «دورا ستولينتز»، وهى فتاة كان هدفها أن تستقر فى روسيا السوفيتية: أرض الاشتراكية، وقد علمت فيما بعد أنها موظفة فى الحزب الشيوعى، قبض عليها مرات عديدة، وقضت شهورًا فى «بافياك» وسجون أخرى، وكنت أنا لست شيوعيًا وضد كل ماينتهى بالياء والتاء المربوطة، إلا أنى عشت فى خوف دائم من القبض علىَّ وإيداعى السجن لصلتى بهذه الفتاة التى بدأت أنفر منها فيما بعد بسبب شعاراتها الجوفاء وعباراتها الطنانة المبتذلة عن «المستقبل السعيد» و«الغد المشرق»، وكانت


Twitter: @ketab_n

الشوارع اليهودية التى تجولت فيها حينذاك قريبة من شارع كروتشمالنا، بيد أنى لم أقترب منه قط، وقلت لنفسى إنه لا توجد بصراحة مناسبة للتوغل فى هذا القسم من المدينة، والحقيقة أنه كانت توجد أسباب أخرى هى التى دعتنى إلى عدم الاقتراب، فقد سمعت أن نصف المقيمين فى الشارع ماتوا من أوبئة التيفويد والأنفلونزا والجوع، وأن الصبية الذين كنت أذهب معهم إلى الحدير خدموا فى الجيش البولندى وقتلوا فى الحرب البولندية البلشفية عام ١٩٢٠، وأن شارع كروتشمالنا أصبح فيما بعد مرتعًا للشيوعية، وأن ثمة مظاهرات شيوعية دائمًا فى المناطق المجاورة، وأن الشبان الشيوعيين علقوا أعلامًا حمراء فوق أسلاك التليفون والترام، بل ونوافذ قسم الشرطة أيضًا، وفى (الميدان): الساحة الممتدة بين رقم (٩) ورقم (١٣)، وفى الوكر الذى يقيم فيه اللصوص والقوادون والعاهرات يخططون الآن لإقرار دكتاتورية الرفيق ستالين، وتداهمهم الشرطة دومًا، فما عاد هذا شارعى، وما من أحد فيه سيذكرنى أو يذكر عائلتى، وحين كنت أفكر فيه يعترينى إحساس غريب بأن تجربتى تؤلف شيئًا قد اندثر من العالم، وأبدو كما لو كنت رجلاً عجوزًا مع أنى فى العقد الثالث من عمرى، إن شارع كروتشمالنا مثل طبقة عميقة فى موقع أثرى هيهات أن أزيح ما تراكم عليها أبدًا، وأنا فى الوقت نفسه أذكر كل منزل وفناء وحدير ومنزل درس


Twitter: @ketab_n

حسيدى وكل فتاة ومتسكع وربة منزل - الصوت، الإيماءة، طريقة الكلام، الصفة المميزة، وأعتقد أن هدف الأدب هو أن يمنع الزمن من التلاشى، وإن كان زمنى الذى يخصنى قد بددته، لقد انقضت العشرينيات وأقبلت الثلاثينيات وأصبح «هتلر» حاكمًا بسرعة على ألمانيا، وبدأت عمليات التطهير السياسى فى روسيا، وأنشأ «بيلسدسكى»[٤١] دكتاتورية عسكرية فى بولندا، ولسنوات خلت قررت أمريكا حصة المهاجر، ورفضت قنصليات كل دول العالم تقريبًا إصدار تأشيرات دخول لليهود، وتقطعت بى الأسباب فى بلد مضغوط بين عدوين قويين، وأنا ملتصق بلغة وثقافة لا يعرفهما أحد خارج دائرة محدودة من اليديين والراديكاليين، وحمدًا لله أن وجدت أصدقاء بين أعضاء نادى الكُتَّاب ومحيطه، كان أروعهم جميعًا الدكتور «فيتلزوهن» الذى يعتبره الكثيرون عبقريًا.


Twitter: @ketab_n

# الفصل الثانى

## (١)

لم يكن الدكتور «فيتلزوهن» معروفًا على نطاق واسع، لأن مؤلفاته الفلسفية - وكان بعضها مكتوبًا بالألمانية وبعضها الآخر بالعبرية أو اليدية - لم تترجم إلى الإنجليزية أو الفرنسية؛ ولهذا لم أعثر على اسمه فى أى معجم فلسفى إلى يومنا هذا، كما أن مؤلفه «هرمونات روحية» قد لقى أيضًا نقدًا لاذعًا فى ألمانيا وسويسرا، وكان صديقًا لى وإن كان يكبرنى بنحو خمسة وعشرين عامًا، وكان فى وسعه أن يصبح مشهورًا لو أنه لم يبدد طاقاته، وذلك لغزارة علمه وسعة معرفته، وكان محاضرًا فى جامعة «برن» بعض الوقت، وابتدع المصطلحات العبرية الدقيقة للفلسفة الحديثة، ولو أنه كرمى نفسه للفن أخلص له، وجاء أحد النقاد ليضفه لوضعه فى أعلى مرتبة، أما فيما يتعلق به كإنسان فكان محدثًا بارعًا نعِم بنجاح غريب مع النساء، على أن هذا الدكتور نفسه كان يقترض منى مرارًا خمسة زلوتات[٤٢] فى اتحاد الكتاب، ولم يكن موفقا مع الصحافة اليدية فى وارسو، حيث



Twitter: @ketab_n

تتأخر مقالاته المقبولة أسابيع، ويعدل رؤساء التحرير أسلوبه ويحرفونه، وهم يتلمسون مواضع الخلل فى عمله وأسباب النقص، وكان ثمة أقاويل كثيرة عنه، منها أنه ابن حاخام فرَّ من المنزل، وأصبح لا أدريًا[٤٣]، وأنه طلق ثلاث زوجات، وأنه يبدل عشيقاته باستمرار، وأخبرنى شخص عنه أنه أسلم عشيقة له إلى سائح أمريكى ثرى مقابل خمسمائة دولار، ووصفه صاحب الحكاية بالدجَّال، بيد أن أكثر من شوه سمعة «فيتلزوهن» هو فيتلزوهن نفسه، إذ جعل يتباهى بمغامراته، وقد لاحظت أنه إذا ما جمع شخص بين «آرثر شوبنهور»[٤٤] و«أوسكار وايلد»[٤٥] و«سليمان بن ميمون»، ختمهم بـ «موريس فيتلزوهن»، ويجب أن أضم إليهم الحاخام «كوتزك»، لأن «فيتلزوهن» بالقياس إلى منهجه فى الحياة يعد صوفيًا وحسيديًا، وكان «فيتلزوهن» ربعة وعريض المنكبين وذا وجه مربع وحاجبين كثيفين مقرونين فوق قصبة أنفه العريض، وذا شفتين ممتلئتين يبرز من بينهما سيجار دائمًا، ومن ثمة تندروا عليه فى اتحاد الكتاب بأنه ينام والسيجار فى فمه، وكانت عيناه سوداوين تقريبًا، وإن كنت أرى فيهما أحيانًا لمعانًا أخضر، وقد بدأ شعره فى ذلك الحين ينحسر عن رأسه، ومع فقره كان يرتدى بذلات إنجليزية وربطات عنق غالية الثمن، ولم يكن يمتدح أحدًا فى حديثه، وكان يسخر من هيئات مشاهير العالم، وبالرغم من


Twitter: @ketab_n

أنه كان ناقدًا قاسيًا فقد تبين فىَّ موهبة أدبية، وحينما كاشفنى بذلك أثار فىَّ روح الصداقة التى تكاد تبلغ حد الافتتان الشديد، على أن ذلك لم يمنعنى من رؤية أخطائه وعيوبه والتجاسر أحيانا على تعنيفه، على أنه كان يقول فحسب:

- لا فائدة مما تقوله، فلسوف أموت مغامرًا.

ومثل كل مطاردى النساء كان يعلن عن نجاحه، فعندما دخلت حجرته المفروشة فى إحدى المرات أشار إلى الأريكة قائلا:

- لو علمت فقط من رقد هنا أمس لأغمى عليك.

- سأعلم حالاً.

- كيف؟

- ستخبرنى أنت.

- إذًا، فأنت كلبى(٤٦) أكثر منى.

وأخبرنى.

ومن الغريب أن «موريس فيتلزوهن» كان يتحدث بحرارة بالغة عن الحكمة الموجودة فى (واجب القلوب) و(طريق الصلاح) وعن بعض الكتب الحسيدية، وألف كتابًا فى القبالاة، ويحب على طريقته الخاصة اليهودى الورع ويعجب بإيمانه وقدرته على مقاومة الإغراء، إذ قال لى ذات مرة:


Twitter: @ketab_n

- إنى أحب اليهود، وإن كنت لا أستطيع الوقوف إلى جانبهم أو مساندتهم، إن أى نشوء أو تطور لا يستطيع أن يخلقهم، وهم فى نظرى البرهان الوحيد على وجود الله.

وكانت «سيليا شنتشينر» إحدى المعجبات بـ «فيتلزوهن» وكان زوجها «هايمل» ينحدر من صلب «رب صمويل زبيتكوفر» المليونير الشهير الذى تنازل خلال الانتفاضة القوزاقية عن مبلغ ضخم لإنقاذ يهود براغ من قيصر القوزاق، وكان والد هايمل «رب جابرييل» يمتلك منازل فى وارسو ولودز، وكان «هايمل» ولده الوحيد يقضى نصف كل نهار مع معلم تلمودى فى منزل درس «سوتشازوف» والنصف الآخر فى محاولة تعلم اللغات - الروسية حتى عام ١٩١٥ والألمانية بعد احتلال الألمان وارسو، والبولندية بعد عام ١٩١٩ حينما تحررت بولندا، على أنه تعلم لغة واحدة فحسب هى اليدية -، وكان يحب أن يتبادل الرأى مع «فيتلزوهن» بشأن «داروين» و«ماركس»[٤٧] و«إينشتاين»[٤٨]، إذ قرأ عنهم جميعًا باليدية، ولم يكن يشغل نفسه بأسباب العيش، لضعف نموه وهزاله، وكنت أرى أحيانًا أنه لا توجد تجارة تناسبه أو عمل، وحتى شرب الشاى ليس سهلاً بالنسبة له، إذ كانت تنقصه المهارة اللازمة لقطع شريحة ليمون، وهو ما تضطر «سيليا» إلى أن تقوم به نيابة عنه، لقد كان


Twitter: @ketab_n

قادرًا فحسب على حب والده وزوجته حبًا طفوليًا، ولم تكن أمه على قيد الحياة، فاتخذ «رب جابرييل» زوجة ثانية، ولم أكن أجرؤ على ذكر اسمها أمام «هايمل» فقد سألته مرة عنها فاعتراه شحوب، ووضع يده الصغيرة على فمى وصاح بشدة:

- لا تتكلم! لا تتكلم! لا تتكلم! إن أمى على قيد الحياة.

وكانت «سيليا» قصيرة كذلك، ولكنها أطول منه، وقريبته من جهة الأم، وهى يتيمة تربت فى منزل «جابرييل»، فافتتن بها «هايمل» وهو لا يزال فى الحدير، وحين كان لا يريد أن يأكل تطعمه هى بيدها، وحين كان يدرس الروسية والألمانية والبولندية تدرس هى معه، ولما لم يتعلم شيئًا من هذه اللغات اقتدت به، وقد تم زواجهما إلى بعضهما حينما رقدت أمه فى فراش الموت، وفى الوقت الذى التقيت فيه الزوجين كانا فى أواخر العقد الرابع من عمرهما، وكان «هايمل» يبدو كصبى حدير قد ارتدى بذلة رجل ووضع ياقة منشاة وربطة عنق، ويتكلم بصوت عالٍ، ويصدر حركات مثل الأطفال، ويضحك ضحكة مصحوبة بصرخة وينفجر باكيًا عندما لا تسير الأمور وفق هواه، وكان ذا عينين سوداوين وأنف صغير وفم واسع حافل بالأسنان المسوسة، وكان الطوق الأسود حول رأسه الأصلع تتدلى منه حزم خيوط، وكان


Twitter: @ketab_n

يخاف الحلاقين فتقص له «سيليا» شعره، وتقلم أظافره أيضًا، وكانت هى تعتبر نفسها ملحدة، وإن بقيت آثار من تربيتها الحسيدية، وتختار فساتين ذات أكمام طويلة وياقات عالية، وترفع شعرها الأسود الطويل على هيئة كعكة غير مألوفة، وكانت شاحبة الوجه ذات عينين بنيتين وأنف مستقيم وشفتين رقيقتين، وتنتقل فى خفة الفتاة من مكان إلى آخر، واعتاد «هايمل» أن يدعوها «إمبراطورتى»، وقد أنجبت له بنتا ماتت وهى فى سن الثانية، وذات مرة قال لها «فيتلزوهن» إن موت الطفلة ينطوى على تدبير إلهى حكيم، لأن لديها طفلا من قبل هو «هايمل»، وكان «فيتلزوهن» يمثل الدنيا الواسعة والثقافة الأوروبية فى نظر «سيليا» و«هايمل»، وليس مطلوبًا منه أن يقاسى الحاجة والحرمان؛ ولهذا كانا يقترحان عليه أن ينتقل معهما إلى شقتهما الكبيرة فى شارع «زلوتا»، ولكنه رفض، وقال لى فى هذا الشأن:

- إن كل جوانب الضعف والانحراف لدَّى ناشئة عن إصرارى الشديد على الحرية المطلقة وتمسكى بها، وهذه الحرية المزعومة حولتنى إلى عبد.

(٢)

كثيرًا ما دعانى آل «شنتشينر» إلى العشاء أو الغداء أو كوب شاى، لأن «فيتلزوهن» امتدحنى لديهم،


Twitter: @ketab_n

وعندما يكون هو حاضرًا لا يتكلم أحد سواه، ونقتنع نحن جميعًا بالإصغاء إليه، إذ طاف بكل أنحاء العالم، وعرف كل شخصية يهودية مهمة بصورة عملية مثلما عرف كثيرًا من العلماء والكتاب والفلاسفة الإنسانيين من غير اليهود، واعتاد «هايمل» أن يقول عنه إنه دائرة معارف حية، ومن حين إلى آخر كان «فيتلزوهن» يلقى محاضرات فى نادى الكتاب بوارسو والأقاليم، أو حين يقوم برحلات قصيرة إلى الخارج، وفى هذه المناسبات كانت تتاح لى أنا و«هايمل» و«سيليا» فرصة التحدث فيما بيننا، وكان «هايمل» يحب الأوبرا ويهتم بالفن ويحضر المعارض، ويشترى اللوحات الزيتية، ومع أن التعكيبية(٤٩) والتعبيرية(٥٠) كانتا هما الاتجاه السائد فى الفن لسنوات كثيرة، فقد كان يحب المناظر الطبيعية للغابات والمروج والجداول والأكواخ نصف المخفاة خلف الأشجار، حيث يمكن للمرء - فى رأيه - أن يتخفى من أعين «هتلر» الذى طفق يهدد بغزو بولندا، وأنا أيضًا كان لدى أخيلة جامحة عن منزل فى الغابات أو على جزيرة لأكون فى مأمن من النازيين، وكانت «سيليا» تميل إلى الأدب، وتشترى تقريبًا كل كتاب جديد يصدر بالبولندية أو الييدية وتقرؤه، فضلا عما يترجم من اللغات الأخرى، وتتمتع بذوق نقدى مرهف، وكثيرًا ما عجبت كيف لهذه المرأة التى لم تتلق أى قسط من التعليم النظامى أن تقوِّم بدقة لا الأدب الخالص فحسب، بل والأعمال العلمية


Twitter: @ketab_n

أيضًا، وكنت أعنى بآرائها فيما أكتب، وذلك لصحتها وبراعتها ومناسبتها، وذات مرة دعتنى إلى شقتها فى المساء عندما كان «هايمل» غائبًا لحضور مؤتمر صهيون العمالى[٥١]، وتحدثنا طويلاً إلى حد اطلاعى على سر فحواه أنها على علاقة غرامية بموريس فيتلزوهن، وفى ذلك المساء أدركت أن «سيليا» لديها نفس الحاجة إلى الاعتراف ككل شخص آخر، وحينما تطرق الحديث إلى مطارحة الهوى كانت صريحة معى تماماً بشأن حقيقة أن «هايمل» غر كالطفل يفتقد الخبرة، وفى حاجة إلى أم لا زوجة، فى حين أنها متلهبة الدماء سريعة الاهتياج، وقالت:

- إنى أحب الرجل الرقيق المهذب، أما فى الفراش فلا.

ولقد صعقنى هذا القول الصادر من امرأة محافظة فى ملبسها وسلوكها تراقب كل كلمة تصدر عنها أكثر مما صعقتنى حقيقة أنها تخون هايمل، وأصبح حديثنا ينطوى على الألفة والصراحة التامة، وخلاصة ما قالته: إن الأدب والمسرح والموسيقى وحتى الروايات المنشورة فى الصحف تثيرها جنسيًا، ومع ذلك تملى عليها طبيعتها فى الوقت نفسه أن تمنح نفسها فحسب لمن تهفو هى إليه، ويكفيها أن يتفوه رجل بشىء من الحماقة أو يظهر ضعفًا أو استكانة حتى تنفر منه، وكذلك قالت: فى وسعى أن أكون


Twitter: @ketab_n

سعيدة مع فيتلزوهن، ولكنه أسوأ كذاب قابلته فى حياتى، فقد خدعنى مرات كثيرة بمعسول كلامه ومظهره الكاذب حتى أفقدنى احترامى لنفسى، ومع ذلك مازلت أصدقه أحيانًا، فلديه قوى تنويم مغناطيسى، فى وسعه أن يكون «مسمر»[٥٢] عصرنا أو «سفنجالى»[٥٣]، لو أقنعت نفسك بأنك تعرفه فأنت تخدع نفسك فحسب، فى كل مرة أقول فيها لنفسى إن هذا الرجل لم يعد يحيرنى أتلقى صدمة جديدة، هل تعلم بأنه يؤمن بالخرافات إلى درجة تنافى العقل؟ فهو يرتعب من القطط السوداء، وعندما يكون فى طريقه لإلقاء محاضرة ويصادف شخصًا يحمل إناءً فارغًا يولى الأدبار، وهو يحمل كل صنوف التمائم والتعاويذ، وحينما يعطس يشد أذنه، وهناك ألفاظ معينة لا تستطيع أن تستعملها فى حضوره، هل حاولت من قبل أن تناقشه فى الموت؟ إن له أساليب شاذة فى التفكير أكثر مما فى الرمانة من بذور، فهو يعتبر كل النساء ساحرات، ويذهب إلى العرَّافين ليخبروه إن كان سوف يقوم برحلة طويلة أم لا، وإن كان سيلتقى بامرأة سوداء، وبالتصرفاته المتناقضة! إنه يخرق كل قاعدة فى الـ (شولحان عاروخ)[٥٤]، ويبشر فى الوقت نفسه باليهودية، وله زوجة لم يطلقها، وابنة لم يرها منذ سنوات، وحينما ماتت أمه لم يذهب إلى جنازتها.



Twitter: @ketab_n

إنى لأذكر ذلك المساء والأشياء التى قالتها لى «سيليا»، فقد كان هذا بداية علاقتنا الحميمة، ولقد خامرنى شعور بأنها تريد الانتقام لنفسها من «فيتلزوهن» من خلالى بسبب علاقاته الغرامية بالنساء الأخريات، فكدت أعانقها، وأهمس فى أذنها بالأكاذيب الناعمة التى ترد إلى الشفاه فى مثل هذه المناسبات، بيد أنى كنت واثقًا أن «فيتلزوهن» يملك قوى استبصار؛ فكثيرًا ما هممت بقول شىء ما، فإذا هو ينتزعه من فمى مباشرة؛ ولهذا حولت حديثى معها إلى وجهة أخرى، فبدت عيناها كأنما تسألانى: أتراك فزعت؟ هيه، نعم، لقد فهمت.

وبعد قليل دق جرس الباب، وكان القادم «هايمل»، إذ أُلغى المؤتمر لعدم حضور النصاب المقرر، وإذ أقبل الشتاء كان يرتدى معطفًا من الفراء ويلبس حذاءً من الفراء ذا ساق طويلة، وقبعة من الفراء تشبه القبعة الحاخامية، فبدت هيئته مضحكة للغاية، حتى لقد منعت نفسى من الضحك بجهد، وقالت «سيليا»:

- هايمل، إن صديقنا الشاب الموجود هنا خجلان كأنه ترك المعهد الدينى أمس فقط، حاولت أن أغويه، ولكنه لا يتعاون معى.

فقال «هايمل»:

- ما الذى يدعو إلى الخجل؟ لقد خُلقنا جميعًا من جبلة واحدة، ونحس جميعًا بنفس الرغبات الملحة، ألا تجد سيليا جذّابة؟


Twitter: @ketab_n

- جذَّابة وذكية معًا.

- إذًا، فما المشكلة؟ قبَّلها.

فقالت «سيليا»:

- تعالى يا صبى المعهد الدينى، وأعطنى قبلة قوية، إنه يكتب كراشد، على أنه مازال طفلا، إنه فى الحقيقة لغز.

وأضافت بعد قليل:

- لدى اسم له هو تسوتسك، سأدعوه به من الآن فصاعدًا.

## (٣)

كان الدكتور «موريس فيتلزوهن» قد قضى السنوات الواقعة بين عامى ١٩٢٠، ١٩٢٦ فى أمريكا، حيث كان عضوًا فى هيئة تحرير جريدة ييدية بنيويورك، وقائمًا بتدريس بعض المقررات التعليمية فى كلية محلية، ولم أقف بالضبط على السبب الذى دعاه إلى ترك الأرض الذهبية، وفى كل مرة سألته عن ذلك أجابنى إجابة مختلفة، منها أنه لم يحتمل طقس نيويورك، وعانى هناك من حمى القش وحمى الورد وأمراض الحساسية، أو أنه لم يطق المادية الأمريكية وتبجيل الدولار، وأشار من طرف خفى كذلك إلى ورطات عاطفية، وقد سمعت أن الكُتاب فى الجريدة



Twitter: @ketab_n

تآمروا عليه وفُصل، وأنه كانت لديه مشاكل كذلك فى الكلية التى يحاضر بها، وكثيرًا ما أشار فى أحاديثه معى إلى المسرح الييدى فى نيويورك، وإلى مقهى «رويال»، حيث يجتمع مفكرو المدينة الييديون، والقادة الصهيونيون هناك مثل «ستيفن وايز» و«لويس ليبسكى» و«شماريا ليفن»، وعلى الرغم من نفوره الواضح دائمًا نحو أمريكا والأمريكيين، فلم يقطع علاقاته بهم، فقد كان صديقًا لمخرج «هياس» بوارسو، ومعروفًا فى القنصلية الأمريكية، وكان السياح الذين سبق لهم أن عرفوه فى نيويورك أو أوصاه أصدقاؤه الأمريكيون بمساعدتهم - يأتون إلى بولندا، فيحضرهم هو إلى نادى الكُتَّاب ويقوم بدور المرشد لهم، وقد أكد لى أنه لم يأخذ أى نقود من أولئك الأمريكيين، على أنى علمت أنه كان يذهب معهم إلى مطاعم الدرجة الأولى وإلى المسارح والمتاحف والحفلات الموسيقية، وأنهم كثيرًا ما تركوا له ربطات عنق وهدايا أخرى وقد اعترف لى هو بأن أحد كبار موظفى القنصلية الأمريكية يمكن إعطاؤه رشوة ليساعد فى الحصول على تأشيرات لحاخامات وأساتذة مزعومين وأقارب زائفين خارج الحصة المقررة، وأن طريقة نقل الرشوة هى لعب البوكر والسماح للموظف - المرتشى - أن يربح مبلغًا كبيرًا من النقود، وكان الوسيط، وهو مراسل صحف أجنبى فى وارسو، يتقاضى نسبة عن وساطته، والحقيقة أن


Twitter: @ketab_n

بقاء «فيتلزوهن» أعوز ومضطرًا إلى اقتراض بضعة زلوتات من فقير زرى الملبس مثلى بالرغم من كل هذه العلاقات لهو دليل على صدقه فى الأساس.

كان ذلك الشتاء بالنسبة إلىَّ واحدًا من أقسى فصول الشتاء التى عرفتها فى الثلاثينيات منذ أن غادرت منزل والدىَّ، فقد كادت تحتجب المجلة الأدبية التى أقرأ بروفتها لمدة يومين فى الأسبوع، وواجه الناشر الذى يطبع ترجماتى خطر الإفلاس، وكنت أستأجر حجرة من الباطن من أسرة أرادت فى ذلك الوقت التخلص منى، فأكثر من مرة يتصل بى الناس تليفونيًا فيخبرونهم أنى بالخارج حتى لو كنت فى حجرتى، وكنت أضطر إلى المرور من حجرة الجلوس لكى أذهب إلى الحمام، وكثيرًا ما كان الباب المؤدى إلى تلك الحجرة مغلقًا بالليل، لهذا نويت الانتقال خلال أسابيع، على أنى لم أجد حجرة مقابل أجرة زهيدة أستطيع سدادها، وكنت ما أزال مرتبطا بـ «دورا ستولينتز»، لا أريد الزواج منها ولا أريد أن أخلى سبيلها، وحين التقيت بها كانت تعتبر الزواج بقية من بقايا الغلو الدينى، وتقول كيف توقع عقدًا بالحب مدى الحياة؟، إن الرأسماليين ورجال الدين هم فقط الذين يكرسون لاستمرار تلك المؤسسة الاجتماعية الزائفة، وبالرغم من أنى لم أكن يساريًا قط، فقد اتفقت معها فى هذا الرأى، فكل ما رأيت وقرأت


Twitter: @ketab_n

ينهض دليلا على أن الإنسان العصرى لا يأخذ المسئولية الأسرية مأخذ الجد، فوالد «دورا»، وهو أرمل، أفلس فى وارسو، وهرب إلى فرنسا مع امرأة متزوجة لكى يتجنب السجن، وكان لـ «دورا» أخت تعيش مع صحفى، وهو رجل متزوج، اعتاد أن يتردد على نادى الكُتَّاب، فأتيح لى من خلاله أن أعرف «دورا»، وكانت هى تلح بإصرار على أن نتزوج فى الشهور الأولى من علاقتنا، وقالت إنها ترغب فى ذلك إكرامًا لخالتها - أخت أمها الراحلة، لأنها امرأة تقية ورعة.

فى ذلك النهار الشتوى بحثت عن حجرة من العاشرة صباحًا حتى حلول الظلام، ووجدت الحجرات التى راقتنى مكلفة أكثر من اللازم، أما الأخرى فصغيرة أكثر من اللازم أو تنبعث منها رائحة مبيد حشرى أو رائحة بق، والحقيقة أن الكيفية التى كانت تسير بها أحوالى المالية لا تسمح لى حتى باستئجار حجرة صغيرة، وفى الساعة الخامسة تقريبًا انطلقت إلى نادى الكُتَّاب، فهناك الجو دافئ، وأستطيع أن أتناول وجبة على الحساب، وأشعرنى الذهاب إلى النادى بالخجل، ترى أى صنف من الكُتَّاب أنا؟، أنا لم أنشر كتابًا واحدًا، وكان اليوم باردًا رطبًا، وقرب الليل بدأ الثلج يتساقط، فسرت فى شارع ليزنو وأنا أرتعد فى معطفى الخفيف، وأتخيل


Twitter: @ketab_n

أنى أكتب عملا سوف يهز الدنيا، ولكن ما الذى تراه يهزها؟ الجريمة لا، البؤس لا الشذوذ الجنسى لا، الجنون لا، لقد فنى عشرون مليونًا من البشر فى الحرب العظمى، وها هو العالم يستعد لحريق ضخم آخر، فماذا أكتب إذًا عما لم يعد خافيًا على الناس؟ أسلوب جديد؟ إن كل تجربة بالكلمات تتحول بسرعة إلى مجموعة من العادات المتكلفة، وفتحت الباب المؤدى إلى النادى، فرأيت «موريس فيتلزوهن» مع اثنين من الأمريكيين، رجل وامرأة، كان الرجل قصيرًا وبدينًا وذا وجه عريض متورد اللون ورأس ملىء بشعر أبيض كالرغوة وبطن منتفخة، ويرتدى معطفًا فاتح اللون - من درجات الأصفر التى تشاهد فى بولندا - وكانت المرأة شابة ونحيلة وغير مديدة الجسم، ترتدى معطفًا قصيرًا من الفراء خمنت أن يكون سمورًا، وتضع بيريه من المخمل الأسود فوق شعرها الأحمر، ولم أكن فى حالة تسمح لى بلقاء أمريكيين، فحاولت أن أتجنبهم، على أن «موريس فيتلزوهن» لمحنى حينذاك، فنادانى قائلا:

- تسوتسك، إلى أين أنت ذاهب؟

ولم يكن قد نادانى بتسوتسك من قبل، إذًا، فمن الواضح أنه تحدث مع «سيليا»، فتوقفت، وعيناى تدمعان من البرد، وحاولت أن أجفف راحتى فى أطراف معطفى المشبعة بالماء، فقال «فيتلزوهن»: إلى


Twitter: @ketab_n

أين تجرى؟ أريدك أن تستقبل صديقىَّ الأمريكيين وترحب بهما، هذا: السيد سام دريمان وهذه: بتى سلونيم، وهذا الشاب كاتب.

وبدا وجه «سام دريمان» كأنما عُجن من صلصال، وكان ذا أنف عريض، وشفاه غليظة، وعظم وجنى مرتفع، وعينين صغيرتين ثاقبتين تحت حواجب كثيفة بيضاء، وكان رباط عنقه أصفر وأحمر وذهبيًا يخترقه دبوس من الماس، وكان يمسك سيجارا بين أصبعيه، ويتكلم بصوت عالٍ مزعج، وجأر:

- تسوتسك؟ ما نوع هذا الاسم؟ أهو اسم تدليل؟

وقد كان لـ «بتى سلونيم» سمت بنت مدرسة، إلا أن وجهها عكس نضجًا خلف المساحيق، وكانت ذات وجنتين غائرتين، وذقن ضيقة، وعينين تبدوان وكأنهما تميلان إلى الصفرة بفعل الضوء الخافت المنبعث من المصابيح العلوية، وذكرتنى بلاعبات العقلة فى السيرك، وكان صوتها كصوت صبى، وصاح فىَّ «سام دريمان» كما لو كنت أصم:

- أتكتب للصحف، هيه؟

- للمجلات، من وقت إلى آخر.

- ما الفرق؟ فى هذه الدنيا نحن نحتاج إلى كل شىء، على السفينة التقيت برجل، ولعبنا البنوكل الصغيرة - وهى من ألعاب الورق -، واندمجنا فى الكلام، فسألته: ماذا تعمل؟


Twitter: @ketab_n

فقال إنه ذاهب لأسر أسود وحيوانات متوحشة أخرى، ومعه جماعة من الصيادين والأقفاص والشباك، وغير ذلك مما يعرف الشيطان، هذه السيدة - بتى سلونيم - ممثلة عظيمة جاءت إلى بولندا للظهور على المسرح اليدى، فإذا كان لديك مسرحية فلنتفق فى الحال..

فقاطعته «بتى سلونيم» قائلة:

- سام، كف عن هذا الهراء.

- إن شابًا كهذا لابد لديه المسرحية التى تبحثين عنها بالضبط، ولكن قبل أن نندمج فى الشغل فلنذهب أولاً إلى مكان نتناول فيه لقمة، هيا أيها الشاب، ما اسمك الحقيقى؟

- هارون جريدنجر.

- هارون ماذا؟ إنه اسم صعب، فى أمريكا نحن لا نولع بالأسماء الأوروبية الطويلة، فهناك الوقت من ذهب، لقد جاء إلى مكتبنا روسى اسمه سيرجى إيفانوفتش متروبوليتانسكى، قد تصاب بالربو لمجرد محاولة نطق اسم كهذا، ولهذا أسميناه «مت»، فالتصق به، وهو سمكرى اختصاصى يضع أذنه على ماسورة فى الطابق الأرضى، فيعرف ما يدور فى الطابق العلوى، لم أتناول أى غداء اليوم، إنى جائع كالكلب.

فقال «فيتلزوهن»، وهو يشير إلى طاولة الوجبات الخفيفة:


Twitter: @ketab_n

- فى وسعك أن تتناول لقمة هنا.

- سأخبرك بشىء، أنا لا أثق فى مطعم كُتَّاب، لقد طلبت عشاءً فى مطعم رويال، فقدموا لى شريحة لحم عسيرة المضغ كالجلد، لقد لاحظت مطعمين فى الشارع وكلاهما جيد إلى حد ما، هيا أيها الشاب، هيا معنا، هل لى أن أدعوك تسوتسك؟

- نعم، بالطبع.

وأردفت كذبًا:

- ولكنى لست جائعًا، لقد أكلت منذ وقت غير بعيد.

- ماذا أكلت؟ لا يبدو عليك أنك أسرفت فى الطعام، لسوف نحتسى الويسكى كذلك وربما الشمبانيا.

- حقيقة أنا لست..

فتدخل «فيتلزوهن» بقوله: لا تكن عنيدًا هكذا، هيًّا معنا.

واستطرد مغيرًا لهجته: أظنك حدثتنى عن مسرحية قد كتبتها؟

- لدى الفصل الأول منها فقط، مسودته الأولى فحسب.

فسألت «بتى سلونيم»: ما نوعها؟


Twitter: @ketab_n

وكنت لا أخجل عندما تخاطبنى امرأة، أما فى تلك اللحظة فقد أحسست بالدم يندفع إلى وجهى وأنا أجيبها:

- أوه، إنها ليست للمسرح.

فصاح «سام دريمان»:

- ليست للمسرح؟ لَمَنْ هى إذًا؟ للملك توت.

- إنها لن تجتذب المشاهدين.

فسأل «فيتلزوهن»: ما موضوعها؟

- فتاة عذراء لادومير(٥٥) أرادت أن تحيا كالرجل، فدرست التوراة، وارتدت الثياب الشعائرية، وشال الصلاة، ووضعت التمائم كذلك، وأصبحت حاخامًا، وعقدت محكمة للحسيديين، وتنقبت، وأخذت تعظ بالتوراة.

فقالت «بتى سلونيم»:

- إذا كانت مكتوبة جيدًا فهى ما أبحث عنه تمامًا، هل أرى الفصل الأول؟

فقال «فيتلزوهن» كمن يخاطب نفسه:

- سيتمخض هذا اللقاء عن شىء، هلموا لسوف نأكل ونشرب ونتحدث فى الشغل كما يقولون فى أمريكا.

فصاح «سام دريمان»: أجل، هيًّا أيها الشاب.


Twitter: @ketab_n

## (٤)

جلسنا فى مطعم «جرتنر»، وتحدث «سام دريمان» عن خططه ومشروعاته هو و«بتى سلونيم»، فقال إنه خسر ما يربو على مليون دولار فى هبوط مالى مفاجئ بوول ستريت، ولكن على الورق فقط، وآن الأسهم سوف ترتفع قيمتها من جديد عاجلاً أو آجلاً، فالاقتصاد فى بلاد العم سام مزدهر، ومازال عدد كبير جدًا من الأسهم يغل فوائد، وهو - إلى ذلك - يمتلك منازل وشريك فى مصنع، ومدير المصنع حفيد شقيقه «بل» المحامى، وهو نفسه - أى سام - أبعد من أن يكون شابًا، فماذا يدعوه إذًا إلى القلق؟ فقد أنعم الله عليه فى سنواته الأخيرة بحب عظيم - وأشار إلى بتى -، ويريد أن يمتع نفسه ويوفر لها أسباب المتعة، واستطرد فى القول بأنها ممثلة بارعة غير أن أدعياء التمثيل فى الشارع الثانى قد غاروا من موهبتها، ولم يقبلوها حتى عضوًا فى نقابة الممثلين العبريين، ولكنها فى المرات القليلة التى نجحت أن تمثل فيها رغمًا عنهم أثارت اهتمام النقاد. لا فى الصحافة اليدية فحسب، بل والصحافة الإنجليزية أيضًا، كذلك قال إن فى وسعها أن تظهر فى «بودواى»، ولكنها تفضل أن تمثل باليدية، لأنها اللغة التى تبرز موهبتها فى الحقيقة، وأن النقود ليست مشكلة عنده، ولهذا سوف يستأجر لها مسرحًا فى وارسو، والأهم


Twitter: @ketab_n

أن يجد المسرحية التى تناسبها، وهى تحتاج إلى أدوار درامية، وأول ما تفضل المأساة، لأنها ليست ممثلة هزلية، وتستخف بالرقص والغناء والاستعراض فى المسرح اليبدى بأمريكا، والتفت هو إلىَّ قائلا:

- لسوف أنقدك خمسمائة دولار مقدمًا إذا لحقتنا بالبضاعة المطلوبة، ولسوف تحصل أيها الشاب على حصص من الأرباح إذا سارت المسرحية سيرًا حسنًا، ولسوف ننقلها إلى أمريكا إذا نالت إعجاب الجمهور فى وارسو، أقلت الفصل الأول جاهز؟ هل بدأت الفصل الثانى؟ ناقشيه يا بتى، أنت أدرى تمامًا بما يجب السؤال عنه.

وهمت «بتى» بالكلام، بيد أن «فيتلزوهن» سبقها إليه قائلا:

- لسوف تكون مليونيرًا يا هارون، لسوف تكون ظهيرى وناشرى، لا تنس أنى الوسيط الذى جاءك بكل هذا.

فجأر «سام دريمان»:

- لسوف تحصل على عمولتك منى إذا تحقق أى شىء.

وفى كل مرة تكلم فيها كان يبسط كفيه، فلاحظت خاتمًا كبيرًا من الماس فى أصبعه، وأنه يلبس ساعة يد ذات طوق ذهبى، فضلا عن أزرار مرصعة


Twitter: @ketab_n

بالأحجار الكريمة، وإذا خلعت «بتى» معطفها المصنوع من الفراء وجلست بفستان أسود بلا أكمام رأيت كم هى نحيفة، وكيف أن لها تفاحة آدم أشبه بتلك التى لصبى، وكيف أن لها ذراعين كالعصوين، وكانت وارسو فى ذلك الحين تتكلم عن النحافة وكيف أنها تفيد الصحة وتلائم روح العصر، إلا أن «بتى» هذه بدت لى هزيلة وضعيفة، وكان ترك الأظافر تنمو وتغطيتها بطلاء أحمر قد أصبح الأسلوب السائد عند نساء وارسو، إلا أن أظافرها هى لم تكن ملونة، بل من الواضح أنها تقضمها، وكان قص الشعر «الجرسون» قد بطل، على أنها مازالت تقصر شعرها، وهى بالكاد تذوق الطعام الموضوع أمامها، وتدخن سيجارة بين اللقيمات، وتلبس سوارًا من الماس فى معصمها الأيسر، وعقدًا ذا ماسات أصغر حول جيدها، ومالت ناحيتى تسألنى:

- متى عاشت هذه الفتاة؟ فى أى قرن؟

- فى القرن التاسع عشر، لقد توفيت منذ فترة قصيرة فى القدس، لعلها توفيت عن عُم ناهز المائة عام.

- أنا لم أسمع عنها قط، أهى تلك التقية الورعة؟

- أجل، التقية للغاية، يعتقد كثير من الحسيديين بأن روح حاخام قديم تلبسها وتلفظ بالتوراة من خلال شفتيها.


Twitter: @ketab_n

- ماذا فعلت غير ذلك؟ أثمة أحداث فى هذه المسرحية؟

- قليلة جدًا.

- الدراما لابد فيها من أحداث، البطلة لا يمكن أن تتلو التوراة من خلال ثلاثة أو أربعة أحداث، لابد أن يحدث شىء ما، أكان لها زوج؟

- إذا لم أكن مخطئا فقد تزوجت فيما بعد، ولكن يبدو أنها طلقت من زوجها.

- لماذا لا تكتب عن ارتباطها بعلاقة غرامية؟ لو إن امرأة مثل هذه أحبت لخلق ذلك صراعًا قويًا.

- نعم، هذه فكرة جديرة بالنظر.

- واجعلها تحب غير يهودى، وليكن مسيحيًا.

- مسيحى؟ هذا غير ممكن.

- لم لا؟ الحب لا يعرف قيودًا، لنفرض أنها مرضت فذهبت إلى طبيب مسيحى، فتطور الحب بينهما تطورًا كبيرًا.

فسأل «فيتلزوهن»:

- لماذا لا تقع فى حب واحد من طينتها؟ إنى متأكد أن الحسيديين الذين التفوا حول مائدتها والتهموا بقايا طعامها وأنصتوا لتوراتها قد جُنوا بها جميعًا.

فزأر «سام دريمان»:



Twitter: @ketab_n

- لاشك فى هذا،. لو كنت واحدًا من الحسيديين، ولم يكن لدى بتى - أطال الله عمرها بعدى - لجننت بها أنا نفسى، فأنا أحب المرأة المتعلمة، رغم اعترافى بجهلى التام، لقد درست بتى فى المدرسة الثانوية الألمانية، وهى تقرأ كتبًا بالمئات، ومثلت على مسرح ستانسلافسكى، (٥٦)خبريهم يا بتى مع مَنْ مثلت، دعيهم يعرفون مَنْ أنت.

فهزت «بتى» رأسها، وقالت:

- ليس هناك ما أتحدث عنه، لقد مثلت فى روسيا باليدية وبالروسية أيضًا، ولكن من بختى قبل أن أنطلق التفت حولى شبكة تآمر كاملة لست أدرى سببها: لم أرد نفوذًا، ولست غنية، ولم أحاول قط أن أسلب واحدة زوجها أو عشيقها، لقد كان الرجال لطافًا معى فى أول الأمر، ولكنهم انقلبوا أعداءً فجأة عندما عاملتهم بتحفظ، وكانت النساء جميعهن على استعداد لإغراقى فى ملء ملعقة ماء دافئ كما يقول المثل، على هذا النحو سارت الأمور فى روسيا وأمريكا، وما سوف تسير عليه هنا أيضًا، إلا إذا انعدم التآمر ضدى والتنافس عليه فصاح «سام دريمان».

- إذا جرؤ أى شخص على أن يتقول بكلمة على محبوبتى بتى، فلسوف أفقأ عينيه، لسوف يقبلون هنا قدميك.


Twitter: @ketab_n

- لا أريد أن يقبل أى أحد قدمى، كل ما أريده أن أترك فى حالى لكى أمثل فى طمأنينة وسلام.

- لسوف تمثلين يا عزيزتى بتى، ولسوف تعرف الدنيا كلها كم أنت عظيمة، لطالما حالوا بين كل العظماء وبين النجاح، أو تظنين أن طريق سارة برنار(٥٧) كان مفروشًا بالورود، طيب، وما قولك فى الأخريات؟ تلك التى من إيطاليا - أيًا كان اسمها، وإيزادورا دنكان(٥٨)، هل تظنين أنها لم تلق صعابًا؟ حتى بافلوفا(٥٩) لاقت متاعب عندما يستشعر الناس وجود موهبة يتحولون إلى ذئاب، لقد قرأت فى جريدة مرة - وإن نسيت اسم الكاتب - عن راشيل، وكيف أن المعادين للسامية فى باريس حاولوا دفعها إلى...

- سام، أريد أن أتكلم مع الشاب عن المسرحية.

- تكلمى يا عزيزتى، لقد أحببت هذه المسرحية حتى قبل أن أقرأها، أشعر أنها قد كتبت من أجلك، إنى متأكد إن روحًا تتلبسك أنت أيضًا وتستقر بداخلك يا عزيزتى بتى.

والتفت هو إلىَّ قائلا:

- أحيانا عندما تزعق فى وجهى تتسلط عليها تلك الروح.

- هل ستكف أم لا؟ كف.

- سأكف، ولكن أريد أن أقول شيئًا واحدًا فقط لهذا الشاب، سأعطيك بضع مئات من الدولارات حتى


Twitter: @ketab_n

تعمل دون قلق على مورد رزقك، أكمل فقط المسرحية حتى يتحقق المطلوب، فلتقع فى حب طبيب أو حسيدى أو صيَّاد كلاب أو كما تريد أن تسميه، فالأهم هو أن تشوق الجمهور إلى معرفة ما سوف يحدث بعد ذلك، أنا لست كاتبًا، ولكن أريدها أن تحيل و...

- سام، إذا لم تكف عن الكلام كالمهرج فسأترك المكان.

- لك ما تشائين، لن تسمعى منى أدنى صوت حتى نذهب إلى البيت.

فقالت «بتى» متذمرة:

- كنت أريد أن أقول شيئًا، ولكنه شوش ذهنى إلى حد يصعب معه معرفة النقطة التى توقفت عندها، أوه، نعم، يجب أن تكون هناك سلسلة من الأحداث، على أنك الكاتب لا أنا.

- فى الحقيقة أنا لست كاتبًا مسرحيًا، لقد أخذت فى كتابة العمل لنفسى، أردت أن أبين مأساة امرأة مفكرة. وعلى الأخص بين اليهود الذين...

- أنا لا أعتبر نفسى مفكرة، ولكن هذه هى مأساتى، ترى لماذا يتآمرون علىَّ؟ لأنه لا صبر لى على شائعاتهم ومكائدهم وغبائهم، منذ طفولتى وأنا كالعنصر الغريب جنب النساء، حتى شقيقاتى لم



Twitter: @ketab_n

يفهمننى، وكانت أمى تنظر إلىَّ وكأنها دجاجة رقدت على بيضة بطة، ففقست تلك البيضة مخلوقًا مشدودًا إلى الماء، كان أبى عالمًا - حسيديًا من أتباع الحاخام «هوسياتينر» أطلق عليه البلاشفة النار، لماذا؟ كان غنيًا فيما مضى، ولكن الحرب أفلسته، لقد اخترع الناس قصصًا عنه ولفقوا له تهمًا كاذبة، كل أسرتى بقيت فى روسيا، ولكنى لم أستطع البقاء وسط قتلة أبى، الحقيقة أن العالم كله ملىء بالأشرار.

- بتى، كفاك كلامًا بهذه الطريقة، إذا كان لدى مليون لكل شخص طيب فلسوف يثور علىَّ روكفلر.

فعلق «فيتلزوهن»:

- أنت أول امرأة متشائمة ألقاها فى حياتى، فالتشاؤم صفة ذكورية فى العادة، أستطيع أن أتصور امرأة تتمتع بخصائص ومواهب ذكورية، كأن يقال مثلا: موتسارت أنثوى(٦٠)، أو حتى إديسون أنثوى(٦١)، أما أن يقال شوبنهور أنثوى فهذا بعيد عن التصور، التفاؤل الخادع عنصر جوهرى فى المرأة، يالها من مفاجأة أن أسمع كلمات كهذه من أنثى.

- ألا يجوز ألا أكون امرأة.

فصاح «سام»:

- هذا ما أقرره أنا!، أنت امرأة مائة بالمائة، لا لست امرأة مائة بالمائة، بل ألف بالمائة، لقد عرفت نساء كثيرات فى حياتى، أما هى ف... .


Twitter: @ketab_n

– سام.

– طيب، سأغلق فمى، ابدأ المسرحية أول شىء فى الغد أيها الشاب، ولا تقلق على النقود، كفاك تدخينا بهذه الكثرة أيتها المحبوبة بتى، هذه ثالث علبة لك اليوم،

– سام، اهتم أنت بأمورك.

## (٥)

كان الوقت منتصف الليل، وحان موعد الانصراف فحييت أنا و«فيتلزوهن» «سام دريمان» و«بتى»، وفى أثناء المصافحة ضغطت «بتى» على راحة يدى، ومالت بوجهها نحو وجهى، فلفحتنى رائحة الشراب والتبغ، فرغم أنها أكلت قليلا فقد شربت كئوسًا عديدة من الكونياك، وكانت هى و«سام دريمان» يقيمان فى فندق «بريستول»، فركبا سيارة أجرة إلى هناك، وكان «فيتلزوهن» يسكن فى حجرة بشارع «دلوجا» إلا أنه سار معى إلى شارع «نوفوليبكى»، حيث تسكن «دورا»، فقد كان على علم بعلاقتى بها، وهو قلما ذهب إلى الفراش قبل الثانية، وأمسك بذراعى قائلا:

– يا يا بنى، لقد استرعيت انتباه بتى ولا شك فى ذلك، ها ها، لو ظننت أن مسرحيتك هذه تعنى شيئا بالنسبة لها تكون مجنونًا، إن سام دريمان رجل موفور الثراء ومتيم ببتى، اخرج نصك المكتوب واحشه بكل ما يحتمل من حب وجنس.


Twitter: @ketab_n

- لا أريده أن يتحول إلى هراء.

- لا تكن حمارًا، المسرح على وجه التحديد كلام فارغ، ليس ثمة شئ اسمه مسرحية أدبية باقية، الأدب يجب أن يتكون من كلمات مثلما يجب أن تتكون الموسيقى من أصوات، ما إن تؤدى الكلمات على خشبة المسرح أو تتلى حتى تغدو بضاعة مستعملة.

- لن يأتى جمهور.

- لسوف يأتون، إن شخصًا غريبًا مثل سام دريمان لن يفكر فى أن يرشو النقاد، بل الجمهور، ولذا فالأهم ألا تقتصد فى دغدغة المشاعر والأحاسيس، اليهود يحبون ثلاثة أشياء مجتمعة معًا: الجنس والتوراة والثورة، أعطها لهم ولسوف يرفعونك إلى السماء، هل معك زلوتى؟

- اثنان.

- حسنًا، أنت تتصرف الآن كمليونير، ما رأيك فى بتى؟

- يبدو أنها تعانى من عقدة الاضطهاد.

- وهى على الأرجح ممثلة رديئة أيضًا.

وأردف:

- أما أنا فلدى أخيلة غريبة منذ وقت قريب، لقد تحدثنا عن الأرواح اليوم، إحداها تتلبسنى، وقد أمرنى أن أنشئ معهدًا لمذهب المتعة الخالصة.


Twitter: @ketab_n

- أليست الحياة نفسها معهدًا؟

- أجل ولا، أجل، لأن كل الناس طلاب متعة، ويفكرون فى المتعة فقط من المهد إلى اللحد، ماذا يبتغى التقى الورع؟ المتعة فى الآخرة، وماذا يريد الزهاد؟ المتعة الروحية أو ما شاكلها، أما أنا فأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك: المتعة، عندى لا تستوعب الحياة فحسب، بل الكون بأسره، يرى إسبينوزا إن للإله خاصيتين معروفتين لنا هما الفكر والامتداد، أما أنا فأرى أن الإله هو المتعة، وإذا كانت المتعة خاصية فهى إذًا لابد أن تتكون من أشكال وصور عديدة لا نهاية لها، ومن ثم فإن هناك ما لا يعد ولا يحصى من المتع مازالت تُكشف، وطبعًا إذا ظهر أن للإله خاصية الشر فالويل لنا، ولعله مع ذلك غير قادر على كل شىء لدرجة كبيرة ويحتاج إلى تعاوننا معه، ولقد قالت الروح الشريرة التى تتلبسنى إننا ما دمنا جميعًا أجزاءً من الإله وأن البشر هم أكثر أنانية بين سائر المخلوقات وأشدهم حبًا لذواتهم - يرى إسبينوزا أن محبة الإنسان لنفسه هى محبة الإله للإنسان، فالسعى وراء المتعة وتعقبها إذًا هو هدف الإنسان وغايته الوحيدة، فإذا أخفق فى الحصول عليها أخفق فى كل شىء آخر.

- ألا تعلم روحك أن الإنسان قد أخفق فى ذلك الآن؟ أليست الحرب العظمى دليلاً كافيًا؟


Twitter: @ketab_n

- ربما كانت دليلا بالنسبة لى، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لروحى، فقد أخبرتنى هى أن الإله يعانى من فقد ذاكرة إلهى جعله ينسى الهدف من خلقه، وأنه يخامرها شعور بأن الإله يحاول أن يعمل ما هو زائد عن الحد فى أقصر فترة ممكنة من الأبدية، ولهذا عجز عن إحكام الضبط والسيطرة معًا على العالم، وغدا فى حاجة ماسة إلى المساعدة.

- أنت تمزح ولا ريب.

- أنا أمزح طبعًا، ولكنى جاد أيضًا بطريقة سخيفة بعض الشىء، فأنا أراه إلهًا مريضًا للغاية أربكته مجراته كثيرًا، كما أربكه أيضًا حشد الشرائع التى سنها بحيث لم يعد يعرف ما الذى يتوخى الأخذ به منها، إنى أفحص خرابيشى أحيانًا فأكتشف أنى بدأت نوعًا من العمل قد تحول إلى عكس ما قصدت، لماذا نستبعد حدوث شىء كهذا بالنسبة له ما دمنا قد خلقنا على هيئته؟

- ألهذا سوف تقوم بإنعاش ذاكرته؟ أهذا موضوع مقالك القادم؟

- جائز، ولكن رؤساء التحرير البلهاء أولئك لن يقبلوا شيئًا منى، فقد أعادوا إلىَّ أخيرًا كل مقالاتى، ولم يجشموا أنفسهم حتى عناء قراءتها، وبالمناسبة لابد أن أنشط ذاكرتك أنت أيضًا، فقد وعدتنى بزلوتين.


Twitter: @ketab_n

- أنت محق، هاكهما، أنا آسف.

- شكرًا لك، أرجو ألا تسخر منى، أولا: لأن المجنون سام هذا قدم إلىَّ أكثر مما ينبغى لأشربه، ثانيًا: لأنى أطلق العنان بعد منتصف الليل لما هو باق أو مختزن فى ذهنى، أنا لست مسئولا عما أهذى به أو حتى ما أفكر فيه، ولما كنت لا أستطيع النوم فلامناص من أن أحلم وأنا مفتوح العينين، ولعل الإله يعانى مثلى من الأرق، الحقيقة أن الكتاب المقدس يقول لنا إنه لا يغفل ولا ينام، بل يسهر على أطفال إسرائيل يرعاهم، فياله من حارس! طابت ليلتك.

- طابت ليلتك، كانت ليلة ممتعة للغاية، شكرًا لك.

- حاول أن تكتب هذه المسرحية الرديئة، لقد فقدت الاحترام لكل شىء، وإن كنت أعبد المال عبادة مطلقة، لو ارتددنا إلى الوثنية فلسوف يكون معبدى مصرفًا، ها هى سكتك،

وفى شارع «نوفوليبكى» مد إلىَّ يدًا دافئة، وتوجهت أنا إلى المنزل، وقرعت الجرس، فأذن لى البواب بالدخول، وكانت جميع النوافذ فى الفناء مظلمة عدا نافذة فى الطابق الثالث، وكان قضاء الليل عند «دورا» ينطوى على الخطر والذل معًا بالنسبة لى، ينطوى على الخطر لأنهم قد يداهمون الشقة فيجدون أدبًا لا يقره القانون، وينطوى على الذل؛ لأننا قد نضطر إلى قطع شهوتنا، وكانت هى على وشك أن تتسلل إلى


Twitter: @ketab_n

روسيا لتتلقى دروسًا فى الدعاية رغم رفضها الشديد، إذ كان السوفييت يقبضون على كل شيوعى تقريبًا يعبر الحدود من بولندا بتهمة التجسس والتخريب والتروتسكية[٦٢]، وقد حذرتها أكثر من مرة بأن هذه الرحلة انتحار مؤكد، فكانت تقول: «إن الذين يُقبض عليهم يستحقون ذلك عن جدارة، إذ يجب تصفية الفاشيين والفاشيين الاشتراكيين وكل الرأسماليين الخانعين، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل». فأسألها: أكان هرتزك جولد شلاج فاشيًا؟ أكان بيرك جتمان فاشيًا؟ أكان صديقك إيرك فاشيًا؟ فترد: «الأبرياء لا يزج بهم فى السجون بالاتحاد السوفيتى، فهذا يحدث فى وارسو وروما ونيويورك»، ولم تقنعها الحقائق أو البراهين، لأنها هى نفسها كانت واقعة تحت تأثير سحر وهى تنوم الآخرين مغناطيسيًا، وتخيلتها وهى تعبر الحدود عند «نيسفيز»، وتركع مقبلة تراب أرض الاشتراكية، والحرس الأحمر يجرها إلى السجن دون هوادة، حيث تجلس وسط أعداد كبيرة مثلها وهى جائعة عطشى بجانب دلو الفضلات، وتظل تسأل نفسها: «أهذا ممكن؟ ما جريمتى؟ أنا التى وهبت المثل الأعلى الاشتراكى أفضل سنوات عمرى». وسرت ببطء، وكنت قد قطعت على نفسى عهدًا بألا أجىء إليها مرة أخرى، إلا أنى احتجت إلى جسدها، وأنا أعلم أننا سوف نفترق إلى الأبد، ولعلها هى نفسها باتت نهبًا


Twitter: @ketab_n

للظنون، فحتى أعظم تجربة فى الورع والتقوى تشوبها أحيانا أفكار ضالة، وتوقفت لحظة على السلالم المظلمة، واسترسلت فى تأمل ذاتى قصير، ماذا لو قُبض علىَّ معها فى هذه الليلة؟ كيف أبرر وجودى عندها؟ وكما يقول المثل لماذا أزحف إلى فراش المريض وأنا بكامل عقلى، طيب، هل يجب علىَّ أن أعيد صياغة مسرحيتى من جديد لتناسب أهواء بتى سلونيم؟ وماذا يريد فيتلزوهن على وجه التحديد؟ كم هو غريب، ففى غضون الأشهر القليلة الماضية سمعت مرارًا فى نادى الكُتَّاب أن شخصًا ما يرتب لإقامة طقوس عربيدة، وأن ثمة مائدة فى النادى اصطلح الكُتَّاب الشبان على تسميتها بمائدة المعنونين، حيث يجتمع حولها الكُتَّاب العُجّز - من كلاسيكيين ورؤساء تحرير صحف وصحفيين قدامى وزوجاتهم، وذلك عقب المسرح وعرض أفلام السينما كل ليلة، ليتبادلوا الآراء حول السياسة والموضوعات اليهودية والشهوة الجنسية التى أصبحت «موضة» بمجىء فرويد، والاضطرابات الجنسية فى روسيا وألمانيا والعالم الغربى كله، وكذلك قدم من ألمانيا إلى بولندا الممثل الشهير «فرتيز باندر»، وهو يهودى جاليشى، قادت الصحف المحافظة والنازية حملة ضده بعض الوقت، لإفساده اللغة الألمانية، أو ما أسموه Moischeling - وإبدائه ملاحظات مهينة فى حق «لودندورف»، وإغوائه زوجة شابة أرستقراطية ألمانية ودفعها إلى


Twitter: @ketab_n

الانتحار، فاشتعل غضبه لتلك الهجمات وغيرها مما كان يتلقاه من المجلات النقدية الهزيلة أيضًا، واستحثه ذلك على ترك برلين والتوجه إلى وارسو، ليكفر عما ارتكبه وليعود إلى المسرح اليدى، واصطحب معه عشيقته المسيحية «جريتل»، وهى زوجة مخرج سينمائى ألمانى، وكان زوجها هذا قد دعا «باندر» إلى المبارزة وهدده ببندقية، وكان «باندر» فى ذلك الوقت يجلس كل ليلة مع عشيقته إلى (مائدة المعنونين)، ويروى النكات باليدية بلكنة جاليشية، وقد اشتهر فى برلين بغزواته الجنسية، ورويت عنه حكايات غريبة فى مقهى «رومانس» بـ «جرناديرستراس»، وشاعت مزحة فى نادى الكتاب بوارسو تقول إن مفاخر «باندر» قد ألهبت طموح الكاتب العجوز المريض «روشباوم» فى أن يكون كازانوفا آخر، وقبل أن أطرق باب «دورا» وقفت أتصنت، ترى هل ثمة اجتماع للجنة المنطقة يدور بالداخل؟ أم ترى دبرت الشرطة كمينًا لى؟ فى هذه الشقة المشبوهة كل شىء محتمل الوقوع، ولكن لا، كل شىء هادئ، وطرقت الباب ثلاث طرقات، وهى الإشارة المتفق عليها بينى وبين «دورا»، وانتظرت، وسمعت بعد قليل خطا أقدام، ولم أدر سببًا لخلو الشقة من تليفون، وخمنت أن ذلك لكيلا توصل الشرطة سلكه بجهاز للتصنت، وكانت «دورا» ضئيلة الجسم وعريضة من أسفل وذات صدر ضخم وأنف معقوف، وكانت عيناها الواسعتان الرافتان هما الملمح


Twitter: @ketab_n

الجذَّاب فيها فحسب، إذ كانتا تعكسان مزيجًا من المكر والجدية لواحدة أخذت على عاتقها مهمة إنقاذ الجنس البشرى، ووقفت هى فى تلك اللحظة لدى الباب فى ثوب النوم وسيجارة مغروزة بين شفتيها، وقالت:

- حسبتك غادرت وارسو.

- إلى أين؟ أبدون أن أودعك؟

- لن أضع العراقيل فى سبيلك.

## (٦)

وعلى الرغم من أنه محظور على الشيوعى أن يكشف عن أسرار الحزب لعضو من الطبقة المعادية، فقد اطلعتنى «دورا» على أن كل شىء جاهز لرحيلها، وأن المسألة كلها بضعة أيام، فقد باعت قطع أثاثها للجيران، وتقرر أن يتولى أمر الشقة موظف الحزب، وكنت أحتفظ لديها برزمة من مخطوطاتى فذكرتنى بضرورة أخذها عند مغادرتى الشقة فى الصباح، ومع أنى تناولت عشاءً ثقيلا، فقد أصرت على أن أشاركها الأرغفة والرنجة المملحة والشاى، وقالت تتهمنى:

- لقد جلبت هذا على نفسك، لو عشنا معًا كزوجين عاديين لما ذهبت أنا بعيدًا؛ فالحزب لا يرغم زوجين على الافتراق، وخاصة عند وجود طفل، كان من الممكن أن يكون لدينا طفلان الآن.


Twitter: @ketab_n

- مَنْ يعولهما؟ الرفيق ستالين، أنا بدون عمل ومدين بأجرة شهرين.

- لم يكن أطفالنا سيموتون جوعًا، طيب، من الحمق الاسترسال فى كلام فات أوانه، لسوف يكون لك أطفال من أخرى سواى.

فقلت: لا أريد أطفالا من أحد.

- علم نفس أذناب الرأسمالية الفاسد المعهود الذى يؤذن بانهيار الغرب ونهاية الحضارة، لم يبق سوى أن نقيم مناحة للكارثة، على أية حال سوف يقر موسولينى وهتلر النظام، وتنهض الأم راشيل من قبرها وتقود أطفالها إلى جبل صهيون، وينتصر المهاتما غاندى وعنزه على الاستعمار الإنجليزى.

- كفاك يا دورا.

- هيًّا إلى الفراش، لعلها المرة الأخيرة لنا.

ولم يكن من المستطاع أن نرقد متباعدين حتى لو أردنا هذا، إذ كانت نوابض السرير المصنوعة من السلك هابطة فى المنتصف، فتدحرج كل منا نحو الآخر، وأصغينا إلى رغبتنا، وكان جسدها مكتنزًا وناعمًا ودافئًا، وكنت فى كل مرة نكون فيها معًا أذهل من ضخامة ثدييها، كيف تستطيع أن تحمل ثقلا كهذا؟ وضغطت ركبتيها المكتنزتين إلى ركبتى، وشككت أنى أؤذيها، وكانت روحانا - أو أيا ما كان يطلق عليهما - فى صراع عنيف وإن بقى جسدانا متآلفين


Twitter: @ketab_n

ومتفاهمين، وقد تعلمت أن أكبح رغبتى، فانغمسنا فى مداعبات بعضها سابق على قضاء الوطر وبعضها الآخر فى أثنائه أو لاحق عليه، ووضعت «دورا» يدها على خاصرتى قائلة:

- ألم تجد بديلاً عنى بعد أن تقف بجانبى؟

- طيب، وماذا عنك أنت؟

- سوف يكون هناك الكثير الذى يجب علىَّ أن أعمله هناك، لن يكون لدى وقت للتفكير فى مثل هذه الأشياء، إنه مقرر دراسى صعب، ليس من السهل أن أتكيف مع الظروف الجديدة، الحب عندى ليس مشكلة، يجب أن أحترم الشخص أولا وأثق به وأؤمن بأفكاره وشخصيته.

- هناك روسى بكل هذه الصفات فى انتظارك هناك.

- انظر للذى يتكلم! لقد كنت دائمًا على استعداد أن تستبدل بى أول امرأة تتاح لك.

وتبادلنا القبل والشجار، وأحصيت لها عشاقها السابقين، وأحصت لى هى كل مَنْ خنتها معهن، وقالت وهى تقبلنى وتعضنى:

- أنت لا تعرف ألبتة معنى كلمة إخلاص.

ونمنا فى حالة إشباع كامل، واستيقظت وقد تجددت رغبتى، وقالت بصوت خفيض رقيق:


Twitter: @ketab_n

- لن أنساك ما حييت أبدًا، لسوف تكون آخر من يخطر ببالى وأنا على فراش الموت أيها الفاسد الشرير!

- أنا قلق عليك يا دورا.

- ما الذى يقلقك أيها المغرور المقمل؟

- رفيقكم ستالين رجل مجنون.

- أنت لا تستحق حتى أن تذكر اسمه، طوقنى بذراعيك!، من الأفضل أن أموت على أرض حرة على أن أحيا بين كلاب فاشية.

- هل ستكتبين لى؟

- لسوف يكون أول خطاب لك مع أنك لا تستحق ذلك.

وأغفيت ثانية، فرأيتنى فى موسكو ووارسو فى وقت واحد، وقد جئت إلى ميدان حافل بالقبور، وقرعت بابًا، فرد علىَّ روسى ضخم، وكان عاريًا كما ولدته أمه وأغلف ، وسألته عن «دورا»، فأجابنى: متعفنة فى سيبيريا، وكان ثمة حفل صاخب يدور فى الداخل، وأناس يعزفون على أوكورديونات وجيتارات وبالالايكات، ونساء عاريات يرقصن، وبرزت كلبة صفراء من الحشد، وتعرفت عليها - جولكا التى تخص آل سوليتس بميدزسزين، وقلت فى الحلم: ولكنها ماتت، ماذا تفعل فى موسكو؟ أوه، هذه أحلام


Twitter: @ketab_n

عادية تافهة لا معنى لها على الإطلاق، وفتحت عينى، وتراءى الفجر أغبش خلف النافذة كأنما يتأمل عودته الخالدة، وكانت «دورا» تدعك الأوعية فى المطبخ، وتتلقى الماء من الصنبور وهى تدندن بأغنية عن شارلى شابلن(٦٣)، فرقدت ساكنا وأنا متحير من الدنيا وسخافاتها وأمورها غير المعقولة، وظهرت «دورا» عند الباب قائلة:

- أنا أعد لك الإفطار.

- كيف حال الجو بالخارج؟

- تمطر ثلجًا.

وغسلت وجهى فى مغسلة المطبخ، وكان الماء باردًا كالثلج، وقالت «دورا»:

- كان سروالان من سراويلك مرميين هنا وهنا، غسلتهما لك.

- طيب، شكرًا لك.

- البسهما، ولا تنس أن تأخذ مخطوطاتك الفاشية.

وأحضرت لى السروالين، وجذبت من تحت السرير رزمة مخطوطاتى مربوطة بالدوبارة.

وألحت علىَّ وأنا آكل قائلة:

- لم يفت الوقت بعد لتقبل الحقيقة، ابصق على هذا الوحل وتعال معى، توقف عن الكتابة عن


Twitter: @ketab_n

الحاخامات والأرواح، وانظر إلى العالم الحقيقى كيف يبدو كل شىء هنا فاسدًا، هنالك تبدأ الحياة.

– الفساد فى كل مكان.

– أهذه فكرتك عن العالم؟ ربما كان هذا آخر إفطار لنا معًا، هل أجد معك ثلاثة زلوتات؟

فأحصيت ثلاثة زلوتات، وأعطيتها لها وتبقى معى ثلاثة أخرى وفكة صغيرة، ورغم أن المجلة والناشر كانا مدينين لى ببعض النقود، فقد كان الحصول منهما على جروشن واحد مستحيلا، ولذا كان أملى معقودًا على دفعة «سام دريمان»، وحييت «دورا» ووعدتها بالعودة فى المساء، وأخذت رزمة المخطوطات، وخرجت إلى الفناء البارد، وكان ثمة ثلج جاف يتساقط، ووقفت قطة متزنة أعلى صندوق القمامة، وثبتت علىَّ عينيها الخضراوين كعنب الثعلب، وجعلت تموء.. أتراها جائعة؟ اغفرى لى يا بوسى، فليس لدى شىء من أجلك، وخرجت من البوابة، وكان ثمة مستوصف فى المبنى، حيث يأتى المرضى لشراء «تذاكر» لزيارة الأطباء، فرأيت بعض النسوة المسنات الملتفات بالشيلان يدخلن من البوابة، وتخيلتهن وقد راح بخر وجع الأسنان واليود ينبعثان منهن، وهن يتكلمن فى نفس واحد، كل منهن عن علتها، وكانت السحب تتحرك على ارتفاع منخفض، وهبت ريح باردة، فانطلقت إلى الشارع، فإلى حجرتى المفروشة


Twitter: @ketab_n

التى لا تتسع إلا لسرير وكرسى واحد فقط والباردة كخارجها تقريبًا، وفتحت رزمة المخطوطات، ولدهشتى رأيت بداية الفصل الثانى لمسرحيتى، ترى هل دبرت العناية الإلهية ذلك؟ ثمة ارتباط بين السبب والنتيجة لا يقبل الانفصام، وبدأت أقرأ: وتحسرت العذراء لادومير على أن الإله قد منح الرجال كل الامتيازات، ولم يترك للنساء سوى بقايا فحسب - القواعد المتعلقة بالولادة والاغتسال والتطهر فى الحمام الشعائرى(٦٤)، وإيقاد شموع السبت، واتهمت «موسى» بأنه لا يقر مساواة المرأة بالرجل، وأرجعت كل شرور العالم إلى أن الإله «ذكر»، أينبغى لى أن أضيف الحب والجنس إلى هذه المسرحية؟ ومن ينبغى للادومير أن تحب؟ طسيب؟ قوزاقى؟ من الممكن أن تكون مساحقة، ولكن يهود وارسو ليسوا مهيئين لتقبل هذه الفكرة، وفجأة خطرت ببالى فكرة: لسوف تقع فى حب الروح التى تتملكها، ولتكن الروح رجلا، ولسوف أجعله موسيقيًا وكلبيًا وفاسقًا وملحدًا، ولسوف تتكلم بصوته هو فضلا عن صوتها، وثمة فرصة إذًا لأن تمثل «بتى سلونيم» هذا، ولسوف تؤدى دور شخصيته منفصمة، ولنفترض أن «لادومير» تزوجت الروح داخلها، فأساء معاملتها، وخيب أملها فيه، فطلبت الطلاق منه، وشعرت برغبة ملحة فى أن أخبر «بتى سلونيم» بفكرتى فى تلك اللحظة عينها، وكنت أعلم أنها تقيم فى فندق «بريستول»، على أنى لم أستطع حمل نفسى


Twitter: @ketab_n

على القيام بزيارة مفاجئة لسيدة فى فندق، وكذلك أعوزتنى الشجاعة للاتصال بها تليفونيًا، فقررت أن أذهب إلى نادى الكُتَّاب لعل «فيتلزوهن» يكون هناك، فأصور له حبكتى، ومع أنى كنت متعبًا فقد امتدت إلى شرارة الاهتمام الموجودة عند «بتى سلونيم» وتوهجت بداخلى، وأطلقت العنان لحلم رأيتنى فيه أنا وهى نستمتع بالشهرة، أنا ككاتب مسرحى، وهى كممثلة، بيد أن «فيتلزوهن» لم يكن فى النادى، وكان ثمة صحفيان عاطلان عن العمل يلعبان الشطرنج فى الحجرة الأولى، فوقفت لحظة أتفرج، وكان المتقدم على زميله، وهو رجل صغير الجسم ذو ساق واحدة، واسمه «بيتى ماشتى»، منكبًا على رقعة الشطرنج، ويشد لحيته الصغيرة، ويترنم بأغنية روسية تقول:

سعيد أو غير سعيد.

مادام هناك فودكا ونبيذ.

فلا تدعنا نئن

فقال لى:

- انظر على ألا تتدخل.

وكان قد وضع فرسه فى موقف يوجب على خصمه «زوراخ ليبكس» أن يتخلى عن الملكة للحفاظ على الرُّخ،(٦٥) وإلا مات الشاه فى نقلتين، وكان «زوراخ» هذا يعمل كبديل مؤقت فى الصحف اليديشية



Twitter: @ketab_n

حين يكون مصححو تجارب الطباعة فى إجازة، وهو صغير الجسم ومستدير كالبرميل، وكان لايبرح يقول وهو مكب على رقعة الشطرنج أكثر مما ينبغى: «كف عن الغناء يا ماشتى، رخك إن هو إلا أبله، خوفى منه كخوفى من صقيع العام الماضى، أنت أخرق، لسوف تظل كذلك حتى الجيل العاشر»، فسأله «ماشتى»: إلى أين تذهب الملكة؟

- ستذهب، ستذهب، لا تشغل عقلك السخيف بها، لسوف تتبعثر قطعك تمامًا حالما تذهب هى.

ودخلت الحجرة الرئيسية، وكان يوجد بها ثلاثة كُتَّاب فقط، فإلى منضدة صغيرة جلس «شلوميل» وهو شاعر شعبى يوقع قصائده باسمه الأول فحسب، وكان يكتب قصيدة فى دفتر طويل كذلك المستعمل فى دكاكين البقالة، وقد اشتهر بأنه يكتب بحروف تكاد ترى بالمجهر، وهو وحده فقط الذى يستطيع فك مغالقها، كما اشتهر أيضًا بأنه يسقسق بنغمة رتيبة فى أثناء الكتابة، وإلى منضدة أخرى جلس «دانيال ليبتزن» الملقب بالمسيح، وقد شارك فى الثورة على القيصر عام ١٩٠٥، ثم أرسل إلى سيبيريا، ولكنه أصبح متدينًا هناك، وبدأ يكتب قصائد صوفية، أما «ناعوم زيلكوفتز» - وهو طويل القامة ونحيف وأسود كالغجرى - فقد ظل يروح ويجىء فى الحجرة، وفى فمه بيبة، وكان ينتمى إلى أقلية فى نادى الكُتَّاب


Twitter: @ketab_n

تعتقد أن هتلر يبتغى التهديد فحسب، ومن ثم فلن تكون هناك حرب، وقد نشر عشرين رواية كلها تدور حول موضوع واحد هو حبه للممثلة «فانيا إفروس» التى خانته وتزوجت زعيمًا نقابيًا، وكانت قد توفيت منذ عشر سنوات، ولكنه استمر يفكر فى خياناتها العديدة له، كما كان فى حالة حرب متصلة مع نقاد وارسو الذين حطوا من شأنه، وقد صفع أحدهم على وجهه، وألقيت عليه التحية فلم يرد، إذ كان غاضبًا على الكُتَّاب الشبان، ويعدهم دخلاء، وعدت إلى الحجرة الأولى، وفكرت، لعله ينبغى للعذراء أن يتلبسها روحان، أحدهم بغنى، والآخر داعر، فقد كتبت من قبل قصة فتاة يتلبسها بغنى وموسيقى أعمى، وواتتنى الجرأة، فاستعلمت عن رقم تليفون فندق «بريستول» من كابينة تليفونات، ولما رد على الفندق، طلبت توصيلى بالسيدة «بتى سلونيم»، فرن التليفون، وسمعت صوتها

- أهلا.

ولبثت هنيهة صامتًا، ثم قلت:

- أنا الشاب الذى شرفت بصحبتكم إلى مطعم جرتنر الليلة الماضية.

- تسوتسك؟

- أجل.



Twitter: @ketab_n

- إنى جالسة هنا أفكر فيك، ما الجديد بشأن المسرحية؟

- لدى فكرة أود مناقشتها معك ومع السيد دريمان.

- ذهب سام إلى القنصلية الأمريكية، ولكن تعال لنناقشها أنا وأنت.

- لا أريد أن أزعجك.

- أسرع بالمجىء.

وأعطتنى رقم حجرتها، فشكرتها، وأنهيت المكالمة، وأنا أهتز من فرط البهجة لإقدامى، تدفعنى قوى أكبر منى، وأردت أن أستقل عربة، ولكن ثلاثة زلوتات قد تكون أقل بكثير مما يجب أن أدفعه مقابل الركوب، وفجأة تذكرت أنى لم أحلق، وتحسست لحيتى النامية، وكان علىَّ أن أذهب إلى حلاق، إذ لا يمكن أن أزور سيدة أمريكية وأنا غير حليق.

## (٧)

كان يحرس مدخل فندق «بريستول» بواب يرتدى بزة، وكان دخوله يبدو كدخول قسم شرطة أو محكمة تقريبًا، بيد أن كل شىء مضى دون تعثر أو توقف، ورغم وجود مصعد، فقد صعدت الدرج حتى الطابق الرابع، وكان الدرج مصنوعًا من الرخام، وعلى طوله فى المنتصف مدت سجادة وردت «بتى» على خبطى



Twitter: @ketab_n

فى الحال، وكانت حجرتها ذات نافذة ضخمة وأكثر إشراقًا وبهجة من أية حجرة أخرى رأيتها، وكان الثلج قد توقف عن السقوط وأشرقت الشمس، فخيل إلىَّ أنى انتقلت إلى جو مختلف، وكانت «بتى» ترتدى ثوبًا منزليًا، وتلبس خفًا تزينه كرات من ريش، ومع أن شعرى أحمر، وعذبتنى كثيرًا الألقاب التى أطلقت علىَّ بسببه فى طفولتى، الكلب الأحمر، المحتال الأحمر، الجزرة الحمراء، وكان لدى كره لذوى الشعر الأحمر، فلم ينفرنى منها شعرها الأحمر، فقد بدا مزيجًا من النار والذهب فى ضوء الشمس، ولاحظت حينذاك فقط كم هى بيضاء البشرة، وأنها فى بياض بشرتى، وكانت حواجبها بنية، وبعد لحظة من دخولى دق جرس التليفون، فتكلمت بضع دقائق بالإنجليزية، كم هى رائعة هذه اللغة ووثيقة الصلة بشئون الحياة والناس!، وكانت «بتى» أقصر منى قامة، على أنها كانت تزهو بنفسها، وأنهت المكالمة، وشجعتنى على خلع معطفى والجلوس على راحتى، وكانت يديتها فيها شىء من الحداثة والتطور، وأخذت هى معطفى وعلقته على مشجب خشبى، وكان وقع ذلك غريبًا علىَّ، إذ هو لا يعدو أن يكون خرقة قديمة ذات زر مفقود، وعندما أكون مع «دورا» أشعر أنى رجل ناضج، أما هنا فقد رجعت شابًا، وأشارت إلىَّ «بتى» بالجلوس على أريكة، وجلست هى فى مواجهتى على كرسى مريح، فانفتح روبها، وفى جزء من الثانية لمحت ساقيها المبهرتين، وقدمت إلىَّ سيجارة، ومع أنى لم


Twitter: @ketab_n

أكن أدخن، فلم أفكر فى رفضها، وأحضرت لى قداحة، واجتذبت نفسًا من السيجارة، فأثملتنى رائحة الدخان، وقالت:

- الآن، حدثنى أكثر عن مسرحيتك.

وبدأت أتحدث، وهى تنصت، وأخذ التعبير فى عينيها يتحول من التوقع إلى الذهول، وقالت:

- هذا يعنى أن أمارس الحب مع نفسى.

- كما نفعل نحن جميعًا إلى حد ما.

- حقيقى، أستطيع أن أمثل دور رجل وامرأة بسهولة، لماذا لم تحضر النص معك؟

- كل ما كتبته أقل تهذيبًا وصقلا من أن يُعرض.

ـ ألا تتذكر بعض الكلمات المتعلقة بى، أود أن أجربها الآن فورًا، سأعطيك ورقة وقلمًا لتكتب بضع كلمات، بضع كلمات للموسيقى، وبضع كلمات للبغى، انتظر!

ونهضت من كرسيها، وأخرجت قلم حبر نسائيًا ومفكرة من كيس نقودها الموضوع على التسريحة، وشرعت أكتب وكأنى أكتب بطريقة آلية.

الموسيقى

تعال أيتها الفتاة، كونى لى، أنت جثة، وأنا مثلك، وحين ترقص جثتان يثب بق الفراش، لسوف أهديك


Twitter: @ketab_n

كيسًا من تراب أرض إسرائيل وكسر الفخار التى تغطى جفونى، ولسوف أحفر لك - والآس بين أصابعى - حفرة عميقة تصل ما بين تشيفتز وجبل الزيتون، وبالمناسبة سوف نصنع مثلما صنع «زيمرى» بن «سولو» و«كوزبى» ابنة «زور».

البغى

أمسك لسانك؛ أيها الموسيقى الحقير القذر! لقد رحلت أنا عن الدنيا عذراء طاهرة نقية فى حين تتمرغ أنت فى الوحل مع كل عاهر من «لوبلين» إلى «ليبزج»، إن فريقًا من الملائكة لينتظرنى، أما أنت فتتريص بك أعداد لا حصر لها من الشياطين والعفاريت.

وناولت «بتى» القلم والمفكرة، فشرعت تقرأ ببطء، وارتفع حاجباها الرفيعان وبقيا كذلك، ورفت على شفتيها ابتسامة متسائلة، وواصلت القراءة حتى النهاية، ثم سألتنى:

- أهذا مأخوذ من مسرحيتك؟

- الحقيقة لا.

- ألفته فى التو هنا؟

- تقريبًا.

- إذًا، فأنت شاب عجيب تتمتع بخيال رائع.

- هذا كل ما عندى.



Twitter: @ketab_n

– ما الذى تحتاج إليه غير هذا؟ انتظر! سأجرب تمثيل هذه الكلمات.

وبدأت تقرأ من المفكرة بما يشبه الغمغمة، وتتعثر فى كلمة هنا أو هناك، وفجأة أخذت تمثل الكلمات بصوتين، وأطبقت على أسنانى أمنعها من الاصطكاك، فالقوى التى تسيطر على العالم قد جمعت بينى وبين ممثلة ممتازة، وكان من الصعب علىَّ أن أصدق أن موهبة كهذه تقضى الليلة تلو الليلة فى الفراش بجانب سام دريمان، وانطفأت سيجارتى، وذرعت «بتى» الحجرة جيئة وذهابًا وهى تعيد الحوار مرارًا، ولفت انتباهى أنها أفضل كموسيقى عنها كفتاة، فقد بدا صوت الفتاة نصف ذكورى، وكانت تلقى نظرة إلىَّ كلما فرغت، فأومئ إليها، وأخيرًا أقبلت علىَّ قائلة:

– هذا كلام طيب للتلاوة، ولكن المسرحية لابد أن يكون لها حبكة، لابد أن يقع فى حبى أحد الحسيديين الأثرياء.

– لسوف أكتب هذا فيها.

– ويجب أن تكون له زوجة وأولاد.

– بلاريب.

– ودعه يبدى رغبته فى طلاق زوجته ويتزوج الفتاة.


Twitter: @ketab_n

-بالتأكيد .

- ولكنها لن تكون قادرة على المفاضلة وحسم الأمر بين الموسيقى والحسيدى الميتين.

- صح.

فتساءلت:

- وماذا بعد؟

- ستتزوج الحسيدى.

- آه.

- ولكن الموسيقى لن يدعها تنفرد بزوجها فى ليلة الزفاف.

- نعم.

- ولسوف ترحل مع الموسيقى.

- إلى أين؟

- إلى القبر.

-كم من الوقت يلزمك لكتابة المسرحية؟ السيد دريمان مستعد لاستئجار مسرح، لسوف تصبح كاتبًا مسرحيًا مشهورًا بين عشية وضحاها .

فقلت: ما قُدر لى سوف يكون.

- أتؤمن بالقدر؟

- من غير ريب.



Twitter: @ketab_n

- وأنا كذلك، وإن كنت غير متدينة، أنت ترى كيف أعيش، إنى مؤمنة بالله، قبل أن أذهب للنوم أدعوه وأبتهل إليه، على ظهر المركب كنت أدعو الله كل ليلة أن يرسل إلىَّ المسرحية المناسبة، فإذا بشاب يدعى تسوتسك يأتينى قدمًا بمسرحية تعبر عن نفسى، أليس هذا خارقًا معجزًا؟

- آمل هذا.

- ألا تثق فى نفسك؟

- كيف يثق المرء فى شىء؟

- يجب أن تثق فى نفسك، فمأساتى أنى لم أثق بنفسى قط، وحالما يبدأ شىء طيب فى التحقق لا أتوقع سوى الصعاب وسوء الحظ، وأفسد كل ما أنجزته سواء كان ذلك فى الحب أم فى العمل، ألديك مخرج تقترحه؟

- لا داعى للبحث عن مخرج حتى أفرغ من كتابة المسرحية.

- أمازلت مترددًا، إيه؟ لن أسمح بالشك هذه المرة، يجب أن تنتهى المسرحية تمامًا، التزم بالموجز الذى وضعناه الآن معًا منذ قليل، ولسوف يعطيك سام دريمان دفعة قدرها خمسمائة دولار، وهو مبلغ كبير هنا فى بولندا، هل أنت متزوج؟

- كلا.


Twitter: @ketab_n

- هل تعيش وحدك؟

- كان لدى فتاة، ولكنا افترقنا.

- هل لى أن أسألك عن السبب؟

- إنها شيوعية وذاهبة إلى أرض ستالين.

- لماذا لم تتزوج؟

- لا أؤمن بأن يبرم اثنان عقدًا بالحب إلى الأبد.

- هل لديك شقة مريحة؟

- علىَّ أن أنتقل، لأنى مطرود.

- استأجر حجرة بديعة، نح أى عمل آخر تقوم به، وركز على مسرحيتنا، ماذا تنوى أن تسميها؟

- العذراء لودمير وروحاها.

- أطول من اللازم، اترك لى تحديد العنوان، كم من الوقت سوف تستغرق إعادة الكتابة؟

- ثلاثة أسابيع إذا سارت الأمور سيرًا حسنًا، أسبوع لكل فصل.

- كيف ترى الفصول الثلاثة؟

- فى الفصل الأول سوف تغدو العذراء لودمير إلى ما هى عليه، ويقع الحسيدى الثرى فى حبها، وفى الفصل الثانى يتحتم أن يبرز الموسيقى الميت لينشأ الصراع.



Twitter: @ketab_n

فقالت «بتى» بعد شىء من التردد:

- فى رأيى: يجب أن يظهر الموسيقى فى مستهل الفصل الأول.

- أنت محقة تمامًا.

- لا توافقنى بسرعة هكذا، فكِّر جيدًا فيما أطرحه عليك، على الكاتب المسرحى ألا يساير الآخرين أو يجاريهم هكذا.

- لست كاتبًا مسرحيًا.

- مادمت قد كتبت مسرحية، فأنت إذًا كاتب مسرحى، إذا لم تأخذ نفسك مأخذ الجد، فلن يحملك عليه أحد غيرك، سامحنى إن أنا تحدثت إليك بهذه الكيفية، فأنا أكبر منك ببضع سنوات، الواقع أن كل ما أقوله لك يجب أن أقوله لنفسى أيضًا، إن سام دريمان يثق بى، وثقته بى أكثر من اللازم، بل لعله الشخص الوحيد الذى يثق بى، وبموهبتى، وهذا هو السبب فى...

- إنى أثق بك أيضًا.

- أنت؟ أيه؟ أشكرك إذًا، ماذا فعلت حتى أستحق هذا؟

من الواضح أن هناك فى السماء من لا يريد الآن نهايتى بعد، العناية الإلهية هى التى ساقتك إلىَّ.


Twitter: @ketab_n

# الفصل الثالث

## (١)

قـدَّم إلىَّ «سـام دريـمـان» الـدفـعـة الأولى وقـدرهـا خمسمائة دولار التى قال عنها، على أنى رفضت قبول هذا المبلغ الكبير، واتفقنا على أن آخذ مائتى دولار فى ذلك الوقت، وبادلتها بأكثر من ألف ومائتى زلوتى فى دكان للصرافة، ولكم يكن هذا الرزق فى الحسبان، ووجدتُ سكنًا جديدًا فى شارع «ليزنو» يتكلف ثمانين زلوتًا فى الشهر، ودفعتُ مقدمًا أجرة ثلاثة أشهر، وحصلت بذلك على حجرة حوائطها مكسوة بالورق ومزودة بتدفئة مركزية وأثاث متين وسجادة شرقية، وقال «إيزادور كاتزنبرج» مالك المسكن ـ وهو صاحب مصنع سابقًا ـ أن الضرائب الباهظة قد جلبت له الخراب، وكان المبنى المؤلف من عدة وحدات للإيجار يقع بالقرب من شارع «إيرون»، وهو جديد نسبيًا وعصرى، به طابق للألعاب والتمرينات الرياضية ـ الجمنازية، كما يوجد به أيضًا مصعد عند المدخل الأمامى أعطيت مفتاحه، وقد حدث كل شىء بسرعة، ففى المساء سلمنى «سام دريمان» النقود، وانتقلت فى اليوم التالى إلى سكنى الجديد، وكان علىّ فحسب أن



Twitter: @ketab_n

أرص كل ممتلكاتى فى حقيبتى سفر وأنقلهما إليه، وقد قامت «نيكلا» الخادمة ـ وهى فتاة ريفية شابة ذات شعر أحمر ووجنتين متوردتين ـ قامت بتلميع الأرضية حتى أخذت تبرق، وكان يوجد فى حجرتى سرير وأريكة وكراسى منجدة، كما كان يوجد تليفون أيضًا فى الممر الواسع الطويل سُمِحَ لى باستعماله مقابل ثمانية جروشنات للمكالمة، يا إلهى لقد ألقيت فى أحضان النعيم والترف!، وذهبتُ إلى خياط لكى أفصل بدلة، وعاونت «فيتلزوهن» بخمسين زلوتًا، فاعترض أن يأخذها، فدفعتها إليه بالقوة، ودعوته إلى العشاء فى مقهى بشارع «بيلانسكا»، وأنهيت إليه فكرة المسرحية، فأبدى لى اقتراحاته، وكان «فيتلزوهن» فى طريقه إلى أن يكسب نقودًا من هذه المغامرة، إذ طلب منه «سام دريمان» أن يتولى الدعاية، وهى كلمة لم أسمعها من قبل، وكنت فى حاجة إلى أن تشرح لى.

فقال «فيتلزوهن» وهو يرتشف شايه ويدخن سيجارته:

ـ ما نوع رجل الدعاية الذى سوف أؤديه على أى حال؟ إذا لم ترقنى المسرحية فلن أمتدحها.

وأردف:

ـ على أنه من الواضح أن «سام دريمان» مليونير كبير، وهو فى السبعين من عمره أو يزيد، وله زوجة بغيضة وأولاد جفاة، وهم أغنياء بحكم حقهم


Twitter: @ketab_n

الشخصى، إذًا فماذا عليه أن يصنع بالنقود؟ إنه يريد أن ينفقها ما استطاع، وبتى هذه لا بد قد أعادت إليه فحولته، إنى لم أتعرف على أيهما فى أمريكا، وإن سمعت عنه هو، بل يُخيَّل إلى أنى قابلته مرة فى مقهى رويال، وهو نجار بحكم الصنعة جاء إلى أمريكا فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وأصبح بناءً فى ديترويت، وعندما بنى «فورد» مصانع سيارته هناك، وبدأ يدفع للعامل عنده خمسة دولارات فى اليوم تدفق عليه الناس من كل أنحاء أمريكا، بل العالم فى الحقيقة، وكان «سام دريمان» يبنى المنازل والمصانع حينذاك، وحين يبدأ المال فى التدفق على شخص فى أمريكا فليس ثمة حد لذلك، وفى عام ١٩٢٩ خسر «سام» مالاً يعد ثروة ولكن بقى قدر كاف، يجب أن تأخذ الدولارات الخمسمائة كلها، فهى بالقياس إليه مبلغ تافه، لسوف يظنك أبله أخرق.

- لا أقبل نقودًا عن بضاعة لم توجد بعد.

- إذًا فعليك أن تكتب مسرحية جيدة، فالأمريكيون يؤمنون بالدفع، قد تعطيه طينًا، ولكن إذا دفع لك الكثير فيه أصبح ذهبًا.

وتلهفت على الذهاب إلى المنزل لأَنْكَبَّ على العمل، إلا أن «فيتلزوهن» أخذ يشرح لى كتابه «رحلة نفس» الذى كان يعده ليطرح فى السوق، فقال: «التحليل النفسى ليس هو الحل، المريض يأتى إلى المحلل النفسى لكى يشفى، أى ليصبح كأى شخص آخر، وهو


Twitter: @ketab_n

يريدالتخلص من عُقَدِه، ومن المفروض أن يساعده المحلل فى هذا المسعى، ولكن مَنْ قال إن الشفاء أفضل من المرض».

وأضاف أن أولئك الذين سوف يسهمون فى رحلته النفسية لن يلتزموا بأى قيود.

وكذلك قال:

«لسوف نجتمع فى حجرة ذات مساء والأنوار مطفأة، ونطلق العنان لأنفسنا تمامًا، إذ يجب أن نمنح الإنسان الشجاعة لكى يكشف لنفسه وللآخرين عن رغباته الحقيقية».

واستطرد:

«إن الطغاة الحقيقيين ليسوا من يقمعون الجسد أو يقهرونه (وهو مقيد على أى حال)، بل الذين يستعبدون الروح، إن دعاة التحرر المزعومين جميعهم مستعبدون للروح! موسى وعيسى ومؤلف الباجافيدا[٦٦] جيتا وإسبينوزا وكارل ماركس وفرويد[٦٧]، الروح لعبة غير محكومة بقواعد أو قوانين، فإذا كان «شوبنهور» على حق، وكان المحجوب أو المستتر هو الشىء فى نفسه حقيقة، وجوهر الأشياء جميعها، فلماذا لا ندع الراغب فى أن يرغب؟

فسألته:

ـ ما الغاية من الرغبة فى نهاية الأمر؟


Twitter: @ketab_n

ـ مَنْ قال إن لا بد من غاية؟ ربما كانت الهَيُولى[٦٨] هى الهدف، إنك ألقيت نظرة على القبالاة وتعلم أن الإبن سوف» ـ الذى لا نهاية له ـ قبل أن يخلق العالم غَـيَّب نوره أولاً، وَشَكَّل الفراغ، وفى هذا الفراغ بدأ الفيض، ولعل هذا الغياب الإلهى هو جوهر الخلق نفسه.

وهبط المساء، بيد أن «فيتلزوهن» استمر يتحدث، ولما خرجنا كان الوقت ليلاً، والأنوار مضاءة فى شارع «بيلانسكا»، وثمة ثلج رهيف يتساقط، وكالعادة بعد أن يسهب «فيتلزوهن» فى الحديث لزم الصمت، وانتابه القلق والخجل من إسهابه، ثم صافحنى، وانطلق فى اتجاه شارع «دلوجا»، وسرت أنا نحو شارع «ليزنو»، وبدا غريبًا أن يمتلئ جيبى بالنقود فجأة، وأن تكون لى حجرة أنيقة، بل وخادمة أيضًا تهيئ فراشى وتحضر لى طعام الإفطار، وحركت كوامن نفسى كلمات «فيتلزوهن»، نعم، فما الذى أرغب فيه فى الحقيقة؟، لقد شعرت بأنى مشدود إلى «بتى سلونيم»، وأن قبلة «سيليا» واعترافها لى ينبئ بقرب نشوء علاقة غرامية جديدة، ولم أكن أرغب فى رحيل «دورا»؟ ولكن هل أنا متيم بهؤلاء النسوة؟، طيب، وماذا أرغب فيه غير ذلك؟ لقد حلمت بتأليف كتاب متقن، وأنا الآن أرغب كذلك فى تأليف مسرحية محبوكة تمامًا، وازداد سقوط الثلج بكثافة أكبر، مما جعل جفونى تختلج، وتسبب فى انطلاق أشعة كالسهام من أعمدة الإضاءة وواجهات الدكاكين، وحيرتنى تلميحات



Twitter: @ketab_n

«فيتلزوهن» المستمرة أن «سيليا» راغبة فىَّ، أتراه يحاول أن يفرضها علىَّ، أم أن نتقاسمها معًا أنا وهو، فقد سمعته يقول إن الإنسان ليوشك أن يستبدل بغريزة الغيرة غريزة المقاسمة، واعتزمت أن أعمل إلى وقت متأخر من الليل، على أن الإرهاق والتعب قد حلا بى وأنا أصعد السلالم، وأدخلتنى «تيكلا»، وهى تلبس مريلة بيضاء قصيرة، وغطاء للرأس برباط كالخادمة فى عيادة طبيب، وابتسمت لى بمودة، وأرتنى الستائر التى علقتها فى حجرتى، وكانت قد أعدت من قبل فراشى، وسألتنى عما إذا كنت أريد بعض الشاى، فشكرتها، وقلت لها ليس الآن، وحاولت التغلب على تعبى، فجلست أعيد كتابة الفصل الأول من «العذراء لادومير»، على أنى بدلاً من ذلك شرعت أكتب مسرحية جديدة تمامًا، وخُيِّل إلىَّ أنى فقدت السيطرة على قلمى، وأنه ينطلق أسرع من أصابعى، ومع أن مديرة المنزل وضعت لى مكتبًا مغطى بلباد أخضر، فضلاً عن مصباح مكتب ذى واق من الضوء، فقد ازداد سطوع الأشياء أمام ناظرى إلى حد يبهر البصر، آه، ها هو ذا العدو الداخلى المخرب يشن حملة شعواء علىَّ، إنى لأدرك حيله وآلاعيبه، أريد أن أنجح ويسعى هو إلى أن أخفق، ووجدتنى أغفل حروفًا وكلمات بأكملها، فأخذت أراجع الكتب التى يفترض أنها تساعد على توجيه سلوكى مثل «تربية الإرادة» لبايوت، ومؤلف «تشارلز بودوين» عن الإيحاء الذاتى، والمفكرة التى دونت فيها قواعد للحياة والعيش وكذا


Twitter: @ketab_n

وسائل تحقيق الصحة الروحية، على أن التعب تغلب على، وسقطت علىَّ الفراش بملابسى، وسيطرت علىَّ الأَحلام والكوابيس فى الحال، وعندما فتحت عينى كانت الساعة تشير إلى الثانية إلا ربع، فحملتُ نفسى على خلع ملابسى بصعوبة قبل الاستغراق فى النوم من جديد، وواتتنى القدرة فى أحلامى على تحليل ما أقوم به، نعم، الأحلام هى بدقة ما ينشده الدكتور «فيتلزوهن» لترد الإنسان إلى التخبط والفوضى الروحية ونزوات الوثنيين وضلالات المجانين، وفى نومى أصبحت «بتى» و«سيليا» شخصًا واحداً، وإن لم يكن ذلك بصورة تامة، واقترنت بهذه الأنثى المجموعة المتعددة، وقد وقف «هايمل» على مقربة منا يشجعنا، وهذا الاقتران له علاقة بالمسرحية إلى حد ما كذلك، أسيليا هى العذراء لادومير، أبتى هى «روح» الزانية؟ وهل أنا الموسيقى الأعمى؟، ولكن ليس لدى ميل معين نحو الموسيقى، لقد عرفت «بتى سلونيم» فى أقل من يومين، ولكن ها هى ذا تقاسمنى هنا أحلام يقظتى، بل وأطياف منامى كذلك، وهى معى بطريقة ما وجزء منى ومن أفعالى وتفلسفى، لقد أراد «فيتلزوهن» أن يعيد النفس إلى «الهيولى البدائية» التى تطورت منها كل الأشياء، ولكن كيف تخلق «الهيولى» شيئًا أو تبدعه؟ أى شىء؟ هل الغاية وليست السببية هى جوهر الوجود؟ هل الغائيون على حق بالرغم من كل شىء؟



Twitter: @ketab_n

## (٢)

كنت اعتزمت أن أصحو فى السابعة، ولكنى حين استيقظت سمعت الساعة تدق تسع دقات فى حجرة الجلوس، وطرقًا على بابى ذى الألواح الزجاجية المنقطة، ودخلت «تيكلا» تحمل صينية مغطاة بفوطة مائدة، وأحضرت لى بيضًا وأرغفة وجبنًا وقهوة، وقد نمت أكثر من سبع ساعات مررت فيها بفترة حافلة بالأحلام نسيتها عدا جانبًا منها ـ رأيتنى انزلق من فوق جبل بينما ينتظرنى عند سفحه عصبة من الهمج بالهراوى والرماح والفئوس والبلط، وهم يتصايحون نصف صياح ويترنمون بلحن نصف ترنم، وكانت لا تزال بقية من صياحهم وترنمهم فى أذنى اختلط فيها الحزن بالجنون، واعتذرت الفتاة قائلة: حسبتك استيقظت.

ـ أوه، لقد نمت أكثر مما ينبغى.

ـ هل أعيد الصينية إلى المطبخ؟

ـ كلا، سأغسل فيما بعد.

ـ لديك إبريق ماء وحوض هنا إلى يمينك، وفوطة أيضًا.

ـ شكرًا يا تيكلا، شكرًا جزيلاً.

وغلب علىَّ شعور بأنى قد منحت أكثر مما أستحق، لماذا يجب على هذه الفتاة الريفية أن



Twitter: @ketab_n

تنتظرنى؟ لا شك أنها واقفة على قدميها منذ السادسة صباحًا، وقد رأيتها بالأمس وهى تغسل الملابس، وودت لو أنى منحتها شيئًا، على أنى لم أستطع الوصول إلى الجاكت المعلق، وابتسمت هى كاشفة عن أسنان لا يشوبها أدنى عيب، وكانت سيقانها قوية ونهداها راسخين، ووضعت الصينية على المائدة بحرص، وتأملتنى كما لو كانت تريد أن تسبرغور أفكارى، وقالت:

ـ بالهنا والشفا.

ـ شكرًا يا تيكلا، أنت فتاة رائعة.

ـ فظهرت غمازة على خدها الأيسر، وقالت وهى تغادر الحجرة ببطء:

ـ متعك الله بالصحة.

فقلت لنفسى: «هؤلاء هم الناس الحقيقيون، الناس الذين يعملون على استمرار العالم ويقدمون الدليل الساطع على أن القباليين على حق لا فيتلزوهن، لا يمكن أن يخلق «تيكلا» إله مجنون أو غير مبال، وشعرت أنى مفتون بتلك الفتاة إلى حين، إذ كانت وجنتاها فى لون التفاح وتضرب بجذورها فى الأرض وفى الشمس وفى كل الكون، لا تريد أن تحسن العالم أو ترقيه مثلما تريد «دورا»، ولا تحتاج إلى أدوار أو نقاد كبتى ولا تنشد الإثارة كسيليا، تريد أن تعطى لا أن تأخذ، ولو أن أهل بولندا أنجبوا تيكلا واحدة فحسب لكفاهم، فقد أدوا المهمة.



Twitter: @ketab_n

وصببت من الإبريق الفخارى قليلاً من الماء فى حوض المغسلة، وبللت يدى وجففتهما بالفوطة، وأخذت رشفة من القهوة وقضمة من الرغيف الطازج، وشعرت بحاجة ملحة إلى الدعاء بالخير والبركة والشكر للقوى التى جعلت القمح ينمو وحبوب البن تظهر للوجود، والشكر للدجاج الذى وضع البيض، لقد ذهبت إلى الفراش مبتئسًا ونهضت سعيدًا تقريبًا، وخبط على الباب شخص ما وفتحه، كان «فالدك» ابن مالك المنزل الذى انقطع عن دراسته القانونية فى جامعة وارسو، وجعل يقضى اليوم كله فى المنزل يقرأ التافه من الكتب وينصت إلى الموسيقى واللغو المنبعثين من المذياع، وكان طويل القامة ونحيلاً وشاحبًا وذاجبين عال وأنف رفيع، وكان فى نظرى يبدو عليه المرض بدنيًا وعقليًا، وكان والده يتكلم البولندية بلكنة ييدية، أما هو فيتكلمها بطريقة أنيقة تتماشى مع قواعد اللغة. قال «فالدك»: معذرة يا سيدى أن أزعجتك وأنت تتناول وجبتك، فأنت مطلوب بالتليفون.

فوثبت دالقًا قهوتى، فهذه أول مكالمة لى هنا، وخرجت إلى الممر، و«نتشت» السماعة، كانت «سيليا»، قالت:

- أعلم أن محمدًا إذا لم يأت إلى الجبل، فيجب على الجبل أن يأتى إليه هو، ولكن المشكلة أنى لا أعتبر نفسى جبلاً، لقد سمعت عما وقفت إليه، وأريد


Twitter: @ketab_n

أن أهنئك عليه، أظن أننا أصدقاء، أما إذا كنت تفضل البقاء بعيدًا فهذا حقك طبعًا، ومع ذلك أود أن تعلم أنى فرحة بك جدًا.

فهتفت باندفاع شأن المتهورين النزقين الذين يقولون كل ما يصل إلى شفاههم:

ـ أنت لست صديقتى فحسب، بل إنى أحبك.

ـ أوه، حقًا؟ طيب، لطيف أن أسمع هذا، إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم أسمع منك هذا؟ لقد كنت بمثابة الصديق أو الأخ عندما جئت إلينا، ثم ابتعدت ولزمت الصمت، أهى طبيعتك أم هو نظام اعتدت عليه؟

ـ لا نظام ولا شىء من هذا القبيل، إنى أدرك كم أنت مشغولة.

ـ مشغولة؟ بماذا انشغل؟ ماريانا تصنع كل شىء، أنا أجلس وأقرأ، كم من الصفحات تقرأ؟ جماعة من الأمريكان زارت موريس أخيرًا، ولذا لم أره لا قليلاً ولا كثيرًا، أنا أدعوه السفير الأمريكى الثانى لبولندا، ليس ثمة من أتبادل معه بضع كلمات فى دائرتنا عداكما أنتما الاثنان، وهايمل، بارك الله فيه، شاغل نفسه، أكثر مما ينبغى بالصهيونية العمالية، إنى أؤمن بفلسطين وكل هذه الأمور، ولكن إنجلترا تصنع ما يحلو لها فى انتدابها، أيام تمر دون أن أكلم أحدًا كلمة واحدة.


Twitter: @ketab_n

فانطلق فمى قائلاً بمحض اختياره:

ـ مدام شنتشينر، كلما أردت لقائى فما عليك إلا أن تتصلى بى تليفونيًا، إنى أفتقدك كذلك.

فتوقفت «سيليا» قليلاً، وقالت:

ـ إذا كنت تفتقدنى، فما الذى يبقيك بعيدًا؟ ادعنى «سيليا» لا مدام «شنتشينر» تعال نتبادل الحديث، فلنتقابل عند الحلوانى إذا كنت تفضل، أنت على الأرجح مشغول بالمسرحية، أخبرنى موريس بكل ما يتعلق بها، ولكن ليس كل كاتب يكتب عشر ساعات فى اليوم، ترى أى نوع من النساء «بتى سلونيم» هذه؟، أظنك غارقًا فى حبها الآن.

ـ كلا، لست كذلك.

ـ إنى لأحسد أحيانًا النساء اللاتى مثلها، فهن يتجهن إلى هدفهن مباشرة، فقد اختارت رجلاً عجوزًا ثريًا يعشقها، لسوف يصنع لها كل شىء كى يجعلها مشهورة، فى رأيى، هذا متاجرة بالشرف، فمنذ متى لم تبع النساء أنفسهن من أجل النقود؟ إذا حصلت الواحدة على زلوتين مقابل البيع فهى بغى، أما عندما يكون المقابل آلافًا عديدة وماسًا وفراءً فهى سيدة، لم أكن أعلم أنك تكتب مسرحيات، أخبرنى موريس بفكرتها، موضوع شائق، متى ستفرغ من كتابتها؟

ـ متى أجىء إليك؟


Twitter: @ketab_n

ـ تعال للغداء اليوم، فقد ذهب هايمل لوالده فى لودز، وأنا وحدى تمامًا.

ـ ما الوقت المناسب؟

ـ الثالثة.

ـ بديع، سأراك فى الثالثة.

ـ لا تتأخر.

ووضعت السماعة، إنها متوحدة، وقد قاسيت أنا من التوحد، أما الآن فقد تبدل حظى فجأة، ولكن إلى متى؟، صوت داخلى (العقل اللاواعى الذى لا يخطئ أبدًا كما يزعم هارتمان) صوت حدثنى أن هذا لن يستمر طويلاً، وأن كل شىء سوف ينتهى إلى كارثة، إذًا فلماذا لا أستمتع باللحظة التى أنا فيها؟ النوم جلب إلىَّ الهدوء والسكينة بطريقة ما، ولكن ها هو التوتر يعاودنى الآن، وقررت ألا تكون الخطوة الأولى مع «سيليا» من جانبى، وتركت لها هى المبادرة تمامًا، وعدت إلى إفطارى الذى لم أكمله، نعم، يجب علىَّ أن أجد المتعة قبل أن أموت وأصير عدمًا، وذكرت نفسى أنى لم أتحقق من النقود التى تركتها فى جيب سترتى الليلة الماضية، فربما سرقنى أحدهم وأنا نائم، أو ربما مدت «تيكلا» يدها فسلبتنى كل ما معى، فقفزت وتحسست جيبى، كلا، لم يسرقنى أحد، إن «تيكلا» فتاة أمينة، ومع ذلك أخذت أعد الأوراق النقدية حتى وأنا أشعر بالخجل من عدم ثقتى بها، وكان ثمة خبطة


Twitter: @ketab_n

أخرى على الباب، ودخلت «تيكلا» لترى إذا كنت فى حاجة إلى مزيد من القهوة، فقلت:

- كلا، يا عزيزتى تيكلا، لقد حصلت على كفايتى. ونفحتها زلوتًا، فتضرج خداها بالحمرة.

## (٣)

وصلتُ إلى منزل «هايمل» بشارع «زلوتا» فى تمام الثالثة، ولكى أصل إلى هناك سرت فى شارع «أيرون» حتى ملتقى شارعى «تواردا» و«زلوتا»، ثم انعطفت إلى اليسار، وكان شارع «زلوتا» مهجورًا على الدوام تقريبًا - فهو شارع سكنى ليس به دكاكين أو محلات، ومعظم المقيمين به من الأثرياء ذوى الأولاد القليلين أو المتزوجين، وكان المبنى المكون من خمسة طوابق الذى يسكن فيه «هايمل» رماديًا غامقًا ذا شرفات محمولة على أكتاف تتخذ أشكالاً أسطورية، وكان على المرء أن يدق جرسًا كى يصل إلى المدخل الأمامى، وكان الدرج من الرخام، بيد أنه بلى من كثرة الاستعمال، وثمة مبصقة على كل بسطة من البسطات يطل المرء على فناء مربع، وصندوق قمامة صغير مغلق يعلوه الثلج، فضلاً عن حديقة بالغة الصغر يكسو الصقيع فروع أشجارها عاكسًا ألوان قوس قزح، وردت علىَّ «سيليا» عندما قرعت الجرس، وأوضحت لى أن الخادمة «ماريانا» ذهبت لزيارة أختها، ودعتنى للدخول، وكانت الشقة تتلألأ من النظافة، والمائدة معدة فى حجرة


Twitter: @ketab_n

الطعام، حيث توجد خزانة صينى ضخمة تتألق بالبلور والفضة، ولوحات معلقة على الحوائط لوجوه رجال ذوى لحى بيضاء ووجوه نساء يضعن على رءوسهن شعرًا مستعارًا ويتزين بالحلى، وقالت «سيليا»:

- أعددت لك طبقك المفضل، بطاطس بالبرغل وكفتة.

وأرتنى موضع «هايمل» على رأس المائدة، ومن طريقة حديثها معى بالتليفون توقعت أن تقبلنى لحظة دخولى تعبيرًا عن رفع الكلفة بيننا، بيد أن تعبيرات وجهها دلتنى على أنها لم تكن فى حالة نفسية تسمح بذلك، فبدت متحفظة، وجلسنا متباعدين يواجه كل منا الآخر، وقامت هى على خدمتى، وقد ظننت أنها أبعدت الخادمة لنكون بمفردنا، وأكلت كثيرًا، إذ فتح المشى فى البرد شهيتى، وسألتنى عن المسرحية، وعندما أجملت لها فكرتها وجدتنى أجرى فيها تغييرات غير متوقعة، إذ كان الموضوع جذابًا يشد، مثل التوراة: له سبعون وجهًا مختلفا، فقالت:

- أين ستجد الممثلين لهذه المسرحية؟ وماذا عن المخرج؟، إذا لم يتم إخراجها بطريقة صحيحة تمامًا فلسوف تتحول إلى شىء مبتذل للغاية، فإن ممثلينا باليديدية فى وارسو من نوع سيىء، أنت نفسك تعلم هذا، إنى لم أر شيئًا يستحق المشاهدة على خشبة المسرح طوال هذه السنوات.

- أخشى أن أكون قد وقعت فى شرك.

Twitter: @ketab_n

- إذا لم تكن قد سلمت إليهم المسرحية فلا تفعل حتى ترضى عنها تمامًا مثلما ترغب، هذه نصيحتى إليك.

- إن سام دريمان على وشك أن يستأجر مسرحًا وفريقًا.

- لا تدعه يفعل ذلك، فهو كما علمت من موريس رجل عامى، نجار سابقًا، إذا ساءت الأمور فلسوف يؤثر ذلك على سمعتك، ولم تكن هذه «سيليا» التى رأيتها أول ما زرتها، بيد أنى اعتدت على التقلبات الحادة فى نفسى وفى نفوس الآخرين، وقد يخجل الإنسان العصرى من العاطفة مع أنه عاطفى وحساس للغاية، وقد يتأجج حبًا ثم يغدو باردًا كالثلج، وقد يألف الناس ويقبل عليهم لحظة ثم يبتعد عنهم لحظة أخرى، إن هذه التقلبات العجيبة لم تعد تدهشنى، والحقيقة أنى كثيرًا ما أرتبت أنى أنوم مغناطيسيًا بدون قصد منى الذين أخالطهم وأفرض عليهم حالاتى النفسية، وبعد الغداء دخلنا قاعة الاستقبال، وقدمت لى «سيليا» شراب الكرز والفطائر، وكانت الحوائط مغطاة بلوحات زيتية لفنانين يهود هم: ليبرمان، ومنكوفكسى، وجلسنشتاين، وشاجال، وريباك، وروبنلخت، وبارليفى، والآثار اليهودية معروضة فى خزانة زجاجية: علب توابل، وكأس نبيذ البركة مموه بالذهب، وشمعة عيد الحانوكة(٦٩)، وسلطانية عيد الفصح، وحافظة سفر إستير(٧٠)،


Twitter: @ketab_n

وسكين قطع خبز السبت ذو مقبض من عرق اللؤلؤ، وعقد زواج مزخرف بماء الذهب والفضة، ومؤشر وتاج طومار توراة، وكان من العسير على أن أصدق أن هذا الإيغال فى اليهودية محض زينة، فقد غاب جوهر اليهودية عن الكثيرين منا منذ أمد بعيد، وتناقشنا أنا وهى فى التصوير بعض الوقت ـ التكعيبية والمستقبلية[٧١]، والتعبيرية، فقد حضرت أخيرًا معرضًا للفن الحديث خيب آمالها تمامًا، كيف يدلنا الرأس المربع والأنف الشبيه بالعقلة على الإنسان وحيرته ومآزقه، ما الذى تعبر عنه الألوان الجافية التى تفتقد التناسق والانسجام وليس لها أساس من الواقع؟ وفيما يتعلق بالأدب فقد قرأت هى «جوتفريد بن» و«تراكل دوبلر»، وقرأت أيضًا ترجمات لقصائد فرنسية وأخرى أمريكية لم تؤثر فيها بشىء، وقالت عنها: «كل ما تريده هو أن تدهشنا وأن تصدمنا، ولكنا نمتص الصدمة بسرعة ونستوعبها»، وأخذت تنظر إلى على نحو غريب، وخيل إلى أنها تتساءل مثلى عن سبب تصرفنا على هذا النحو التقليدى، وقالت:

ـ إنى متأكدة أنك متيم ببتى سلونيم، حدثتى عنها.

ـ ماذا يمكن أن يقال؟ إنها تريد نفس الشىء الذى نسعى إليه جميعًا، أن تقتنص بعض المتعة قبل أن تختفى إلى الأبد.

ـ ما الذى تسميه متعة؟ النوم ـ إذا سامحتنى ـ مع نجار فى السبعين من عمره.



Twitter: @ketab_n

ـ إنه ثمن المتع الأخرى التى تحصل عليها.

ـ ماذا مثلا؟ أنا أعرف نساء على استعداد للتخلى عن كل شىء ليمثلن على المسرح، يخيل إلى أن هذا هوى عجيب، أود فى الوقت الحاضر لو ألفت كتابًا قيمًا، ولكنى أدركت منذ وقت مبكر أنى لا أملك الموهبة التى تؤهلنى لذلك، وهذا سبب إعجابى كثيرًا بالكُتَّاب.

ـ من هم الكُتَّاب؟ إنهم من جنس العاملين على تسلية الناس كالسحرة، الحقيقة أنى أعجب بالشخص الذى يحافظ على اتزان البرميل على قدميه أكثر مما تعجبنى قصيدة أطالعها.

ـ أوه، أنا لا أصدقك، أنت تسخر مع أنك فى الحقيقة شاب جاد، يُخيَّل إلىَّ أحيانًا أنى أرى ما بداخلك مباشرة.

ـ ماذا ترين إذًا؟

ـ أراك مملاً باستمرار، كل الناس تمل منك عدا موريس فيتلزوهن، فهو يحبك تمامًا، لم يجد لنفسه مركزًا فى أى مكان، ومع أنه فنان بالدرجة الأولى فهو يريد أن يكون فيلسوفًا، وهو كالطفل يريد أن يكسر كل لعبة، ثم يبكى كى تُعاد إليه مرة أخرى، وأنا أعانى من نفس المرض رغم أنى لست فنانة، كان من الممكن أن نتقاسم حبًا عظيمًا، على أنه لا يريد ذلك، لقد روى لى كيف يغازل الخادمات، لقد دأب على رشى


Twitter: @ketab_n

بماء بارد يكفى لأن يطفئ أكثر النار اشتعالاً، عدنى ألا تعيد كلماتى على مسمعه، إنه يدفعنى إلى ذراعيك عن عمد، ويفعل ذلك بدافع من جنون، وتتألف لعبته من إشعال النار فى امرأة ثم تركها لنفسها، على أن له قلبًا كذلك، إذ يتحرك ضميره حين يرى هو القريبين منه قد لحقهم الأذى بسببه، وهو محب للاستطلاع إلى حد المرض يريد أن يجرب كل شىء ويخشى أن تبقى عاطفة فى مكان ما لم يذقها.

- إنه يريد تأسيس مدرسة للمتعة.

- خيالات حمقاء، لسنوات وأنا أسمع عن الطقوس العربيدة، إنى لمتأكدة أنها لا تحقق أى إشباع، وهى تلهى الصبية الصغار البالغين من العمر خمسة عشر ربيعًا، كما تلهى البغايا لا الرجال الناضجين، يجب أن تكون سكيرًا أو مجنونًا كى تُسهم فيها، فى باريس يستطيع السائح أن يشاهد أفعال الشذوذ الجنسى مقابل خمسة فرنكات، القلة من الكُتَّاب فى نادى الكُتَّاب الذين يثرثرون فى هذه الأمور هم من كبار السن أو المرضى الذين لا يكادون يقفون على أقدامهم.

ران الصمت علينا لحظة، ثم سألتنى:

- ماذا عن عشيقتك الشيوعية؟ ألم تذهب إلى أرض ستالين بعد؟

- أتعلمين عنها أيضًا.



Twitter: @ketab_n

ـ موريس يتحدث عنك دائمًا.

ـ من المتـوقع أن تذهب فى أية لحظة، انتـهى كل شىء بيننا.

ـ كيف أنهيت علاقتك بها؟ لم أستطع أن أنهى أى شىء، سمعت أن لديك أخيرًا حجرة جميلة.

ـ أجل، بنقود سام دريمان.

ـ ألها شرفة؟

ـ كلا.

ـ قلت لى فـيـمـا مـضـى إنـك تحب أن يكون لـديك شرفة.

ـ ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

ـ أحس أحيانًا أن بعض الناس لا يدركون شيئًا مما تهفو إليه نفوسهم، لأنه ليست لديهم الشجاعة أن يمدوا أيديهم، وأنا واحدة من هؤلاء.

فسألتها:

ـ ماذا يحدث لو مددت أنا يدى إليك الآن؟

فتحركت فى كرسيها قائلة:

ـ جرب.

فـفـعلت، فنظرت هـى إلىَّ فى سـخـرية، ووقـفـت قائلة:

ـ لعلك تريد تقبيلى.


Twitter: @ketab_n

فأحطتها بذراعى، وتبادلنا القبل فى صمت وقتًا طويلاً، وحركت شفتيها كأنما تريد أن تقول شيئًا، على أنها لم تتفوه بكلمة، وقالت فيما بعد:

ـ لا تخبر «فيتلزوهن» فهو صبى صغير غيور.

## (٤)

وحل الغسق، وخفق اليوم الشتوى كالشمعة ـ الذى لن يوجد يوم يماثله مرة أخرى، هذا إذا لم يكن «نيتشه»[٧٢] على حق فى مقولته بالتكرار السرمدى، وللحظة انعكست صورة لوح زجاج قرمزى على حائط قاعة الاستقبال إشارة إلى صفاء جانب من السماء من ناحية الغرب قبل غروب الشمس، ولم تضئ «سيليا» الأنوار، وكان وجهها فى الظل، وعيناها تشعان فيه كأنما تلقيان بوهجهما، ثم اعتمت الحجرة مرة أخرى، ومن خلال النافذة لاح نجم يتلألأ من فرجة بين السحب، وحاولت من موضع جلوسى أن أثبت صورته فى ذاكرتى قبل أن يغيب عن بصرى، وتلهيت بفكرة كيف الحال إذا بقيت السماء ملبدة بالغيوم على الدوام، ثم انفرجت لمدة ثانية واحدة فقط كل مائة عام، وتسنى لشخص أن يلمح نجمًا، لسوف يُحدثُ الناس عن كشفه هذا، ولكن أحدًا لن يصدقه، ولسوف يقال عنه إنه كذاب أو يُتَّهَم بالهلوسة، خلف كم من السحب تكمن الحقيقة الآن محتجبة؟ ماذا أعلم عن النجم الذى أتطلع إليه؟ إنه نجم ثابت وليس كوكبًا،


Twitter: @ketab_n

ولعله أكبر من الشمس، ترى ما عدد الكواكب التى تدور حوله؟ وكم عدد العوالم التى تستمد منه أسباب البقاء؟ ومن ذا يستطيع أن يتخيل نوع المخلوقات التى تحيا هناك؟ وما النباتات التى تنمو أو الأفكار التى يظن أنها موجودة هناك؟ وكذلك توجد بلايين من النجوم الثابتة كهذا فى مجرتنا درب التبانة وحدها، وهى لا يمكن أن تكون محض صدف كيميائية أو طبيعية، ومن ثم كان لزاما أن يكون هناك من يوجه الكون اللانهائى ويضبط حركته، وتنتقل أوامره أسرع من الضوء، وأن يكون من القدرة المطلقة وسعة العلم بكل شىء بحيث يوجه كل ذرة وكل جزىء وكل مخلوق متناه فى الصغر وكل ميكروب، بل ويعلم كذلك أن «هارون جريدنجر» قد شرع منذ قليل فى علاقة غرامية مع «سيليا شننتشينر».

ودق جرس التليفون، وكانت «سيليا» تجلس فى كرسيها المريح صامتة مستغرقة فى أفكارها، فمدت يدها بتكاسل إلى المنضدة الصغيرة التى استقر عليها التليفون، وتشدقت فى الكلام بتلك النغمة الرتيبة التى درجت عليها وارسو دون سواها فى المحادثات التليفونية، هايمل؟، لماذا تأخرت هكذا؟ ظننتك سوف تتحدث فى وقت مبكر عن هذا ... ما هذا؟.... كل شىء على ما يرام، هايمل، لدينا ضيف، صديقنا الشاب جاء لتناول الغداء،.. كلا، أنا دعوته، إذا تعاظم فلسوف أعلمه كيف يتواضع، من أكون أنا؟ أنا مجرد ربة بيت، أما هو فكاتب، كاتب مسرحى، وهو الذى


Twitter: @ketab_n

يعرف ما ......، نعم، تناولنا طعام الغداء، وأقنعته بالبقاء إلى العشاء،... أوه، إن لديه ممثلة مشهورة الآن وشابة، وهى على الأرجح جميلة أيضًا، ماذا يروم من امرأة فى مثل سنى؟ كيف حال أبيك؟... هكذا؟ تمام، اجعله يتناول الدواء... غدًا؟ غدًا متى؟ فى قطار الثانية عشرة؟ طيب، لسوف أكون فى استقبالك بالمحطة...، ماذا كان يجب أن أصنع غير هذا مع نفسى؟... مضى يومٌ بأكمله ولم يتصل بى أحدٌ تليفونيًا، ولهذا بلعت كبريائى ودعوته للحضور... مَنْ؟ يُخرج، لا تنطق بهذا الهراء، إنه يعرف فى المسرح قدر ما أعرف أنا فى الفلك... لا تسخر منى، ولكن مخرجًا غير يهودى سوف يفهم الموضوع أفضل من أحد مخرجينا الريفيين، فهم (المخرجون غير اليهود) على الأقل قد درسوا المسرح ورأوه،... موريس؟، لم أسمع عنه قط، لقد نسينا هو أيضًا... آى، هايمل، أنت واحد من هذه الأنواع، وهو كذلك،... أتريد أن تتحدث إليه، سأعطيه التليفون، ها هو معك!...

وناولتنى «سيليا» السماعة، وكان للتليفون سلك طويل، إذ كان كل شىء فى هذه الحجرة مهيئًا لتجنب الجهد، فسمعت صوت «هايمل» الذى بدا ثاقبًا وأكثر حدة عما لو كنا نتبادل الحديث مباشرة،... تسوتسك، كيف حالك؟ سمعت أنك تعمل فى مسرحيتك، حسنًا، حسنًا، آن الأوان أن يكتب شاب لمسرحنا، العالم يتقدم ونحن مازلنا ملتصقين بالشيكابيكا وما إليها، فى كل مرة ذهبنا فيها أنا وسيليا إلى المسرخ اليبدى كنا


Twitter: @ketab_n

نقسم أن تكون الأخيرة، طيِّب، لكن عدم الذهاب ليس إنجازًا، إن الصهاينة المحافظين ينكرون الشتات ويقولون إن الحظ الحسن كله سوف يواتيهم فى فلسطين، وأن علينا ألا ننسى أنها مهدنا الوحيد، وأنه يجب علينا أن نكون قد ازددنا حكمة فى ألفى عام، وأن إنكار المنفى سوف يعينهم على إدراك الموقف واستيعابه، أنت كريم إذ جئت تقضى وقتك مع «سيليا»، مع مَنْ تُسلى نفسها؟ ليس لديها ما تقوله للنساء فى محيطنا، معهن الكلام هو هو دائمًا، هذا الفستان، ذاك الفستان، هذه القبعة أم الأخرى، كل حديثهن قالوا وقلن، لا تتعجل الانصراف، لا تكن خجولاً،... أتقول إنى غيور؟ هراء!، تُرى مَنْ القائل إن الناس حين يُفرّح بعضهم بعضًا يمجدون الخالق أيضًا، لقد كنت أغار على «سيليا» غيرة شديدة حينما تزوجتها، بل وقبل ذلك بوقت طويل ونحن مازلنا مخطوبين بحيث إذا أكثرت الحديث مع رجل آخر أو ابتسمت له كنت على استعداد لأن أدوسهما الاثنين بقدمى فى التراب، على أنى قرأت مرة فى كتاب حسيدى أن من تكون لديه خصلة ذميمة ويتغلب عليها تنقلب إلى عكسها تمامًا، وقد أدركت كذلك فى هذه الأيام أنك إذا أحببت امرأة حبًا حقيقيًا فصديقها صديقك ومتعتها متعتك ونشوتها نشوتك، تسوتسك، مازال لدىَّ شىء أقوله لسيليا، فكن كريمًا و...

فأعطيت السماعة لـ «سيليا»، وذهبت إلى الحجرة التى خصصها «آل شنتشينر» كمكتبة، وكانت معتمة إلا


Twitter: @ketab_n

من الضوء المنعكس الآتى من نافذة تطل على الشارع، فوقفت أسائل نفسى: هل أنت سعيد الآن؟، وانتظرت الإجابة من ذلك الينبوع العميق المسمى بالوجود الداخلى ـ الأنا، الأنا العليا، الروح أو أيًا كان اسمه، فلم تأتنى إجابة أو رد، وفتحت «سيليا» الباب قائلة: ماذا تصنع فى الظلام مثل روح ضالة؟ ليس لدينا أسرار نخفيها عنك.

ولم أجد من الكلمات ما يسعفنى للرد عليها، فقالت:

ـ كيف أبدأ علاقة غرامية وأنا أفكر جديًا فى الانتحار؟، هناك أناس فى سن معينة ينتهى بهم الحال نهاية طبيعية، فكل الكلام قد قيل، وكل الأفعال قد فُعِلت، ولم يبق سوى الموت، اعتدت أن أستيقظ وقلبى عامر بالأمل، أما الآن فلم أعد آمل فى شىء.

ـ لماذا يا سيليا؟، لماذا؟

ـ أوه، إنى لم أعد أصلح من أية ناحية، هايمل شخص كريم وأحبه، ولكنى أعرف ما سوف يتفوه به حتى قبل أن يفتح فمه، وموريس على العكس من ذلك تمامًا ولا تستطيع أن تحدد موقفك منه بالضبط، وفوق ذلك هو يحيا قريبًا من اليأس، أما أنت فأصغر منى بكثير جدًا وغير مستقر، وكذلك يخامرنى الشعور بأنك لن تمكث هنا فى وارسو طويلاً، لأنك


Twitter: @ketab_n

ببساطة سوف تُؤخذ من هنا وتختفى، فقد أخبرنى موريس بأن سام دريمان يرغب فى اصطحابك معه إلى أمريكا.

- إنه ثرثار كبير.

- هذه الأمور تحدث بسرعة، إذا واتتك الفرصة للهرب من هنا، فلا تنتظر، فقد وقعنا فى شرك بين هتلر وستالين، ومَنْ يغزو البلد منهما فسوف يأتى بالطوفان.

- لماذا لا ترحلين؟

- إلى أين؟ أنا لا أجد نفسى فى أمريكا.

- ما رأيك فى فلسطين؟

- لا أجد نفسى هناك أيضًا، إنها البلد الذى سوف نُحمل إليه على سحابة حين يجىء المسيح.

- أتؤمنين بهذا؟

- كلا ، يا عزيزى.


Twitter: @ketab_n

# الفصل الرابع

## (١)

أقبل الربيع مبكرًا هذا العام، وفى مارس أزهرت حدائق الـ «سكسونى»، ولم تكن مسرحيتى جاهزة، وحتى لو كانت جاهزة فقد فات موعد تقديمها للجمهور، إذ ذهبت كل العائلات الثرية لقضاء الصيف فى «أوتوك» و «سويدر» و«ميتشالن» و«جوزفو»، ولم تكن المسرحية هى المشكلة فحسب، بل ما عاناه «سام دريمان» من مشقة للحصول على مسرح كذلك؛ ولذا أُرجئ العرض الأول إلى عيد المظال، وذلك حين تبدأ المسارح اليدية موسمها بانتظام، وأعطانى «سام دريمان» دفعة أخرى قدرها ثلاثمائة دولار قدرت أنى سوف أدير بها أمورى إلى الخريف، وفكر هو فى استئجار منزل صيفى فى طريق «أوتوك»، وتخصيص حجرة لى هناك للعمل فى المسرحية تحت إشراف «بتى»، وكاشفنى بأنه يكسب آلاف الدولارات كل أسبوع حتى لو قعد بدون عمل فى وارسو، وقال:

- خذ قدر كفايتك، فإنى لن أنفقها جميعًا على أى حال.



Twitter: @ketab_n

وفى ذلك الوقت كنت من أشد المقربين إلى «سام» و«بتى» وكلاهما كان يدعونى «تسوتسك»، ومع ذلك كنت أدرك أن كل شىء متوقف على المسرحية، فكثيرًا ما استخدم «سام دريمان» كلمة «نجاح»، ونبهنى إلى ضرورة أن تصل المسرحية إلى الجمهور فى وارسو ونيويورك معًا وتؤثر فيه، إذ هو مازال عازمًا على نقلها إلى الأخيرة برفقتى أنا مؤلفها، وقال:

- إنى أعرف المسرح اليدى فى أمريكا مثلما أعرف ظهر يدى، ماذا لدينا نحن - المهاجرين - غير المسرح والصحافة اليديتين؟، ما من مرة قُدِمتُ فيها من ديترويت إلى نيويورك وأخفقتُ فى الاستمتاع فيها بأمسية فى المسرح، إنى أعرفهم جميعًا: آل أدلر، والسيدة ليبتزن، وكسلر، وتوماس شفسكى، ناهيك عن زوجته بسى، وهم يتكلمون اليدية الواضحة، وليست اليدية العويصة غير المفهومة التى تسمعها فى مسارح الفن، حيث يثيرون الضجر والملل فى الجمهور إلى أبعد حد بالوعظ والإرشاد، والناس تأتى إلى المسرح للاستمتاع لا للثورة على ملايين روكفلر.

وكنت أنا و«بتى» نُقبّلُ كل منا الآخر سواء أمام «سام» أو خلف ظهره، وحين ننكبُّ على النص المكتوب باليد تتناول يدى وتضعها على ركبتها، ولقد بدا لى أن رأى «فيتلزوهن» الذى ينافح عنه بأن غريزة الغيرة قد أصبحت لا وظيفة لها مثل الزائدة الدودية والعُصْعُص وأثدية الذكور إنما يصدق على هذين الاثنين - سام

وبتى ـ أكثر مما يصدق على «هايمل» و«سيليا»، إذ كان «سام دريمان» يبتسم ويمازحنى بود عندما تقبلنى «بتى»، وكثيرًا ما تركنا وحدنا وذهب للعب الورق مع معارفه فى القنصلية، وكان «فيتلزوهن» يذهب إلى هناك أيضًا، وقد ألقى محاضرة منذ وقت قريب بنادى الكتاب فى موضوع «الفيتامينات الروحية»، وتأهب للقيام بسلسلة من الرحلات النفسية، وكان صديقه «مارك إلبنجر» المنوم المغناطيسى قد قدم من باريس، فاطلعنى عن حقائق غير عادية عن هذا الرجل، فهو ينوم مرضاه عبر التليفون أو بالاتصال عن بعد فحسب، وذو شفافية، يعقد جلسات تحضير الأرواح فى برلين ولندن وباريس ونيويورك وأمريكا الجنوبية، وكان من المتوقع أن يشارك فى الرحلات النفسية، ونظرًا لأن «سام» كان يفضل لعب الورق على قضاء وقته فى البحث عن منزل صيفى فى قرى المناجع التى مازالت خالية بمنطقة «أوتوك»، فقد أرسلنى أنا و«بتى» للبحث عن فيلا مناسبة، حيث اعتزم أن يجرى بروفات المسرحية فيها، ووعد «فيتلزوهن» بأن يعقد جلساته النفسية «على الطبيعة»، وكان ثمة كلام أيضًا حول مائدة العاجزين جنسيًا عن إقامة حفل طقوس عربيدة ينظمه أستاذ العربدة الشهير «فريتز باندر»، وفى أحد الأيام تقابلت أنا و«بتى» عند محطة سكة حديد «دانزج»، واشترت لنا تذكرتين، وانتظرنا معًا فى الصف، حيث تنبعث هنا روائح الجعة والسجق والفحم والعرق، ويحمل


Twitter: @ketab_n

الجنود شدات ميدان كاملة فى انتظار القطار، وهم يقطعون الوقت فى جرع كيزان الجعة الضخمة التى تملؤها فتاة من برميل صغير، وكانت خدودها حمراء، وترتدى بلوزة محكمة الإغلاق أعلى الصدر، وكان الجنود يمازحونها ويتفوهون بكلام بذىء، فتبتسم عيناها خفيفتا الزرقة بشىء من الاستعلاء والارتباك كأنها تقول لهم: «إنى واحدة فقط وهيهات أن تنالونى جميعكم»، وكانت الصحف قد تحدثت كيف أصبح الجيش الألمانى معدًا إعدادًا كاملاً ومجهزًا بأحدث الأسلحة، أما هؤلاء الجنود البولنديون فيشبهون الجنود الروس عام ١٩١٤، فهم يرتدون المعاطف الثقيلة والعرق يتصبب من وجوههم، وتبدو بنادقهم طويلة أكثر من اللازم وضخمة أكثر مما ينبغى، ومع أنه محكوم عليهم بالذبح جميعًا، فقد أخذوا يسخرون من اليهود المرتدين ثيابًا طويلة من الجبردين، حتى أن أحدهم جذب بعنف لحية يهودى، وكان فى الوسع سماع صفيرهم الساخر، ولم أكن قد ركبت قطارًا لسنوات، ولم أسافر فى الدرجة الثانية قط، بل فى الدرجة الثالثة أو الرابعة فحسب دائمًا، ولكنى هنا أجلس على مقعد منجد مع سيدة أمريكية تعمل بالتمثيل، ونظرت من النافذة إلى بناية القلعة المشيدة بالآجر الأحمر التى يعلو سطوحها التراب ويتخللها العشب بكثرة، وهذه القلعة القديمة كانت معدة للدفاع عن وارسو، وتشتمل على سجن أيضًا، ومر القطار فوق جسر، والتمع نهر الفستولا، وهب نسيم قوى منه،


Twitter: @ketab_n

وانعكست الشمس على الماء ضخمة وحمراء، ومع أن الوقت كان متسعًا قبل غروبها، فقد ظهر قمر شاحب فى السماء، ومررنا بواقر، وميدزين، وفالنشيا، وميتشالن، وكان ثمة ذكريات لى مرتبطة بهذه المحطات، ففى ميدزين نمت لأول مرة مع فتاة، نمت معها فقط، ولم أفعل شيئًا، لأنها أرادت أن تحتفظ بعذريتها لزوجها، وفى فالنشيا ألقيت محاضرة لاقت فشلاً ذريعًا، ونزلنا أنا و«بتى» فى سويدر ـ المحطة التالية لجوزفو ـ حيث يمتلك «هايمل» و«سيليا» منزلاً صيفيًا، وينتظرنا سمسار عقارات بها، وتقدمنا بصعوبة فى الرمل حتى أتينا فيلا بدت لى قمة الرفاهية، بها شرفات وأحواض زهر وصوبات زجاجية، فضلاً عن خمائل تحيط بها من كل جانب، ويبدو أن «بتى» كانت حريصة على التخلص من السمسار إلى حد أنها أعطته فى الحال تقريبًا عربونًا قدره مائتا زلوتى، وقد علمنا فيما بعد فقط أن الفيلا ليس بها نور، وأنه لا توجد بياضات للأسرة، وأن أقرب مطعم أو مقهى فى المنطقة المجاورة على بعد كيلومترات، ولم تكن الفنادق الصيفية قد فتحت أبوابها بعد، وكان علينا أن نعود إلى وارسو وأن ننتظر صياغة العقد ثم إرساله إلى «سام دريمان»، ويبدو أن السمسار، وهو رجل ضئيل الجسم وذو لحية صفراء وعينان صفراوان، قد ارتاب فى نوايانا، فقال: «ما زال الوقت مبكرًا جدًا، والليل هنا بارد ومظلم، والصيف لم يحل هنا بعد، لكل شىء أوانه»، وخرج البواب من


Twitter: @ketab_n

كوخ ومعه كلبان ينبحان، وطلب من السمسار أن يعيد إليه المفاتيح، ونصحنا الأخير بالعودة إلى المحطة، لأن القطارات لم تكن تسير بانتظام فى ذلك الوقت من السنة، على أن «بتى» أصرت على أن ترى نهر سويدرك وشلالاته التى حدثها عنها هى وسام سمسار العقارات فى وارسو، وبينما نحن نسير أعادت هبة ريح باردة الشتاء إلينا من جديد، ولم تمض سوى دقائق حتى تلبدت السماء بالغيوم واختفى القمر وصك وجهينا خليط من المطر والبرد المتدافعين بسرعة، وخاطبتنى «بتى» على أنى لم أسمعها والريح تعصف، وبلغنا نهر سويدرك، وامتد الشاطئ الرملى أمامنا مبتلاً وخاليًا، وكان مياه الشلال المنخفض تسقط فى هدير صاخب، والمجرى الضيق يلمع على نحو غريب غامض، وطائران شتويان يطيران بموازاة السطح، ويطلق كل منهما للآخر طوال الوقت صيحات تحذير لكيلا يضلا طريقهما فى الشفق العاصف، وطارت قبعة «بتى» فى الهواء، وسقطت على حافة النهر، وأخذت تندفع متقلبة، واختفت فى الجنبات، فقبضت هى على شعرها المشعث بكلتا يديها كما لو كان شعرًا مستعارًا وأنشأت تصرخ فلنذهب! العفاريت فى أعقابى، ذلك هو الحال دائمًا كلما أضاءت ومضة من السعادة حياتى»، وألقت كيس نقودها على الرمل، وأحاطتنى بذراعيها، وجعلت تضغط علىَّ وهى تصرخ: ابتعد عنى، فإنى ملعونة، إنى ملعونة.



Twitter: @ketab_n

## (٢)

عاد الشتاء بعض الوقت، فارتدت «بتى» معطفها المصنوع من جلد السمور مرة أخرى، ثم تحسن الجو فى الربيع، وطفق النسيم العليل يهب من غابات براغ على نافذتى المفتوحة حاملاً معه شذا الأزاهير ورائحة العشب والتربة المحروثة حديثًا، وفى ألمانيا وطد «هتلر» دعائم قوته، على أن يهود وارسو احتفلوا بفرحة الخروج من مصر منذ أربعة آلاف عام، وفى ذلك اليوم لم أذهب إلى «بتى» فى فندق بريستول، بل أتت هى إلىَّ، فقد سافر «سام دريمان» إلى الملايو لحضور جنازة بنت عمه، ورفضت «بتى» أن تذهب معه، وقالت لى: «أريد أن أستمتع بحياتى، لا أن أحدَّ على امرأة غريبة»، وارتدت من جديد ثوبًا صيفيًا هو بذلة زرقاء خفيفة وقبعة من القش، وأحضرت إلىَّ باقة من الزهر، فأخذتها «تيكلا»، ووضعتها فى زهرية، ولم أسمع من قبل أن امرأة أحضرت زهرًا إلى رجل، ولم يدعنا الربيع نعمل، فالطيور تطير من أمام النافذة المفتوحة بصيحاتها وسقسقاتها، وتركنا المخطوط باليد على المنضدة وذهبنا إلى النافذة، وكان الطواران الضيقان يعجان بالمارة، فقالت «بتى»: «إن الربيع فى وارسو يجعلنى أجن، لا يوجد شىء كهذا فى نيويورك اسمه ربيع»، وبعد قليل نزلنا إلى الشارع، وأمسكت هى ذراعى بيدها المقفزة، وأخذنا نمشى على غير هدى، فقالت: أنت تتحدث دائمًا عن شارع


Twitter: @ketab_n

كروتشمالنا، فلماذا لا تأخذنى إلى هناك؟، فلم أجب فى الحال، وقلت:

- هذا الشارع مرتبط بشبابى ارتباطًا وثيقًا، أما بالقياس إليك فهو لا يعدو أن يكون حى فقراء.

- ومع ذلك أريد أن أراه، نستطيع أن نذهب فى عربة.

- كلا فهو ليس بعيدًا عن هنا، لا أصدق نفسى أنى لم أعد لزيارة كروتشمالنا منذ عام ١٩١٧.

وكان فى وسعنا أن نذهب إلى هناك عن طريق شارع «إيرون» على أنى فضلت أن نتمشى إلى «بريزجازد»، ثم، ننعطف جنوبًا، وعند مبنى المصرف القديم توقفنا لحظة أمام بوابته ذات الأعمدة الثقيلة، ومثلما كان يحدث فى صباى تمامًا كانت عربات النقود الخفيفة تجرى داخلة وخارجة تحرسها شرطة مسلحة، وكان شارع «زابيا» لا يزال مركز صنع القبعات النسائية وبيعها، وذا صفين من الواجهات التى تعرض القبعات الحديثة وتلك التى تلبسها العجائز فقط، قبعات بنقاب أو شبكة أو ريش نعام أو مصنوعة من خشب الكرز أو الكروم، وأخرى مصنوعة من الكريب الأسود لمن هى فى حداد، وخلف السور الحديدى لحدائق السكسونى نثرت أشجار الكستناء أزاهيرها، وكان ثمة مقاعد طويلة فى ميدان «إيرون جيت» يجلس عليها المتعبون من المارة فى ضوء الشمس، رباه، إن هذا المشى قد أيقظ فىَّ حماس،


Twitter: @ketab_n

الصبا، وتوقفنا أمام مبنى يسمى «صالة ڤينا»، حيث تقدم الأطعمة وضروب التسلية لمن يحتفلون بزفاف بناتهم، وبين الأعمدة كان النسوة لا يزلن يبعن المناديل والإبر والدبابيس والأزرار والسلع الياردية من البفتة والشيت والكتان، وفضلات المخمل والحرير أيضًا، ودخلنا شارع «جنونيا» فداعبت منخرى رائحة الصابون المألوفة والزيت وسماد الخيل، وكان فى هذه الناحية حُدر ومنازل درس ومنازل صلاة حسيدية، حيث حفظت التوراة عن ظهر قلب، وبلغنا شارع «كروتشمالنا»، فباغتتى أول شىء رائحة نتنة أذكرها من أيام طفولتى هى مزيج من زيت محروق وفاكهة فاسدة ودخان مدخنة، وأن كل شىء كما هو - الأرضية المرصوفة بالحصى الكبير، والبالوعة الشديدة الانحدار، والشرفات المتدلى منها الغسيل، ومررنا بمصنع ذى شبابيك مغطاة بالسلك، وحائط مسدود ذى بوابة خشبية لم أرها مفتوحة طوال شبابى، وكل منزل هنا مرتبط لدىَّ بذكريات، فرقم (٥) يشتمل على معهد تلمودى تلقيت فيه فصلاً دراسيًا، كما يوجد فى فنائه أيضًا حمام شعائرى، حيث كانت العقائل تأتين فى المساء ليغمرن أنفسهن فى الماء، واعتدت أن أراهن يبزغن نظيفات متوردات الخدود، وقد أخبرنى شخص أن هذا الحمام كان منزلاً للحاخام «إيتتش ميرآلتر» مؤسس أسرة «جير» منذ أجيال، وفى زمنى كان المعهد التلمودى جزءًا من منزل «جرودزيسك» للصلاة، وكان خادم هذا المنزل سكيرًا،


Twitter: @ketab_n

وكلما أفرط فى الشراب انطلق يروى حكايات عن القديسين والأرواح وحاملى الدروع أنصاف المجانين والسحرة والمشعوذين، وهو يأكل وجبة واحدة فى اليوم، هى دائمًا (فيما عدا السبت) خبز قديم مفتت فى البرغل، أما رقم (٤) فكان سوقًا ضخمًا (ساحة ياناش) ذا بوابتين، إحداهما تؤدى إلى شارع «كروتشمالنا» والأخرى إلى شارع «ميروفسكا»، وكانوا يبيعون هنا فى السوق كل شىء ـ الفاكهة والخضراوات ومنتجات الألبان والأوز والسمك، كما كانت توجد أيضًا دكاكين لبيع الأحذية المستعملة والملابس القديمة من كل نوع، وبلغنا (الميدان)، حيث كان يعج دومًا بالبغايا والقوادين واللصوص التافهين ذوى السترات البالية والقلانس الساترة للوجه، وفى زمنى كان «إيتش» الأعمى هو زعيم النشالين ومالك بيوت الدعارة والمزهو بنفسه وحامل المدية، وفى موضع ما من رقم (١١) أو رقم (١٣) عاشت «ريتزل» البدينة التى كانت تزن ثلاثمائة رطل، ويعتقد أنها تدير تجارة الرقيق الأبيض الواردة من «بيونس أيرس»، وفى هذا الميدان كانت تمارس كثير من اللعبات، كأن تسحب مثلاً أرقامًا من كيس، فتفوز بصافرة رجل بوليس أو كعكة شيكولاته أو قلم به منظر لكراكاو أو دمية تجلس معتدلة وتنادى «ماما»، وتوقفنا أنا و«بتى» فاغرى الفم: الأجلاف هم هم، والنطق هو هو لم يتغير، واللعبات هى هى، وخشيت أن يثير كل هذا اشمئزازها، بيد أنى نقلت إليها عدوى


Twitter: @ketab_n

حنينى إلى الماضى، فقالت: كان يجب أن تأتى بى إلى هنا منذ اليوم الأول الذى تقابلنا فيه.

- بتى، لسوف أكتب مسرحية تسمى كروتشمالنا تؤدين فيها الدور الأول.

- أنت بشير خير عظيم.

ولم أدر ما أريه لها بعد ذلك، أأريها وكر اللصوص فى رقم (٦)، حيث كانوا يلعبون الورق والدومينو، ويأتى متلقو المسروقات لشراء البضائع المسروقة، أم أريها منزل الصلاة فى رقم (١٠)، حيث اعتدنا أن نقيم، أم منزل «رادزمين» للدرس فى رقم (١٢) الذى انتقلنا إليه فيما بعد، أم الأفنية التى ذهبت إلى الحدير فيها، أم الدكاكين التى اعتادت أمى أن ترسلنى إليها لشراء الطعام والكيروسين، وكان التغير الوحيد الذى لاحظته أن المنازل قد فقدت معظم الجص، واسودت من الدخان، وأن حائطًا هنا أو هناك مدعومًا بكتل من جذوع الشجر، وتبدو البالوعات كذلك أعمق وروائحها الكريهة أشد، ووقفت أمام كل بوابة أطيل النظر إلى داخلها: كل صناديق القمامة مكدسة بالنفايات ومتروكة بإهمال، الصباغون يصبغون الملابس، السمكريون يصلحون الأوعية المكسورة، رجال يحملون أجولة على أكتافهم، وينادى الواحد منهم: ملابس قديمة، ملابس قديمة، أنا أشترى خرقًا وبنطلونات قديمة وأحذية قديمة وقبعات قديمة، ملابس قديمة، ملابس قديمة، شحاذ


Twitter: @ketab_n

هنا أو هناك يردد أغنية عن «تيتانك» التى غرقت عام ١٩١١ وأخرى عن «باروخ شالمان» المضرب عن العمل الذى ألقى قنبلة عام ١٩٠٥ وشنق، السحرة يؤدون الأعمال المثيرة ذاتها التى كانوا يؤدونها فى طفولتى، فهم يلعبون النار ويديرون البراميل بأقدامهم ويستلقون عراة الظهر على فراش من المسامير، وتخيلت ـ وإن كنت أعلم أن هذا غير ممكن ـ أنى أعرف الفتاة التى تنتقل هنا وهناك وهى تهز دفًا صغيرًا تتدلى منه أجراس لتجمع قطع النقود من المتفرجين، إذ هى ترتدى البنطلون المخملى الضيق ذا الترتر الفضى عينه، وشعرها مقوص كالصبى، وهى ـ إلى ذلك ـ طويلة القامة ونحيلة وذات صدر عريض وعيون سوداء براقة، ويقف على كتفها ببغاء مكسور منقارها، فقالت «بتى»: «لو أن هذا كله نُقل إلى أمريكا فحسب»، وطلبتُ منها أن تنتظر فى الخارج، وفتحتُ الباب المؤدى إلى منزل صلاة «نيوستات»، فألفيته خاليًا، على أن التابوت المقدس ذا الأسدين المموهين على الكورنيش والمنبر ومنضدة القراءة والمقاعد الطويلة كلها تشهد على أن اليهود ما زالوا يجيئون للصلاة هنا، وقد استقرت الكتب المقدسة على الرفوف أو قامت فى صفوف سوداء وقديمة وبالية، وإذ لم يكن أحد بالداخل فقد ناديت «بتى» للحاق بى، وصحت فجاوبنى الصدى، وأزحت جانبًا الستارة من أمام التابوت وفتحت بابه، ونظرت إلى الطوامير فى أكسيتها المخملية المطرزة بالذهب والتى


Twitter: @ketab_n

حال لونها بفعل الزمن، ومددتُ أنا و«بتى» رأسينا إلى الداخل، وكان وجهها حارًا، وانتابتنا معًا رغبة ملحة آثمة فى انتهاك قدسية المكان، فقبل كل منا الآخر، وطلبت لنفسى المغفرة فى الوقت نفسه أمام الطوامير وذكرتها بأن «بتى» ليست متزوجة، وغادرنا منزل الصلاة، ونظرت إلى جنبات الفناء، فقد كان شمرل يحيا هنا فيما مضى، ولديه دكانه فى القبو، والذى لقب بـ «شمرل ليس اليوم» لأنك كلما جئت إليه بأحذية لخصفها أو إصلاحها قال لك دوما: «ليس اليوم»، وقد توفى ونحن مازلنا مقيمين فى «وارسو» بعد، ذلك أن عربة دخلت الفناء وحملته إلى مستشفى الأمراض الوبائية، وكان يظن فى شارع كروتشمالنا أنهم يسممون المرضى هناك، فتنادر الساخرون فى الفناء بأنه حين جاء ملك الموت ذو الألف عين والسيف البتار ليقبض روح «شمرل» قال له هذا: «ليس اليوم» فرد عليه الملك: «بل اليوم»، وفى رقم (١٠) تدلى غسيل من شرفة ما كان يومًا شقتنا، وكانت تبدو بالقياس إلىَّ فيما مضى مرتفعة جدًا، أما الآن فأكاد أبلغها بأصابعى، ونظرت إلى داخل الدكاكين: ترى أين «إيلى» البقال «وزيلدا» زوجته؟ كان هو طويل القامة وسريعًا وذكيًا وسليط اللسان ومولعًا بالجدل والنقاش، فى حين كانت هى صغيرة الجسم وبطيئة الحركة والفهم وطيبة القلب؛ ولذا كانت تحتاج إلى أن يخبرها الزبون مرتين عما يريد، وقد يستغرق منها ربع ساعة أن تمد يدها لتتناول قطعة ورق وتحز


Twitter: @ketab_n

قطعة جبن بالسكين وتزنها، وإذا سألتها عن الثمن فكرت مليًا وهرشت تحت شعرها «المستعار بدبوس شعر، وإذا اشترى زبون على الحساب وقيدت هى المبلغ لم تستطع فيما بعد أن تتحقق مما دونته، ولما قامت الحرب واستعملت الماركات الألمانية، وأجزاؤها من البفنجات[٧٣] أصابتها الحيرة والارتباك تمامًا، فكان «إيلى» يسىء معاملتها أمام الزبائن ويدعوها بالبقرة، وفى أثناء الحرب أصابها المرض، ولم يتمكنوا من نقلها إلى المستشفى ولازمت الفراش، ثم رحلت لترقد كالكتكوت، فبكى «إيلى»، وجعل يولول ويضرب رأسه فى الحائط، وبعد ثلاثة أشهر تزوج من فتاة سمينة كانت بطيئة وهادئة تمامًا مثل «زيلدا».

(٣)

دخلنا ساحة «ياناش»، وتوجهنا إلى السلخانة، حيث الحوائط الملطخة بالدم هى هى، والدجاج والديكة الذاهبة لملاقاة حتفها وهى تصيح بالأصوات عينها: ماذا صنعت لأستحق هذا أيها السفاكون؟ وهبط المساء، وانعكس ضوء المصابيح الشديد على نصال سكاكين الجزارين، وتدافع النسوة تحمل كل منهن دجاجتها، وكان الشيالون يملئون السلال بالدجاج المذبوح وينقلونه إلى ناتفى الريش، إن هذا الجحيم ليسخر من كل كلام أحمق عن الإنسانية، لقد فكرت طويلاً فى أن أصبح نباتيًا، فأقسمت فى هذه اللحظة ألا أمس قطعة لحم أو سمك، وزاد من كثافة


Twitter: @ketab_n

الظلام خارج السلخانة أن المصابيح مستخدمة فى إضاءة الفناء فحسب، ومررنا بالطسوت والأحواض المحتوية على أسماك الشبوط والكراكى والتتش الحية التى تقوم ربات المنازل بشقها وتنظيفها احتفاءً بالسبت، ومشينا على قش وريش وإفرازات الأسماك اللزجة، وقد أخذ أصحاب الدكاكين يشتمون ويسبون بالعبارات القديمة المألوفة: «طاعون ياخدك»، «حمى فى بطنك»، «يسوِّد فرح بنتك»، وغادرنا السوق، ودخلنا الشارع مرة أخرى، وأمام البوابات وأعمدة الإضاءة وقفت فتيات الليل ـ بعضهن سمينات وذوات صدور و«أوراك» عريضة والبعض الآخر رشيقات ملتفات بالشيلان ـ وكان العمال القادمون من المصانع والدكاكين فى شارعى «فولا» و«إيرون» يتوقفون للحديث معهن والتفاوض بشأن السعر، وقالت «بتى»:

ـ فلنخرج من هنا، وفوق ذلك إنى جائعة.

وفجأة رأيت المبنى رقم (٧) الذى انتقلت إليه «باشيل» وبناتها، وحتى لو كانت العائلة لا تزال على قيد الحياة فلعلها تركت الشقة منذ سنوات، طيب ماذا لو فرضنا أنهم لم ينتقلوا؟ وأن «شوشا» ما زالت تذكر الحكايات التى اعتدت أن أقصها عليها، وتذكر منزلنا المتخيل ولعبة الاستخفاء ولعبة المس، ووقفت أمام البوابة، فسألتنى «بتى»:

ـ لماذا وقفت هنا؟ فلنذهب.


Twitter: @ketab_n

ـ يجب أن أتحقق بأية وسيلة ما إذا كانت باشيل لا تزال تقيم فى الفناء:

ـ مَنْ باشيل هذه؟

ـ والدة شوشا.

ـ ومَنْ هى شوشا؟

ـ مهلاً، سأشرح لك.

ودخلت امرأة من البوابة، فسألتها عن «باشيل»، فسألتنى هى:

ـ باشيل؟ ألها زوج؟ ما اسم عائلتها؟

ولم أتذكر اسم العائلة الأخير، أو بالأحرى لم أكن أعرفه فقلت:

ـ أجل، زوجها ذو لحية مستديرة، اعتاد أن يعمل بائعًا فى دكان، ولها ابنة اسمها شوشا، آمل أن يكونوا على قيد الحياة.

فضربت المرأة كفًا بكف، وقالت:

ـ أعرف التى تقصدها! باشا شولدينر، إنهم يسكنون فى الطابق الأول المواجه للبوابة من ناحية اليسار، أأنتما أمريكيان؟ إيه؟

فأشرت إلى «بتى» قائلاً:

ـ هى أمريكية.

ـ عائلة؟


Twitter: @ketab_n

- أصدقاء فقط، لم أرهم منذ عشرين عامًا تقريبًا.

- عشرين عامًا؟

- اذهبا مباشرة، ولكن احذرا، فقد حفر الأولاد حفرة فى وسط الفناء قد يقع أحدكما فيها فتتكسر رجله، المكان مظلم هناك، الملاك يقبضون الأجرة، ولكنهم لا يفكرون فى إضاءة مصباح بالليل.

وبدأت «بتى» تتبَّرم، على أنى هتفت: إنها لمعجزة! إنها لمعجزة!، وصحت خلفها: شكرًا لك كثيرًا.

ووقفت فى فناء رقم (٧)، وأنا أتطلع عبره إلى نافذة بها مصباح غازى مشتعل، النافذة التى قد ألقى خلفها بعد قليل «باشيل» و«شوشا»، ولزمت «بتى» الصمت كأنما أدركت أخيرًا ما أنا بشأنه، وتناولت ذراعها لأرشدها إلى الطريق، وحددت مكان الحفرة وتجنبناها رغم الظلام، وأتينا إلى السلالم القليلة غير المضاءة التى تؤدى إلى شقة الطابق الأول، وتحسست مقبض الباب، ودفعته فانفتح، وتجلت لى معجزة ثانية، فلقد رأيت «باشيل» تقشر بصلة أمام منضدة المطبخ، وقد كبرت قليلاً فى السن طوال كل هذه المدة، وما زال شعرها المستعار أشقر، وتغضن قليلاً وجهها الأشقر، فتطلعت إلىَّ بعينين فيهما ابتسامة خفيفة ودودة أذكرها من أيام طفولتى، ولعل رداءها يرجع إلى تلك الأيام أيضًا، فلما أبصرتنى ارتفعت شفتها العليا، وكانت لاتزال تحتفظ بأسنانها العريضة، وكان الهاون



Twitter: @ketab_n

ويده، وأوعية الطبخ، والخزانة ذات الحلية المحفورة، والكراسى، والمنضدة، كانت كلها أشياءً مألوفة لدىَّ، فقلتُ: يا شيل! أنت لا تعرفيننى، أما أنا فأعرفك.

فوضعت هى البصلة والسكين، وقالت:

ـ أجل، أعرفك، أنت أريل.

فى الأسفار الخمسة حين تعرف يوسف على إخوته تبادل معهم الأحضان والقبل، على أن «باشيل» ما كانت هى المرأة التى تقبل رجلاً، أو حتى مَنْ كانت تعرفه طفلاً.

ـ وقالت «بتى» وهى تقوس حاجبيها:

ـ أحقًا لم ير كلُ منكما الآخر منذ عشرين عامًا تقريبًا؟

فردت «باشيل» بصوت امرأة من العوام يفيض بالرقة والحنان، وهو ـ مع ذلك ـ فريد فى الوقت نفسه أعرفه من بين ملايين الأصوات الأخرى.

ـ مهلاً ، أجل، وقت طويل تقريبًا.

وأردفت :

ـ سنوات طويلة.

فاعترضت «بتى» قائلة:

ـ ولكنه كان طفلاً.

فقالت «باشيل» :


Twitter: @ketab_n

ـ أجل، إنه وشوشا فى سن واحدة.

فسألتها «بتى»:

ـ كيف تعرفت على شخص ترك هنا وهو طفل؟

فهزت «باشيل» كتفيها وهى تجيب:

ـ فور أن بدأ فى الكلام عرفته، سمعت أنك أصبحت كاتبًا فى الصحف، لا تقفا على الباب هكذا، ادخلا، مرحبًا بكما.

وأردفت وهى تومئ إلى «بتى»:

ـ لعل هذه زوجتك.

فابتسمت «بتى» قائلة:

ـ كلا، لست زوجته، أنا ممثلة من أمريكا وهو يكتب لى مسرحية.

فقالت «باشيل»:

ـ أعلم، لدينا جار يقرأ كتاباتك، وكلما ظهر اسمك فى الجريدة جاء وقرأ ما كتبته، قيل ذات مرة إن قطعة من تأليفك سوف تُمثل على المسرح.

فسألتها: أين شوشا؟

ـ ذهبتْ إلى الدكان لشراء سكر، ستعود حالاً.

وبينما هى تتكلم دخلت «شوشا»، يا إلهى! يا للمفاجآت التى جاء بها هذا اليوم، كل مفاجأة هى أعظم من غيرها، أتخدعنى عيناى؟!، «شوشا» لم تزل



Twitter: @ketab_n

على عهدها، لم تكبر ولم تنضج، وفغرت فمى لهذا اللغز، وبعد قليل لاحظت تغيرًا طفيفًا على وجهها وعلى قامتها، لعلها نمت بوصة أو بوصتين، وكذلك لاحظت أنها ترتدى جونلة باهتة اللون وسترة بلا أكمام حتى لأكاد أقسم بأنها كانت ترتديها منذ عشرين عامًا، وهى تقف ممسكة بقرطاس[٧٤] ورق زنة ربع رطل تنظر إلينا وفى عينيها السحر الطفولى ذاته الذى أذكره وقت أن كنت أروى لها القصص.

سألتها «باشيل»:

ـ أتعرفين من هذا؟

فلم تجب «شوشا»:

ـ إنه أريل، ابن الحاخام.

فكررت «شوشا»:

ـ أريل.

إنه صوتها، وإن لم يكن هو تمامًا.

فقالت «باشيل»:

ـ ضعى السكر واخلعى سترتك.

فوضعت «شوشا» قرطاس السكر على المائدة، وخلعت سترتها، لقد بقى سمتها الطفولى كما هو رغم نهود صدرها، وبدت جونلتها أقصر من تلك الجونلات السائدة فى ذلك الوقت، وكان من الصعب علىَّ التحقق فى ضوء المصباح الغازى أهى زرقاء أم سوداء،


Twitter: @ketab_n

ذلك كان حال الثياب التى كانت تمر من خلال مركز التطهير: منكمشة ومُبخرة وباهتة اللون، وبدت رقبة «شوشا» طويلة، كما بدا ذراعاها رفيعين وكذلك ساقاها، وكانت كل واحدة فى وارسو تلبس جوارب ملونة ولامعة وشفافة، أما هى فكانت جواربها مصنوعة من القطن الخشن.

وبدأت «باشيل» تقول:

ـ لقد حطمتنا الحرب المنكودة، فقد ماتت يبى بعد فترة قصيرة من انتقالكم إلى الريف، أصابتها حمى ولازمت الفراش، أبلغ عنها شخص ما، فجاءت عربة المستشفى لأخذها، قضت عليها الحمى فى ثمانية أيام، لم يسمحوا لأحد منا بدخول المستشفى، فى اليوم الأخير ذهبت لأسأل عنها، فقال لى الحارس على البوابة «Bardzo Kiepsko»، فأدركت أنها قد ماتت، لم يكن زيلج فى وارسو، فلم يذهب حتى لجنازة ابنته، مضت أربع سنوات قبل أن نتمكن من وضع شاهد على مقبرتها، أما تيبل فقد أصبحت شابة، صانها الإله وحماها، شابة أنيقة وجميلة ومتعلمة، كل ما توده، لقد ذهبت إلى مدرسة عالية ألمانية، وهى الآن كاتبة حسابات فى تجارة المراتب، إنهم يبيعون كل شىء هناك بالجملة، وفى أيام الثلاثاء تحسب هى ما حصَّله جميع المستخدمين، كما أنها تعطى البونات للصراف، وإذا لم توقعها هى لا يستطيع أحد الدفع، الشبان يلاحقونها، لكنها تقول لهم: لدىَّ وقت عمل



Twitter: @ketab_n

كثير، وهى لا تسكن معنا هنا، بل تأتى إلينا فى أيام السبت والإجازات فقط، فلديها شقة مع زميلة لها فى شارع جوزيبوسكا، لو قلت للناس إنك تسكن فى شارع كروتشمالنا فذلك يدمر فرصك فى زيجة طيبة، وشوشا تعيش معى فى المنزل كما ترى بنفسك، أريل، اخلع أنت والسيدة الشابة معطفيكما، شوشا لا تقفى هكذا ككتلة الطين، السيدة من أمريكا.

فكررت «شوشا»:

- من أمريكا.

وقالت «باشيل»:

- اجلسا، سأصنع الشاى، هل تناولتما العشاء؟

فغمزت لى «بتى» بعينها، وقالت:

- شكرًا، فلسنا جائعين.

- اجلسا، أريل، أما زال والداك يعيشان فى الأقاليم؟

- لم يعد أبى على قيد الحياة.

- كان إنسانًا عزيزًا، ملاكًا، اعتدتُ أن أستشيره فى المسائل الدينية، لم يكن ينظر إلى أنثى، كان ينصرف لحظة دخولى، وكان دائمًا عند المِقرأ، حيث الكتب الضخمة جدًا مثلما فى منزل الدرس، بماذا توفى؟، لم يعد هناك يهود مثله الآن، حتى لباس الحسيدى فى هذه الأيام مثل لباس الغنادير: ثياب


Twitter: @ketab_n

جبردين قصيرة وأحذية ملمعة، أمازالت أمك حية؟

- أجل.

- وأخوك موشيل.

- موشيل حاخام.

- موشيل حاخام؟ أسمعت يا شوشا؟ كان صغيرًا جدًا، لم يكن يذهب حتى إلى الحدير فى ذلك الوقت.

فقالت «شوشا»:

- لقد كان يذهب إلى الحدير، ها هنا فى الفناء فى حجرة المعلم المجنون.

- إيه ، الأعوام تمر، أين أصبح حاخامًا؟

- فى جاليشيا(٧٥) .

فقالت: «باشيل»:

- جاليشيا؟ أين جاليشيا تلك؟ هناك مدن بعيدة للغاية، عندما كنا نسكن فى رقم (١٠) كانت وارسو هى روسيا، كان لزامًا أن تكون كل اللافتات بالروسية، ثم جاء الألمان ومعهم الجوع، بعد ذلك رفع البولنديون رءوسهم وهتفوا: تحيا بولندا، بعض الشبان من حولنا هنا ذهبوا للانضمام إلى جيش بيلسودسكى وقُتلوا، وذهب بيلسودسكى مع رجاله إلى كييف، ولكن تم صدهم إلى الفستولا، وظن الناس أن البلاشفة قادمون، وأخذ الأوباش يتحدثون عن قتل كل الأغنياء وسلب أموالهم، ثم تم صد البلاشفة، تم صدهم هنا،



Twitter: @ketab_n

وتم صدهم هناك، وكثر النقص فى عدد الناس، ولم يعد زيلج إلى المنزل بعد ذلك، وقعت أشياء سوف أرويها لك فى وقت آخر، لقد أصبح الناس أنانيين حتى أنهم توقفوا عن الاهتمام بأقرب الناس إليهم، وتدهور سعر الزلوتى وارتفع سعر الدولار، وهم يطلقون على الدولارات هنا «المكرونة»، وكل شىء هنا غالٍ، غالٍ، أعدى المائدة ياشوشا.

- بالغطاء النظيف أم المزيت.

- فليكن المزيت.

فأومأت إلىَّ «بتى» بأنها تريد أن تسر إلىَّ شيئًا، فملت نحوها، فهمست:

- لن آكل هنا، إذا أردت أن تبقى معهم فسأعود بمفردى إلى الفندق.

فقلتُ:

- ياباشيل، شوشا، إن فرحتى فى الحقيقة عظيمة، إذ عشتُ ورأيتكما من جديد، ولكن السيدة مضطرة إلى الانصراف، ولا يمكن أن أتركها وحدها، لسوف أعود فيما بعد، إن لم يكن الليلة فغدًا.

فقالت «شوشا»:

- لا تذهب، لقد ذهبت فيما مضى، وأراك لن تعود مرة أخرى أبدًا، فى مرة قال جارنا واسمه ليزر إنك فى وارسو، وأرانا اسمك فى الجريدة، ولكنها لم تذكر


Twitter: @ketab_n

عنوانك، ظننتك نسيت كل شىء.

- لم يمض يوم يا شوشا لم تخطرى فيه ببالى.

- إذاًفلِمْ لم تأتِ؟ لقد كتبت شيئًا كان يحمل اسمك، كان مطبوعًا فى جريدة، لم يكن جريدة، بل كتابًا غلافه أخضر، قرأه ليزر، وهو ساعاتى، ثم جاء وقرأه لنا، لقد وصفت شارع كروتشمالنا بدقة.

- أجل يا شوشا، فإنى لم أنس شيئًا.

- لقد انتقلنا إلى رقم (٧) هنا، ولم تأت بعد ذلك قط، لقد كبرتِ ووضعت التمائم، رأيتك مرات قليلة وأنت تمر، أردت أن أذهب إليك، ولكنك كنت تمشى بسرعة كبيرة جدًا، أصبحت حسيديًا لا تنظر إلى البنات، كنت خجلة، ثم قالوا: إنكم غادرتم المدينة، وماتت يبى، وكانت هناك جنازة، رأيتها وهى هنالك ترقد ميتة بيضاء كلها.

فقالت لها أمها بسرعة وحدة:

- شوشا، اسكتى!

- بيضاء كالطباشير، إنى أحلم بها كل ليلة، لقد كفنوها بقميصى، ومرضت أنا وتوقفت عن النمو، أخذونى إلى الطبيب كنياستر، فوصف لى الدواء، ولكنى لم أخف، تيبل طويلة القامة وجميلة.

فقلت:

- وأنت جميلة أيضًا يا شوشا.



Twitter: @ketab_n

ـ إنى مثل القزم.

ـ كلا يا شوشا، إن لك سمتًا بديعًا.

ـ لقد كبرت وأنا مثل الطفلة، لم أذهب إلى المدرسة، كانت الكتب صعبة جدًا علىَّ، عندما تغلب الألمان بدءوا فى تعليمنا الألمانية، الصبى عندهم Knabe، كيف أتذكر كل هذا؟ كان من المفروض أن نشترى الكتب الألمانية، ولم يكن مع أمى النقود لشرائها، فطردونى مرة أخرى فى النهاية.

فأضافت «باشيل»:

ـ كل هذا بسبب عدم وجود ما يكفى للأكل، كانوا يخلطون الخبز باللفت أو نشارة الخشب، كان طعمه يشبه الطين أو الطفل، وتجمدت البطاطس فى ذلك الشتاء، وكانت من الحلاوة بحيث لا تستطيع أن تأكلها، كنت أطهو البطاطس ثلاث مرات فى اليوم، قال الطبيب كنياسنتر أن شوشا عندها فقر دم، ووصف شيئًا من الدواء البنى، كانت تتناوله ثلاث مرات فى اليوم، ولكن ذلك لن يشفيك عندما تكون جائعًا، أما كيف تمكنت «تيبل» ـ وقاها الإله عين الحسود ـ من أن تغدو مليحة هكذا فتلك معجزة إلهية، متى تعود؟

ـ غدًا.

ـ تعال للغداء غدًا، كنت مولعًا بالمكرونة وعليها الفاصوليا، تعال فى الثانية وأحضر السيدة معك.

Twitter: @ketab_n

وأردفت وهى تشير إلى «بتى»:

- شوشا، هذه السيدة ممثلة، أين تمثلين؟ فى المسرح.

فقالت «بتى»:

- مثلت فى روسيا، وفى أمريكا أيضًا، وآمل أن أظهر هنا فى وارسو، وهذا كله يعتمد على السيد جريدنجر.

فقالت «شوشا»:

- كان يكتب دائمًا، لقد اشترى كراسة وقلم رصاص وملأ ثلاث صفحات، إنه يرسم الأشخاص أيضًا، ذات مرة رسم منزلاً شب فيه حريق واللهب يندفع من كل نافذة، رسم المنزل بقلم رصاص أسود والنار بقلم أحمر، والنار والدخان ينبعثان من المدخنة، أتذكر يا أريل؟

- أذكر، طابت ليلتكما، سأكون هنا غدًا فى الثانية.

فقالت «شوشا»: لا تغب طويلاً هكذا مرة أخرى.

## (٤)

وأردت أن أمشى، ولكن «بتى» نادت على درشكية[٧٦]، وطلبت من السائق أن يأخذنا إلى مطعم فى شارع «ليزنو»، حيث تناولنا أول وجبة لنا فى صحبة «سام دريمان» و«فيتلزوهن»، وفى الدرشكية وضعت يدها على كتفى قائلة:



Twitter: @ketab_n

ـ البنت بلهاء، مكانها الصحيح فى مؤسسة، ولكنك واقع فى حبها، لقد التمعت عيناك بطريقة غريبة لحظة أن رأيتها، أكاد أشك أنك لست فى تمام قواك العقلية.

ـ ربما كان الأمر كذلك.

ـ الكُتَّاب عندهم شعرة جميعًا، أنا الأخرى مجنونة أيضًا، الموهوبون مجنونون جميعهم، قرأتُ كتابًا عن هذا مرة، ولكن نسيت اسم المؤلف.

ـ لومبروزو.

ـ أجل، لعله هو، أو لعل الكتاب عنه، ومادام كل منا مجنونًا على نحو مختلف، ففى وسعه إذًا أن يلاحظ جنون الآخر، لا تندلق على هذه الفتاة فهى مريضة، إذا وعدتها بشىء ولم تَفِ به فلسوف تنهار هى تمامًا.

ـ إنى أدرك ذلك.

ـ ما الذى تراه فيها؟

ـ أرى نفسى.

ـ إذًا، لسوف تسقط فى شبكة لن تقدر على التخلص منها، أنا نفسى لا أصدق أن هذه امرأة تقدر على العيش مع رجل، لن يكون لها طفل بالتأكيد.

ـ لست محتاجًا للأطفال.

ـ بدلاً من أن ترفع أنت شأنها سوف تنحدر هى بك إلى مستواها، إعرف حالة مماثلة، رجل بالغ


Twitter: @ketab_n

الذكاء، مهندس، تزوج من امرأة غير متزنة تكبره فى السن، فأنجبت له طفلاً كسيحًا هو قطعة من اللحم لا تستطيع أن تحيا أو أن تموت، وبدلاً من وضعه فى مؤسسة جروا به على كل الأطباء والدجالين والمشعوذين، وأخيرًا مات، فتحطم الرجل.

- أنا لا أريد مخلوقًا شاذًا كهذا مع شوشا.

- كالعادة، ما أن يستأثر شىء باهتمامى حتى يهزأ بى ويتحدانى.

- بتى، إن لك عاشقًا هو الطيبة نفسها، وهو فى ثراء كروزو، وعلى استعداد أن يقلب لك العالم رأسًا على عقب.

- أعلم ما عندى، آمل ألا يفسد ذلك خططنا بشأن المسرحية.

- لن يفسد ذلك شيئًا.

- لو لم أر بعينى لما صدقت أن شيئًا كهذا جائز الوقوع.

وأسندت رأسى إلى ظهر الدرشكية، وتطلعت إلى سماء وارسو فيما فوق أعالى أسطح المنازل المكسوة بالصفيح، وخُيِّل إلىَّ أن المدينة قد تغيرت، إذ شاع فى الجو شىء بهيج أشبه بعيد البوريم(٧٦) ، ومررنا بميدان «إيرون جيت» مرة أخرى، وكانت كل نوافذ صالة «ڤيينا» تلقى بضوئها، وتناهى إلى سمعى صوت الموسيقى، ولابد أن شخصًا ما يتزوج فى هذه



Twitter: @ketab_n

الأمسية، فأغمضت عينى، ووضعت يدى على حجر «بتى»، ونفذت روائح الربيع إلى منخرى مختلطة برائحة عربات القمامة الكريهة التى تنقل نفايات النهار إلى الحقول، وتوقفت الدرشكية، وأرادت «بتى» أن تدفع، فلم أسمح لها، وساعدتها على النزول، وتناولت ذراعها، وكان من الطبيعى أن أكون متمالكًا لنفسى وأنا أرافق سيدة بالغة الأناقة إلى مطعم، على أن لقائى بشوشا أصابنى بدوار، وفى المطعم كانت فرقة موسيقية تعزف موسيقى الجاز الأمريكية التى لاقت إقبالاً فى الملاهى الليلية بوارسو، وبدت كل الموائد مشغولة، وهم يأكلون هنا الدجاج والبط والإوز والديوك الرومى التى ذبحت فى وقت مبكر من النهار، وانبعثت روائح الشواء والثوم والفجل الحار والبيرة والسيجار، وأدخل كبار السن الفوط الضخمة فى ياقاتهم المنشاة، وقد برزت كروشهم وتدلت، وبدت رقابهم غليظة ورءُوسهم لامعة كالمرايا، وانطلق النساء يثرثرن فى مرح وحيوية ويضحكن، وينشبن أظافرهن الحمراء فى أجزاء الطيور التى لا يمكن الحصول عليها بالشوكة، ومن كيزان البيرة المزيدة ترشف شفاههن المطلية بأحمر الشفاه، وقدم لنا رئيس النُّدُل منضدة فى مكان لائق، فهم يعرفون «بتى» هنا، واعتاد «سام دريمان» أن يترك لهم دولارًا كبقشيش.

وكان النُّدُل يتنقلون بين الموائد بمهارة وخفة محافظين على توازن الصوانى التى ينبعث منها البخار، ولم أجلس فى مواجهة «بتى»، بل إلى جانبها،


Twitter: @ketab_n

ولم تكن قائمة الطعام تتضمن طبقًا واحدًا لا يحتوى على لحم أو سمك، وكنت قد أقسمت أن أصبح نباتيًا، على أنى رأيت بعد أخذ ورد مع نفسى تأجيل العمل بالقسم إلى يوم آخر، فطلبت حساءً خفيفًا وكفتة ومعهما مكرونة «فارفل» وجزر، وإن لم تكن بى رغبة إلى الطعام، وطلبت «بتى» شرابًا مسكرًا وشريحة لحم أصرت على أن تكون غير مُنضجة، وأخذتْ رشفات قليلة من شرابها ونظرتْ إلىّ بحدة، وقالت:

- إنى لا أنتوى التسكع فى هذا العالم الكريه الرائحة أطول مما ينبغى، الحد الأقصى أربعون سنة، لا أريد أن أحيا يومًا واحدًا أطول من ذلك، لماذا أحيا؟ إذا نجحت فى التمثيل على النحو الذى أريده فى بضع سنوات فهذا أفضل، أما إذا لم أنجح فلسوف أضع حدًا لذلك فى الحال، شكرًا لله على هبة واحدة - خيار الانتحار.

- لسوف تحيين إلى التسعين وتكونين سارة برنار الثانية.

- لا، وكذلك لا أريد أن أكون الثانية لأى شىء، الأولى أو لا شىء، لقد وعدنى سام بميراث ضخم، ولكنى مقتنعة بأنه سوف يعيش أطول منى، أتمنى له ذلك من كل قلبى، إنهم لا يعرفون كيف يمزجون الشراب، يحاولون أن يقلدوا أمريكا، ولكن التقليد زائف دائمًا، والموسيقى تقليدها ردىء أيضًا، العالم كله يريد أن يقلد أمريكا وهى تقلد العالم كله، لماذا


Twitter: @ketab_n

يجب أن أكون ممثلة؟ الممثلون جميعهم قرود أو ببغاوات، حاولتُ أن أكتب فيما مضى، مازالت عندى رزمة قصائد شعر ملقاة هنا أو هناك، بعضها باليدية وبعضها بالروسية، لا يريد أحد أن ينشرها، إنى أقرأ المجلات فأجدهم يطبعون أسوأ النفايات، ولكنهم يطلبون منى أن أكون بوشكين آخر[٧٨] أو يسنينين، لماذا تنظر إلى شريحتى هكذا؟ ما قلته اليوم عن المذهب النباتى هراء، إذا كان الله قد خلق الدنيا على هذا النحو، فتلك إذًا مشيئته.

- النباتيون يعبرون فحسب عن احتجاجهم.

- كيف تحتج فقاعة على بحر؟ إنها عجرفة وتكبر، إذا تركت بقرة نفسها للحلب فلابد أن تُحلَب، وإذا تركت نفسها للذبح فيجب أن تذبح، ذلك ما قاله دارون.

- لم يقل دارون ذلك.

- لا يهم، ثمة شخص قال ذلك، وبما أن سام يعطينى نقودًا فيجب أن آخذها منه، وبما أنه يذهب إلى الملايو ويتركنى بمفردى، فيجب أن أقضى الوقت مع شخص آخر.

- وبما أن والدك تركهم يطلقون عليه الرصاص، فيجب.....

- هذه وضاعة.

- سامحينى.


Twitter: @ketab_n

- أصلاً أنت محق، ولكن على الإنسان أن يراعى أخاه الإنسان، الحيوانات أيضًا لا تلتهم الحيوانات من بنى جنسها.

- رأيت قطًا فى منزل عمى يقتل صغاره.

- القط يفعل ما تمليه عليه الطبيعة، وإلا كان قطًا مجنونًا، أنت نفسك قط مجنون، ولسوف تلتهم شخصًا ما أيضًا، كنت تنظر اليوم إلى تلك الفتاة المتوقفة عن النمو بعيون قط ينظر إلى طائر كنارى، لسوف تمنحها أسابيع قليلة من السعادة ثم تتخلى عنها، إنى أدرك هذا مثلما أدرك أننا الآن بالليل.

- كل ما صنعتُه أنى وعدتها أن آتى إلى طعام الغداء غدًا.

- اذهب إليها غدًا، وأخبرها أنك متزوج، لديك زوجة بالفعل، تلك الشيوعية التى حدثتنى عنها، ما اسمها؟ دورا، بما أنك لا تؤمن بالزواج، فالمرأة التى ترافقها تكون زوجتك.

- فى هذه الحالة، كل رجل عصرى له عشرات من الزوجات، وكل امرأة عصرية لها عشرات من الأزواج، إذا لم يعد للشرائع أو القوانين معنى، فلندع استباحتها تسرى على كل شخص.

وتوقفت الموسيقى، ولزمنا الصمت، وذاقت «بتى» شريحة اللحم، ودفعت الطبق بعيدًا، ولاحظ ذلك رئيس النُّدُل، فجاء وسألها إن كانت تريد أن يحضر


Twitter: @ketab_n

لها شيئًا آخر، فقالت إنها ليست جائعة، واشتكت إليه أن الطاهى يستعمل توابل كثيرة جدًا، وجاء نادلنا، وبدأ الرجلان يناقشان رئيس الطهاة، وقال رئيس النُّدُل:

- يجب أن يرحل.

فقالت «بتى»:

- لا تطرده بسببى.

- الأمر لا يتعلق بك وحدك فقط، لقد طلبنا منه مئات المرات ألا يستعمل الفلفل بكثرة، على أن ذلك شبه جنون عنده، مادام يحب الفلفل فلسوف ينتهى به الأمر إلى فقد عمله، أليس حبه هذا جنونًا؟

فقال النادل :

- أوه، كل رئيس طهاة نصف مجنون.

وأخذ هو ورئيس الندل يمشيان ببطء هنا وهناك بين الموائد، ونحن نأكل الحلو، وكان من الواضح أنهما قد خشيا أن يفقدا البقشيش المعتاد، على أن «بتى» أخرجت دولارين ومنحت واحدًا لكل منهما، فأخذ الرجلان فى الانحناء وإرجاع القدم إلى الوراء، وهذا المبلغ يمكن أن تقتات به أسرة فى وارسو نصف أسبوع، ولكن على خليلة المليونير أن تتصرف كالمليونير نفسه، وقالت «بتى»:

- هلم بنا نذهب.


Twitter: @ketab_n

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث أقيم.

## (٥)

وصلت إلى المنزل فى الثامنة صباحًا، وفى طريقى للحاق بالتروللى ألقيتُ نظرة عجلى فى مرآة، فرأيتنى شاحب الوجه خشن اللحية، إذ كان يتعين علىَّ أن أغادر الفندق مبكرًا قبل أن تحضر الخادمةُ الإفطار، وكان التروللى حافلاً بالرجال والنساء الصغيرات الذاهبين إلى المصانع والدكاكين وتحت آباطهم غداؤهم، وتثاءبتُ، وحاولتُ أن أتمطى، ولكن لم يكن ثمة حجرة أمدد فيها ساقى، وكانت السماء قد أمطرت بالليل، وبدت فى تلك الساعة المبكرة ملبدة بالغيوم ومظلمة كالغسق، ولذا أضيئت الأنوار فى التروللى وبدا على كل الوجوه التجهم وانشغال البال، وبدا كل واحد وكأنه يحسب حساب بدء يوم ثانٍ ويتعجب: ما معنى كل هذا الجهد؟ وإلى أين يؤدى بنا؟ وأظنهم قد أدركوا بما لديهم من حساسية مشتركة نفس الغلطة ويتساءلون: كيف قصرنا عن فهم شىء واضح هكذا؟، ولماذا تأخر الوقت بحيث يتعذر الإصلاح والتقويم؟

وأدخلتنى «تيكلا» إلى المنزل، وفى الممر أفصحت عيناها عن لوم واستنكار، وبدا كأنهما تقولان: أنت رجل طائش متهور، وسألتنى إذا كنت أريد طعام



Twitter: @ketab_n

الإفطار، فشكرتُها مرجئًا إياه، فقالتْ:

- كوب قهوة سيكون مفيدًا.

- لا مانع يا عزيزتى تيكلا.

وأعطيتها نصف زلوتى، فاعترضت قائلة:

- كلا، كلا، كلا.

- خذيه يا تيكلا إنى أحبك.

فاحمر خداها، وقالت:

- أنت طيب جدًا.

وفتحت الباب المؤدى إلى حجرتى، وبدا فراشى مرتبًا لم يمس، الستائر مسدلة، وكانت لاتزال حَتَّةُ من أمس باقية تطالبنى بحقها، فتمددت فى الفراش لأخطف لحظات قليلة من الراحة، فيما مضى حكت لى أمى قصة صبى المعهد الدينى المسحور الذى انحنى على طست ماء ليغسل يديه قبل طعام العشاء، وفى الثانية التى همَّ فيها بالحصول على إبريق الماء عاش سبعين عامًا عن طريق التناسخ، وقد حدث لى شىء من هذا القبيل، فخلال ليلة عثرت على حبى المفقود، ثم استسلمت للإغراء، وخنت حبيبتى، وسرقت أيضًا خليلة مَنْ أحسن إلىَّ، وتمددت إلى جوارها، وهيجت شهوتها بما رويته لها من مغامراتى الجنسية، وجعلتها تعترف بآثام اقترفتها ملأتنى بالقرف والاشمئزاز، وأحسست بالعُنَّة، ثم انقلبت إلى


Twitter: @ketab_n

ماردجنسى، وشربنا، وتشاجرنا، وتبادلنا القبل، وتشاتمنا، وتصرفت كمنحرف جنسى وقح، ثم تصرفت كتائب قد ندم بحرارة على تصرفه، وفى الفجر حاول سكير أن يفتح الباب عُنوة، واقتنع كلانا أنا وهى أن «سام دريمان» قد عاد ليباغتنا ويقتص منا، وربما ليقتلنا. لقد غفوت، فأيقظتنى «تيكلا» من غفوتى بصينية القهوة والأرغفة الطازجة والبيض المقلى، فهى لم تعد تولى رغباتى اهتمامًا فحسب، بل أخذت تتصرف من تلقاء نفسها كما تصنع أخت أو زوجة، ونظرتْ إلىّ بفهم، فلما وضعت الصينية على المنضدة طوقتها من الخلف وقبلت مؤخرة عنقها، فلم تبد حراكًا للحظة، ثم التفت إلىَّ، وغمغمت:

- ماذا تفعل؟

- أعطنى ثغرك.

- أوه، هذا ممنوع.

وقرَّبت ثغرها منى، فقبلتها طويلاً، فقبلتنى هى بدورها وضغطت بصدرها علىَّ، وظلت تنظر إلى الباب، إذ كانت تخاطر بسمعتها وعملها، وانفلتت من بين ذراعى وهى تلهث، وقبضت على معصمى بقوة فلاحة وهست كالإوزة «السيدة قد تأتى»، ومشت إلى الباب وهى تجر ساقيها بسمانتيها العريضتين، وتذكرت عبارة فى كتاب (أخلاق السلف) تقول: «الخطيئة تجر إلى الخطيئة»، ورشفت القهوة وأكلتُ رغيفًا وشيئًا من البيض، ثم خلعت حذائى، وكانت


Twitter: @ketab_n

المسرحية موضوعة على مكتبى، ولم يكن فى وسعى أن أكتب آنذاك، واستلقيت على الفراش، لا أنا نعسان ولا أنا يَقْظان تمامًا، فى كل الروايات التى قرأتها يرغب البطل فى امرأة واحدة، أما هنا فأتوق بشدة إلى جنس النساء كله، وأخيرًا استغرقت فى النوم، وفى منامى رحت أكتب المسرحية، وازدادت الكتابة تعثرًا، ونشف الحبر، وخربش القلمُ الورق، ولم أميز ما كتبته، وفتحت عينى ونظرت فى ساعة يدى فألفيتها الواحدة وعشر دقائق، ووجدتنى قد نمت ساعات، وكان من المفروض أن أكون لدى «شوشا» فى الثانية، ولابد مع ذلك أن أغتسل وأحلق، وقررت أن آخذ علبة حلوى لـ «شوشا»، ولم أعد فى حاجة إلى سرقة جروشن أو ستة لأشترى لها شيكولاتة، إذ كان جيبى عامرًا بأوراق البنكنوت وأديت كل ذلك على عجل، وكان المشى إلى شارع كروتشمالنا يستغرق وقتًا طويلاً؛ ولذا ناديت على درشكية لدى مغادرتى دكان الحلوانى، فلما توقفت أمام رقم (٧) أشارت ساعة يدى إلى الثانية وخمس دقائق، واستشعرت قلق الأم والابنة، فاندفعتُ خلال الفناء، وسقطت تقريبًا فى الحفرة التى تجنبتها فى ظلام الليلة الماضية، وعندما فتحتُ البابَ وجدتنى كأنى فى عيد، فالمائدة قد وُضع عليها مفرش وطقم صينى، و «شوشا» ترتدى فستان السبت، وتلبس حذاء ذا كعب عالٍ، ولم تعد مثل القزم أو محض فتاة قصيرة، كذلك صففت شعرها عاليًا على نحو مختلف كى تظهر أطول، بل وهندمت


Twitter: @ketab_n

«باشـيل» نفسـهـا، أيضًـا احـتـفـاءً بزيارتى، وأعطيتُ «شوشـا» علبة الحلوى، وحدقت إلىَّ بعينيها الـزرقاوين فى سعادة يشوبها الارتباك، فقالت «باشيل»:

- أريل، إنك رجل مهذب حقًا.

- هل أفتحها يا أماه؟

- ولِمْ لا؟

وعـاونتهـا، وكنت قد طلبت من الحلوانى أفضل ما لديه من حلوى، وكـان لون الصندوق أسـود تتـخلله نجيمـات ذهبيـة، والشـيكولاتة مـوضوعـة فى كئوس ورقـيـة مـزينة بحـزوز، وكل منهـا بحـجم مـخـتلف فى التـجـويف الخـاص بهـا، وتغـيـر لون وجـه «شـوشـا»، وقالت: انظرى يا أماه!

واحتجت «باشيل» قائلة:

- يجب ألا تنفق كثيرًا هكذا.

- أتذكرين يا شوشا كيف اعتدت أن أسرق النقود من أمى كى أبتاع لك شيكولاتة، فتضـربنى هـى على ذلك بعنف فى المنزل؟

- أذكر يا أريل.

فقالت «باشيل»:

- لا تأكلى أى شيكولاتة قبل العشـاء، وإلا أفسدتِ شهيتك.

فرجت «شوشا» أمها قائلة:



Twitter: @ketab_n

ـ واحدة فحسب يا أماه.

وأخذت تفكر أى قطعة تختار، وأشارت إلى واحدة، ثم أخرى، ولكنها لم تحسم رأيها، ووقفت متحيرة، لقد قرأت فى كتاب عن الطب النفسى أن عدم القدرة على اتخاذ قرار بشأن أبسط الأشياء هو أمارة على الاختلال النفسى، فالتقطت أنا ثلاث قطع، واحدة لكل منا، وأمسكت هى العلبة بين إصبعى الإبهام والسبابة، ورفعت خنصرها بإيماءة من إيماءات أدعياء العظمة فى شارع كروتشمالنا، وأخذت قضمةً قائلة:

ـ إنها تذوب فى فمك يا أماه! كم هى لذيذة.

ـ اشكريه على الأقل.

ـ آه، لو كنت تعلم فقط يا أريل أن........

فقالت لها «باشيل»:

ـ أعطه قبلة.

ـ أخجل.

ـ مم تخجلين؟ أنت سيدة صغيرة ـ يحرسك الله من عين الحسود.

ومدت يدها قائلة:

ـ إذًا، ليس هنا، فى الحجرة الأخرى، تعال معى.

وتبعتها إلى الحجرة الأخرى التى ازدحمت بالصرر والأجولة والأثاث القديم، وحيث يوجد سرير معدنى صغير ذو قش بدون ملاءة، ووقفت «شوشا» على أطراف أصابعها، فانحنيت عليها، فأخذت هى وجهى


Twitter: @ketab_n

بيديها الشبيهتين بيدى طفلة، وقبلتنى فى شفتى، وعلى كلا خدى وجبينى وأنفى، وكانت أصابعها ساخنة، فاحتويتها بين ذراعى، ووقفنا يتشبث كل منا بالآخر، وسألتها:

- أتريدين أن تكونى لى؟

فردت:

- أجل.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الخامس

## (١)

فى شهر مايو، وكان الصيف مبكرًا، استأجر «سام دريمان» منزلاً صغيرًا له و لـ «بتى» فى سويدر» لا يبعد عن «أوتوك»، ولم يكن الفيلا التى عَايَنَاها فى مارس، وكذلك استأجر خادمة وطباخة، وكان يذهب للاستحمام فى نهر «سويدرك» بعد الإفطار كل صباح، ويقف تحت شلال الماء المنخفض بكتفيه المستديرتين وصدره ذى الشعر الأبيض وبطنه المنتفخ، حيث يدع الماءَ ينْصَبُّ فوقه، فيصبح فرحًا، ويعطس، ويشهق، ويعرب عن امتنانه بالماء البارد بصوت عالٍ شبيه بالنباح، وتجلس بتى» على الشاطئ على كُرْسىٍ قابل للطَىّ تحت شمسية، وتقرأ كتابًا، إذ تجنبتْ مثلىٍ كل الألعاب الرياضية، ولم تكن تستطيع السباحة، وصارتْ بشرتُها فى الشمس حمراء على نحو سقيم وانتشرت فيها البثور، ولقد خُصِصت لى حجرة ذات شرفة أعلى المنزل استعملتُها عدة مرات نهاية كل أسبوع، على أنى توقفت عن الذهاب إلى هناك لوجود زوار دائمين من وارسو أو أمريكا، بل وضيوف قادمين



Twitter: @ketab_n

من القنصلية الأمريكية أيضًا، وكان أغلبية الزوار يتحدثون الإنجليزية، وحينما كان «سام» يعلم بقدومى يدعو الممثلين والممثلات الذين وقع الاختيار عليهم للظهور فى مسرحيتنا ويطلب منى أن أقرأ عليهم مشاهدها، ومع أنهم كانوا جميعًا كبارًا فى السن فقد ارتدوا ملابس الشباب؛ إذ ارتدى الرجالُ بنطلونات ضيقة، وارتديت النسوةُ سراويلَ مبهرجة على أوراكهن العريضة، وداوموا على إطرائى، إلا أنى لم أكن أطيق استمالة المشاعر أو إثارتها أو أقل إطراء لا موجب له، وبالإضافة إلى ما ذكرت آنفًا فقد دفعت إيجار شهرين آخرين مقدمًا عن حجرتى فى شارع «ليزنو»، فلم أرغب فى بقائها خالية، فضلاً عن شكوى «سام» منى فى كل مرة أذهب فيها، لأنى لا استحم فى النهر الصغير، فقد كنتُ أرتبك من خلع ملابسى أمام الغرباء، ولم أحرر نفسى من فكرة ورثتها عن أجيال أن الجسدَ وعاءُ عارٍ وخزىٍ ونُفايةُ فى الدنيا وما هو أسوأ من ذلك بعد الموت، على أن ما جعلنى فى الحقيقة أبقى فى وارسو هو «شوشا»، إذ كنت أذهب لرؤيتها فى ذلك الوقت يوميًا، ولقد وضعتُ برنامجًا حاولت مستميتًا المواظبة عليه، واقتضى منى هذا أن أقوم فى الثامنة، وأغسل وجهى فى المغسلة، وأقضى الساعات من التاسعة إلى الواحدة إلى مكتبى مع المسرحية، ولكنى بدأت رواية ما كان ينبغى أن أكتبها، وكانت ساعات العمل إلى ذلك حافلة بالعوائق، فقد


Twitter: @ketab_n

أخذ «فيتلزوهن» يحدثنى كل يوم، إذ تهيأ لأول رحلة نفسية سوف تتم فى منزل «سام دريمان» الصيفى، واعتزم أن يقرأ بحثًا هناك يدافع فيه عن نظريته القائلة بأن الغيرة أوشكت أن تتلاشى نهائيًا من الحب والجنس الإنسانيين لتحل محلها الرغبة فى مقاسمة الآخرين متعهم الشبقية، وكذلك أخذت «سيليا» تتصل بى من «جوزفو» تليفونيا كل يوم وتسألنى فى كل مرة نفس الأسئلة: لماذا تبقى فى جو وارسو الحار؟ لماذا لا تستمتع بالهواء الطلق؟، وتصف لى هى و «هايمل» كيف أن الهواء منعش فى جوزفو، وكيف أنه معتدل بالليل، وكيف أن تغريد الطيور بديع وحلو، ويلحان علىَّ بالمجىء إليهما، وتعمل «سيليا» على إقناعى قائلة: «لننتهز فرصة السلم القصير قبل أن تندلع حرب عالمية أخرى»، فأقر بأنهما على حق وأعدهما بتلبية رغبتهما مثلما أعد «سام دريمان» و «بتى» بالمجىء إليهما فى أقرب وقت، اليوم أو اليوم الذى يليه، ولكن ما أن تشير الساعة إلى الواحدة والنصف حتى أتوجه إلى شارع كروتشمالنا، وأعبر بوابة رقم (٧)، فألمح «شوشا» واقفة ترقبنى: فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين وأنف قصير وشفاه رفيعة وجيد نحيل وشعر مجدول على هيئة ضفائر تتدلى من مؤخرة الرأس، وأحمد الله على أن أسنانها سليمة جميعها، وأنها تتحدث بيدية شارع كروتشمالنا، وتأبى أن تسلم بالموت على طريقتها الخاصة ـ فمع أنهم ماتوا جميعًا



Twitter: @ketab_n

فـمـازال «إيلى» و«زيلدا» من وجـهـة نـظرها ـ يديران دكان البقالة، و«ديفيد» و «ميرال» يبيعان الزبد واللبن المغلى وغــيــر المغلى واللبن الرائب والجبن الحلوم، و «إستير» مازالت تدير محل الحلوى، حيث يمكنك أن تشـتـرى الشـيـكولاتة وفـطيـرة الجبن والمياه الغـازية والجيلاتى، وتفاجئنى «شوشا» كل يوم بشىء جديد، فـقـد أخـرجت كـتـبـهـا المدرسـيـة القـديمـة بصـورها وقـصـائدها المألوفة، وكـانت تحـتـفظ بالكراسـات التى بدأت فـيـهـا عـملى الأدبى ومـحـاولة الرسـم أيضًـا، ولاحظتُ عندمـا جـئنا إلى الرسم أنى لم أحـقق أدنى تقـدم يُذكـر، وكلمـا خلوت إليـهـا سـألت نفسى: كـيـف يكون هـذا؟ ومـا تفـسـيره؟ هل عـثـرت «شـوشـا» على طريقـة سـحـرية لإيقـاف تقـدم الزمن؟ أيكون هذا هو سـر الحب؟ أم هـو قـوة الـرجـوع إلى الماضى؟ ومن الغريب أن «باشيل» ـ شأنها فى ذلك شأن «شوشا» لم تُبدِ أية دهشة لظهورى من جديد، لقد عُدت وهـأنذا هنا ـ كُنت أعطى «باشـيل» نقـودًا لتـعـد لى الوجـبـات، وعندمـا أصل فى الثـانية أو بعـدها بقليل أجـد المنزل تفـوح منه رائحـة البطاطس الطازجـة والفطر (عـيش الغـراب) والطمـاطم والقـرنبـيط، أو أيًا كـان الذى ابتـاعـتـه فى ذلك اليـوم، وتعـدُ هـى المائدة، ونجلس ثلاثتنا نأكل كأنا لم نفترق قط، وكان لأطباق «باشيل» مذاق مستطاب مثلما كان وأنا طفل؛ إذ تضيف إليها التـوابل، ولم يكن يضـارعـهـا أحـد فى إضـفـاء ذلك


Twitter: @ketab_n

الطعم الحمضى المحبب إلى حساء البرش، فضلاً عن أنها تطهو الكُرنب بالزبيب وزبدة الطرطير، وتحتفظ ببرطمانات لفصوص الثوم والزعفران واللوز المسحوق والقرفة والزنجبيل، وكانت تأخذ كل الأمور ببساطة ويسر، ذلك أنى حين أخبرتها بأنى أصبحت نباتيًا لم تسألنى أى سؤال، بل شرعت تجهز لى خصيصًا وجبات مؤلفة من الفاكهة والبيض والخضراوات، وقد تدخل «شوشا» الفجوة لتخرج لعبها القديمة وتنشرها أمامى كما كانت تصنع منذ عشرين عامًا، وفى أثناء الوجبة كانت الاثنتان ترويان لى كل ما يعن لهما من أمور، فشاهد مقبرة «يبى» مال على مقبرة أخرى، وأرادت «باشيل» أن تقيمه، على أن حارس الجبانة طلب منها خمسين زلوتًا، و«ليزر» الساعاتى عنده ساعة ذات طائر من نحاس أصفر يخرج كل نصف ساعة ويغرد مثل الكنارى، ولديه أيضًا قلم يكتب من غير أن يُغمَس فى الحبر، فضلاً عن عدسة تشعل السيجارة إذا ما وضُعت تحت الشمس، و «برل» ابنة تاجر الفراء وقعت فى حب ابن مالك وكر المشاغبين فى رقم (٦)، ولم تُرِد الأمُ أن تذهب إلى حفل الزفاف، فقال الواعظ «يَشُوع»، وهو الحاخام الذى جاء بعد أبى أن هذا إثم، وفى رقم (٨) حُفِر خندق، فعثروا على جثة مهندس عسكرى روسى ومعها سيف ومسدس، ولم يكن الزى الرسمى قد بَلى بعد، وكذلك كانت الأوسمة لا تزال مثبتة على طية صدر سترته،


Twitter: @ketab_n

وكلما سألتُ عن شخص فى شارع كروتشمالنا وجدتُ «باشيل» تعرف عنه كل شىء، وأن معظم الجميع قد ماتوا، أما الذين مازالوا أحياءً يرزقون فقد انتقل كثير منهم إلى الأقاليم أو سافر إلى أمريكا، والشحاذ الذى مات فى الشارع وُجِد يحمل كيسًا به دوكات ذهبية(٨٠) ترجع إلى عهد الاحتلال الروسى، وهناك بغى زارها رجل من كراكاو، ودفع لها زلوتًا كى يذهب معها إلى القبو، ثم جاء إليها ثانية فى اليوم التالى، ثم اليوم الذى يليه أيضًا، وهكذا يومًا بعد يوم إلى أن وقع فى غرامها وطلق زوجته وتزوجها هى، وكانت «شوشا» تنصت فى صمت، وفجأة قالت من غير تفكير:

- إنها تسكن فى رقم (٩)، لقد أصبحت امرأة محتشمة.

وبدا لى أن «شوشا» تعى هذه الأمور، فنظرتُ إليها، فتضرج وجهها، وسألتُها:

- خبرينى يا شوشا هل عرض أحد عليك الزواج؟

فوضعت ملعقتها وأجابت:

- عرضوا علىّ سمكريًا من رقم (٥) ماتت زوجته، وجاءت الخاطبة لترانى.

فهزت «باشيل» رأسها قائلة:

- لماذا لا تخبريه عن مدير المحل الذى طلبك؟

فسألتُ: مَنْ هذا المدير؟


Twitter: @ketab_n

فأجابت: «شوشا»:

- أوه، إنه يعمل فى محل بشارع «ميد»، وهو شخص قصير ذو شعر أسود غزير، لم أحبه.

- لماذا؟

- لأن له أسنانًا سوداء، وحين يضحك يصدر صوتًا كهذا: إخ، إخ، هى، هى، هى.

وفى أثناء تقليدها ضحكة الرجل أخذت هى نفسها تضحك، ثم التزمت الجد، وقالت:

- إنى لن أتزوج بدون حب.

## (٢)

كلا، لم تبق «شوشا» طفلة تمامًا، إذ كنت أقبلها عندما تذهب أمها لشراء الحاجيات، وتقبلنى هى بدورها أيضًا، ويتورد وجهها، وأضعها على حجرى فتقبل شفتى وتداعب شحمة أذنى.

قالت: أريل، إنى ما نسيتك قط، كانت أمى تضحك منى قائلة:

لم يعد يعلم حتى أنك موجودة، لعل له خطيبة الآن أو زوجة أو أطفال، لقد ماتت يبى وذهبت تيبل إلى المدرسة، ورغم حلول الصقيع كانت تستيقظ مبكرة دائمًا وتغسل وجهها وتأخذ كتبها، وقد حصلت على


Twitter: @ketab_n

درجات عالية، إن أمى تحنو علىّ، ولكنها لا تشترى لى فستانًا أو حذاءً، وحين تغضب منى تقول: من المؤسف أن روحك لم تُقبَض بدلاً من يبى، فأقول لها: لا تعيدى هذا فأنت تقتليننى، فى أثناء الحرب بدأت أمى تشترى آنية فخارية وأكوابًا وطفايات وفناجين وما شابه ذلك، واتخذت لها مكانًا بين السوقين الأول والثانى، وأخذت تجلس هناك كل يوم دون أن تكسب شيئًا تقريبًا اللهم ماركًا أو بضع بفنجات، وكانت تتركنى وحدى، وكانوا يظنون أنى طفلة لصغر حجمى، على أنى كنت أفهم كل شىء، لأبى زوجة أخرى يسكن معها فى شارع نيزكا، ربما جاء إلى المنزل مرة كل ثلاثة شهور ليلقى إلينا بشىء من النقود ويأخذ فى «الزعيق»، وهو يذهب إلى شقة تيبل حيث تسكن ويقول عنها إنها ابنته ويرسل معها نقودًا أيضًا.

ـ ماذا يعمل أبوك؟ كيف يكسب النقود؟

فاتخذ وجه «شوشا» سمت الوقار، وقالت:

ـ غير مسموح لى بالقول.

ـ خبرينى أنا.

ـ لا أستطيع أن أخبر أحدًا.

ـ أقسم بالله يا شوشا إننى لن أخبر أى مخلوق.

فجلست «شوشا» على مقعد بجانبى، واحتضنت ساقى بيديها، وقالت:



Twitter: @ketab_n

ـ مع الموتى.

ـ فى جمعية دفن الموتى؟

ـ نعم، هناك، فى البداية عمل فى دكان نبيذ وكحول، ولما مات صاحب الدكان طرده أبناؤه، فى شارع جوزيبوسكا توجد جمعية (الرحمة الحقيقية)، حيث يتولون دفن الموتى، رئيسها كان يذهب مع أبى إلى الحدير.

ـ أيسوق أبوك عربة موتى؟

ـ كلا إنها سيارة، نوع من السيارات إذا مات شخص فى موكوتوف أو زمولفيزنا ذهب أبى لإحضاره فيها إلى وارسو، وهو ذو لحية يخالطها الشيب، على أنه يخضبها فتغدو سوداءَ من جديد، والمحبوبة ـ وهذا ما يُطلقون عليها ـ تعمل فى الجمعية أيضًا، أقسم لى إنك لن تخبر أحدًا.

ـ من ذا الذى أخبره يا شوشيل؟ مَنْ مِن أصدقائى يعرفك؟

ـ تظن أمى أن لا أحد يعرف، ولكنهم يعرفون، هناك متاعب كثيرة بشأن تجفيف الغسيل فى العِلّيَّة، إذا علقته فى الفناء ليجف سرقه اللصوص، ويجىء الشرطى أيضًا ليعطى مخالفة، ما من مرة فيها غسيل إلا وقع شجار بين النسوة، وسَبَّتْ إحداهن الأخرى أو تطاولت عليها بالضرب أحيانًا، إذ لا توجد حجرة


Twitter: @ketab_n

تكفى كل شخص، وتقطع المرأة التى تبيع البيض المعطوب الحبلَ المعلق عليه الغسيل، فتسقط كل القمصان، فيضربها البعض، فتجرى لإبلاغ الشرطة، أوه، يوجد هرج شديد يدعونى إلى الضحك، لقد غضبت المرأة على أمى غضبًا شديدًا، وزعقت: فلتذهبى إلى الأموات مع عشيقة زوجك، ولتتعفنى معهما، وعندما دخلت أمى المنزل اعترتها نوبة تشنج، فاضطروا إلى استدعاء حلاق الصحة، لو علمت أمى أنى أخبرتك لصرخت بشدة.

- لن أخبر أحدًا يا شوشا.

- لماذا هجر والدى أمى؟ لقد رأيتها مرة، تلك المحبوبة، إن لها صوتًا كالرجل، كان الوقت شتاءً حينما سقطت أمى مريضة، لقد تركنا أبى بدون جروشن واحد، هل أنت متأكد أنك تريد أن تسمع؟

- أجل، أريد.

- كان يجب أن نستدعى طبيبًا، ولكن لم يكن معنا ثمن الدواء أو ثمن أى شىء آخر، كان يكائيل ناتان صاحب دكان البقالة لا يزال فى رقم (١٣) آنذاك، هل تذكره، إيه؟ اعتدنا أن نشترى لوازمنا من عنده هو وزوجته.

- أظن ذلك، فقد اعتاد أن يصلى فى منزل صلاة «نيوستات».


Twitter: @ketab_n

ـ أوه، أنت تذكر كل شيء! يحسن بى أن أتحدث إليك، الآخرون لا علم لهم بشىء، كنا مدينتين لهما دائمًا، وعندما كانت أمى ترسلنى لشراء رغيف خبز تنظر زوجته فى الدفتر الطويل، وتقول: كفاكما دين، فارجع إلى المنزل، وعندما أخبر أمى تأخذ فى البكاء، وتستغرق فى النوم، فلا أدرى ما أصنع، كنت أعرف أن الجمعية فى شارع جرزيبوسكا، فقلت فى نفسى: لعل أبى هناك، فذهبت، كان زجاج النافذة أبيض كالحليب، وهناك لافتة سوداء تُقرأ (الرحمة الحقيقية)، وخفت أن أدخل، افرض أن الجثث موضوعة هناك، إنى جبانة جدًا، أتذكر حين ماتت يوكيفيد؟

ـ أجل، يا شوشيل.

ـ كانوا يقيمون فى طابقنا، كنت أخاف أن أمر من أمام بابهم بالليل، بل وفى أثناء النهار أيضًا، لأن الصالة كانت مظلمة، وكنت أحلم بها فى الليل.

ـ شوشيل، إنى أحلم بيوكيفيد حتى اليوم.

ـ أنت؟ لقد كانت طفلة صغيرة، ماذا أصابها؟

ـ حمى قرمزية.

ـ أنت تعلم كل شىءٍ عنها! لو لم ترحل أنت بعيدًا لما مرضت أنا، ليس هناك من أن أتحدث معه، كل شخص يسخر منى، أجل، ألواح زجاج بيضاء وحروف


Twitter: @ketab_n

سوداء، فتحتُ البابَ، لم يكن هناك جثثٌ موضوعة، الجمعية حجرة بديعةأو مكتب كما يسمونها، وهناك نافذة صغيرة فى الحائط وأناس يتحدثون ويضحكون خلفها، وهناك أيضًا رجل عجوز يحمل أكواب شاىٍ على صينية، وسألنى واحد عند النافذة عما أريد، فأخبرته عمن أكون وعن مرض أمى، ودخلتْ امرأةٌ ذات شعر أصفر قد غطت التجاعيد وجهها ويديها، فقال الرجل لها: هذه الفتاة تسأل عنكما، فحملقتْ فى وجهى قائلة: مَنْ أنت؟ فأخبرتُها، فأخذت تزعق: لو جئت إلى هنا وتعمدت مضايقتى مرة أخرى فلسوف أمزق أحشاءك، أيتها الشريرة الصغيرة، وتفوهت ببعض الكلمات القذرة التى يعف اللسان عن ذكرها، أفهمتِ؟

- أجل.

- أردت أن أجرى بعيدًا، ولكنها فتحت كيس نقودها، وأخرجت بعض النقود، وعندما تبين أبى الأمر جاء، وصاح بصوت عالٍ جدًا سمعه كل من فى الفناء، وقبض على ضفيرتى وجرنى على الأرض من أول الفناء لآخره، وبصق علَىّ، وعلى ما أظن لم يخاطبنى ثلاث سنوات عند زيارته لنا، وكذلك غضبت أمى منى، كان كل واحد يصيح فى وجهى، هكذا مرت الأعوام، أريل، أستطيع أن أجلس إليك


Twitter: @ketab_n

مائة عام، ولا أكون قد فرغت بعد من إخبارك بكل ما مر بى، الفناء هنا أسوأ من الفناء فى رقم (١٠)، فهنا صبية أشرار كذلك، وإن كانوا لا يضربون بنتا، كل ما فى الأمر أنهم يسخرون منى أو يعترضون طريقى أحيانًا، أتتذكر حين كنا نلعب بالبندق فى عيد الفصح؟

- أجل، يا شوشا.

- إذًا، أين كانت الحفرة؟

- داخل البوابة.

- كنا نلعب فأفوز عليهم جميعًا، كنت أفرغ جيوبك، وأريد أن أعيد إليك البندق فلا تأخذه، كانت ڤلثل الحائكة قد صنعت لى فستانًا جديدًا، وطلبت أمى حذاءً لى من مايكل صانع الأحذية، وفجأة ظهر «يتزشوكل» التقى، وأخذ يزعق فيك: ابن الحاخام يلعب مع بنت!، أنت ولد فظيع، لسوف أخبر أباك هذه الدقيقة، لسوف يشد أذنيك، أتتذكر هذا؟

- لا أذكر هذا وإن كان قد وقع.

- لقد طاردك فجريت أنت، فى تلك الأيام كان أبى لا يزال يأتى إلى المنزل طوال الوقت، وكان صفحة فطير معلقة فى منزلنا، وبعد عيد الحانوكة ضَحَّتْ أمى بدجاجة سمينة، فأكلنا كثيرًا حتى كادت بطوننا تنفجر، وقد صنعوا لك رداءً جديدًا من الجبردين،


Twitter: @ketab_n

أوه، انظر كيف أثرثر، فى رقم (١٠). لم يكن الأمر سيئًا إلى هذا الحد كهذا ـ هنا يلقى البلطجية الأحجار الضخمة حتى أنهم شجوا رأس فتاة ذات مرة، وجر شخصٌ فتاة إلى القبو فصرختْ، ولكن إذا صرخت فى رقم (١٠) فما من أحد يهمه أو يقلقه أن يعرف ما الخطأ، كثير من البلطجية الصغار يحملون مديات، أمى تتهانى دائمًا عن الاختلاط بهم، وإذا قاومتَ شخصًا هنا فقد تُصابُ بطعنة، لقد فعل الشخص إياه بالفتاة ما تعرف.

ـ أو لم يسجن على فعلته؟

ـ جاء الشرطى وكتب فى دفتر، هذا كل ما فعل، وفر الشخص واسمه بايساش هاربًا، إنهم يفرون هاربين وينسى الشرطى ما كتبه، أحيانًا يرسلون الشرطى إلى شارع آخر أو إلى الأرقام الكبيرة فى الشارع هنا، وحين جاء الألمان ألقوا فى السجن كل القوادين واللصوص، ثم أطلقوا سراحهم جميعًا من جديد، وظن الناس أن الحال سوف يتحسن تحت حكم البولنديين، ولكنهم يأخذون الرشوة أيضًا، ما عليك إلا أن تدس زلوتًا فى يد الشرطى حتى يمحو ما كتبه.

ووقفتْ «شوشا قائلة:

ـ أريل، يجب ألا تذهب بعيدًا مرة أخرى، حين تكون هنا أصبح متمتعة بالصحة.


Twitter: @ketab_n

## (٣)

ومشينا نتنزه أنا و «شوشا» وهى متعلقة بذراعى، وأصابعها تُربِّتُ يدى، وكل منها يداعبنى على انفراد، فغمرنى الدفء، ووخَزَنى الشَّعْرُ بشكل متعرج على طول سلسلة ظهرى، ومنعت نفسى بصعوبة من تقبيلها فى الشارع، وتَوَقَّفنا أمام كل دكان، وكان «آشر» اللبان لا يزال حيًا، وقد شابت لحيته، هذا الرجل كان يذهب راكبًا كل يوم إلى محطة القطار لإحضار صفائح اللبن، وكان محسنًا وصديقًا مخلصًا لوالدى، ذلك أننا حين تأهبنا لمغادرة وارسو كان والدى مدينًا له بخمسة وعشرين روبلاً، فذهب إليه يودعه ويعتذر له عن عدم سداد دينه، فما كان منه إلا أن تناول خمسين ماركًا ألمانيًا من كيس نقوده وأعطاها لوالدى، وكان من المفروض أن أكون جالسًا لصقل المسرحية، ولكنى بدلاً من ذلك اجتزت البوابة الضيقة لرقم (١٢) للبحث عن صديقى الحميم «موتل» بن «بيرش»، ولم تكن «شوشا» تعرفه، إذ كان ينتمى إلى فترة لاحقة من حياتى، وفى الفناء مررت بمنزلى «رادزمين» و «نوفومنسك» للصلاة، وكانت طقوس ما بعد الظهر جارية، فأردت أن أترك «شوشا» لمدة دقيقة، وأنظر إلى الداخل لأرى من ذا الذى بقى على قيد الحياة ممن أعرف من الحسيديين، بيد أنها تعلقت بذراعى تعلقًا شديدًا، ولم تدعنى أذهب، فقد خافت أن تبقى وحدها فى الفناء،


Twitter: @ketab_n

إذ لم تكن قد نسيت الحكايات القديمة عن القوادين الذين يطوفون بعربات لخطف الفتيات وبيعهن فى أسواق الرقيق الأبيض ببيونس آيرس، ولم أكن أجرؤ على إدخال فتاة منزل صلاة حسيدى فى أثناء تأدية جماعة المصلين للصلاة، إذ كان مسموحًا للفتيات بدخوله للتعبد فحسب فى احتفالات فرحة ختم التوراة أو حين يُصاب قريب بمرض مميت وتجتمع الأسرة للصلاة أمام تابوت العهد المقدس، وكان ثمة رجل غير يهودى يحمل قصبة طويلة فى طرفها لهب متأجج، وينتقل بها من عمود إنارة إلى عمود إنارة آخر ليضىء مصابيح الشوارع، فيسقط ضوء شاحب على الناس، وهم يتصايحون ويتدافعون ويحتك بعضهم ببعض، وتتضاحك الفتيات فى صخب، وعلى كل بوابة أخرى وقفت فتيات الليل لإغراء الرجال، ولم أجد صديقى «موتل»، فصعدت الدرج المظلم، حيث يسكن والده مع زوجته الثانية، وقرعت الباب فلم يجبنى أحد، وأخذت «شوشا» ترتجف، فوقفت معها على مُنْبَسَطِ الدرج وقبلتُها وضممتُها إلىَّ، ومددتُ يدى إلى داخل بلوزتها، وتحسستُ نهديها بالغى الصغر، فقالت وهى ترتعد:

- كلا، كلا، كلا.

- شوشيل، كل هذه الأمور مباحة حين تحبين.


Twitter: @ketab_n

ـ أجل، ولكن ....

ـ أود أن تكونى لى.

ـ حقيقى؟

ـ أحبك.

ـ إنى صغيرة للغاية، ولا أستطيع الكتابة.

ـ لستُ فى حاجة إلى كتابتك.

ـ أريل، لسوف يسخر الناسُ منك.

ـ لقد اشتقتُ إليك طوال هذه السنوات.

ـ أوه، أريل، أهذا حقيقى؟

ـ أجل، ما أن رأيتك حتى أدركت أنى حقًا لم أحب أحدًا إلى الآن سواك.

ـ أعرفت فتياتٍ كثيراتٍ؟

ـ ليس كثيرًا، ولكنى ضاجعت بعضهن.

وبدا كأنما هى تفكر مليًا، وقالتْ:

ـ هل صنعت هذا مع تلك الممثلة القادمة من أمريكا؟

ـ نعم.

ـ متى؟ أقبل أن تأتى إلىَّ؟

وكان يجب أن أرد بالإيجاب، ولكنى بدلاً من ذلك سمعتنى أقول:



Twitter: @ketab_n

ـ لقد ضاجعتها ليلة بعد أن تقابلنا.

وندمت فى الحال على قولى هذا، ولكن يبدو أن الاعتراف والتباهى أصبحا عادة لدىّ، ربما تعلمتهما من «فيتلزوهن» أو من نادى الكُتَّاب، وقلتُ لنفسى إنى بهذا فقدتُها، وحاولتْ «شوشا» أن تبتعد عنى، بيد أنى أمسكتها بإحكام، إذ كان لدىّ شعور المقامر الذى يقامر بكل ثروته فى لعبة واحدة، ويظل ـ مع ذلك ـ محتفظًا برباطة جأشه، وتناهى إلىَّ خفقان قلبها خلف نهدها الأيسر الصغير، وقالت:

ـ لماذا فعلت ذلك؟ أتحبها؟

ـ كلا، يا شوشيل، أستطيع أن أفعل ذلك بدون حب.

ـ ذلك ما تفعله إياهن أو إياهم، أنت تعرف ما أعنى.

ـ العاهرات والقوادون، هذا ما صار إليه حالنا جميعًا، ولكنى مازلتُ أحبكُ.

وسألتْ «شوشا» بعد السكوت هنيهة:

ـ هل لديك أخريات كذلك؟

ـ حدث ذلك، لا أريد أن أكذب عليك.

ـ لا يا أريل، أنت لست فى حاجة إلى خداعى، لأنى أحبك مثلما تحبنى، ولكن لا تخبر أمى بشىء،


Twitter: @ketab_n

وإلا آثارت ضجة، وأفسدت سعادتى.

وتوقعت أن تطلب «شوشا» منى تفاصيل عن علاقتى الغرامية بـ «بتى»، وكنت مستعدًا أن أحيطها بها، فضلاً عن مغازلتى «تيكلا» والتودد إليها رغم أن لها خطيبًا بالجيش أكتبُ الرسائلَ إليه باسمها، ولكن يبدو أن «شوشا» نسيت ما قلتُه لها أو غضت النظر عنه وكأنه ليس ذا أهمية، أتراها وُلدِتُ مزودة بغريزة المشاركة أو المقاسمة التى تحدث عنها «فيتلزوهن»؟، وواصلنا المشى، فبلغنا شارع «ميروفسكا» فألفينا دكاكين الفاكهة مغلقة، والطوار مفترشًا بقش وأعواد من أقفاص مكسورة وورق رقيق مما يغلف به البرتقال، وفى السوق الأول كان العمال يرشون بخراطيم الماء الأرضيةَ المرصوفةَ بالأجر، والتجار والزبائن قد تناثروا هنا وهناك، وصدى صيحاتهم عالقة فى الفضاء، وفى زمنى اعتادت الكائنات البحرية المحرم أكلها أن تسبح هنا بدون زعانف أو حراشف فى طسوت عديدة، كما اعتاد أصحاب الدكاكين أيضًا بيع جراد البحر والضفادع التى يأكلها غير اليهود، وكذلك كانت المصابيح الكهربية الضخمة تضىء السوق بالليل، وقُدتُ «شوشا» إلى موضع مناسب، وقبضتُ على ذراعيها قائلاً:

- أو تريدننى يا شوشيل؟

- أوه يا أريل، أمازلت تسأل؟


Twitter: @ketab_n

ـ هلى ستنامين معى؟

ـ معك، أجل.

ـ هل قبلك أحد من قبل؟

ـ كلا، حاول جلف أن يقبلنى مرة، ولكنى وليت هاربة، فرمانى بقطعة خشب.

وفجأة انتابتنى رغبة قوية أن أتباهى أمامها، أن أنفق النقود عليها، فقلتُ:

ـ شوشا، قلتِ منذ لحظة إنك على استعداد أن تصنعى كل ما أطلبه منك.

ـ أجل، إنى مستعدة.

ـ أريد أن أصحبك إلى حدائق السكسونى وأن أركب معك الدرشكية.

ـ حدائق السكسونى؟ إنهم لا يسمحون لليهود بدخولها.

وكنت أعلم ما تعنيه، فتحتَ حكم الروس كان رجال الشرطة الذين يحرسون البوابات يحرمون دخول المتنزه على اليهود المرتدين ثياب الجبردين الطويلة وكذا النساء ذوات الشعر المستعار أو القلنسوة، على أن البولنديين ألغوا هذا الأمر فيما بعد، علاوة على أنى أرتدى الزى الحديث؛ ولذا أكدت لـ «شوشا» أنه مسموح لنا بالذهاب إلى أى مكان نختاره، فقالتْ هى:


Twitter: @ketab_n

ـ عَلاَم نستقل درشكية؟ فلنستقل ترام (١١)، هل تعلم معنى هذا؟

ـ أجل، معناه أن نسير على الأقدام.

ـ من المخجل أن تبدد النقود، أمى تقول إن كل جروشن مهم وله قيمته، لسوف تدفع زلوتًا للدرشكية، كم مدة الركوب؟ لعلها نصف ساعة، إذا كان معك صررٌ من النقود فتلك حكاية أخرى.

ـ هل ركبت الدرشكيةَ من قبل؟

ـ لا.

ـ إذًا ستركبين الدرشكية معى اليوم، فجيبى ملىء بالزلوتات، قلت لك إنى أكتب مسرحية، قطعة للمسرح، أعطونى ثلاثُمائة دولار أنفقت منها مائة وعشرين، وتَبَقَّى معى مائة وثمانون، الدولار يساوى تسعة زلوتات.

ـ لا ترفع صوتك هكذا وإلا سُرِقت، حاولوا مرة أن يسرقوا رجلاً من الريف، فلما قاومهم طعنوه.

وسرنا فى شارع «ميروفسكا» فى طريقنا إلى ميدان «إيرون جيت»، وكان السوق الأول فى جانب منه، كما كان صفٌّ طويل من الأكواخ المسطحة فى الجانب الآخر، حيث يبيع الإسكافيون من غير اليهود الأحذية من كل صنف، حتى لباس القدم ذى الكعب المرتفع والنعل للأعرج، ويغلقونها ـ أى تلك الأكواخ ـ غلقًا تامًا بالليل، وقالتْ «شوشا»:


Twitter: @ketab_n

ـ إن أمى على حق أن أرسلك الله إلىَّ، لقد أخبرتك من قبل عن ليزر الساعاتى، أرادت أمى أن تزوجنى له، لكنى قلت لها إنى سأبقى أعزب، إنه أفضل ساعاتى فى وارسو كلها، لو أعطيته ساعة مكسورة لأصلحها، ولظلت تعمل سنوات، لقد رأى اسمك فى الجريدة، فجاء إلينا وقال: انظرى إلى ما كتبه خطيبك، هذا ما كان يطلقه عليك، ولما قال ذلك أدركتُ أنك لابد قادم إلىَّ فى يوم من الأيام، يقول إنه يعرف والدك.

ـ أهو يحبك؟

ـ يحبنى؟ لست أدرى، إنه يبلغ الخمسين من العمر وقد يزيد.

وأقبلتْ درشكيةٌ، فاستوقفتُها، فارتعدتْ «شوشا»، وقالت: أريل، ماذا تفعل؟ إن أمى ...

ـ اصعدى.

وعاونتها، وركبت بجانبها، والتفت إلينا مستريبًا السائق ذو القلنسوة المصنوعة من قماش زيتى والرقم المعدنى على الظهر، وقال: إلى أين؟

فقلتُ: جازف بوليفارد.

ـ فى هذه الحاة الأجرة مضاعفة.

ركبنا من أمام ميدان «إيرون جيت» وكلما انعطفت الدَّرْشَكِية اصطدمتْ «شوشا» بى، وقالتْ: أوه، أحس بدوار.


Twitter: @ketab_n

ـ سأعيدك إلى المنزل مرة أخرى.

ـ انظر كيف يبدو الشارع من الدَّرْشَكِية! أحس كأنى إمبراطورة، حين تسمع أمى بهذا سوف تقول عنك إنك مسرف، يُخَيَّل إلىَّ أنى فى حلم وأنا جالسة معك فى الدرشكية يا أريل.

ـ وأنا أيضًا.

ـ ما أكثر عربات الترام! كم هى لامعة من هنا! كأننا بالنهار، هل سنذهب إلى الشوارع الممتازة؟

ـ فى وسعك أن تسميها هكذا.

ـ أريل، منذ ذهابى إلى (الرحمة الحقيقية) لم أخرج من شارع كروتشمالنا قط، أما تيبل فتذهب إلى كل مكان، إنها تذهب إلى ڤالنسيا وميتشالن، ترى ما الذى لم تذهب هى إليه؟ أريل، إلى أين تأخذنى؟

ـ إلى غابة غير مأهولة، حيث تطهو العفاريتُ الأطفالَ الصغار فى غلايات مملوءة بالثعابين، وتأكلهن «بالمستردة» الساحرات العاريات ذوات الحلمات فى سُرَرهن.

ـ أنت تمزح، ألست كذلك؟

ـ أجل يا عزيزتى.

ـ لا يعلم المرء أبدًا ما سوف يحدث له، لطالما ضايقتنى أمى بقولها:

لن يأخذك أحد سوى مَلَك الموت، فأقول لنفسى:



Twitter: @ketab_n

لسوف يضعوننى بجانب تيبل، ثم عُدتُ بقرطاس سكر إلى المنزل فإذا بك هناك، أريل، ما هذا؟

- مطعم.

- انظر كم عدد المصابيح.

- إنه مطعم فاخر.

- أوه. انظر الدمى التى فى واجهة هذا المحل! كأنها حية، ما اسم هذا الشارع؟

- العالم الجديد.

- هنا تنمو أشجار كثيرة جدًا مثل المتنزه، يا لطول قامة السيدات ذوات القبعات! أتشم هذه الرائحة الطيبة؟ ما هذه؟

- ليلاك.

- أريل، أريد أن أسألك عن شىء على ألا تغضب؟

- عم تريدين أن تسألى؟

- هل تحبنى حقًا؟

- أجل، أحبك كثيرًا جدًا.

- لماذا؟

- الحب ليس فيه لماذا، إنه هكذا.

- مادمت لم تكن هناك فأنت لم تكن هناك، أما إذا رحلت الآن بعد مجيئك ولم تعد، فلسوف أموت ألف مرة.


Twitter: @ketab_n

- لن أتركك أبدًا.

- أهذا حقيقى؟ لقد قال ليزر الساعاتى مرة إن كل الكُتَّاب كالتائهين يمشون بالقرب من نعال أحذيتهم، لا يصدق ليزر أن هناك ربًا، يقول إن كل شىء تولد من نفسه، كيف هذا؟

- يوجد رب.

- انظر، السماء حمراء كالنار تمامًا، من ذا الذى يسكن هذه المبانى الجميلة؟

- الأثرياء.

- يهود أم غير يهود؟

- معظمهم غير يهود.

- أريل، عد بى إلى المنزل، إنى خائفة،

فقلت وأنا مرتاع من كلماتى:

- لا داعى للخوف، إذا اقتضى الأمر أن نموت فلسوف نموت معًا.

- هل يجوز أن يُوضَع ولد وبنت فى مقبرة واحدة.

فلم أجبها، ومالت برأسها على ذراعى.

## (٤)

ركبت الدرشكية عائدًا إلى بوابة رقم (٧)، ثم قررت أن أمشى من هناك إلى شارع «ليزنو»، ولكن


Twitter: @ketab_n

«شوشا» تشبثت بذراعى، إذ خافت أن تمر من خلال البوابة والفناء المظلمين، وأن تصعد نصف مجموعة الدرج وحدها، وكانت البوابة مغلقة، فاضطررنا أن ننتظر بضع دقائق حتى يأتى البواب لفتحها، وفى الفناء التقينا مصادفة برجل قصير ضئيل الجسم، «ليزر الساعاتى، فسألته «شوشا» عما يصنع فى وقت متأخر كهذا بالخارج، فأخبرنا بأنه يتمشى، وقدمتنى إليه «شوشا» قائلة: هذا أريل.

- أعرف، فاهم، مساء الخير، لقد قرأتُ ما كتبته بما فى ذلك الترجمات التى قمت بها.

كان من الصعب علىّ أن أتبينه بوضوح، على أنى تمكنت فى الضوء الشحيح المنبعث من بضع نوافذ أن أميز وجهًا شاحبًا ذا عيون سوداء واسعة، لا يرتدى صاحبه سترة أو قبعة، وتحدث إلىَّ بصوت رقيق، فقال:

- سيد جريدنجر، أم يجب أن أدعوك الرفيق جريدنجر؟ لا لأنى اشتراكى، بل لأنه يُقال فى مكان ما إن كل اليهود رفاق، أنا أعرف شوشاك منذ انتقلوا إلى هذا المبنى، فيما مضى اعتدت أن أزور باشيل حينما كان زوجها محترمًا، لا أريد أن أعطلك، ولكنها أخذت تحدثنى عنك من يوم أن التقينا ولم تتوقف، أريل كيت وكيت، أريل كذا كذا، إنى أعرف والدك


Twitter: @ketab_n

أيضًا، أكرم الله مثواه، فقد دخلتُ منزلكم مرة للإدلاء بشهادة، عندما رأيت اسمك فى مجلة منذ بضع سنوات كتبت لك خطابًا على عنوان رئيس التحرير، فلم أتلق ردًا، على العموم هم لا يردون فى مكاتب رؤساء التحرير، وكذلك الحال نفسه مع الناشرين، ذهبت أنا وشوشا مرة للبحث عنك، لقد جئت أخيرًا على أى حال، وسمعتُ أن روميو وجولييت قد وجد كل منهما الآخر من جديد، ثمة قصص حب كهذه، نعم، فى هذا العالم يوجد كل شىء، ولدى الطبيعة أمثلة متكررة لكل ما يعن لك، فإذا بحثت عن الجنون فلن تعدم وجوده أيضًا، ماذا تقول أوساطكم عن العالم؟ أعنى هتلر وستالين وتلك الحثالة.

- ماذا يمكن أن يقولوا؟ الجنس البشرى لا يريد السلام.

- لماذا تقول «الجنس البشرى»؟ إنى أريد السلام و «شوشا» تريد السلام، وملايين من البشر تريده كذلك، مازلتُ مصرًا على أن معظم الناس فى العالم لا يريدون حروبًا، أو حتى ثورات، ولو خيروا لاختاروا أن يعيشوا حياتهم إلى النهاية على أفضل نهج مستطاع، بقليل أو كثير، فى قصور أو فى حجرات قبو مادام لديهم كسرة خبز أو وسادة يضعون عليها رءوسهم، أليس هذا حقيقيًا يا شوشا؟

- أجل، حقيقى.


Twitter: @ketab_n

ـ المشكلة أن الناس الصابرين الوادعين سلبيون، وأن المتربعين على كراسى الحكم أشرار عدوانيون، لو أن الأغلبية الساحقة قررت على نحو حاسم ونهائى الاستحواذ على السلطة فلربما كان هناك سلام.

فقلتُ: لاهم سيقررون ولا هم سيحصلون على السلطة؛ فالسلطة والسلبية لا يجتمعان.

ـ أهذا رأيك؟

ـ إنها تجربة الأجيال وخبرتها.

ـ إذًا، فالأمور مُرة وسيئة.

ـ أجل يا سيد ليزر، إنها لا تبشر بخير.

ـ ما مصيرنا نحن اليهود؟ رياح الشر تهب، طيب، لا أريد أن أعطلك، أنا أجلس طوال اليوم فى المنزل، وقبل أن أذهب إلى الفراش أتمشى قليلاً، ها هنا تمامًا فى الفناء، من البوابة إلى صندوق الزبالة وأعود ثانية، ماذا فى وسعك أن تفعل؟ لعل هناك عوالم أفضل فى مكان آخر، طاب مساؤكما، إنه لشرف لى أن ألقاك، فمازلت أحترم الكلمة المطبوعة.

فقلت: طاب مساؤك، آمل أن نلتقى ثانية.

وفى تلك اللحظة فقط أدركتُ أن «باشيل» واقفة فى النافذة ترقبنا، وكان من الواضح أنها قلقة، فكان علىَّ أن أسرع بالدخول، وفتحت هى الباب، وبينما نحن نصعد الدرج هتفت:


Twitter: @ketab_n

ـ أين كنتما؟ لماذا تأخرتما هكذا؟ لقد دارت برأسى أسوأ الظنون.

ـ لقد ركبنا الدَّرْشَكِية يا أمى.

ـ درشكية، لماذا كل هذه الأشياء؟ إلى أين؟ ما الذى أعجبكما فى هذا؟

وجعلت «شوشا» تقص على أمها جولاتنا:

ـ قمنا بجولة فى البوليفارد، وذهبنا إلى الحلوانى، وأكلنا كعكة، وشربنا ليمونًا.

وقوست «باشيل» حاجبها، وهزت رأسها مستنكرة:

ـ حتى لو قُطِعَتْ رأسى فإنى لا أرى أى معنى لتبذير كل هذه الزلوتات، لو علمتُ أنك ذاهبة إلى هذه الشوارع لكويت لك فستانك الأبيض، لا يمكن أن تأمن على حياتك هذه الأيام، زرتُ جارتنا فسمعت خطبةَ فى الراديو لذلك المجنون هتلر، كان يصرخ لدرجة تصم أذنيك، بما أنكما لم تتناولا طعام العشاء فلسوف أصنع لكما شيئًا تأكلانه.

ـ إنى لست جائعًا يا باشيل، يجب أن أعود إلى المنزل.

ـ ماذا؟ الآن، ألا تعلم أننا فى منتصف الليل تقريبًا؟، إلى أين تذهب فى وقت متأخر كهذا؟، ستقضى الليلة هنا، سأعد لك الفراش فى التجويف، ولكن يجب أن تأكل أيضًا.


Twitter: @ketab_n

وأخذت «باشيل» فى الحال تصبُّ الماءَ فى وعاء به دقيق، وأشعلتْ الموقدَ، وقادتنى «شوشا» إلى التجويف لترينى السرير الحديدى الذى تعودت «تيبل» أن تنام عليه، وأضاءت مصباح غاز صغيرًا، وكان ثمة ثياب مكومة معدة للغسيل، وعلى مقربة منها سلال وصناديق متراكمة من وقت أن كان «زيلج» يعمل بائعًا جَوَّالاً، وقالت:

- أريل، أود أن تقضى كل ليلة هنا، وأن أكون معك دائمًا، آكل معك، أشرب معك، أسير معك، لن أنسى هذه الليلة ولا حتى يوم أن يضعوا كسَرَ الفخار على جفنىّ، الدرشكية، الحلوانى، كل ما وقع ما فيها، أود أن أقبل قدميك!

- شوشا، ماذا دهاك؟

- دعنى!

وركعت على ركبتيها، وجعلت تقبل حذائى، فقاومت ذلك، وحاولتُ أن أنهضها، فانفجرت باكية وهى تكرر:

- دعنى، دعنى.

## (٥)

على الرغم من أنى لم أعد متعودًا على حشية القش، فقد استغرقت فى نوم عميق فى فجوة «باشيل» فى تلك الليلة، ثم فتحت عينى فى فزع، إذ وقف خيالٌ أبيض متشح بالبياض بجوار فراشى،


Twitter: @ketab_n

وانحنى علىّ، ومس وجهى بأصابعه النحيلة، فتساءلتُ:

ـ مَنْ هذا؟

ـ إنه أنا، شوشا؟

واستغرق الأمر منى شيئًا من الوقت كى أتذكر أين أنا، هل جاءت «شوشا» إلى سريرى مثلما ذهبت «روث» إلى «بواز»؟

ـ شوشا، ما الأمر؟

فقالت بصوت مضطرب مثل طفلة على وشك أن تنفجر باكية:

ـ أريل، إنى خائفة.

فاعتدلتُ جالسًا وسألتها:

ـ ما الذى يخيفك؟

ـ أريل، لا تغضب، لم أكن أريد إيقاظك، ولكنى بت مستلقية ثلاث ساعات وأنا لا أستطيع النوم، أتسمح لى أن أجلس على فراشك؟

ـ أجل، أجل.

ـ كان عقلى يدور كالطاحونة وأنا مستلقية فى الفراش، أردت أن أوقظ أمى، ولكنها سوف تزعق فى وجهى، لأنها مشغولة بالبيت طوال النهار، وتسقط من التعب والإعياء بالليل.



Twitter: @ketab_n

- فيم تفكرين؟

- فيك، أفكار مجنونة خطرت ببالى أنك لست أنت، وأنك الآن ميت، وقد تنكرت فى هيئة أريل، وصرخ عفريت فى أذنى: إنه ميت، ميت، وأحدث بصراخه ضجة أظن أن كل مضنٍ بالفناء سمعها، فأردت أن أتلو الشمَّاع[٨١] ولكنه بصق فى أذنى، وقال كلمات غريبة:

- ماذا قال؟

- أوه، إنى أخجل أن أعيدها.

- اذكريها لى.

- ........، وأنى عندما أتزوج سوف أبلل الفراش، ثم نطحنى بقرونه، وجلدنى بالسوط حيث تعرف.

- شوشيل، كل هذا بسبب أعصابك، حينما يجتمع شملنا معًا سوف أصحبك إلى طبيب، ولسوف يجعلك تستردين صحتك.

- هل تأذن لى بالجلوس؟

- أجل، ولكن إذا استيقظت أمك سوف تظن أن....

- لن تستيقظ، الأموات يتوافدون علىَّ لحظة أن أغمض عينى، وتأخذ النساء منهن فى تمزيق شعرى، الدورة الشهرية لم تأتنى حتى الآن رغم أنى فى سن تؤهلنى لأن أكون أمًا، مرات قليلة نزفت فيها وأعطتنى أمى قطنًا وخرقًا، ولكن كل شىء توقف بعد


Twitter: @ketab_n

ذلك، فتحدثت أمى بشأنى إلى بائعة جوالة تبيع القمصان والمناديل والسراويل الداخلية، فأخبرتْ هذه كل شخص بأنى لم أعد عذراء، وبأنى حامل، فشدت أمى شعرى، ودعتنى بألفاظ قبيحة، وقذفنى المتَنَمرُّون فى الفناء بالحجارة أيضًا، كان هذا منذ سنة وليس الآن، ولما سمع أبى بما حدث أعطى أمى عشرة زلوتات لتصحبنى إلى طبيب نساء الذى قال إن هذه كذبة كبيرة، وجاءت جارة لنا وقالت إنه يجب اصطحابى إلى حاخام للحصول منه على ورقة تقول إنى mukasetz، ومعناها البنت التى فقدت بكارَتها بالصدفة دون أن يمسسها رجل، وكان والدك قد غادر وارسو قبل ذلك بسنوات، فذهبنا إلى حاخام فى شارع «سموزا» فأمر بأخذى إلى حمام شعائرى.

وفحصنى هناك، ولم أرد الذهاب، فجرتنى أمى، وخلعت المرأة المسئولة عن الحمام ملابسى حتى صرتُ عارية، واضطررتُ إلى أن أريها كل شىء، وأنا ميتة من الخجل تقريبًا، وتحسستنى من كل ناحية، ثم قالت إنى سليمة، وطلب الحاخام ثلاثين زلوتًا من أجل الشهادة، فلم نستطع أن نعطيه ما طلب، فتغاضينا عن الأمر، وأنت هنا الآن ولذا يقلقنى أن يأتى شخصى ويخبرك بأشياء سيئة عنى.

- لن يأتى أحد يا شوشيل، ولن أستمع لأحد، ولم أكن أدرك أن توجد مثل هذه الخرافات فى وارسو.


Twitter: @ketab_n

ـ أريل، أشـيـاء غـريبـة تـخطر ببـالـى، ربما هذا أو ذاك، اعتدت أن أبلل الفراش حتى الثالثة من عمرى، حتى الآن أستيقظ فى منتصف الليل أحيانًا، فأجدنى مشبعة بالعرق والوسادة مبللة مع أن الحجرة باردة، ولا أشرب الماء قبل ذهابى إلى الفراش، حين أستيقظ أكون فى حالة سيئة، وأتبول على الأرض أيضًا قبل أن أصل إلى المبـولة، كنت أذهـب إلى الفناء خارج المنزل بالنهار وهو معتم بالليل، فـيـه جـرذان كـالقطط، لا تستطيع أن تقـعـد هناك، وقـد عـضنى جـرذ مـرة، والأبواب لا تقـفـل، إذا وجـدت السلسلة لم تجـد الخطاف، وإذا وجـدت الخطاف لم تجـد السلسلة؛ ولذا فـإنى لا أحاول الذهاب إلى هناك، اعـتـدت على ذلك لدرجـة أن الأيام والأسـابيع تمر دون أن أذهـب، ويأتى إلى هناك حـمَّـالون من سـوق ياناش وأوباش كذلك، وهم يتفوهون بكلمات بذيئة عندما يرون فتاة، بعض الشـقق هناك فـيـهـا مـراحيض بها مـيـاه، تشـد سلكًا فـيـتـدفق الماء فجـأة، كمـا يـوجـد أيضًـا نور وورق تواليت، أما هنا فلا شىء من ذلك.

ـ شـوشـيـل، نحن لن نعـيش هـنا إلى الأبد، أنا لا أكسب نقودًا كافية فى الوقت الحاضر، ولكنى أؤلف كتابًا، وهناك بعد ذلك مسرحيتى التى أكتبها للمسرح، وحـتى إذا لم أوفق هذه المرة فلسـوف أوفق فى المرة القادمة، وآخذك بعيدًا عن هنا.


Twitter: @ketab_n

- إلى أين ستأخذنى؟ البنات الأخريات يقرأن ويكتبن، أما أنا فلم أتعلم كيف ذلك، لعلك تذكر عندما طردونى من المدرسة، كنت أجلس فى الفصل ويقرأ المعلم شيئًا لنا فلا أفهمه، كنت أرى دائمًا وجوهًا مضحكة، وحين أدعى إلى السبورة لا أعرف شيئًا وأبدأ فى البكاء.

فسألتها : ماذا كنت ترين؟

- أوه، أخشى أن أخبرك، كنت أرى امرأة تمشط شعر ابنتها بمشط بديع وتضع الكيروسين عليه لتستخرج منه القمل، وفجأة يأتى القمل من كل ناحية، وبق الفراش أيضًا، فتصرخ الفتاة كالمجنونة، ولا أذكر الآن إن كانت يهودية أم غير يهودية، ويلتهم القمل الأم والفتاة فى دقيقة، ولا يترك سوى عظامهما، وعندما كنت أسير فى الشارع أقول لنفسى: ماذا يحدث لو سقطت شرفة على رأسى؟ وإذا مررت بشرطى قلت لنفسى: ربما حدثته نفسه بأنى سرقت شيئًا، فيأخذنى إلى السجن، أريل، لسوف تظن أنى مجنونة.

- كلا، يا شوشيل، ليس ذلك وإنما هى الأعصاب.

- ما الأعصاب؟ خبرنى.

- الخوف من المصائب والمحن التى حدثت أو قد تحدث للبشر.

- ليزر يقرأ الصحف لنا، أشياء فظيعة تحدث كل يوم، كان رجل يعبر الشارع فدهسته درشكية، وحاولت


Twitter: @ketab_n

فتاة من رقم (٩) أن تصعد عربة الترولى قبل أن تتوقف ففقدت ساقها، وفى الأسبوع الماضى فقط كان سمكرى يصلح سقفًا فسقط وقُتِل، وكانت البالوعة حمراء من كثرة الدم، لم أكن أنتبه لدروسى وأشياء كهذه تدور فى رأسى، وعندما كانت أمى ترسلنى لشراء شىء كنت أحكم قبضتى على النقود، فإذا ما وصلت إلى الدكان تكون قد فقدت منى، فما تفسير ذلك؟

- فى داخل كل شخص عدو يكيد له.

- إذًا، لماذا لا يوجد عدو لدى تيبل يا أريل؟ أريدك أن تعلم الحقيقة كيلا تظن أننا خدعناك.

- لم تخدعى أحدًا يا شوشيل، لسوف أساعدك.

- كيف؟ إذا كان الأمر سيئًا جدًا الآن، فماذا سوف يحدث حينما يأتى هتلر، أوه، أمى صَحَتْ!

وجرت «شوشا» من التجويف، فسمعت صوتَ تمزقِ قميصها، إذ أمسك به مسمار فى الباب.


Twitter: @ketab_n

# الفصل السادس

## (١)

كان كل يوم، بل كل ساعة تأتينى بأزمة جديدة، على أنى أصبحت متعودًا على الأخطار الملازمة لقَسْمى ونصيبى، فشبّهت نفسى بالمجرم الذى يعلم أن العقاب واقع لا محالة عليه، فجعل يبدد ما اختلسه من مال إلى أن يُقبَض عليه، وقد أعطانى «سام دريمان» دفعة جديدة، وأعادت «بتى» بناء مسرحيتى من جديد لتوافق أهواءها، وأدخلت فيها شخصيات جديدة، بل وحررت لغتى أيضًا، فأدركتُ أن الرغبة فى الكتابة يمكن أن تستهوى أى شخص قادر على مسك القلم، وبإدخال «بتى» كثير من الأحداث فى المسرحية وإضافتها قصائد غنائية إليها لم تعد متماسكة فنيًا، ورغم محاكتها لليدية الأمريكية وسخريتها منها، فقد أكسبتنى طابعًا إنجليزيًا، وغدا الموسيقى الأعمى يخطب كجلف فى «ميلودراما»، وطلب «فريتز باندر» الذى أختير ليؤدى دور الحسيدى الثرى الواقع فى حبْ «العذراء لادومير»، طلب تكبير دوره، فوعدته «بتى» بإضافة منولوجات مطولة، وكان لا يزال



Twitter: @ketab_n

محتفظًا ببعض الييدية الجاليشية المختلطة بالألمانية، وكذلك طلب دورًا لخليلته «جريتل» التى لا تعرف الييدية مشيرًا إلى أن اليهود كثيرًا ما يستخدمون خادمات ألمانيات، ومن ثم يمكن إسناد دور كهذا إليها، وكان لدى «بتى» نسخ عديدة من تعديلها للمسرحية مكتوبة على الآلة الكاتبة، نسخة لها، ونسخة لسام دريمان، ونسخة لفريتز باندر، ونسخة لديڤيد ليبمان، ونسخة لى، وكذا نسخة للباقين، وأجرى كل شخص التعديلات التى تراءت له، ثم كُتِب النص من جديد على الآلة الكاتبة وبدأت المراجعة الشاملة، وأجر «سام دريمان» مسرحًا فى شارع «سموكزا»، وطلب إعداده وتجهيزه للتمثيل، وإن كانت القرارات الأساسية بشأن الإخراج لاتزال فى حاجة إلى جسم، وطلبت نقابة الممثلين إدخال مهن لممثلين إضافيين فضلاً عن المشاهد الجماعية، فاضطررت إلى كتابة دور لخادم فى كنيس وآخر لمجنون وثالث لشخص غير حسيدى يوبخ حسيديًا، ولقد تضخم فريق العمل إلى حد أن حوارًا أساسيًا بالنظر إلى مضمونه قد شُطِب، ولقد قاومت فى البداية، وأعدت كتابة تنقيحات «بتى» و «باندر»، وصححت أخطاءهم النحوية والإملائية، ولكن سرعان ما تبين لى أن التناقضات والأساليب المختلفة والأحداث المتنافرة آخذة فى الازدياد على نحو يفوق طاقتى على إصلاحها أو تقويمها، ولم أصدق أن يشترك «سام دريمان» هو أيضًا فى الكتابة،


Twitter: @ketab_n

ولكن ذلك قد حدث، وذكرنى ذلك بحكاية سمعتها من أمى وأنا طفل عن زمرة من الأرواح الشريرة استولت على قرية، وقلبت كل شىء فيها رأسًا على عقب، فأصبح السَّقَّاء حاخامًا، والحاخام ملاحظ حمام عمومى، ولص الخيل كاتبًا، والكاتب سائقًا للخيل، واتخذ جنى هيئة طالب معهد دينى، وجعل يلقى فى بيت الدرس موعظة دينية حافلة بالكفر والتجديف، وَوَصَفَ الطبيب، وهو عفريت، للمريض بعر عنز وُخصلَ شعر عجل، فضلاً عن عصير القمر ومنى ديك رومى، وكذلك صار الشيطانُ ذو ساقى الديك وقرنى الوعل قائدَ جوقة الترتيل الدينى، فقلب بهجة ختم التوراة إلى مراثى التاسع من آب؛ إن شيئًا شبيهًا بهذه الملهاة المريكة قد تولد من مسرحيتى.

لم يتوقف التليفون عن الرنين فى الممر خارج حجرتى، ولم تعد «تيكلا» تنزعج من رفع السماعة، فالمكالمة من أجلى لا تتغير، فالممثلون والممثلات يتشاجرون مع بعضهم بعضًا من ناحية، ومع «بتى» و «ديڤيد ليبمان» الذى أخذ يهدد بترك العمل من ناحية أخرى، وسكرتير النقابة يرفع مطالب جديدة كل يوم تقريبًا، والممثلون يشكون من خداع المليونير الأمريكى لهم فيما يتصل بالأجور، ومالك المسرح يقرر أنه قد وقع عقدًا مجحفًا له، ويجب أن يحصل على نقود أكثر، ويصرخ «سام دريمان» فىَّ حتى يضطرنى



Twitter: @ketab_n

إلى إبعاد السماعة عن أذنى، وهو يقول: إذا كان اليهود قادرين على مثل هذا الخداع والتضليل فهتلر على حق إذًا، وحاولت أن أهدئ من ثائرة الآخرين، ولكنى خشيت على نفسى من الانهيار العصبى، ومضت الأيام فى اضطراب شديد، وكففت عن التحدث إلى «شوشا» و «باشيل»، ومتى ذهبت إليهما للغداء أجلس إلى المائدة صامتًا، وأنسى حتى أنى آكل، فتذكرانى أن الحساء قد برد، وبعد ساعتين أو ثلاث من النوم بالليل كنت أستيقظ وقلبى يخفق بشدة بين جنبى، وقد تشبع كيس المِخَدَّة بالعرق، وفى منامى تختلط أمورى المعقدة بمشاكل العالم، فيتجادل هتلر وموسولينى وستالين حول مسرحيتى، ثم يمضون إلى الحرب، وتحاول «شوشا» أن تدافع عنى، فاعتدل جالسًا وأنا أستمع إلى صدى الصرخات والتخلط العالق بمخى، ويخزُ الشعرُ جمجمتى، فأهرشها وأحكها، وأنتبه إلى أنى عطشان، وأن ثمة اضطرابًا فى أمعائى، وألمًا حادًا فى مثانتى، وانسدادًا فى أنفى، ورعدة تسرى فى عمودى الفقرى، ولقد يطلع النهار وأنا ما أزال جالسًا أحسب ما أنفقته، فقد قبلتُ نقودًا من «سام دريمان» أكثر مما كنت أريد، وأعطيتُ «باشيل» أكثر من أجل الوجبات، كما ساعدتها أيضًا على دفع الإيجار، وكذلك أعطيت «دورا» قرضًا كنت أعلم أنى لن أسترده منها، وفى تلك الليلة استغرقت فى النوم فى الثالثة، وفى العاشرة إلا تسع دقائق


Twitter: @ketab_n

أيقظنى رنين التليفون، وخَبَطَتْ «تيكلا» على الباب قليلاً، وقالت:

ـ مكالمة لك.

وكانت «بتى» هى المتحدثة، فسألتنى:

ـ هل أيقظتُك؟

ـ نعم ولا.

ـ لقد قضيت ليلة مفزعة، لا أتمناها لألد أعدائى.

ـ ماذا حدث؟

ـ أوه، لقد عذبنى سام، وأتى مناظر مشينة، وقال أشياءَ رعناءَ هو جاءَ اعتقدت معها أنه فقد عقله، لقد شرب ما يقرب من نصف زجاجة كونياك، يجب ألا يقرب الخمر، فلديه قلبٌ مريضٌ وبروستاتا متضخمة.

ـ ماذا يريد؟

ـ يريد أن يحطم نفسه وكل شىء، لم يعد يريد المسرحية، وله فى كل ثانية نزوة جديدة، وهو يُحدث هرجًا يمكنك سماعه فى كل أنحاء الفندق، أردتُ أن أذكرك أن لدينا بروفة اليوم، لقد كان لدىّ كثير من القوة تقريبًا لكى أمثل بعد الليلة الماضية بقدر ما يكون لديك قوة للرقص على سطح مبنى، ولكنى لا أستطيع أن أدع الأمور بغير حسم طويلاً، بى رغبة أحيانا أن أستجمع نفسى وأنطلق إلى أطراف الأرض.


Twitter: @ketab_n

- وأنتِ أيضًا؟

فقالت «بتى» وهى تغير لهجتها:

- نعم وأنا أيضًا، لقد أصبح سام غيورًا فجأة، يبدو أنه يعلم شيئًا عن علاقتنا.

- ماذا يعلم؟

- إنه يتسمع إلىَّ الآن، أنا مضطرة لإنهاء المكالمة.

ووقفتُ بجوار التليفون يخامرنى إحساس داخلى بأن التليفون سيدق مرة أخرى فى التو، وصدق حدسى، فرفعت السماعة، وقلت:

- نعم يا سيليا.

فلم يجب أحدُ، فحسبت أنى أخطأت، ولكنى بعد قليل سمعت صوت «سيليا»:

- هل أصبحت نبيًا أم غجريًا؟

- تقول الجمارا إن الإله قد منح المجانين القدرة على التنبؤ حين خُرِب المعبد.

- أهذا ما تقوله الجمارا؟ أنت مجنون، وتنتحر أدبيًا كذلك، لقد رقدتُ مستيقظة نصف ليلة وأنا قلقة بشأنك، إن هايمل ينام ككتلة خشب، فى الدقيقة التى يضع فيها رأسه على الوسادة يبدأ فى الصفير من أنفه ويستمر حتى الصباح، أما أنا فأبات أرقة، ويخيَّل إلىَّ أحيانًا أنك توقظنى، وأسمعك تنادينى:


Twitter: @ketab_n

سيليا، كل ذلك بسبب أعصابى، لقد خيِّل إلى مرة أنى أراك عند مدخل الباب، أهو جسمك النجمى؟ ثمة شىء غير عادى فيك، لقد قرأ موريس مسرحيتك، إذ أعطاه سام دريمان نسخة منها، لا أريد أن أعيد ما قاله، سمعت أنها لم تعد مسرحيتك، كل ما فيها قد تشوه، فى الحقيقة، ما معنى كل هذا؟

- معناه أنى فقدت عقلى وصوابى.

## (٢)

عندما دخلت المسرح للبروفة قادمًا من الضوء الساطع اصطدمتُ بالمقاعد وكدتُ أتعثر، ولكنى أخذت أعتاد العتمة تدريجيًا، واتخذت مقعدًا فى الصف الأمامى، وكان «سام دريمان» يجلس خلفى بصفين، وهو يسعل ويغمغم بالإنجليزية مع نفسه، وكان «هايمل» و «سيليا» حاضرين، ولم يكن النقادُ فى العادة يُدعون إلى البروفات، بيد أنى اكتشفت واحدًا منهم بين المشاهدين، وكان هؤلاء فى مقالاتهم يتناولون المسرح اليدى بالنقد القاسى فى كثير من الأحيان ويتهمون الكُتَّابَ الشبان بالسماح لكل ما هو غث أن يسيطر على خشبة المسرح وبأنهم لا يكتبون مسرحيات جادة، ومع ذلك كنت أعلم أنهم يتمنون الفشل لمسرحيتى، فقد شنوا هجومًا على «بتى سلونيم»، وفى كل المطبوعات أطلقوا على «سام



Twitter: @ketab_n

دريمان» (أنا مُوافِك All - rightinik) و (العجل الذهبى)، كما أوضح بعض كُتّاب المسرح أن مسرحية مريكة عن فتاة تُشرِفُ على مآدب حسيدية وهى متنقبة، وتعظ الحسيديين بالتوراة، وقد تملكتها روحا عاهرٍ وموسيقى أمر لا يتفق أو يتلاءم مع الظروف المأساوية ليهود بولندا عمومًا، فهى ظروف تتطلب مسرحيات تعكس أخطار الفاشية والهتلرية وحاجة الجموع اليهودية إلى مقاومتها، وليس مسرحيات تعيد إلى الأذهان خرافات العصور الوسطى، وعلى مسافة مقعدين منى جلس «ديڤيد ليبمان» وزوجته «أستاسيا» التى أخذت تقشر برتقالاً وتناوله فصوصه، إذ كان فى حاجة مستمرة إلى التغذية بسبب حالة القلب عنده، وكان يرتدى سترة من مخمل الفيلور، وربطة عنق بديعة الطيات، ولم تكن المسرحية تُمثل كلها، بل مشاهد مستقلة فحسب، وكان «فريتز باندر» يؤدى دور السيد «حزقيال براجر» الحسيدى الذى أعلن عن حبه للعذراء لادومير ـ بتى، ومع أنى طلبت من «باندر» المرة تلو المرة ألا يصيح، فقد كان يجلجل كالرعد، وفى المواضع التى كان يجب عليه أن يخفض صوته فيها كان يرفعه عاليًا، فيهمس ولا يكاد يبين فى مواضع القوة، وكان لا يُظهر مخارج الألفاظ، وكذلك كان يرتجل ولا يتذكر كلماتِ دوره فيواليه الملقنُ بها، ويخلط بين الشواهد المقتبسة من الجمارا


Twitter: @ketab_n

والمدراش[٨٢] وكتب القبالاة ويخطئ فيها، وحسبت أن «ديڤيد ليبمان» الذى يُقال إنه متمكن فى هذه الأمور سوف يصحح له، ولكنه لزم الصمت رهبة منه، لأن هذا الأخير كان يمثل فى برلين، وكان «ديڤيد ليبمان» يبدى ملاحظاته وتوجيهاته أحيانًا، على أنه كان يتجاهل ما هو أساسى ويقتصر على التفاصيل التافهة، وكذلك عانت «بتى» من حفظ كلمات دورها، فكانت تخطئ فى عبريتها وفى ييديتها أيضًا وتنطق بعض الكلمات بلكنة بولندية والبعض الآخر بلكنة لتوانية، ويلتبس الأمر عليها تمامًا فى المواضع التى يُفترض أن تؤدى فيها دورى العاهرة والموسيقى معًا، واسترخيت فى جلستى، وجعلتُ أغمض عينى من حين إلى آخر لأدارى خيبتى، ورغم انتقاد «بتى» المسرح الييدى الأمريكى، فقد سارت على نهج أساليبه، وتذكرت قول أمى «كلام يمشى على عكازين»، ومن الغريب أن ييدية «بتى» كانت سلسة ودقيقة حينما تحدثنى شخصيًا، وكلما حدقتُ إلى خشبة المسرح أدركتُ أنى فشلت فشلاً ذريعًا، وكانت أخطائى واضحة للغاية فى نظرى، بيد أنه لم تكن لدىّ أدنى فكرة عن كيفية تصحيحها، وفى لحظة إضاءة الأنوار جاء «سام دريمان» يهاجمنى:

- لن نعرض هذه الفظاعة.

- كلا، إنها ليست كذلك.



Twitter: @ketab_n

ـ جلستُ هناك فلم أفهم شيئًا من ثرثرتهم أو هذيانهم، وإذا لم أفهم أنا فلا تتوقع من أى شخص آخر أن يفهم، ظننتك ستكتب باليدية الواضحة.

ـ الأرواح لا تتكلم اليدية الواضحة.

ونهض كل من «بتى» و «فريتز باندر» و «جريتل» فصاح «سام دريمان»: عزيزتى بتى، سنؤجل المسرحية.

ـ نؤجلها؟ إلى متى؟

ـ لا أدرى إلى متى، لقد جئت بك إلى هنا لكى تنجحى، لا لكى تلقى عليك البطاطس الفاسدة.

ـ سام، لا تقل هذا.

ـ عزيزتى بتى، العجلة فى التمثيل خطأ، خير لك ألا تتسرعى، منذ أربعين عامًا كنت أشيد مبنى فى ديترويت، فاتضح لى فى أثناء ذلك أن شبكة الأنابيب وكل شىء آخر لن يؤدى الغرض منه، لهذا أمرت بهدم المبنى كله وشرعت فى بنائه من جديد رغم الثروة التى ضاعت فيه، ولو لم أفعل لذهبت إلى السجن، ولقد كان لى صديق، وهو بنَّاء أيضًا، شيَّد مصنعًا من ستة طوابق، وبينما هو مكتظ بالعمال انهار فجأة وقتل سبعة عشر رجلاً، ومات صديقى فى السجن.

ـ طيب، إنى أعلم ذلك، أعلمه كله، لقد بدأت القوى الشريرة تمارس خداعها من جديد، لقد انتهيت كممثلة، إن حظى .....

فصاح «سام دريمان».


Twitter: @ketab_n

- إن حظك يا حبيبتى ساطع كسطوع الشمس فى السماء، لسوف تمثلين فى وارسو، وفى باريس، وفى لندن، وفى نيويورك، ولسوف يضىء اسمك سماء برودواى بحروف ضخمة، ولكن فى مسرحية يرغب العالم فى رؤيتها لا فى مسرحية هزلية ساخرة عن قُباليين مجانين، يا سيد جريدنجر، لا أريد أن أكون قاسيًا، إن ما قدمته لنا لا يناسب الجمهور، بتى، لسوف نحصل على مسرحية أخرى؛ فهو ليس الكاتب الوحيد فى وارسو.

فقالت «بتى»:

- فلتعرض كل ما توده من مسرحيات، ولكن ليس معى، هذه آخر ورقة لعب لى، لحظى إذا عرضتُ رائعةَ فلسوف تفشل، إنها غلطتى وحدى.

فقال «سام دريمان»:

- وغلطتى أنا أيضًا، عندما أحضر جريدنجر المشهدين الأولين لنا، وقرأتهما أدركتُ فى الحال أن المسرحية لا تصلح لنا، اعتقدت أنه يمكن إصلاحها، ولكن ليس كل شىء قابلاً للإصلاح، إنها مثل المبنى إياه، فالأساس قد وضع على نحو خاطئ منذ البداية، لقد طردتُ المهندس المعمارى، وبدأتُ مع آخر، ولسوف أصنع نفس الشىء تمامًا الآن.

- فى وسعك أن تفعل هذا، ولكن ليس معى.

- سأفعل هذا معك أنت يا عزيزتى بتى، معك أنت وحدك.


Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل السابع

## (١)

ومن منطق اعتزازى بنفسى لم يبق لى سوى أن أتوارى عن أعين كل أولئك الذين تورطوا معى أو كانت لهم صلة بمهنتى، وكان لا يزال معى ما يربو على مائة دولار من دفعة «سام دريمان» الثالثة، والتى يقتضى أن أردها إذا كنت لا أريد أن أعتبر نفسى لصًا، وقد دارت حساباتى حول هذا المبلغ الذى كان يساوى تسعمائة زلوتى، وطبقًا للاتفاق مع الرجل الذى أجرت حجرتى منه من الباطن فى شارع «ليزنو» كان علىَّ أن أخطره قبل تركها بشهر، ولم يكن فى نيتى ولاريب خرق هذا الاتفاق، وفكرتُ فى الانتحار، على أنى رأيت أن هذا ممكن فقط لو استطعت أن آخذ معى أولئك الذين تتعلق كل آمالهم بى، وفى غضون ذلك كان يتعين علىَّ أن أحرص على كل بنس، وتوقفت عن النوم فى شارع «ليزنو» مما وفر علىّ دفع أجرة التاكسى عند عودتى إلى المنزل متأخرًا بالليل، وعلى الفراش فى فجوة «باشيل» ملأت كل فرخ ورق بالأرقام، وكان الناشر الذى ترجمت له بعض الكتب



Twitter: @ketab_n

الألمانيـة مـديـنًا لى بنقـود، ولكنى كنت أبعـد من أن أصـدق أنـه سـوف يدفـعـهـا لى، وقـد عـملت للمـجلة الأدبيـة، ولـكن الأيام مـرت دون أن أحـصـل على بنس واحـد منهـا، وذكّـرتُ نفـسـى بأن ثلاثة مـلايين يهـودى تقـريبًـا يعـيشـون فى بولنـدا، ويتـحـايلون على كسب عيشهم بطريقة ما، وبأنى لم أخدع «باشيل»، إذ كانت تعلم حقـيـقـة وضـعى، وقـد وعـدتهـا بأن أتـزوج ابنتهـا، ولكنا لم نحـدد تاريخًـا لذلك، وذَكّـرتُ نفـسـى أيضًـا بأنهم لن يرسلوا فى أثرى ضبـاط صف للقبض علىّ إذا مـا اختفيت، وأنه بالحكم على الطريقة التى احتل بها هتلر إقليمًا بعد آخر وقعود الحلفاء عن فعل أى شىء، فـإنه لا أمل لليـهـود فى بولندا، على أن الفـرار وترك أولئك الـذين أعـزهم فـى وضع حـرج ليس من طبعى، ولقـد ذكـرتُ الـصحف اليـيدية فى وارسـو أن المسرحية التى اعتزم المليونير الأمريكى «سام دريمان» تقـديمـهـا قـد أُلغـيت، وأنه لا يوجـد أمـامه وقـت لكى يجد مسـرحية جديدة، إذ يبدأ موسم المسرح الييدى فى عـيـد المظال، كـمـا ذكـرتُ أيضًـا أنه يتـفـاوض مع كاتب مسـرحى من أمـريكا، أمـا عن «العـذراء لادومـيـر» فقد كتب صحفى فى القسم الفكاهى أنه كان لا يمكن تقديمها، لأن روحًا تلبستها، وقرأ «ليزر» السـاعاتى كل هذه القصص عن فشلى مع «شوشا» و «باشيل».

وفى شـهـر أغـسطس لفـحت «وارسـو» مـوجـة حـر قـوية، وحين كنت صبـيًا لم يكن أحـد تقـريبًا فى شارع


Twitter: @ketab_n

كروتشمالنا يأخذ إجازة، ويذهب إلى الريف فى الصيف سوى الأثرياء فقط، على أن الزمن قد تغير، فالعمال الآن يحصلون على إجازات، ويذهبون إلى «ميدزين» و «فالينكا»، فضلاً عن «زاكوبان» فى الجبال، وكان لنقابات العمال مستوطنات فى «كارفيا» فى بحر البلطيق - فى «الممر» الذى يفصل ألمانيا الشرقية عن ألمانيا الغربية، والذى أقسم «هتلر» أن يسترده، وسمعت أن «فيتلزوهن» قد قضى بضعة أسابيع فى «جوزفو» مع «سيليا» و «هايمل»، وتحدثتُ إلى «تيكلا» بالتليفون، فأخبرتنى أن «سيليا» دائمة الاتصال بى تليفونيًا، وسألتنى عن سبب عدم مجيئى إلى المنزل منذ مدة طويلة، كما سألتنى عن رقم تليفونى، والعنوان الذى أقيم به لكى تخبر الناس عن كيفية الاتصال بى، فأجبتها أنى مشغول بالعمل لا أريد أن يزعجنى أحد، وحتى هى أيضًا قد علمتْ بإخفاق مسرحيتى، إذ سمعت ذلك من «فالدك» الذى قرأ النبأ فى جريدة «Nasz Przeglad» اليهودية البولندية، وكنت قلما أغادر الشقة فى شارع «كروتشمالنا» فى أثناء النهار، وعاودنى خجلى القديم بكل تعقيداته واضطراباته، وكان يعرفنى بعض القاطنين فى رقم (٧)، إذ سمعوا عنى وعن حبى لـ «شوشا» من «ليزر»، كما قرءوا أيضًا عن مسرحيتى التى كان يتم إعدادها، ودَأَبتْ الفتيات على مراقبتى من النوافذ كلما مررت مع «شوشا» فى الطريق إلى


Twitter: @ketab_n

البوابة، فكنتُ أخجل منهن آنذاك وأتخيلهن يسخرن منى، فأتجنب حتى الخروج من المنزل فى أثناء النهار، وقد بلى كعبا حذائى، فلم أُعن بإصلاحهما، وكذلك بليت قبعتى وتبقعت، وكنت أرتدى القميص نظيفًا فيتشبع بالعرق والقذارة بعد بضع ساعات، وبدأ الشعر القليل المتبقى فى رأسى يتساقط، وكنتُ أجدُ شعرًا أحمر فى منديلى عندما أمسح العرق عن جمجمتى، وكذلك بدأت كل أنواع الحوادث المكدِّرة تلاحقنى فى المنزل هنا وهناك، فإذا أعطتنى «باشيل» كوب شاى انزلق من يدى، وفى كل مرة أحلق فيها أجرحُ نفسى، وأفقد قلمى الحبر ومفكرتى باستمرار، وتسقط النقود من جيبى، وأخذ ضرسى يتخلخل، ولم أكن أطيق الذهاب إلى طبيب أسنان، وما دامت أسابيعى وأيامى معدودات، فما الحاجة إليه على أى حال؟، ولقد أحضرتُ معى قليلاً من الكتب التى كنت ألتمس فيها دائمًا السلوى والعزاء كلما جَدَّتْ أزمةٌ فى حياتى، وهو الغالب، أما هذه المرة، فليس فى «جوهر» إسبينوزا «إرادة» أو «عاطفة» أو «إحساس» فيما يتعلق بالعدل، فقد كان أسير قوانينه، وتبدو «الإرادة العمياء» لشوبنهور أكثر عمى من ذى قبل، ولا يوجد بالطبع كذلك أمل فى «روح العصر»[٨٣] لهيجل، أو فى «زرادشت» لنيتشه»، كما أن تربية الإرادة» لبايوت موجهة أساسًا إلى الطلاب الذين يدفع آباؤهم أجر تعليمهم وإطعامهم، ومرضى «كوى» و «تشارلز بودوين»


Twitter: @ketab_n

لديهم بيوت وأعمال وعائلات ثرية وحسابات فى البنوك؛ ولهذا كنت أجلس على حافة الفراش طوال النهار، وأترك العرق ينساب فوق جسمى الساخن، وتجلس «شوشا» على كرسى صغير بالقرب منى، وتتحدث إلىَّ أو إلى نفسها، أو تكلم «يبى» أحيانًا، ولسبب ما كانت «باشيل» تترك المنزل باستمرار، وتسألها «شوشا»: إلى أين أنت ذاهبة يا أماه؟ فتجيبها: إلى حيث تقودنى عيناى، والآن وقد انقطعتُ عن رؤية كل شخص أدركتُ أن الفشلَ راجع إلىَّ، فقد قضيتُ الساعات كل يوم مع «شوشا» بدلاً من العمل فى المسرحية، ورغم أن «بتى» نبهتنى كثيرًا إلى أن العمل فى المسرحية يأتى فى المرتبة الأولى من الأهمية، فقد جعلتنى أذهب معها إلى المتاحف والمقاهى والنُزَه الطويلة، وأفسدتْ علىّ كل خططى للعمل، وكان يجب أن أذهب معها فى الأمسيات لرؤية المسرحيات الجادة التى يمكن أن أتعلم منها شيئًا عن البناء الدرامى، ولكن بدلاً من ذلك كانت تصحبنى لرؤية أفلام هوليوود السخيفة التى لا يوجد فيها شىء أتعلمه، كما أضعت الساعات الثمينة فى مناقشة الأدب اليدى بنادى الكُتَّاب وفى لعب الشطرنج، وإلقاء النكات، وكذلك بددت الوقت مع «تيكلا» وأنا أستمع إلى شكاواها من مخدومتها وإلى قصصها عن قريتها التى جاءت منها، وزوجة أبيها البغيضة، وخطيبها «بوليك» الذى فارقها للعمل فى مناجم



Twitter: @ketab_n

الفحم بفرنسا، وكانت أحاديثنا تنتهى دائمًا بسقوطنا معًا على الفراش، والحقيقة أنى لم أكن واعيًا لما أفعله فى تلك الأشهر، فقد أبقانى كسلى وأبقتنى عاطفتى ونزواتى العقيمة مُنَوَّمًا فاقد الذاكرة، وإنى لأسمع الآن قول أمى: «ليس هناك عدو يضر الإنسان أكثر من نفسه»، وسألتنى «شوشا»: فيم تفكر يا أريل؟

- لا شىء يا شوشيل، ما دمتِ معى فما زال هناك معنى للحياة.

- ألن تتخلى عنى؟

- كلا، يا شوشيل لسوف أبقى معك مادمت حيًا أرزق.

## (٢)

فى الليل أرقد الساعات أرقًا، وأسرع باستمرار إلى الحوض لأشرب من الحر، ثم أضطر إلى التبول، وقد وضعت «باشيل» مبولة تحت سريرى، فكانت تمتلئ بعد قليل، وأقف بدون أى ملابس أمام نافذة الفجوة، وهى نافذة صغيرة ذات أربعة ألواح من الزجاج، وأدع النسيم الذى يهب على الفناء أحيانًا يغمر جسدى، وأنظر إلى النجوم القليلة التى أستطيع رؤيتها وهى تنتقل ببطء من سطح إلى آخر فلعل ثمة بارقة أمل فى الأجرام السماوية، ولو أنى لا أتوقع على الأرض سوى الموت جوعًا ومعسكرات الاعتقال


Twitter: @ketab_n

عند قدوم النازى، وأعلم كذلك على أى حال من الكتب الميسرة التى قرأتها عن الفلك أن النجوم مكونة من العناصر نفسها التى تتكون منها الشمس والأرض، وإذا كانت الكواكب الأخرى تسكنها مخلوقات حية فمعنى ذلك أن أحوالها تشبه أحوال أولئك الذين على الأرض: صراع من أجل لقمة العيش، واستبد بى الغيظ من الخلق والإله والطبيعة، وشعرت بأن الطريق الوحيد للاحتجاج على العنف الكونى هو رفض الحياة ونبذها، حتى لو اضطررت إلى أن أصحب «شوشا» معى، ولا تملك الحيوانات والحشرات مثل هذا الاختيار، ولكن كيف أحقق ذلك بالفعل؟ لو ألقيتُ بنفسى من نافذة حجرتى بشارع «ليزنو» فلربما عرضت نفسى لخطر البقاء حيًا بعمود فقرى مكسور، ولو ألقيتُ بنفسى تحت تروللى أو قطار، فلربما ختمت حياتى بدون سيقان أو أذرع، أيتعين علىَّ أن أتناول سمَ فئران وتكتوى أحشائى ببطء؟، أيجب علىّ أن أشنق نفسى وأثقل على أولئك الذين أحبهم بتدبير نفقات دفنى؟ وبعد تفكير طويل قررت أن أفضل طريقة للخلاص هى أن ألقى بنفسى فى الماء العميق فلا أزعج أحدًا أو أضايقه، بل أساعد السمكَ بوجبة، على أن «الفستولا» ضحل جدًا فى الصيف، وتكتب الصحف كل يوم عن سفن تنغرز فى الرمل؛ ولهذا فإن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك على نحو سليم هو أن أسافر إلى «دانزج» أو «جدينيا» على ظهر سفينة


Twitter: @ketab_n

مبحرة إلى البلطيق، وقد أعلنتْ وكالة للسفر عن رحلة إلى الدنمارك، حيث لا يتطلب الأمر جواز سفر أو تأشيرة، وكان السعر معقولاً، ويكفى أن يبرز المسافر جواز سفر داخلى بولندى، والمشكلة أنى لم أكن أحوز هذه الوثيقة، كما أنى فى أثناء الانتقال من غرفة مفروشة إلى أخرى ومعى كتبى وخليط من مخطوطاتى فقدتُ بطاقة القرعة وشهادة ميلادى وكل دليل آخر على المواطنة، وكان علىّ أن أسافر إلى القرية التى وُلِدت فيها لإحضار شهود إلى مبنى البلدية كى يشهدوا على يوم مولدى أو الاحتفال بختانى، فقد احترقت سجلات المواليد والوفيات تحت وابل من القنابل الألمانية عام ١٩١٥، وفى غمرة قلقى ضحكت، إذ وجدتنى محتاجًا إلى قدر كبير من الروتين الحكومى للإقدام على الانتحار، وفى تلك الليلة استغرقتُ فى النوم فجرًا، وفتحتُ عينى، إذ أخذتْ «شوشا» تهز ذراعى، ونظرت إليها متحيرًا، واستغرق ذلك قليلاً كى أتذكر أين أنا ومَنْ الذى يوقظنى، وقالت: أريل، سيدة شابة تنتظرك، الممثلة التى من أمريكا، وبعد قليل أطلت «باشيل» برأسها فى الحجرة، فأستأذنتها هى و «شوشا» أن تغادراها وتغلقا البابَ، واندفعتُ أرتدى فانلتى الداخلية وبنطلونى وقميصى وسترتى، ولدقيقة ظننتُ أنى فقدتُ المائة دولار التى أحملها فى جيب بنطلونى الأيسر، وذلك لحاجتى إلى نقود أشترى بها تذكرة


Twitter: @ketab_n

قطار وبطاقة سفينة لأشرع فى تنفيذ خطتى، ترى هل سرق شخص ما نقودى؟ وتحسست كل جيوبى فى لهفة واضطراب من يريد الحياة لا الموت، حمدًا لله، إذ كانت الأوراق النقدية فى جيب صدارتى، وكان قميصى مجعدًا، وياقتى بها بقعة، وقد فقدت الزر المعدنى لطرف الكم الأيمن، ورفعت صوتى عبر الباب المغلق: بتى، انتظرى! سأخرج فى الحال، وكانت الشمس تسفعنى من خلال النافذة المفتوحة، وتناهت إلىَّ أصوات من الفناء: قرص، قرص ساخنة، خوخ طازج، وشحاذ يوقع لحنًا حزينًا على كمان، ومرافقته تدق على طبلة ذات جلاجل طلبًا للصدقة، وتحسست خدى، وبالرغم من فقدى المستمر لشعر رأسى، فقد نمت لحيتى نموًا مفرطًا، وبدا شعر العارضين صلبًا وشائكًا وأشعث، وفتحت الباب، فرأيت «بتى» متزينة بقبعة جديدة من القش ذات شريط أخضر، وبذلة لم أرها من قبل، وحذاء أبيض مفتوح المقدمة، فبدت فى عينى فى أبهى صورة، فأخذت أعتذر لها عن مظهرى، فقالت:

- كل شىء حسن، لست مضطرًا إلى أن تتنافس فى مسابقة للجمال.

- حين نمت كان النهار قد طلع، و...

- كفاك، ما جئت لأفحصك.

فقالت «باشيل» لـ «بتى»:



Twitter: @ketab_n

ـ لماذا لا تجلسين؟ (وتوجهت بالحديث إلى أيضًا)، لقد طلبت مرارًا من السيدة الشابة أن تجلس، على أنها ظلت واقفة طوال الوقت، نحن لا نعيش فى رفاهية، ولكن كراسينا نظيفة، إنى أنظفها كل صباح، أردت أن أعد شايًا، ولكنها رفضت كل شىء.

ـ إنى آسفة، لقد تناولت طعام إفطارى منذ قليل، شكرًا لك كثيرًا، تسوتسك، سامحنى إذ جئت فى هذا الوقت المبكر من الصباح، ساعتى تشير بالفعل إلى العاشرة إلا عشر، جئت لشغل كما يقولون فى أمريكا، إذا وددت فلنخرج إلى مكان لنتناقش.

فقالت «شوشا»:

ـ أريل، لا تتأخر كثيرًا، فقد جهزنا الإفطار، ولسوف نتناول الغداء بعد ذلك، اشترت أمى حماضًا وبطاطس ولبنًا رائبًا، تستطيع السيدة أن تأكل معنا.

فأيدتها «باشيل» قائلة:

ـ لدينا طعام يكفيكما معًا.

ـ كيف آكل إذا كنت قد تناولت إفطارى قبل الآن؟

فقلت:

ـ شوشيل، سنخرج لمدة نصف ساعة فقط، فليس يلائمنا أن نتحدث هنا، دعينى أبحث عن الزر المعدنى وأغير ياقتى، دقيقة واحدة يا بتى.


Twitter: @ketab_n

واندفعت إلى الفجوة، فتبعتنى «شوشا»، وأغلقت الباب.

وقالت:

ـ لا تذهب معها يا أريل، إنها تريد إبعادك عنى، إنها تشبه الساحرة.

ـ ساحرة؟ كفاك هراء!

ـ إن لها عينين حادتين جدًا، لقد أخبرتنى أنت نفسك أنك ضاجعتها فى الفراش.

ـ أنا أخبرتك؟ طيب، لا يهمك، كل ما بيننا قد انتهى.

ـ إذا أردت أن تستأنف علاقتك بها من جديد، فالأفضل أن تقتلنى أولاً.

ـ الظروف تقودنا إلى هذا، لسوف أقتلك على أى حال، لسوف أصحبك إلى سفينة ونقفز معًا فى الماء.

ـ أهناك بحر فى وارسو؟

ـ ليس فى وارسو، لسوف نذهب إلى جدينيا أو دانزج.

ـ أجل، يا أريل، افعل بى ما تشاء، ألقنى أولاً أوخذنى إلى قبر يبى وادفننى هناك، مادمت ستفعل أنت هذا، فلا مانع، ولكن لا تتركنى وحدى، ها هو الزر المعدنى.


Twitter: @ketab_n

وانحنت «شوشا»، وأعطته لى، فأحطتها بذراعى، وقبلتها، وقلت:

- شوشيل، لقد أقسمت بالإله وبروح والدى ألا أتخلى عنك أبدًا، هذا وقت الثقة بى.

- أجل، أثق بك، ولكنى حين رأيتها خفق قلبى، إنها مرتدية ملابس كأنها ذاهبة إلى فرح، كلها جديدة لإدخال السرور على قلبك، تظن هى أنى غير فاهمة، ولكنى أفهم كل شىء، متى تعود؟

- بأسرع ما يمكن.

- تذكر أن لا أحد يحبك مثلى.

- يا طفلتى الحلوة، إنى أحبك أيضًا.

- انتظر، فلدى منديل نظيف لك.

## (٣)

اجتزت أنا و«بتى» الفناء، وبدا مثل السوق، حيث ينادى الباعة المتجولون على الرنجة المدخنة والعنب البرى والبطيخ، ويطوف فلاح بحصانه وعربته الخفيفة لبيع الدجاج والبيض والفطر والبصل والجزر والمقدونس، وهذا غير مسموح به فى الشوارع الأخرى، ولكن «كروتشمالنا» له قوانينه الخاصة، ووقفت بالقرب من صندوق القمامة امرأة عجوز تحمل جوالاً على ظهرها ومعها عصا تنبش بها عن


Twitter: @ketab_n

الخـــرق والعظام، الخـــرق لصنع الورق، والعظام لاستخدامها فى مصانع السكر، وحاولت «بتى» أن تتأبط ذراعى، فألمحت إليها ألا تفعل، لأنى كنت واثقًا أن «باشيل» و«شوشا» تراقبان إيانا من النافذة، وأننا مراقبان أيضًا من النوافذ الأخرى، فقد كانت الفتيات اللائى يرتدين ثيابًا فضفاضة عند صدورهن الممتلئة، كن ينفضن السجاد الرث، فضلاً عن المراتب المحشوة بالريش والمخدات ومعاطف الفراء الجرباء التى سوف تلبس عند بدء الشتاء، وكان فى وسع المرء أن يسمع ضجة ماكينات الخياطة وشواكيش الإسكاف، والنجارين وهم يضعون التصاميم وينشرون الخشب، كما كانت تنبعث أيضًا من منازل الدرس الحسيدية أصوات الشبان وهم يتلون التلمود بنغمة رتيبة، وكان الصبية الصغار فى الحدير يرتلون الأسفار الخمسة، وتأبطت «بتى» ذراعى فى الجانب الآخر من البوابة، وقالت:

- لم أكن أعرف رقم المنزل، ولكن بعد أن طلبتك بالتليفون مرة بعد مرة فى شارع ليزنو، وكانت الخادمة ترد دائمًا بأنك لست هناك قطعت بأنك هنا فى شارع كروتشمالنا الأثير، أى مستنقع هذا الذى ألقيت نفسك فيه؟ تفوح رائحة كريهة هنا بالقطع، سامحنى من فضلك، شوشاك هذه بلهاء تمامًا، طلبت منى أن أجلس عشر مرات على الأقل، كنت أخبرها بأنى


Twitter: @ketab_n

أفضل الوقوف، على أنها كان تلح فى الرجاء، إنى لأظنك مجنونًا بالفعل.

ـ أنت محقة.

ـ لا تقل لى كيف أنى محقة، فأنت واحد من أولئك الرجال الذين يحبون الغرق، فى روسيا يسمونهم brodyagi، لقد كتب عنهم جوركى[٨٤] وفى نيويورك يوجد شارع اسمه شارع المتشردين، فتراهم راقدين على الرصيف وهم مخمورون وشبه عرايا، بعضهم ذكى وذو تعليم عال، هلم بنا نخرج من مياه البواليع هذه، ولد شرير حاول منذ قليل أن يخطف كيس نقودى، لم تتناول الإفطار، وأنا جعت من كثرة اللف والدوران بحثًا عن المنزل، كل ما أذكره عند أول زيارة هو وجود مصرف مياه فى الفناء، ولكن يبدو أنهم ردموه تمامًا، ترى أين نستطيع أن نتناول فنجان قهوة؟

ـ يوجد مقهى فى رقم (٦)، ولكن الحثالة يذهبون إلى هناك.

ـ لا أريد أن أبقى فى هذا الشارع دقيقة أخرى، أسرع، ها هى درشكية، هاى، قف.

وقفزت «بتى»، وقفزت فى أعقابها، وقالت:

ـ هل تحب أن تتناول الإفطار فى نادى الكُتَّاب؟

ـ كلا، مطلقًا.


Twitter: @ketab_n

- هل تشاجرت مع أحد؟ يقولون إنك توقفت عن الحضور إلى هناك، ما رأيك فى مطعم جرتنر الذى تقابلنا فيه لأول مرة؟ يا إلهى يخيل إلىَّ أن هذا قد حدث منذ عهد طويل.

والتفت الحوذى إلينا قائلاً:

- سيدتى، إلى أين؟

فأخبرته «بتى» بالعنوان، وقالت:

- تسوتسك، لماذا تتوارى عن الناس؟ التقيت بأفضل صديق لك: الدكتور فيتلزوهن، أخبرنى بأنك قطعت علاقاتك به، وبكل شخص آخر، إنى أفهم إلى حد ما أنك لا تريد أن تستمر علاقتك بى، لأنك ترانى مسئولة عما حدث لك بالرغم من نواياى الطيبة، ولكن ما معنى أن يدفن كاتب نفسه فى قذارة كهذه، لماذا لا تبقى على الأقل فى حجرتك بشارع ليزنو؟ رغم ذلك تدفع الإيجار، إن سام مستاء وقلق بشدة من الطريقة التى فررت بها منا.

- سمعت أنه يتفاوض مع كاتب تافه من نيويورك بشأن مسرحية.

- لم يحدث شىء من ذلك، لن أمثل هذا النوع من التوافه بالقطع، قلت لك من قبل إن حظى سيئ تمامًا، كل مَنْ يتورط معى يشاركنى مصيرى التعس، قلت لك إنى جئت للعمل ولم أكذب، الحكاية هى أن سام لليس


Twitter: @ketab_n

بخير وأخشى أن يكون مرضه أشد مما أعتقد، وهو يعتزم العودة إلى أمريكا، تحدثنا طويلاً فى الأيام القليلة الماضية، أكثر حديثنا كان عنك، ولما كنت غير مقيدة بمواعيد محددة فى الوقت الحاضر فقد توافر لى الوقت وراحة البال كى أقرأ مسرحيتك من جديد، إنها ليست سيئة تقريبًا كما وصفها ذلك الناقد القمىء القصير ذو النظارة ذات الإطار المعدنى، لقد هدمت عنجهية كاتب مسرحية قبل أن تمثل، هذا يحدث بين اليديين فقط، دودة بالغة الخبث، قدمنى شخص إليه فصارحته برأيى فيه، فأخذ يعتذر ويتملقنى وهو يحرك لسانه كالثعبان، أعتقد أنها مسرحية أدبية جيدة بالفعل، المشكلة أنك لا تعرف خشبة المسرح، لدينا فى أمريكا أناس يطلق عليهم «معالجو مسرحيات»، هم أنفسهم لا يكتبون حرفًا، ولكنهم يعرفون كيف يعيدون ترتيب المسرحية ويجعلونها صالحة لخشبة المسرح، باختصار نحن نريد أن نشترى مسرحيتك ونجربها فى أمريكا.

- تشترونها؟ لقد أعطانى السيد دريمان سبعمائة أو ثمانمائة دولار من قبل، المسرحية له لو أراد، اعتذر بشدة عن عدم القدرة على رد النقود إليه، يستطيع بالتأكيد أن يفعل ما يحلو له بالمسرحية.

- طيب، لست أراك كثيرًا رجل أعمال، سأقول لك شيئًا، إنه محمل بالنقود، وأمريكا مقبلة على فترة


Twitter: @ketab_n

جديدة من الرخاء والازدهار، وهو يصنع ثروة بدون أن يرفع إصبعًا، إذ أراد أن يدفع لك فخذ النقود، لقد وعدنى بأن يترك لى ميراثًا ضخمًا، ولكن بحكم القانون يجب عليه أن يترك جزءًا من ثروته لزوجته المشاكسة، وربما لأولاده أيضًا ولو أنهم يكرهونه ويتحدونه، وعلى بختى قد لا أحصل على شىء، إذا رغبَ فى إعطائك شيئًا فلا يجب أن ترفض، لن تتمكن من الكتابة إذا بقيت حيث أنت الآن، لقد دققت النظر فى فجوتك، إنها ثقب وليست حجرة، قد تختنق فيها، ما ميزتها، إذا أردت الانتحار فالموت بهذه الطريقة منفر جدًا، ها هو ذا مطعم جرتنر.

حاولت «بتى» أن تفتح كيس نقودها، على أن الأجرة كانت جاهزة فى يدى، فأعطيتها للحوذى، فرمتنى بنظرة غاضبة، وقالت:

ـ ماذا دهاك؟ أتريد أن تمول سام دريمان؟

ـ لا أريد أن آخذ منه أكثر من ذلك.

ـ طيب، كل شخص مجنون بطريقته الخاصة، أسراب من الشحاذين اليهود يتعقبونه وأنت تحاول أن تعينه، تعال أيها المجنون، يعلم الله منذ متى لم آت إلى هنا، كنت أظنهم لا يفتحون مبكرًا هكذا، توجد مطاعم فى نيويورك تبدأ يومها وقت الغداء، والآن قبلنى، لا يمكن فى الحقيقة أن نظل غرباء عن بعضنا تمامًا.


Twitter: @ketab_n

## (٤)

اندفع رئيس الندل نحونا، وخصنا بمائدة فى المكان اللائق الذى يظفر به دائمًا «سام» و«بتى» حين يأكلان هنا، وأبدى أسفه أن لم يرهما فى المدة الأخيرة، ورغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا، فقد كان ثمة أناس يجلسون إلى الموائد وهم يأكلون السمك واللحم ويحتسون الجعة، وطلبت «بتى» قهوة وكعكًا لنفسها، وجعلتنى آخذ أرغفة وبيضًا وقهوة، فألقى النادل علينا نظرة لوم، إذ طلبنا إفطارًا متأخرًا بدلاً من غداء مبكر، وحدق إلينا الجالسون إلى الموائد الأخرى باستغراب، فقد بدت «بتى» أكثر أناقة من أن ترافقنى، وقالت:

ـ منذ متى لم ير كل منا الآخر؟ يبدو لى أن ذلك منذ دهر، يريدنى سام أن أعود إلى أمريكا، رغم خيبة أملى تمامًا، فإنى متيمة بوارسو، ماذا أفعل فى أمريكا؟، في نيويورك يعرفون كل شىء عما يحدث فى كل مكان، من المؤكد أنهم قد سمعوا فى نقابة الممثلين عن خيبتى وفشلى، وأن رصيدى هناك قد تضاءل عن ذى قبل، إنهم يجلسون فى مقهى رويال ويجعلون من الحبة قبة ومن التل جبلاً، ماذا بقى لهم إلا بث الإشاعات؟ بعضهم يستغنى عنه فى أوقات الازدهار، فيحصل على إعانة من الحكومة، وهم يمثلون بضعة أسابيع فى الفنادق بجبال كاتكل فى


Twitter: @ketab_n

فصل الصيف، لقد أصبحت أمريكا بلدًا لا يجبر فيه المرء على العمل إذا لم يرد ذلك، إنهم يحتسون القهوة ويثـرثرون ويلعبـون الورق، بدون الورق والإشاعات يموتون من السأم والملل، مشكلتى أنى لا ألعب الورق، حاول «سام» أن يعلمنى اللعب، فلم أتعلم حتى أسماء الأوراق ذات النقش الواحد، ثمة غريزة عنيدة فى داخلى ترفض تعلمه، تسوتسك، الواقع أنى انتهيت، هذه لعبتى الأخيرة، لم يبق لى سوى الانتحار.

- أنت أيضًا؟

- من هو الآخر، أهذا لأنك مقدم على الزواج من شوشا؟ ألكى تجعلها أرملة؟

- لسوف آخذها معى؟

- طيب، أنت كما يقولون صحيح البدن ومفعم بالحيوية، وشديد الحماسة، أما فى حالتى، فقد حاولت أن أمثل سنة بعد سنة، فكنت أفشل دائمًا، فضلاً عن أنى أكبر منك سنًا، فلماذا تتردى فى اليأس هكذا؟ أنت كاتب قصصى ولست كاتبًا مسرحيًا، ومادام المسرح مستمرًا وباقيًا فسوف تظل قليل الخبرة، اعتقد أنك موهوب، أوه، ها هو كعكى، وها هو بيضك، لطالما تساءلت عن سبب إرباك المحكوم عليهم بالكرسى الكهربائى بأن يختاروا وجبة أخيرة غير عادية، وهم يطلبون شريحة لحم غير منضجة وفاكهة أو حلوى لذيذة يختمون بها، لماذا



Twitter: @ketab_n

يجب على المرء أن يعنى بمأكله إذا كان سيموت بعد ساعة؟ يبدو أن الحياة والموت لا علاقة بينهما، فقد تعزم أن تموت غدًا، ومع ذلك تريد اليوم أن تأكل من أجل المتعة وأن تنام فى فراش دافئ، ما أهدافك الحقيقية؟

- أن أفرغ فى الحقيقة من كل «اللخبطة» والفوضى.

- يا إلهى!، لم يخطر ببالى وأنا على ظهر المركب إلى أوروبا أنى سأدفع شخصًا إلى حالة كهذه بسبب طموحى الأحمق.

- بتى، إنها ليست غلطتك.

- غلطة مَنْ إذًا؟

- كل الأشياء مجتمعة، اليهود فى بولندا قد وقعوا فى شرك، هاجمونى حين قلت هذا فى نادى الكتاب، لقد أسلموا أنفسهم لتفاؤل غبى، إنى لعلى يقين بأن هذا سوف يدمرنا جميعًا، البولنديون يريدون التخلص منا، فهم ينظرون إلينا على أننا شعب داخل شعب وجسم غريب وهم تنقصهم الشجاعة للقضاء علينا بأنفسهم، وإذا صنع هتلر ذلك من أجلهم فلن يذرفوا الدمع علينا، ولن يدافع عنا ستالين بالتأكيد، فلقد أصبح الشيوعيون ألد أعدائنا منذ بدأ تروتسكى معارضته لهم، وهم يطلقون عليه فى روسيا «يهوذا»،



Twitter: @ketab_n

والحقيقة أن التروتسكيين جميعهم يهود تقريبًا، إذا أعطيت اليهودى ثورة طلب أخرى ـ دائمة، وإذا أعطيته مسيحًا طلب آخر، أما عن فلسطين فالعالم لا يريد أن تكون لنا دولة، والحقيقة المؤلمة أن كثيرًا من اليهود اليوم لا يريدون أن يكونوا يهودًا بعد الآن، لقد فات أوان الإدراك التام، لسوف يعمل الرابح فى الحرب المقبلة أيًا كان على تصفيتنا.

ـ لعل الدول الديمقراطية هى التى سوف تفوز.

ـ الدول الديمقراطية تنتحر.

ـ طيب، لا تترك قهوتك تبرد، فى وسعك أن تصل إلى أمريكا فى يسر إذا لم تكن قد قررت أن تحمل تلك السخيفة شوشا على كتفيك، فما زال اليهودى يجد ملاذًا هناك. فى وسعى أن أعود، ولكن مجرد فكرة العودة ذاتها تجعلنى أرتعد، فسام لا يمكث فى المنزل ليلة واحدة، إذ يذهب دائمًا إلى مكان ما، عادة ما يكون مقهى رويال، حيث يلتقى بالكُتَّاب الذين يساعدهم والممثلات اللائى يقيم معهن علاقات غرامية، فذاك هو المكان الوحيد الذى يكون له فيه شأن، وهذا أمر غريب أن يوجد مكان واحد صغير فحسب فى العالم كله ـ مطعم درجة ثالثة يحس هو فيه وكأنه فى بيته، حيث يأكل الكعك الرقيق المحشو بالجبن أو المربى الذى يحظر الأطباء عليه أكله، ويملأ معدته بعشرين فنجان قهوة كل يوم، ويدخن السيجار



Twitter: @ketab_n

الذى يعلم أنه سام لبدنه، ويطلب منى أن أذهب معه إلى هناك، ولكن هذا المقهى فى نظرى وكر ثعابين؛ فهم يكرهوننى دائمًا، وهم الآن يودون ابتلاعى حية وأنا مع سام، المسرح اليدى الذى يصحبنى إليه مرتين على الأقل فى الأسبوع هبط إلى الحضيض، إنها لعقوبة بدنية أن تجلس هناك وتستمع إلى النكات المبتذلة، وترى نسوة فى الستين من عمرهن وهن يمثلن أدوار فتيات فى الثامنة عشرة، الحقيقة المحزنة أنه لا يوجد مكان واحد فى العالم كله أحس فيه بأنى فى وطنى.

- إذًا فنحن زوجان مكتملان.

- فى وسعنا أن نكون كذلك، على أنك لا تريد، ماذا تقول لشوشا طوال الوقت؟

- لا أقول الكثير.

- ما حكايتك؟ أهو تعذيب للنفس؟

- كلا، يا بتى، إنى أحبها حقيقة.

- ثمة أشياء لا بد أن تراها كى تصدقها، أشياء لا يمكن أن تتوقعها فى خيالك، أنت وشوشا وأنا وسام، على الأقل هو يجد بعض الراحة مع أصدقائه الحميمين، تسوتسك، انظر مَنْ هنا!

ورفعت عينىَّ، فرأيت «فيتلزوهن» واقفًا على بعد خطوات قليلة من مائدتنا والسيجار فى فمه وقبعته


Twitter: @ketab_n

البناما مدفوعة إلى الخلف، وعصا معقوفة على كتفه، ولم أكن رأيت عصا معه من قبل، وبدا أكبر سنًا، وقد طرأ عليه تغير، وابتسم ابتسامته الساخرة المعهودة، وخيل إلىَّ أن خديه قد تهدلا، كما لو كان قد فقد أسنانه، واقترب من مائدتنا بخطى وئيدة، وقال بصوت مكتوم: أهذا ما آل إليه الحال؟

ثم اخرج السيجار من فمه، وأردف:

ـ حسنًا، أحقًا، تسوتسك، الواقع أنى بدأت أعتقد فى قدراتك الكامنة.

وأسند السيجار إلى منفضة السجائر الموضوعة على مائدتنا، وواصل حديثه:

ـ كنت مارًا من هنا فخطر ببالى أنك هنا. صباح الخير يا سيدة سلونيم، لقد اختلط الأمر علىَّ لدرجة أنى نسيت أن أحييك، كيف حالك؟، إنه لبديع أن أراك ثانية، ماذا كنت أريد أن أقول؟ أجل، يا تسوتسك لقد قلت لنفسى: ماذا يفعل هنا فى هذا الوقت المبكر؟ قد يأتى فحسب إلى هنا مع سام دريمان ولكن ليس فى هذا الوقت المبكر من النهار، كدت أهمَّ بمواصلة السير، على أن قدمى جاءتا بى إلى هنا بمحض اختيارهما، يجب أن تخجل من نفسك يا تسوتسك، لماذا تبقى بعيدًا عن أصدقائك؟ نحن جميعنا نبحث عنك، هايمل وسيليا وأنا، لقد اتصلت بك تليفونيًا ما


Twitter: @ketab_n

يقرب من عشرين مرة، ولكن الخادمة كان لديها إجابة واحدة: ليس بالمنزل، ماذا دهاك؟ أليس لديك أفضل الأصدقاء فى وارسو؟

فقالت «بتى»:

ـ اجلس معنا يا دكتور فيتلزوهن، لماذا تقف؟

ـ لأنكما منزويان فى ركنكما، ولديكما أسرار بلاشك، ولكن ذلك لا يمنع من تحيتكما على أى حال.

ـ ليس لدينا أسرار، نحن نتكلم فى العمل، وقد فرغنا من الحديث، اجلس.

فأخذت أتمتم:

ـ لست أدرى فى الحقيقة ما أقول.

فقال «فيتلزوهن»:

ـ إذا لم تكن تدرى، فلا تقل شيئًا، سأقول أنا لك، أنت صبى صغير، ولسوف تظل بقية حياتك كذلك، انظر إلى نفسك!

فسألته كى أغير مجرى الحديث:

ـ من أين حصلت على هذه العصا فجأة؟

ـ أوه، سرقتها، تركها لى واحد من أصدقائى الأمريكان، لقد بدأت قدماى منذ وقت قريب تسلكان مسلك القرد، ما أن أسير فى طريق مستو حتى



Twitter: @ketab_n

تشرعان فى الانطلاق من تلقاء نفسيهما كما لو كنت أتزحلق على جليد أو أهبط تلاً، ما نوع هذا المرض؟، لسوف أسأل طبيبنا الأديب الدكتور ليبمان الذى يفهم كثيرًا فى الطب مثلما فى الأدب، قررت ألا ضرر من العصا فى الوقت الحاضر، تسوتسك، أنت تبدو شاحبًا، ماذا دهاك؟، هل أنت مريض؟.

فقالت «بتى»:

- إنه سليم تمامًا ومجنون، مهووس من الدرجة الأولى.

## (٥)

أكد لنا «فيتلزوهن» أنه قد تناول إفطاره، فلما طلبت له «بتى» أرغفة وعجة بيض وقهوة ابتسم قائلاً:

- إن من يحيا فى أمريكا بضع سنوات يصبح أمريكيًا، ماذا يصنع العالم بدون أمريكا؟ عندما كنت أحيا هناك كنت أشكو باستمرار من العم سام، وأتحدث عن نواحى الضعف والقصور فقط هناك، وهأنذا الآن أفتقد أمريكا، فى وسعى أن أعود إليها لو أردت بتأشيرة دخول سائح، بل وأستطيع الحصول على تأشيرة دخول كأستاذ، ولكن لا توجد جامعة فى نيويورك أو بوسطن تقبل أن تمنحنى عملاً دائمًا بها، كما أن التدريس فى الكليات الصغيرة بالغرب الأوسط معناه الموت من السأم والملل، إنى لا أستطيع أن أجلس



Twitter: @ketab_n

طوال اليوم أقرأ مثل دودة الكتب، والطلاب هناك أكثر طفولة من صبية الحدير، كل ما يتحدثون عنه هو كرة القدم، والأساتذة ليسوا مهرة كثيرًا، أمريكا بلد الأطفال، النيويوركيون أكبر قليلاً، ولكن ليس كثيرًا، ذات مرة وضعنى صديق لى فى معدية إلى جزيرة «كونى»، وهى مدينة أتمنى أن تراها يا تسوتسك، كل ما فيها من أجل اللعب: التصويب على بطيطات من الصفيح، وزيارة متحف يعرضون فيه فتاة ذات رأسين، والسماح لمنجم بالكشف عن طالعك، ولوسيط باستدعاء روح جدك من العالم الآخر، ما من مكان تنقصه السوقية، ولكن سوقية «كونى» من نوع خاص، سوقية فيها ود وتسامح يقولان لك: «أنا أمارس لعبتى وأنت تمارس لعبتك»، وبينما أنا أتجول هناك وآكل شطيرة «هوت دوج» - أو ما يطلق عليه «سجق» - خطر ببالى أنى أطلع على مستقبل الجنس البشرى، أو ما يمكن أن تسميه زمن المسيح، لسوف يدرك الناس جميعًا ذات يوم أنه لا توجد فى الواقع فكرة أحادية يمكن أن نزعم أنها «حقيقية» أو «صحيحة»، كل شىء لعبة: القومية، الدولية، الدين، الإلحاد، الروحانية، بل والانتحار أيضًا، إنك تعلم يا تسوتسك أنى شديد الإعجاب بديفيد هيوم(٨٥)، لأنه الفيلسوف الوحيد فى نظرى الذى لم يعف عليه الزمن، وهو جديد وواضح فى وقتنا هذا مثلما كان فى وقته، إن جزيرة «كونى» تتلاءم مع فلسفته، مادمنا


Twitter: @ketab_n

لسنا واثقــين من شىء، وليس ثمــة دليل على أن الشمس سوف تشرق غدًا، فاللعب ـ إذًا ـ هو جوهر السعى الإنسانى، بل هو الشىء فى ذاته، فالإله لاعب والكون ملعبه، لقد بحثت لمدة سنوات عن أساس لعلم الأخلاق وفقدت الأمل فى ذلك، وفجأة أصبح هذا الأساس واضحًا لدىّ، أساس علم الأخلاق هو حق الإنسان فى أن يمارس اللعبات التى يختارها هو، وأنا لن أطأ لعبك، وأنت لن تطأ لعبى، وأنا لن أبصق على معبودك، وأنت لن تبصق على معبودى، إذًا فما المانع من وجود مذهب المتعة واللامبالاة وتعدد الزوجات وتعدد الأزواج والزهد، وحتى توليفة هايمل من الشهوة الجنسية والحسيدية فى «مدينة اللعب» أو «عالم اللعب»، وهو نوع عالمى من جزيرة «كونى»، حيث يمكن لكل شخص أن يلعب وفقًا لرغبته، إنى متأكد يا آنسة سلونيم أنك زرت جزيرة كونى أكثر من مرة.

ـ أجل، ولكنى لم أتوصل إلى نتائجك الفلسفية، على فكرة مَنْ هو ديفيد هيوم؟ لم أسمع عنه قط.

ـ ديفيد هيوم فيلسوف إنجليزى وصديق لجان جاك روسو قبل أن يصبح شحاذًا يثير الاشمئزاز.

فقالت «بتى»:

ـ ها هى ذى عجة البيض يا دكتور فيتلزوهن ، سمعت عن جان جاك روسو وقرأت اعترافاته أيضًا.


Twitter: @ketab_n

ـ من اليسير قراءة ديفيد هيوم أيضًا، الطفل يستطيع أن يفهمه، إنى متأكد يا تسوتسك أنك تعرف أن ٧ + ٥= ١٢ يقتضى الحكم عليها بأنها عبارة تحليلية وليست عبارة تركيبية قبلية، إن «هيوم» مصيب وليس «كانط»، ولكنك لم تفسر حتى الآن ما حدث لك، اختفيت كالخاتم السحرى، حسبتك ذهبت إلى القدس وقعدت فى كهف لتجىء بالخلاص.

فالتفتت إلىَّ «بتى»، وقالت:

ـ إن كهفه فى شارع كروتشمالنا يا دكتور فيتلزوهن، هل أخبره بالحقيقة.

ـ إذا أحببت، فلم أعد أبالى.

ـ وجد تسوتسك لنفسه عروسًا فى شارع كروتشمالنا.

فوضع الدكتور «فيتلزوهن» شوكته، وقال:

ـ إذن، فالمسألة هكذا، من الكيفية التى اعتدت أن تثنى بها على ذلك الأخبل أوتو فيننجر حسبتك سوف تظل أعزب حتى يتقدم بك السن.

وأردت أن أرد عليه، ولكن «بتى» منعتنى بقولها:

ـ فى وسعه أن يبقى أعزب، ولكنه وجد ثروة ضخمة اسمها شوشا استوجبت منه أن يهدم كل آرائه ومبادئه الراسخة.

وتمكنت من أن أقول: أنها تهزأ بى.


Twitter: @ketab_n

- مـاذا؟ لن تهـرب من الجنس الأنثـوى، لسـوف تسقط فى شبكتهن عاجـلاً أو آجلاً، سيليا تبحث عنك باستماتة، شوشا؟ فتاة عصرية تحمل اسمًا عتيقًا كهذا بطل استعماله؟

ترى مَنْ هى؟ أهى بيدية مكافحة؟

وحاولت أن أرد مرة أخرى، على أنها قاطعتنى من جديد قائلة:

- من العسير أن أقول لك مَنْ هى بالضبط، ولكن لو قرر خبير بالنساء مثل صديقك تسوتسك أن يتزوج فلا بد أن تكون شيئًا غير عادى، ولو التقى بها فيلسوفك المفضل ديڤيد هيوم لطلق زوجته وفر معها إلى جزيرة كونى.

فقال «فيتلزوهن» بعد تردد:

- لا أظن أن ديڤيد هيوم كانت له زوجة، طيب، بالتوفيق يا تسوتسك، بالتوفيق.

وهنا فقط أتاحت لى «بتى» أن أتحدث فقلت:

- إنها تهزأ بى، شوشا فتاة من أيام طفولتى، اعتدنا أن نلعب معًا قبل أن أذهب إلى الحدير، كنا جيرانًا فى رقم (١٠) بشارع كروتشمالنا، وفيما بعد ذهبت بعيدًا، ولسنوات كثيرة....

وتناول «فيتلزوهن» شوكته، وقال:



Twitter: @ketab_n

ـ أيًا كان الأمر فلا تتهرب من أصدقائك، إذا تزوجت فلن تستطيع أن تبقى أمر زواجك سرًا، إذا كنت تحبها فإنا نريد التعرف عليها وقبولها كواحدة منا، هل أتصل تليفونيًا بسيليا وأبلغها الأنباء السعيدة؟

ورأيت أن «بتى» على وشك أن تأتى بمزحة جديدة، فقلت:

ـ اصنعى فىَّ معروفًا يا بتى، لا تتكلمى بخصوصى، لا تتهكمى بى هكذا من فضلك، إنها ليست أنباءً سارة، ولا أريد أن تعرفها سيليا، ليس الآن، شوشا فتاة فقيرة غير متعلمة، لقد أحببتها وأنا طفل، لم أنسها قط، كنت على يقين بأنها ماتت، لكنى وجدتها، الواقع أنى شاكر لبتى.

وحاولت «بتى» أن تدافع عن نفسها قائلة:

ـ لم أكن أسخر، كنت جادة فى كل ما قلت.

فسألنى فيتلزوهن»:

ـ لماذا لا تسمح لسيليا بأن تعرف الحقيقة؟ كلما حسبت أن الحياة ستبقى على حالها كما هى حدث فجأة شىء غير متوقع، التاريخ مصنوع من نفس العجين الذى تُصنع منه القُرص؛ ولذا يجب أن يكون طازجًا، هذا يفسر نزول الديمقراطية والرأسمالية فى مياه الصرف، فقد أصبحتا باليتين عفنتين، وهذا هو السبب أيضًا فى أن الوثنية بالغة الإثارة، ففى


Twitter: @ketab_n

وسعك أن تشترى إلهًا جديدًا كل عام، لقد أرهقنا نحن اليهود الشعوب الأخرى بإله سرمدى، ولهذا فهم يكرهوننا، حاول جيبون[٨٧] جاهدًا أن يقف على سبب سقوط الإمبراطورية الرومانية، لقد سقطت فحسب لأنها أصبحت قديمة، سمعت أن فى السماء ميلاً إلى الجديد كذلك، فالنجم يتعب من كونه نجمًا فينفجر ويصبح مستسعرًا، ومجرة اللبانة ضجرت من لبنها الحامض، فانطلقت تعدو إلى حيث يعلم الشيطان، ألها عمل؟ أعنى خطيبتك وليست اللبانة.

فقلت:

- ليس لها عمل، ولا يمكن أن يكون لها عمل.

- أهى مريضة؟

- أجل، مريضة.

- حينما يمل الجسم من الصحة يمرض، وحينما يمل من الحياة يموت، وحينما يشبع موتًا يتخذ من جديد هيئة ضفدعة أو طاحونة هواء، القهوة هنا أفضل قهوة فى وارسو كلها، هل لى أن أطلب كوبًا آخر يا آنسة سلونيم؟

- عشرة أكواب، على ألا تدعونى الآنسة سلونيم من فضلك، فاسمى بتى.

- لقد شربت قهوة أكثر من اللازم ودخنت سيجارًا أكثر من اللازم، كيف لا يمل المرء التبغ والقهوة أبدًا؟ الحقيقة أن هذا لغز.


Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الثامن

## (١)

قبل عشية عيد الغفران[٨٨] بيومين ابتاعت «باشيل» دجاجتين، واحدة من أجلها والأخرى من أجل «شوشا» لقضاء الشعيرة القُربانية، وأرادت أن تبتاع ديكًا من أجلى، ولكنى رفضت أن يموت ديك تكفيرًا عن خطاياى، وقد هاجم كُتَّاب معينون فى الصحف اليدية هذه الشعيرة ووسموها بالوثنية، واقترح أنصار الصهيونية التضحية بالنقود بدلاً منها لتذهب إلى الصندوق القومى اليهودى من أجل فلسطين، ومع ذلك كان المرء يسمع قَوْق الدجاج وصياح الديكة من كل الشقق فى شارع كروتشمالنا، وحين ذهبت «باشيل» إلى ساحة «ياناش» لذبح الدجاجتين لم تعد إلا بعد ساعتين، فقد تعذر عليها الوصول إلى الجزارين من شدة الزحام، وقُرب المساء خلا الشارع حتى من النشالين، وتوقف الوكر الكائن برقم (٦) عن نشاطه، وأُضيئت الشموع فى المواخير وبيوت الدعارة، ولم يسمح لأحد من زوارها أو المترددين عليها بالدخول، بل وتوارى الشيوعيون أيضًا فى مكان ما، ولقد ابتاعت «باشيل» مقعدًا فى الكنيس، وقرب وجبة



Twitter: @ketab_n

المساء أضاءت شمعة كبيرة مغروزة فى إناء من الرمل - شمعة بروح، وارتدت فستانَ عيدٍ من الحرير يرجع إلى زمن أن كنا نقيم فى رقم (١٠)، وأخرجت من خزانة كتابى صلاة كانت تلقتهما كهدية زفاف، وذهبتْ لأداء الصلاة، وقبل أن تتصرف باركتنى أنا و«شوشا»، ووضعتْ يدها على رأسى كأنى ابنها وتمتمتْ بالدعاء «رب اجعلها كإفرايم ومنسى»[٨٩]، ومكثت أنا مع «شوشا» بعض الوقت، وحاولتُ أن أقبلها، فذكَّرتنى بأن ذلك حرام، وهى تتثاءب وتغالب النوم، وقد بدا عليها الشحوب، إذ كانت مشغولة طوال النهار بمساعدة أمها فى إعداد وجبة الإفطار - عقب الصيام، وقد طلبت منى مِرارًا أن أتلو لها شيئًا من الصلوات من كتاب جدتها ذى الصفحات الباهتة والبقع التى أحدثها شحم الشمع والدموع، ولكنى رفضت، وبعد قليل تمنيت لها عيدًا طيبًا وانصرفت، وكان الدكتور «فيتلزوهن» قد دعانى لقضاء تلك الأمسية معه.

لقد خيم السكون على جميع الشوارع اليهودية، واتخذت عربات الترولى طريقها فارغة، وأغلقت الدكاكين أبوابها، وخفقت النجوم فى السماء كلهب الشموع التذكارية، بل أن سجن «الأرسينال» فى شارع دلوجا بضوئه الشحيح خلف النوافذ المقضبة قد غَشَاه حزن مهيب، وأظن أن الليلَ قد نجح فى مهمته على أكمل وجه، وكانت شقة «فيتلزوهن» فى منزل بالقرب من شارع «فريتا»، وكان قد أخبرنى أن لا أحد


Twitter: @ketab_n

من المستأجرين اليهود يسكن بجواره هناك، وكنت أحس أحيانًا أن لا أحد من غير اليهود يسكن هناك أيضًا، فلم تكن النوافذ الأمامية تضىء قط ليلة بعد ليلة، ولم تكن توجد أنوار فى مدخل البوابة، وصعدتُ المجموعات الأربع من السلم الحجرى المؤدى إلى الشقة، ولم أسمع نأمة أو حفيفًا خلف باب واحد، وكثيرًا ما راودتنى فكرة أن هذا المنزل تسكنه الأشباح، وقرعتُ البابَ، ففتح لى «فيتلزوهن»، وكانت الشقة مكونة من حجرة كبيرة جدًا وخالية تقريبًا وذات حيطان رمادية، وسقف عال ومصباح وحيد وباب يؤدى إلى مطبخ صغير، وكم كان غريبًا أن هذا الرجل الواسع المعرفة يكاد لا يمتلك كتابًا عدا موسوعة ألمانية قديمة، أو يحوز مكتبًا، ولم يكن ينام على سرير، بل على أريكة مغطاة ببطانية سوداء، وكان «مارك إلبنجر» جالسًا آنذاك على الأريكة معتدلاً ومشدودًا، وكان من الواضح أن اعترضت نقاشًا حادًا بينهما، وبعد توقف طال بعض الشىء قال «فيتلزوهن»:

- مارك، إن أشد خطأ من بين كل الأخطاء التى ارتكبها اليهود أننا أوهمنا أنفسنا، وأوهمنا الشعوب الأخرى من بعد بقولنا إن الإله رحيم يحب عباده ويكره الأشرار، كما أوهمنا أنفسنا بكل بقية ما دعا إليه أولياؤنا وأنبياؤنا نزولاً من موسى إلى شافتز حاييم، ولم يحتضن اليونانيون القدماء هذا الوهم، وهذا مكمن عظمتهم، وعلى حين يتهم اليهودُ الشعوبَ


Twitter: @ketab_n

الأخرى بالوثنية نراهم أنفسهم يخدمون وثن العدالة، والمسيحية خُلاصة هذا التفكير المبنى على الرغبة والتمنى، ويحاول ذلك الهمجى هتلر الآن أن يوقظ العالم من نومه المغناطيسى ويطرح عنه أفكاره الخاطئة، ولكن - أوه، التليفون ثانية! فى عيد الغفران!.

ولم أكن فى حالة تسمح لى بالاشتراك فى أية مناقشة، فتوجهتُ إلى النافذة، ومن الجانب الأيمن رأيتُ «الفستولا»، والقمر ظاهر ثلاثة أرباعه وهو يلقى شباكًا فضية على الماء الداكن، وبرز «إلبنجر» إلى جانبى، وغمغم:

- شخص غريب صديقنا فيتلزوهن هذا.

- ما باله؟

- إنى أعرفه منذ ما يربو على ثلاثين عامًا، ولم أسبر غوره بعد، كل كلامه ينحصر فى هدف واحد أن يستر حقيقة ما يفكر فيه.

- ما الذى يفكر فيه حقيقة؟

- أفكار متشائمة، فقد خاب أمله فى كل شىء، وفى نفسه على الأغلب، وكان والده زاهدًا، ولعله مازال على قيد الحياة فى مكان ما، ولموريس ابنة، كان آخر مرة رآها فيها وهى فى الحفاض، وأعرف أنا نفسى امرأتين انتحرتا بسببه، إحداهما ألمانية انتحرت فى برلين والأخرى ابنة مبشر انتحرت فى لندن..



Twitter: @ketab_n

وشخر «فيتلزوهن» ووضع السماعة، وقال:

ـ فى رأيى أن الشهوة رقم واحد عند المرأة ليست الجنس وإنما الكلام.

فسأله «إلبنجر»:

ـ ماذا كانت تريد؟

ـ أنت قارئ أفكار، ينبغى لك أن تعرف.

وتحولت المناقشة إلى الإيمان بالقوى الخفية، فقال «فيتلزوهن»:

ـ توجد قوى مجهولة هنا، أجل، توجد، إلا أن جميعها جزء من اللغز المسمى بالطبيعة، الطبيعة التى لا يدرك كنهها أحد، والتى أشك أنها تدرك كنه نفسها،...، انتظر يا مارك، سأحضر لك الكونياك وشيئًا تقضمه، لدىَّ كعك قديم قدم متوشالح.

ودخل «فيتلزوهن» المطبخ، وعاد بعد وقت طويل يحمل طبقًا عليه كأسان من الكونياك، وقليل من البسكويت، إذ أخبرته أنى صائم، لا لأنى أعتقد أن هذه مشيئة الرب، وإنما لكى أبقى على نحو ما جانبًا من عائلتى وجميع اليهود الآخرين، وقرع «فيتلزوهن» كأس «إلبنجر» بكأسه.

ـ صائم! نحن اليهود نواظب على اشتهاء الحياة الأبدية لأنفسنا، أو على الأقل بقاء الروح، الواقع أن الحياة الأبدية سوف تكون كارثة، تخيل بقالاً متواضع الشأن ميتًا، وروحه محلقة هنا وهناك ملايين السنين


Twitter: @ketab_n

وهى مازالت تذكر أن صاحبها كان يبيع فيما مضى الشيكوريا (الهندبا) والخميرة والفاصوليا، وأن زبونًا كان يدين له بثمانية عشر جروشنًا، أو يخيل أن روح مؤلف بعد عشرة ملايين سنة مازالت تذكر أن صاحبها كان مستاءً من نقد ردىء تلقاه، فقال «إلبنجر»:

- الأرواح لا تبقى كما هى، فهى تنمو.

- إذا نسيت الماضى فما عادت هى، وإذا تذكرت كل توافه الحياة فلن تنمو، لا ريب عندى فى أن الروح والجسم وجهان لعملة واحدة، ومن هذه الوجهة كان «إسبينوزا» أكثر شجاعة من «كانط»، فروح «كانط» إن هى إلا رقم زائف فى نظام مسك دفاتر زائف، صائم!، فلنجلس.

وتحول الحديث مرة بعد مرة إلى القوى الخفية، فقال «إلبنجر»:

- نعم، هى موجودة، وإن كنت لا أدرى ما تمثله، لقد بدأت تجربتى معها حين كنت لا أزال طفلاً، كنا نقيم فى قرية كانت من الصغر إلى درجة أن لم أجدها على أية خريطة - سنسمين، فقد كانت فى الحقيقة كَفْرًا انتقلت إليه مجموعات قليلة جدًا من العائلات اليهودية، وكان والدى، وهو معلم صبيته، فقيرًا للغاية، وكنا نشغل حجرتين، إحداهما نستعملها حديرًا والأخرى حجرة نوم ومطبخ، وكان لى أخت تكبرنى اسمها «تزيبا» وأخ يكبرنى اسمه «يونكل»، وقد سميتُ


Twitter: @ketab_n

«موشيه موتل» على اسم والد جدى، إلا أنى كنتُ أُدعى «موتل» الذى تحوَّل فيما بعد إلى «مارك»، وإنى لأتذكر عددًا من الأحداث فى حياتى ترجع إلى سن الستين، كان سريرى منصوبًا فى حجرة الحدير، حيث يدرس الأطفال بالنهار، وكان للنافذتين هناك مصاريع، ولابد أنهما كانتا تواجهان الشرق، لأن الشمس كانت تشع من خلال تلك المصاريع كل صباح، وما أتحدث عنه الآن لا علاقة له بالغيبيات، وإنما له علاقة بالإحساس بأن كل شىء حافل بالأسرار الغامضة والألغاز المحيرة، وأتذكر أنى استيقظت مرة مبكرًا جدًا فى حين كان والداى وأخى وأختى لا يزالون نائمين، وكانت الشمس الطالعة تبعث بأشعتها من خِصاص المصاريع، وتضىء أنهارًا من الغبار، إنى لأذكر ذلك الصباح بوضوح غير عادى، من البين أنى كنت أصغر من أن أفكر فى سياق الكلمات أو ما تنطوى عليه، بيد أنى تساءلت: ما هذا كله؟، من أين جاء كله؟، لاريب أن باقى الأطفال يمرون بنفس التجربة، ولكن إحساسى فى ذلك الصباح كان قويًا على غير العادة، وأدركتُ غريزيًا أننى يجب ألا أسأل عن هذا، وأن والدىَّ لن يزودانى بأية إجابة، كان سقفنا مضيئًا يتلاعب عليه نسج انعكاس أشعة الشمس والظلال، لقد أدركتُ أنى أنا نفسى وما أراه - الحيطان والأرضية والمخدة التى أضع عليها رأسى - أننا جميعًا شىء واحد، وفيما بعد بسنوات قرأت عن الوعى الكونى ووحدة الكون ووحدة الوجود، إلا أنى لم


Twitter: @ketab_n

أخض تجربة قط بمثل هذه القوة، وفوق ذلك أمدتنى بلذة نادرة، إذ اندمجت فى الأبدية واستمتعت بها، أحيانًا أخالها تشبه حالة العبور من الحياة إلى ما نسميه بالموت، ولعلنا نخبرها فى اللحظات الأخيرة الحاسمة أو ما بعدها على الفور، أقول هذا، لأن الموتى الذين رأيتهم فى حياتى بغض النظر عن عددهم كان لديهم نفس التعبير على وجوههم، آه، تُرى ما هو؟ ليتنى أعرف فحسب، من المؤسف أنى لا أستطيع أن أخبر الآخرين بشأنه، حتى الطائر أو الفأر إذ يموت أحدهما يبدى هذا التعبير، وإن كان ليس بوضوحه عند الإنسان، وكانت تجاربى الروحانية الأولى - إن صحت هذه التسمية لديكما - من النوع الذى يأتى فى الحلم أو فى أثناء اليقظة، وذلك على الرغم من اقتناعى بأنها لم تكن أحلامًا مثلما أنا مقتنع بأن جلوسى إليكما الآن ليس حلمًا، وأتذكر مغادرتى لمنزلنا بالليل فى إحدى المرات، كانت كل المنازل اليهودية بما فيها منزلنا - مشيَّدة فى الحقيقة حول مساحة رملية تسمى السوق - حيث توجد الدكاكين وبيت الصلاة والحمام الشعائرى فضلاً عن الحانة، ولا أقول لكم كم كان الوقت متأخرًا، إذ كان السوق خاليًا والدكاكين مقفلة ومصاريع النوافذ مغلقة، وقد استنار الليل - إن لم يكن بالقمر فبالنجوم، وفى الجهة المقابلة لمنزلنا قام منزل آخر، وكانت أكواخ الفلاحين ذات أسقف من القش فى حين كانت البيوت اليهودية ذات أسقف خشبية محدبة، وغنى عن القول


Twitter: @ketab_n

بأن تلك البيوت كانت منخفضة، ولحظة أن خطوت إلى الخارج رأيت شيئًا ما يحتل سطح المنزل القائم فى الجهة المقابلة، وتصورته رجلاً، إلا أنه كان مختلفًا، أولاً: لأنه كان بلا ذراعين أو ساقين، وسبب آخر، أنه لم يكن واقفًا على السطح أو جالسًا، بل كان يحوم فوقه ولم يكلمنى، على أنى فهمتُ أنه يريدنى أن أصعد إليه، فأدركت أن الصعود إليه يماثل الذهاب إلى حيث ذهب أخى وأختى المتوفيان، وعلى الرغم من ذلك شعرت برغبة قوية فى الذهاب إليه، ووقفت فاغرًا فمى وأنا متحير وخائف وغير مصدق ناظرىّ، وفجأة شعرت بأن الرجل أو العفريت يلومنى وهو ساكن فى صمت، ودلّى نحوى مجرافًا، لم يكن مجرافًا، بل شيئًا برز من جسمه أشبه باللسان، وكان من الطول والعرض بحيث لا يمكن أن يبرز من أى فم، وامتد إلى مسافة قريبة منى بحيث كاد يمسك بى، فاستولى علىّ خوفٌ طاغ، وجريتُ إلى داخل المنزل وأنا أصرخ، وهب أهلُ المنزلِ من نومهم، ونفخوا فى وجهى، ورَقَونى على ما يبدو، وسألنى الجميع - أمى وأبى وتزيبا ويونكل وهم حفاة وفى ملابس النوم - عن سبب صراخى المرتفع هكذا، إلا أنى لم أشأ أو لم أستطع أن أجيبهم، وأنا أعلم أنى غير قادر على إيجاد الكلمات المناسبة للإجابة، وأنهم لن يصدقونى، وفوق هذا كان من الأفضل ألا أبوح بشىء، والواقع أنى أروى هذا للمرة الأولى الليلة، ومنذ ذلك الحين أصبحت كثير الرؤى الغامضة، وكنت أرى أشياءً، فيملى علىّ


Twitter: @ketab_n

شعور غامض بألا أكشف عنها، وكثيرًا ما رأيت أخيلة على حوائط بيتنا بالنهار لا صلة لها بظاهرة الضوء والظل، وكانت هذه تدب أو تزحف على الحوائط، أو فى داخلها، ويأتى اثنان منها أحيانًا فى وقت واحد من اتجاهين متضادين، ويبتلع أحدهما الآخر، وكان بعضها طويل القامة تلامس رءوسه السقف ـ إذا جاز تسميتها رءُوسًا، وبعضها الآخر صغيرًا، وكنت أراها أيضًا من حين لآخر على أرضية الحجرة، وعلى أسطح البيوت الأخرى، وفى الجو، وكانت دائبة الحركة دائمًا ـ مقبلة وذاهبة ومندفعة، وقلما توقف إحداها لحظة، وأنا أقول لنفسى اليوم إنى كنت أرى أشباحًا، ولكن هذه مجرد تسمية، شىء واحد كان يخطر ببالى ـ أن أُفرِّق بين الذكور والإناث، ولم أكن أخشاها، وقد يكون الأدق أن أقول إنى كنت محبًا للاستطلاع، وفى ليلة بعد أن ذهبت لأنام وأطفأت أمى النور وانساب ضوء القمر من خِصاص المصاريع سمعت خشخشة، كيف لى أن أصفها؟! كانت كاهتزاز سعف النخيل الجاف، أو حفيف أغصان صفصاف السَّلالين، أو صوت رش الماء أو غير ذلك مع تعذر المقارنة، وأخذت الحوائط ولا سيما الأركان تهمهم وتغمغم، والأشكال التى كنت أراها إلى ذلك الوقت بالنهار فقط تركض آنذاك متدافعة، وإنى أصف تلك الحركات اليوم بأنها حالة ذعر مفاجئ غير مفهوم قد انتاب تلك الأشكال؛ إذ كانت تهرول هنا وهناك، وتختلط فى الأركان التى تنبعث منها الجلبة، وتركض


Twitter: @ketab_n

على روافد السقف الخشبية وعبر أرضية الحجرة، وبدأ سريرى يهتز وكل شىء تحتى يضطرب ويرتج، وبدا القش فى الحشية كأنما دبت فيه الحياة، ولأول مرة فزعت، ولكنى لم أجرؤ على الصياح خوفًا من لطمة أو أى عقاب آخر، ولما كبرتُ قدَّرت أن هذا الاهتزاز أو الارتجاج قد نجم عن زلزال، ولما سألت والدىَّ وسكان البلدة الآخرين عرضًا عن زلزال تعرضوا له أجابوا بالنفى جميعًا، وكذلك لم يبلغنى أن بولندا قد عانت من زلزال، وقد استغرقت الجلبةُ واللغطُ وقتًا طويلاً، وتستطيعان أن تقولا أن مغامرتى خارج المنزل وتجريتى فى الليلة المذكورة كانتا حلمين أو كابوسين، ولكنى أدرك أنها ليستا كذلك، وفى السنوات التالية توقفتُ عن تلك الرؤى، أو أيًا ما قد تكون، أما النواحى الأخرى فقد نمت وازدادت، إذ كان لدىَّ ميل شديد نحو الفتيات - والفتيات غير اليهوديات أيضًا، وأدركتُ شيئًا فشيئًا أنى إذا فكرتُ فى فتاة طويلاً بقدر كاف، أو فكرت فيها بشدة كافية أتت إلىَّ منجذبة، وأنا لا أعزو إلى نفسى قوى فائقة أو غير عادية، لأنى أساسًا عقلانى - أعلم أن الصُدف لا يمكن أن تقع بلغة الاحتمال، فحين ألعب لعبة (الدريدل)[٩٠] مع نفسى، ويسقط (الدريدل) على نفس الحرف خمس أو ست مرات، فذلك لأنى أريده أن يسقط على هذا النحو، وقد أفترض أن ذلك وقع مصادفة أو اتفاقًا، إلا أنى حينما أدير إياه عشر مرات وأحصل على نفس النتيجة أدرك أن الصدفة لا علاقة


Twitter: @ketab_n

لها بذلك، إنى متأكد أنكما تفضلان أن تسمعا عن الفتيات لا الدريدل، لقد وصل الحال بى إلى حد أن آمر فتاة ذهنيًا أن تأتى إلى هذا الشارع أو ذاك، وإلى هذا الرقم أو ذاك، وكنا نقيم فى وارسو فى تلك الآونة، فتأتى، ولا يمكن أن أبرهن لكما على صحة ذلك، كما لا يمكننى أيضًا أن أبرهن بالدريدل على ما أقول فى كل مرة، فهذه القوى نزاعة إلى الإغاظة على نحو عجيب، ومولعة بالعبث والإزعاج، وتكره أن تكون موضع اختبار بأقلام الرصاص والساعات، إنها تكره العلم والعلماء، صدقانى أنها تبدو لأذنى كالهراء كذلك، فما هذه القوى؟ هل هى كائنات حية؟ ولماذا تكره العلم والإحصائيات؟ إنها تبدو كذريعة للكذب أو ستار، لقد اعتبرنى الناس كاذبًا أكثر من مرة، أنا نفسى اعتبر الوسطاءَ الروحيين كاذبين إذا لم يدللوا على ماليهم من قوى حين يجرى فحصها ومراقبتها، أعنى بطريقة علمية، طيّب، أليست أعضاؤنا الجنسية حافلة بالنزوات وهى بوجه من الوجوه ضد العلم؟ موريس، إذا قيل لك أن تنام مع امرأة فى حضرة عشرة أساتذة معهم آلات تصوير وكل أنواع أدوات القياس فلن تكون «دون جوان» كبيرًا، طيّب، وماذا يحدث للشعراء من أمثال «جوته»[٩١] أو «هينى» إذا ما جلسوا إلى مائدة محاطة بالأساتذة والأدوات وطُلب منهم أن يكتبوا قصيدة رائعة؟ فى وسعكما أن تعزفا على «الفيولين» فى صالة متألقة أمام المئات من الناس، ولكن المسألة محل نظر إذا ما كتب



Twitter: @ketab_n

«بيتهوفن»[٩٢] أو «موتسارت» سيمفونياتهما تحت ظروف كهذه، وأقول لكما إنه رغم نجاحى فى أمور عديدة تحت الرقابة التامة أمام جموع ضخمة من الناس، فإن معظم الأحداث المهمة قد خبرتها وأنا بمفردى فحسب، فلم يشاهد أحد نتائجها أو يتأكد منها، ولم يساورنى القلق أن يسخر منى أحد أو يلاحقنى بالصفير، فالحياءُ قوةٌ هائلةٌ ولو أنه قوة سلبية أحيانًا، وثمة أناس كثيرون لديهم الرغبة فى الذهاب إلى بيوت الدعارة، إلا أنهم لا يفعلون، لأنهم قد تعتريهم العنَّة مع الداعرات، لماذا تكون القوى الخفية أقل تقلبًا عند غير اليهود؟ فى وسعى أن أنَوِّم مغناطيسيًا أمام جمهور من الناس فى الوقت الحاضر، كان علىَّ أن أقوم بذلك، لقد تغلبت على خوفى من الفشل، وإن لم يكن تمامًا، فلو أنَى خبطت على المائدة بقبضتى لخبطت هى قبضتى بدورها وكذلك الحال فى المسائل الروحية، فكل تنويم مغناطيسى يقابله تنويم مغناطيسى مضاد، ولو اعترانى الخوف من عدم القدرة على النوم لبت ساهرًا طوال الليل، وإذا جلس حولى أساتذة من كوكب آخر فى زيارة فردية لاستنتجوا أنى لم أنم ألبتة، لماذا يشق على المرء كثيرًا أن يكون ممثلاً بارعًا فيتكلم ويتصرف بطريقة طبيعية على المسرح؟ كل امرأة فى المنزل هى سارة برنار، لقد رأيت علماء عظامًا فى مواجهة الجمهور لا يقدرون على النطق بجملة مفهومة فى موضوع هم خبراء العالم فيه؟ نعم، إنى


Twitter: @ketab_n

أفعل أشياء تدهشنى وتقنعنى بأنى قادر على السيطرة على نفوس أخرى، هى نفوس فى الغالب أعرفها بجهد، وربما وقع بصر أصحابها علىَّ مرة واحدة، إن نجاحى مع النساء ضخم إلى درجة تخيفنى، على أى حال ما التنويم المغناطيسى؟ نظريتى هى أنه لغة تتصل عن طريقها نفس بأخرى مباشرة، إن قوانا المغناطيسية التى نُحسها لها حدود، ولا أعتقد أنى أُنوِّم الدريدل مغناطيسيًا، ربما أُنوِّم يدى لتدير الدريدل بطريقة تجعله يسقط حيث أريد، ولكن مَنْ القائل بأن التنويم المغناطيسى مجرد قوة بيولوجية؟ ألا يحتمل أن يكون قوة طبيعية كذلك؟ ألا يجوز أن تكون الجاذبية نوعًا من التنويم المغناطيسى؟ ألا تكون المغناطيسية تنويمًا؟ ألا يكون الإله مُنوِّمًا مغناطيسيًا ذا قوى مغناطيسية ضخمة بحيث لو قال «ليكن نور» فيكون نور؟ لقد سمعت عن امرأة تأمر الكرسى بأن يمشى من الحائط إلى الحائط، بل ويرقص كذلك، ولقد سمعتُ أيضًا عن جنيِّة ترفع الأطباق وتكسرها، وتقذف بالحجارة، وتفتح الأبواب المغلقة، وكذلك جاءتْ إلىَّ يومًا امرأة وأقسمتْ بكل ما هو مقدس لديها إنها حين دخلت المطبخ ذات مرة ارتفع إناء، وحوَّم تجاهها، ثم استقر عند قدميها ببطء، وهذه المرأة مسنة، وأرملة محام، وأم لأبناء كبار وبنات كبيرات، كما أنها على قدر من التعليم وعلو المنزلة أيضًا وليس لديها مبرر لاختلاق قصة كهذه، وقد جاءت إلىَّ على أمل أن أفسر لها هذا الغموض، إذ أزعجها هذا الأمر سنوات، وأخبرتنى أن الإناء لم


Twitter: @ketab_n

يسقط على قدميها، وإنما وضع نفسه بحرص عندهما؛ ولذا فهى تخشى الإناء منذ ذلك اليوم، وانتظرتُ أن يقوم بعمل مثير آخر، فلم يفعل، بل بقى مثل كل الأوانى، وكانت المرأة تبكى وهى تكلمنى، أيكون هذا تحية من زوجها الراحل؟ وقد بقيت معى ساعتين على أمل أن أمدها بتفسير، على أن ما قلته لها شىء واحد فقط هو أن الإناء لم يتصرف من تلقاء نفسه، وإنما رفعته قوة ما، يد غير مرئية، ووضعته عند قدميها، وأذكر قولها: ألا يجوز أن الإناء أراد أن يمزح؟

فقال «فيتلزوهن»:

- إذا كانت هذه القصة حقيقية فلابد أن نعيد فحص قيمنا وتصورنا للعالم، ومع ذلك لماذا لا يرتفع الإناء أو غيره فى حضور فيزيائى أو كيميائى أو على الأقل مصور معه آلة تصوير؟ كيف أن هذه الخوارق تحدث دائمًا فى مطابخ الأرامل الوادعات؟، لماذا لا تحدث فى مطبخ يوجد به عدة طباخين حاضرين؟ هل هذه الأوانى خجولة كذلك؟

وفى العاشرة والنصف أخبرنا «إلبنجر» بأنه لابد أن ينصرف، إذ إن لديه موعدًا، وأردت أن أنصرف معه، إلا أن «فيتلزوهن» أصر على بقائى، وأشعل سيجارًا، وقال:

- هذا البطل الكبير مصاب بالوساوس، وهو ينوّم نفسه معتقدًا أنه يعانى من اثنتى عشرة علة نفسية وجسدية، وهو مقتنع بأنه لم ينم سنوات، فلديه قرح،


Twitter: @ketab_n

وهو ـ إلى ذلك ـ عنين كما أظن، النساء مجنونات به إلا أنه يمارس العزوبة، تاريخ الجنس البشرى هو تاريخ التنويم المغناطيسى، واعتقادى الراسخ أن كل الأوبئة هى تنويم مغناطيسى جماعى، فحين أعلنت الجرائد عن تفشى الأنفلونزا بدأ الناس يموتون منها، أنا نفسى أقنعت نفسى بكل أنواع الخبَل حتى أنى لا أستطيع قراءة كتاب الآن، وأبدأ التثاؤب فى نهاية الجملة الأولى، إنى ضجِر من النساء، أحاديثهن تنفرنى، خذ مثلا سيليا، فَهى تأتى إلى هنا ساعة أو ساعتين، وطوال الوقت تثرثر، وهايمل ذاك شاذ جنسيًا، يُخيل إلى هنا أحيانًا أنى آخر، لا تخف فلن أضع يدى عليك.

ومرة أخرى دق جرس التليفون فتركه «فيتلزوهن» يدق، وقام واقفًا، ونظر إلىَّ بطريقة لم أعتدها، وكان ثمة شىء أبوى وأخوى فى نظرته، وقال:

ـ إنها سيليا، أراك متعبًا، اذهب إلى المنزل إذا أردت، تسوتسك، لا تمكث فى بولندا، فالمحرقة قادمة إلى هنا سوف تكون أسوأ مما كان عليه الحال فى عهد شملينسكى(٩٣)، لو استطعت الحصول على تأشيرة ـ ولو تأشيرة سائح، فاهرب! عيد سعيد.

ثم توجه إلى التليفون الذى استمر يدق.

## (٢)

كانت، وارسو، من الهدوء بحيث أنى سمعت وقع خُطاى، وكانت الشموع لا تزال متوقدة فى النوافذ،


Twitter: @ketab_n

والبوابة فى شارع «ليزنو» مغلقة، والبواب بطيئًا عند قدومه لفتحها، وهو يتمتم كأنما أدرك أنى أعتزم الارتحال قريبًا، وعلى الرغم من أنه كان معى مفتاح للمصعد - مفتاحى، فقد صعدت السلالم المظلمة، وطرقت باب الشقة، ففتحته «تيكلا» لى، وقالت:

- التليفون دق من أجلك ربما مئات المرات، السيدة بتى.

- شكرًا يا تيكلا.

وسألتنى مؤنبة: ألم تذهب إلى الكنيس فى يوم مقدس كهذا؟!

ولم أدر كيف أجيبها، وذهبتُ إلى حجرتى، وخلعتُ ملابسى دون أن أضىء النور، واستلقيت على الفراش، ومع أنى كنتُ متعبًا فلم أنم، فماذا أنا فاعل بعد أن تنفد الزلوتات القليلة المتبقية معى؟ لم أر أى احتمال لكسب النقود، وتمددت هناك خائفًا من مركزى الاجتماعى، فلدى «فيتلزوهن» على الأقل ما يشبه الارتزاق من محاضراته، وهو يأخذ نقودًا من سيليا ونسوة أخريات كذلك، وعنده - إلى ذلك - شقة ذات إيجار ثابت لا يدفع فيها أكثر من ثلاثين زلوتًا فى الشهر، أما أنا فقد تحملت مسئولية فتاة مريضة، واستغرقت فى النوم، ثم استيقظت فجأة، إذ دق التليفون الموجود فى الممر، وكانت عقارب ساعتى الفسفورية تشير إلى الثانية والربع، وسمعت صوت


Twitter: @ketab_n

قـدمــين عــاريتــين. كـانت «تيكلا» تجــرى للرد على التليفون، وسمعتُ همسها، وانفتح باب حجرتى.

- إنه لك.

وعبّر صوتُها عن سخط يهودى أُجبر على انتهاك حـرمـة أقـدس عـيـد فى السنة، ونهضتُ من الفـراش واصطدمت بها، وكانت ترتدى لباس النوم فقط، وفى الصـالة رفعتُ السماعة، وسمعت صوت «بتى» وكان أجش خشنًا كصوت شخص فى غمرة شجار، وقالت:

- لابد أن تأتى إلى الفندق فى الحـال، إذا كنت قـد اتصلت بك فى منتـصف ليلة عـيـد الغـفـران فـذاك لسبب غير تافه.

- ماذا حدث؟

- طلبتك طوال اليوم، أين كنت تهيم على وجهك فى عشية عيد الغفران؟

لم أنم لحظة الليلة الماضيـة ولم أغـمض عـينى الليلة، سـام مريض جدًا، يجب أن تُجرى له عـمليـة، لقد أخبرتهُ بكل شىء عنا.

- ماذا أصابه؟ ما الداعى إلى إخباره؟

- فى الليلة الماضيـة نهض من فراشـه ليـذهب إلى الحمام، لكنه لا يستطيع التبول، كان متألمًا لدرجة أنى طلبتُ الإسعاف، خففوا عنه بالقسطرة، إلا أنه محتاج لعملية، رفض أن يذهب إلى المستشفى هنا وأصر على العودة إلى أمريكا، إلى طبيبه هناك، الطبيب الذى رآه


Twitter: @ketab_n

اليوم أخبرنى أن قلبه ضعيف، وأنه على الأرجح لن يسترد صحته بالجراحة، لدىَّ شعور يا عزيزى بأنه لن يجريها، طلبنى إلى جانبه وقال: بتى، لسوف أموت، لكنى أريد أن أؤمن مستقبلك، لقد تحدث إلىَّ بطريقة لم أستطع معها أن أكتم عنه شيئًا، وأخبرته بالحقيقة كلها، إنه يريد أن يتحدث إليك، خذ سيارة أجرة وتعال إلى هنا فورًا، إنه يتصرف معى كأب، بل أكثر من أب، أعلم أن اليوم عيد الغفران، إلا أن الأمر لا يحتمل الانتظار، هل ستأتى؟

ـ أجل، طبعًا، لكن ما كان يجب أن تخبريه.

ـ ما كان يجب أن أولد، اسرع!

وانهت هى المكالمة.

حاولتُ أن أرتدى ملابسى بسرعة وهى تنزلق من بين أصابعى المرتبكة، وسقط الزر من ياقتى، وتدحرج تحت السرير، فانحنيتُ لألتقطه، فاصطدمت جبهتى بالحاجز، ومع أن الحجرة كانت دافئة فقد أحسست بالبرد، وأغلقت الباب ورائى، وأخذت أهبط السلالم غير المضاءة ركضًا، وللمرة الثانية فى تلك الليلة دققتُ الجرس، وانتظرت البواب ليفتح لى البوابة، وكان رصيف الشارع بالخارج مبتلاً ـ لابد أنها كانت تمطر، والشارع يمتد مقفرًا من المارة، ووقفت على الطوار لعل سيارة أجرة تمر، على أنى أدركت فورًا أنى قد أبات واقفًا طوال الليل دون أن تمر واحدة، فذهبتُ فى اتجاه شارع «بيلانسكا» وضاحية «كراكاو» واتخذت


Twitter: @ketab_n

عربةُ الترام الوحيدة التى مرت من جهة عكسية، ولم أمشِ، بل جريتُ، ووصلت إلى الفندق، وكان الكاتب قد غلبه النعاس أمام الثقوب العديدة لصناديق المفاتيح، وطرقت باب «بتى» فلم يجب أحد، فأعدتُ الطرق، ولكن على باب «سام دريمان» هذه المرة، فدعتنى «بتى» للدخول، وكانت ترتدى بيجامة وشبشبًا، وفى الداخل كانت الأضواء مبهرة مع توتر منتصف الليل، وقد رقد «سام» بعيون مغمضة، واستقر رأسه على وسادتين، وهو نائم على ما يبدو، ومن تحت الغطاء خرطوم صغير يصب فى وعاء، وكان وجه «بتى» شاحبًا ساهمًا، وشعرها منكوشًا، وسألتنى بصوت مخنوق يكتم صرخة: ما الذى اقتضى منك وقتًا طويلاً هكذا؟

لم أجد عربة، جريتُ الطريق كله.

أوه، نام الآن فقط، أخذ حبة دواء.

ـ لماذا تجعلين الحجرة هنا ساطعة هكذا؟

ـ لا أدرى، سأطفئ الأنوار، لا أدرى ماذا حدث لى هذه الأيام، كارثة بعد أخرى، انظر إلى عينى، اقترب أكثر!

وأمسكتنى من ذراعى، وجذبتنى إلى الطرف الآخر من الحجرة لصق النافذة، وأومأت إلىَّ بالتزام الهدوء، وشرعت تكلمنى همسًا، إلا أنها كانت ترسل زعقة من حين لآخر كأنما تجمعت كلمات عديدة فى حلقها ولا طاقة لها بحبسها مدة أطول ـ قالت:


Twitter: @ketab_n

ـ بدأت أطلبك فى العاشرة هذا الصباح، وكذلك طلبتك الليلة، أين كنت ـ أكنت لا تزال مع شوشاك؟ تسوتسك، لا أحد لى هنا إلا أنت، أؤكد لك أن سام قديس، لم أكن أدرى أن له نفسًا كريمة هكذا، أوه، لو كنتُ أعلم لكنت أكثر رقة معه، ولكنت أكثر إخلاصًا له، إلا أنى أخشى أن يكون الوقت الآن قد فات، فلديه نزيف بالأنف، وغدا سيتشاور الأطباء هنا ويقررون، اتصلتُ بالقنصل الأمريكى، وهم رتبوا كل شىء، أرادوا فحصه فى عيادة خاصة، حيث يتوفر له أفضل الأطباء، إلا أنه أصر على إجراء العملية فى أمريكا فحسب، وفى غمرة هذا الاضطراب دعانى إلى جانبه، وقال لى: بتى، اعلم أنك تحبين تسوتسك، ولا داعى لإنكارك، كان هذا لطمة لى حتى أنى اعترفت له بكل شىء، وأخذت أبكى، فقبلنى ودعانى ابنته، إذ أن لديه أولادًا، لكن أمهم ملأت قلوبهم بالكراهية نحوه، فجروه إلى المحكمة محاولين انتزاع إرثهم منه وهو مازال حيًا، انتظر، لقد صحا.

وسمعتُ تقلبه فى الفراش وأنينه.

ـ بتى ـ أين أنت؟، لماذا تبدو الحجرة مظلمة هكذا؟

فجرت «بتى» إلى الفراش، وقالت:

ـ حبيبى سام، ظننتك ستنام وقتًا أطول، تسوتسك هنا.

ـ تسوتسك، تعال، بتى، قوِّ النور، لا أريد أن أبيت فى الظلام مادمت أتنفس، تسوتسك، هأنت ترى


Twitter: @ketab_n

بنفسك أنى رجل مريض، أريد أن أتحدث إليك كأب، لى ابنان كلاهما محام، لكنهما لا يعاملاننى كأب، بل يعاملاننى كغريب أسوأ معاملة،ولى زوج ابنة لا يفضلهما، العيش معه جعل ابنتى كلبة، أحس أنى لست بخير منذ وقت طويل، كبر السن أدركنى فجأة - الرأس والمعدة والساقان، عشرين مرة فى اليوم - لا تؤاخذنى - أجرى إلى الحمام، غير أن مثانتى مسدودة، فى نيويورك عندى طبيب يُعنى بى، ويجرى لى فحصًا شاملاً كل ثلاثة أشهر، ويعالجنى بالتدليك، ولا يريدنى أن أجرى عملية، لأن قلبى يتلاعب بى، أما فى وارسو فلا طبيب لى، فضلاً عن أن انشغالنا الشديد بالمسرح جعلنى أرجئ كل شىء، أمرنى الطبيب ألا أشرب، فالويسكى يهيج البروستاتا ولا فائدة منه للمثانة، على أنك لا تريد الاعتراف بأنك تهلك نفسك، خذ كرسيًا واجلس، هذه حالتى، خذى كرسيًا أنتِ أيضًا يا عزيزتى، بتى، ماذا قلت، إيه؟ أخشى أن يكون الإله قد أرادنى إلى جواره فوق هناك، فربما يقوم بعمل يتعلق بعقار ويريد مشورة سام دريمان بشأنه، عليك أن ترحل حين يحين الأجل، حتى إن نجوت من العملية فلن يطول، كان من المفروض أن أقلل وزنى وأنا هنا، بدلاً من ذلك ازددتُ عشرين رطلاً، كيف تلتزم بالحِمية وأنت بعيد عن بلدك؟ إنى أحب أطباقكم فى وارسو، فلها ذاك المذاق البيتى اللذيذ إياه، طيّب..


Twitter: @ketab_n

وأغمض «سام دريمان» عينيه، ثم انتفض وفتحهما ثانية، وقال:

- تسوتسك، اليوم عيد الغفران، ظننتُ أنى سأقدر على الذهاب للكنيس، أردت أن أذهب إلى الكنيس الموجود فى شارع «تلوماكا»، فضلاً عن الحسيدى الموجود فى «نيلفكى»، لقد اشتريت التذاكر، لكن الإنسان يريد والإله يفعل ما يريد، ولسوف أكون صريحًا معك، إذا كان لى أن أموت، فلا أريد أن أترك بتى للأقدار، أعلم بعلاقتكما الغرامية، لقد اعترفت هى لى بكل شىء، أعلم بها حتى من قبل، ومع كل فهى امرأة شابة وأنا رجل عجوز، لقد تعودت أن أكون عاشقًا فحلاً، وأن أقيم الدنيا وأقعدها مع أفضلهن، لكن إذا ما صرتَ فى العقد الثامن من العمر ولديك ضغط مرتفع، فلن تعود البطل العظيم الذى كنته، إنها تمتدحك باستمرار، وتتهم نفسها بأنها قد جلبت لك سوء الحظ، تعشمتُ أن تنجح المسرحية؛ فلم يقدر لها ذلك، لقد تكلمنا كثيرًا، اسمعنى ولا تقاطعنى، أرجوك فكر جيدًا فيما سأقوله، لأنى أنظر إلى الأمور بطريقة تخلو من الانفعال، أنت شاب فقير ولديك الموهبة، إلا أن الموهبة مثل الماسة تحتاج إلى صقل، لقد بلغنى أنك متورط مع فتاة مريضة متخلفة وهى فقيرة أيضًا، ما المثل؟ جثتان ترقصان، الأحوال لن تنتهى على خير فى بولندا؛ فذاك الوحش هتلر سرعان ما يأتى مع النازيين، ولسوف تكون الحرب طاحنة، ولسوف يمد الأمريكيون يد العون ويفعلون ما سبق أن فعلوه فى


Twitter: @ketab_n

الحرب الماضية، ولكن قبل ذلك سوف يهاجم النازيون اليهود، ولن يكون لديك هنا سوى الحزن والأسى، الصحف اليديدية الآن تعانى من المتاعب، ولا يوجد ناشرو كتب، وما يجرى على خشبة المسرح يثير القرف والاشمئزاز، كيف ستكسب عيشك، الكاتب يجب أن يأكل هو أيضًا، حتى موسى كان يتعين عليه أن يأكل، هذا ما تقوله الأسفار المقدسة، تسوتسك، إن بتى تحبك، وأعتقد أنك لا تكرهها كذلك، لسوف أترك لها مالاً كثيرًا، ولسوف أخبرك عن مقداره فى وقت لاحق، أريد أن أعقد صفقة معك، صفقة تجارية منتظمة، لا أدرى بعد ما سوف يحدث لى، من الجائز أن أرحل عن هذه الدنيا قريبًا لو شاء الإله، ولعلى أحيا بضع سنوات أخرى، لو أزالوا البروستاتا فلن أبقى رجلاً كاملاً بالمعنى الدقيق، فإليكما خطتى، أريدكما أنتما الاثنان أن تتزوجا، لسوف أنشئ صندوق دعم، المحامى سوف يشرح لكما الأمر كله، لن تكون عالة على زوجتك، بل العكس، إذ ستعولها أنت، أطلب منك شيئًا واحدًا فقط، أن تبقى هى صديقتى مادمتُ على قيد الحياة، لسوف أكون ناشرك أو مديرك أو أى شىء آخر توده، وإذا كتبت مسرحية جيدة فلسوف أنتجها لك، وعندما يكون لديك كتاب جاهز فلسوف أنشره لك أو أعطيه لناشر آخر، فى أمريكا، لدى الكُتَّاب وكلاء يمثلونهم، لسوف أكون وكيلك، لسوف تكون ابنى وأكون أباك، لسوف أستخدم أناسًا يتأكدون من أن كل شىء يسير على الوجه الصحيح.


Twitter: @ketab_n

ـ ياسيد دريمان.

ـ أعلم، أعلم ما تريد أن تقوله، تريد أن تعلم ما سوف يحدث للفتاة، ما اسمها؟، شوشا، لا تظن أنى سوف أتركها لرحمة الإله فى وارسو لتموت جوعًا، سام دريمان لا يفعل أمورًا كهذه، لسوف تجتذبها إلى أمريكا، فهى مريضة ومحتاجة للرعاية، ربما لطبيب نفسانى، القنصل صديقى، لكنه لا يستطيع أن يصدر تأشيرة دائمة، توجد حصة لا يستطيع الرئيس نفسه أن يتحايل عليها، لقد فكرت فى كيفية التغلب على المشكلة، لسوف نأخذها معنا كخادمة، وذلك حتى يمكنها الحصول على تأشيرة، وهى لن تكون كذلك، وهى إذا عولجت هناك فذلك أفضل لها مائة مرة من أن تصبح زوجتك وتموت جوعًا هنا، عليك فحسب أن توافق على بقاء بتى صديقة لى ولا تتركنى وحدى وأنا عجوز مريض، وهى لن تسوقك إلى المحكمة إذا ما أردت أن تمنح شوشاك قبلة أو ما شابه ذلك، أليس كذلك يا بتى؟

ـ أجل، يا عزيزى سام، فإنى أوافقك على كل ما تقول.

ـ أسمعت؟ هذا مقصِدى، ومقصدها أيضًا، لقد تحدثنا بصراحة، هناك شىء واحد فحسب، لابد أن أسافر إلى أمريكا عاجلاً، ولذلك يجب أن يتم كل شىء بسرعة، إذا كان جوابك نعم فيجب أن تتزوجها فى الحال، أما إذا كان لا فلنقل وداعًا، وليعينك الإله.


Twitter: @ketab_n

وأغمض «سام دريمان» عينيه، وبعد قليل فتحهما، وقال:

- بتى، خذيه إلى حجرتك، يجب أن..

وغمغم ببضع كلمات بالإنجليزية لم أتبينها.

## (٣)

وفى الممر بين حجرتها وحجرة «سام» أخذت «بتى» تقبلنى، ووجهها مبلل من البكاء، فابتل وجهى بدوره فى أقل من لحظة، وهمست هى:

- زوجى.

وفتحت لى باب حجرتها، وعادت فى الحال إلى جانب «سام»، ولم تكن قد أضاءت الأنوار؛ فوقفتُ أنا فى الظلام، وألقيتُ بنفسى على الأريكة بعد قليل وذهنى خال، وظننتُ أنها ستعود على الفور، إلا أنها غابت طويلاً، ورغم أن الستارة كانت مسدلة على النافذة، فقد بدا لى أن النهار بدأ يطلع، وشيئًا فشيئًا بدأت أقدر الموقف، فبعد أن كنتُ يائسًا من كل شىء تكشف لى مشهد لم أجرؤ على أن أحلم به: تأشيرة إلى أمريكا وفرصة للكتابة بدون قلق على النقود، وأستطيع أن أصحب «شوشا» معى أيضًا، وضحك شىء ما بداخلى وتعجب، فمن وقت أن بلغتُ مرحلة الرجولة كنتُ أقول لنفسى إنى سوف أتزوج فتاة مثل أمى، بنت يهودية محتشمة عفيفة، وكنت أحس بالإشفاق دومًا على الرجال ذوى الزوجات الفاجرات،



Twitter: @ketab_n

فـهم يقـيـمـون مع عـاهرات دون أن يتـأكدوا مـن نسب الأطفــال إليــهم، وهـاتيك النســوة يلطخن بيــوتهن ويلوثنـهـا، وهـأنذا الآن أفكـر فى اتخـاذ واحـدة من ذاك النوع، ومـازال عـالقًـا بذهنـى مـا قـصتـه علىَّ «بتى» عن مـغامـراتها فى روسـيا وأمـريكا، ففـى أثناء الثورة كـانت على عـلاقة غرامـية برجل فى الجيش الأحمـر فبحار، ثم مخرج فرقة تمثيل متجولة، وقد باعت نفسها لسام دريمان مقابل المال، وماضـيها ليس مشينًا فحسب، بل اشتـرط «سام دريمان» منذ قليل أن تبقى أيضًا خليلته مـا بقى هو حيًا، أو بالأحـرى عشيقته، وصـاح صوتٌ داخلى اجـرِ، لسـوف تـغـوص فى وحل لن تقـدر عـلى الخـروج منهُ أبدًا، لسـوف يجـرك إلى الهـاوية»، كـان ذلك صـوت والدى، وفـى ضـوء الفـجـر رأيت جـبـينه العـالى وعينيه النافـذتين، لا تكن سُبَّة فى جبينى أنا وأمك وأجـدادك المبـاركـين، كل فـعـالك تُكتب فى السـمـاء، ثم أخـذ الصـوت يشـتـمنى: «وثنى، خـائن لإسـرائيل، انـظر مـا حدث حين أنكرت الرب!، يجب أن تمقت ذلك أشد المقت وتشمئز منه أشد الاشمئزاز، لأنه شىء بغيض لعين»، ورقدت أرتعد، فمنذ أن توفى والدى عـجـزت عن استـحـضـار وجهـه، ولم يظهـر فى أحـلامى قط، فقـد جلب لى نوعًـا من فقـدان الذاكرة، وكثيرًا مـا ناشـدته قـبل نومـى أن يكشف لى عن نفسـه أينمـا كـان، ويَمنَّ علىَّ بإشـارة، لكنه لم يـجب رجـائى، وفـجـأة يكون هـا هنـا، قُــرب أريكة «بتى» وفى عــيـد الغفـران، مهيبًـا يشع نورًا، وتذكـرت مـا قـاله المدراش



Twitter: @ketab_n

عن يوسف وهو يهم بارتكاب الخطيئة مع زوجة «بوتيفار»، إذ ظهر أمامه أبوه يعقوب، وهذا الظهور المفاجئ يأتى فى ذروة الكرب واشتداد المحنة، وجلستُ وعيناى مفتوحتان على اتساعهما، وهتفتُ: أنقذنى يا أبى، وبينما أنا أناشده ذابت صورته وتلاشت، وانفتح الباب، وسألتنى «بتى»:

ـ هل نمت؟

ومضت برهة قبل أن أجيبُ .. كلا.

ـ هل أضىء النور؟

ـ كلا، كلا.

ـ ماذا دهاك؟ اليوم عندى أكثر من عيد الغفران، قبل مجيئك غَفوْت على الأريكة، وجاءنى أبى فى الحلم، لقد بدا مثلما عرفته فى الحياة تمامًا، على أنه كان أكثر وسامة وملتمع العينين، ومع أن القتلة أطلقوا الرصاص على وجهه وحطموا جمجمته، فقد وقف أمامى بدون خدوش، طيب، ما ردك؟

ـ أقول فحسب: ليس الآن.

ـ لن أُلقى نفسى عليك إذا كنت لا تريدنى، فمازلتُ أحتفظ بشىء من الكبرياء، على المرء أن يكون قديسًا لكى يعاملنا بالطريقة التى أبدى سام دريمان استعداده لتنفيذها، إذا كان مما يشينك أن تصبح زوجى، فقل هذا ولا تتركنى أتخبط، قد أكون أتيت بعض الأفعال المشينة فى حياتى، لكنى لم أحس بأحد


Twitter: @ketab_n

أو أكن له عاطفة، كان دمى يتأجج كالنار، لم يكن لأولئك الرجال وجود حقيقى فى نظرى قط، أقسم لك إنى نسيتهم جميعًا، وإذا ما رأيتهم فى الشارع لا أعرفهم، لماذا أنا من الغباء حتى أحدثك عنهم؟ إنى أسوأ عدو لنفسى دائمًا.

فقلتُ:

- إن شوشا ستموت لو أنى فعلت بها هذا.

- إيه، الحقيقة أنها ستعالج فى أمريكا، أما هنا فستموت جوعًا، منزلهم تفوح منه رائحة عفونة، وهى مهيأة للقبر، كم ستبقى على هذا الحال؟ لا أريد الزواج منك أو من غيرك، ولكنها فكرة سام على نحو صِرف ما كان أبٌ حقيقى ليحسن إلىَّ مثلما أحسن هو، إنى على استعداد أن أقطع يدى فى الحال على أن أتخلى عنه، لقد أخبرتك من قبل أنه الآن رجل بالكاد، كل ما يحتاجه هو قبلة أو ربتة أو كلمة رقيقة، إذا لم توافق على هذا فأنت وشأنك، مادمت على استعداد لإيواء شوشا - تلك العبيطة - فى منزلى، فلا داعى - إذًا - للتعالى على سام هكذا، إنه أكثر دراية منك وفهمًا للأمور، أنت فى منتهى الغباوة.

وخرجت «بتى»، وصفقت الباب خلفها، ثم عادت بعد لحظة قائلة:

- بم أخبر سام إذًا؟ إعطنى ردًا صريحًا.

فقلتُ: طيب، أنا موافق، لسوف نتزوج.



Twitter: @ketab_n

فتوقفت هى لحظة وقالت: أهذا قرارك أم تهزأ بى؟ لو أخذت تفكر فىّ كماهر والغيرة تحرق قلبك فالأفضل أن تنهى المسألة كلها حالاً الآن.

- بتى، مادام يمكننى العناية بشوشا، فإنه يمكنك أن تكونى مع سام -

- ماذا تظن؟ أن أضع حارسًا بجانب فراشك مثلما فعل السلطان إياه فى (ألف ليلة وليلة)؟، أنا أعلم أنك تستشعر قربًا نحوها، وأنا مستعدة لتقبل هذا، ولكنى بدورى أطلب منك نفس الشىء، فقد ولت الأزمنة التى كان الرجل يطلق فيها العنان لشهواته البهيمية وتبقى المرأة جاريته، إذا عاش سام وأنعم الإله عليه بالسنوات التى يستحقها، فيجب أن نسكن جميعًا معًا، حاول أن تفكر فيه، فهذا ما آل إليه، أنا لم أتخل عن المسرح، فمازلت أخطط لمسرحية أخرى، وفى أمريكا نستطيع تعديل هذه المسرحية، حيث لن يزعجنا أحد أو يهاجمنا، الحقيقة أنه يضاقنى أنكما أنت وشوشا سوف تخدعانى قدر ما ضايقنى شتاء السنة الماضية، أشك أنها قادرة على أن تكون امرأة، ألم تباشرها حتى الآن؟

- كلا، كلا.

- طيّب، الأسد لا يغار من ذبابة، كل ما أستطيع أن أقوله لك إنه إذا ما مات سام دريمان، فإنى لن أتطلع إلى أى شخص آخر غيره، ولو بعد مضى مائة وعشرين سنة، وأقسم لك على هذا أمام الشموع السوداء.


Twitter: @ketab_n

- لا داعى للقسم.

- يجب أن نتزوج فى الحال، وأريد أن يكون سام معنا هناك مهما حدث.

- أجل.

- أعلم أن لك أمًّا وأخًا، وهذا شىء لا يمكن التملص منه، ولهذا سوف نجتذب أسرتك إلى أمريكا إذا سارت الأمور على خير.

- شكرًا لك يا بتى، شكرًا.

- تسوتسك، لسوف أكون لك أفضل مما تتخيل، لقد كان لدّى فى حياتى قبل الآن من القذارة ما يكفى، وأريد أن أمحوها من سجل أعمالى وأبدأ من جديد، ما أراه منك لا يبعث الثقة فى نفسى، إن لديك ألف عيب، ومع ذلك يوجد شىء بخصوصك يشدنى إليك، ترى ما هو؟ أخبرنى.

- لا أدرى يا بتى.

- عندما أكون معك تبدو الأشياء مثيرة وممتعة، ومن غيرك أكون بائسة وينتابنى الضجر، تعال إلى هنا، تمن لى حظًا سعيدًا.

## (٤)

استغرقت فى نوم عميق على أريكة «بتى»، ولما فتحت عينىَّ رأيتها واقفة إلى جوارى وهى تبدو مُشعثة ومضطربة، والوقت نهار، وقالت:



Twitter: @ketab_n

ـ انهض يا تسوتسك.

ـ صحوت مصدوعًا، ومضت بضع ثوان قبل أن أتذكر ما كنت أصنعه هنا، وانحنت علىّ «بتى» باهتمام وحنو قائلة:

ـ سينقلون سام إلى المستشفى، وأنا ذاهبة معه.

ـ ماذا حدث؟

ـ يجب أن تجرى له عملية فى الحال، أين أبحث عنك؟ يستحسن أن تبقى فى هذه الحجرة كى أتصل بك.

ـ سأبقى يا بتى.

ـ أتذكر اتفاقنا؟

ـ أجل.

ـ ادعُ الإله من أجله، لا أريد أن أفقده، لو حدث مكروه له ـ لاقدر الإله ـ فلسوف أغدو وحيدة بلا سند.

وانحنت علىَّ وقبلتنى فى فمى، وقالت:

ـ سيارة الإسعاف تحت، إذا أردت أن تخرج فاترك المفتاح مع كاتب الفندق، وتستطيع أن تذهب إلى شوشا إذا رغبت، ولكن عليك أن تقطع صلتك نهائيًا بسيليا، لأنى لا أطيق أن أبقى على سبيل الاحتياط، وددت لو ودعتَ سام، إلا أنى لا أريده أن يعلم أنك قد قضيت الليلة هنا، فقد أخبرتُه بأنك عدت للمنزل، ادع الإله من أجلنا.


Twitter: @ketab_n

وانصرفتْ هى وبقيتُ أنا على الأريكة، ونظرتُ إلى ساعة يدى فوجدتها متوقفة عند الرابعة، فأغمضت عينىَّ ثانية، مما قالته «بتى» لم أفهم إن كان «سام» قد أعد وصية جديدة، أم أنه عازم على ذلك، وحتى لو فعل ذلك فلسوف تنقضها أسرته، وأفزعنى المنحى الذى اتخذته أفكارى، فقد كانت مسائل المال بعيدة عن ذهنى، فلم يخطر ببالى قط أن أتزوج من أجل نقود أو أى سبب عملى، إنها التأشيرة لا النقود، وبررت ذلك لنفسى بالخوف من السقوط فى أيدى النازى، وفجأة أحسست كأن شيئًا لدغنى، أقطع صلتى بسيليا؟! ليس من حق «بتى» أن تطلب منى هذا الطلب فى حين تظل هى خليلة لسام، لسوف أذهب عامدًا إلى منزل، «سيليا»، وحككت خدى . لحيتى ثقيلة قد نمت بسرعة، ووقفت، بيد أن قدمى أخذتا ترتعشان من النوم على الأريكة، وكان ثمة مرآة معلقة فوق المغسلة، فرفعت ستارة النافذة، وحدقت إلىّ صورتى المنعكسة فى المرآة: وجه ذابل، وعينان محمرتان، وياقة مغضنة، وذهبت إلى النافذة أطل منها، فلم أجد أية مركبة من أى نوع عند مدخل الفندق، إذ حملتهما سيارة الإسعاف إلى المستشفى، ولم تكن «بتى» قد أخبرتنى حتى باسمها، ومن ميل أشعة الشمس قدرت أن الوقت ليس مبكرًا،

وسألت نفسى: ماذا أقول لشوشا؟ كل ما ستفهمه أنى تزوجتُ بأخرى، وهى لن تحيا نتيجة لذلك، ووقفتُ أنظر من النافذة إلى الشارع، وإلى عربات


Twitter: @ketab_n

الترام الخالية والدرشكيات الفارغة، يبدو أن الجيران الأغيار قد تركوا عملهم كذلك احترامًا لعيد الغفران، وخلعتُ سترتى، وغسلتُ وجهى ولو أن هذا محرم فى هذا اليوم المقدس، وخرجتُ من الحجرة، وهبطتُ السلالم درجة فدرجة، فلم يكن ثمة ما يدعو للعجلة، ولأول مرة أحسستُ أنى قريب من «سام»، إذ كان يبتغى نفس الشىء - المستحيل، ومررت بدكان حلاق، فدخلت، وكنتُ الزبون الوحيد، فعاملنى باحترام خاص، ولفنى بقطعة قماش بيضاء كما تُلف الجثة بالكفن، ومَسَّد لحيتى قبل أن يرَّغى الصابون، وقال: ما جنس هذه المدينة وارسو؟ إن عيد الغفران من أجل اليهود (Sheenies) وحدهم، ومع ذلك تتصرف المدينة كلها كالميتة، وهى التى يُفترض أنها العاصمة، تاج أمتنا البولندية، الحقيقة أن هذا مضحك للغاية.

لقد ظننى خطأ غير يهودى، وكنت أود الرد عليه، إلا أنى أدركت أن لهجتى لدى النطق بكلمة أو كلمتين ستشى بى، فأومأت برأسى، وغمغمت بكلمة مفردة لا تعرضنى للخطر، وواصل هو كلامه:

- لسوف تتم لهم الغلبة على بولندا كلها، فالمدن ممتلئة بهم كالقمل، فيما مضى كانت روائحهم النتنة تفوح فحسب من شوارع «نيلفكى» و «جرزيبوفسكا» و«كروتشمالنا»، أما الآن فقد احتشدوا فى كل مكان مثل الحشرات الطفيلية والهوام، بل لقد زحفوا حتى «فيلانوف»، العزاء الوحيد أن يطلق «هتلر» الدخان عليهم مثل بق الفراش.


Twitter: @ketab_n

ومنعت نفسى بصعوبة من الارتعاد، إذ كان الرجل يمرر الموسى على حافة رقبتى، ونظرت إلى أعلى فالتقت عيناى بعينيه الضاربتين إلى الخضرة، أتراه شك أنى يهودى؟، واستطرد قائلاً:

- سأقول لك ياسيدى العزيز، إن اليهود العصريين الذين يحلقون لحاهم ويتكلمون البولندية الصحيحة ويحاولون تقليد البولنديين الأصلاء هم أسوأ من اليهود المحافظين ذوى الجلاليب الجبردين الطويلة واللحى الكثيفة الهوجاء وخصلات الأذن، فالأخيرون على الأقل لا يذهبون إلى الأماكن التى لا يرغبون فيها، فهم لا يذهبون إلى المسرح أو المقاهى أو الأوبرا، وإنما يجلسون فى دكاكينهم بمعاطفهم الطويلة ذوات غطاء الرأس ويتمايلون على تلمودهم، وعندما يقع مسيحى فى قبضتهم ينتزعون منه بالخداع بضعة جروشنات، أما أولئك الذين يحلقون لحاهم، ويرتدون الملابس العصرية، فهم الخطر الحقيقى، لأنهم يجلسون فى برلماننا، ويعقدون المعاهدات مع ألد أعدائنا من روزنيين وروس بيض وليتوانيين، وكل واحد منهم شيوعى وجاسوس سوفيتى فى السر، ولديهم هدف وحيد: أن يستأصلونا - نحن المسيحيين - ويسلموا السلطة للبلاشفة والماسونيين والراديكاليين، قد تجد صعوبة فى تصديق هذا يا سيدى العزيز، ولكن أصحاب الملايين منهم قد أبرموا معاهدة سرية


Twitter: @ketab_n

مع «هتلر»، فآل روتشيلد يمولونه وروزفلت هو الوسيط واسمه الحقيقى ليس وروزفلت وإنما روزنفيلد، يهودى صابئ، إنهم على ما أتصور يتظاهرون بالإيمان المسيحى وفى أذهانهم هدف وحيد: أن يخترقوا كل شىء وينفذوا منه، وأن يلوثوا كل شىء وكل شخص، شىء مضحك، أليس كذلك؟

وصدرت عنى شبه غمغمة وشبه تنهيدة.

- إنهم يأتون إلى هنا طوال العام للحلاقة وقص الشعر، وليس اليوم، فيوم الغفران يوم مقدس حتى بالنسبة لأولئك الأثرياء العصريين، فأكثر من نصف الدكاكين مغلق هنا وفى شارع «كوفسكا»، إنهم لا يذهبون إلى بيوت الصلاة الحسيدية بالقبعات ذات الحواف الفرائية وشيلان الصلاة مثل اليهود المحافظين، أوه، كلا، إنهم يضعون قبعات رسمية، ويذهبون فى سيارات خاصة إلى المعبد فى شارع «تلوماكا»، على أن هتلر سوف ينظف البلاد منهم، لقد وعد أصحاب الملايين منهم أنه سوف يحمى رأسمالهم، ولكنه سوف يقضى عليهم جميعًا حالما تتم الغلبة للنازيين، ها ها ها، إنه لمن السيئ جدًا أن يهاجم بلدنا، ولكن مادمنا لا نملك الشجاعة أن نزيل هذا الوسخ بأنفسنا فلا مناص من أن نترك العدو يؤدى ذلك بالنيابة عنا، لا أحد يستطيع أن يتكهن بما سوف يحدث بعد ذلك، الخطأ فى هذا كله راجع إلى


Twitter: @ketab_n

أولئك الخونة البروتستانت، فهم ألد أعداء البابا، هل تعلم يا سيدى العزيز أن «لوثر» يهودى متستر؟

- كلا.

- إنها حقيقة راسخة.

ومر الحلاق بالموسى على وجهى مرتين، ثم نثر ماء الكولونيا بعد ذلك علىَّ، ورش الذرور، ونظف بدلتى، وأزال بأصبعين بضع شعرات متفرقة من على كتفى، ودفعتُ له وانصرفت، ولدى قفلى باب الدكان كان قميصى مشبعًا بالعرق، وبدأتُ أسرع على غير هدى، وأنا لا أدرى إلى أى اتجاه أمضى، لا، لن أبقى فى بولندا، لسوف أغادرها بأى ثمن!، وكادت تصدمنى سيارة وأنا أعبر الشارع، إن هذا اليوم أكثر أيام حياتى مأساوية، لقد بعت نفسى للشيطان كذلك، أأذهب إلى المعبد؟ كلا، فلسوف أدنس المكان المقدس، وجاشتْ معدتى وشعرتُ بالحاجة إلى التبول، وتصبب العرق منى، وخز الألم مثانتى، وأدركت أنى إذا لم أفرغها فى التو فلسوف أبلل نفسى، وبلغت مطعمًا وحاولت أن أدخل، فلم يطاوعنى الباب الزجاجى، أهو مغلق بمفتاح؟ لا يمكن أن يكون كذلك، فإنى أرى الآكلين بالداخل والنُدل يحملون الصوانى، واقترب رجل معه كلب بمقود، وقال:

- لا تشد الباب، ادفعه.


Twitter: @ketab_n

ـ أوه، شكرًا جزيلاً.

وسألت النادل عن حجرة «التواليت»، فأشار إلى الباب، وعندما سرت فى الاتجاه الذى أشار إليه تلاشى الباب كالسحر، ورفع الناس أبصارهم عن الطعام، وحدقوا إلىّ، وضحكتْ امرأة بصوت عالٍ، وجاءنى النادل وقال: هنا، وفتح الباب لى، وجريت إلى المَبْولة، على أن البول مثلما حدث لسام دريمان احتبس داخلى.


Twitter: @ketab_n

# الفصل التاسع

## (١)

لم أذهب إلى «سيليا»، وقضيت عيد الغفران مع «شوشا»، وذهبت «باشيل» إلى المعبد، وكانت الشمعة التذكارية الضخمة التى أوقدتها فى اليوم السابق لا تزال مشتعلة، وهى تكاد لا تلقى ضوءًا، ورقدتُ بملابسى على الفراش بجوار «شوشا» منهوكًا بفعل ليلة شابها الأرق، فغلبنى النعاس، وبدأت أحلم، ثم استيقظت، وتحدثت «شوشا» إلىّ، فلم أتابع ما قالته ولو أنى كنت أسمع صوتها، وكان حديثها يتصل بالحرب وأوبئة التيفويد والجوع وموت «يبى»، ووضعت يدها الشبيهة بيد طفلة على خصرى، وكان كلانا صائمًا، وكنت أفتح عينى من وقت لآخر، وألاحظ مدى ارتفاع ضوء الشمس على الحائط المقابل، وقد خيم عيد الغفران على الفناء بهدوء، وسمعتُ سقسقة طائر، وكنت قد اتخذت قرارًا، وكنت على يقين أنى ملتزم به، أما لماذا اتخذته فلا أملك لذلك تفسيرًا لنفسى أو لغيرى، وقد ساءلتُ عقلى الباطن أو اللا شعورى: ألهذا علاقة برؤيتى لوالدى - أو الهلوسة؟ أم تراه الحلاق قد أثر فىّ بكلامه الذى



Twitter: @ketab_n

يقطر سمًا؟ لقد رفضتُ امرأة جياشة العاطفة وموهوبة وقادرة على أخذى إلى أمريكا الغنية، فحكمتُ على نفسى بالفقر والموت برصاص النازى؛ أهذا غيرة من سام دريمان أم هو حب عظيم لشوشا؟ أتعوزنى الشجاعة أن أخيّب أمل «باشيل» فىّ؟ فلم أتلق جوابًا، وقلت لنفسى: هذا شأن من يقدمون على الانتحار بالضبط، فهم يجدون خطافًا فى السقف، فيعقدون أنشوطة فى حبل، ويضعون كرسيًا من أسفل، ولا يدرون علة ذلك حتى الثانية الأخيرة، مَن قال إن كل الطباع أو الأمزجة الإنسانية يمكن التعبير عنها فى صورة بواعث أو كلمات؟ لقد أدركت منذ وقت بعيد أن الأدب يصف وقائع فحسب، أو يدع الشخصيات تختلق الأعذار أو المبررات لتصرفاتها، وكل البواعث فى القصة أو الرواية إما واضحة أو ملتوية، واستغرقتُ فى النوم، وكانت ظلمة الليل قد حلّت حينما استيقظتُ، إذ شاع لون الفضة الأخير لغروب الشمس فى لوح زجاج نافذة العُلية، وقالت «شوشا»: هل نمت جيدًا يا أريل؟

- وأنت يا شوشا؟

- أوه، نمت.

وامتلأت الحجرة بالظلال، وبدأت الشمعة التذكارية الموضوعة على المائدة تخفق، وتوهج اللهب فجأة مرة واحدة، وسرعان ما تضاءل و هو يكاد لا يلامس الفتيل، وقالت «شوشا»:


Twitter: @ketab_n

- لقد ذهبت مع أمى إلى المعبد فى ليلة عيد الغفران العام الماضى، ونفخ رجل ذو لحية بيضاء فى قرن خروف.

- أجل، أعلم.

- حينما تظهر ثلاث نجمات فى السماء نستطيع أن نأكل.

- أأنت جائعة؟

- عندما تكون معى فهذا أفضل من الأكل.

فقلتُ: شوشيل، لسوف نكون زوجين فى أقرب وقت بعد الأعياد.

ولدى كلامى أردتُ أن أحذر «شوشا» أن تقولُ أى شىء لأمها فى الوقت الحاضر، على أن الباب انفتح فى تلك اللحظة، ودخلتْ «باشيل»، فجرتْ «شوشا» للقائها، وصاحت بصوت أعلى مما اعتدت سماعه منها من قبل:

- لسوف يتزوجنى أريل بعد عيد المظال.

وعانقتْ أمها وقبلتها، فوضعتْ هذه بسرعة كتابى الصلاة الخاصين بها، وألقت علىّ نظرة متسائلة حافلة بدهشة ممزوجة بالفرح، فقلتُ:

- أجل، صحيح.

وصفقت «باشيل» بيديها قائلة:

- لقد استجاب الرحمن لدعائى، لقد وقفتُ على قدمى طوال النهار، ودعوتُ لكما فحسب يا بنيتى،


Twitter: @ketab_n

أنتِ وابنى أريل، يعلم الله فى السماء وحده كم ذرفت من الدموع من أجلكما اليوم أنتما الاثنان، حظًا سعيدًا يا بنيتى، يا نور عينى.

وتبادلتا القبل والعناق وهما تتمايلان وكأنهما غير قادرتين على الانفصال أو الابتعاد، ثم مدت «باشيل» يديها إلىّ، فانبعث منها عندئذ شذا الصيام والنفتالين الذى كان موضوعًا فى ردائها طوال العام، وشىء ما نسوى ومبهج، وهو شذا ألفتُه فى أيام طفولتى عندما كانت حجرة الاستقبال لدينا تتحول إلى معبد نساء فى أيام الخشوع، وعلا صوت «باشيل» واشتد، وطفقت تتكلم على طريقة كتاب الابتهالات اليبدى:

«كل من عند الرب، من عند الرب، لقد اطّلع الرب على حزنى ونفسى المنكسرة، يا أبانا الذى فى السماء هذا أسعد يوم فى حياتى البائسة، فأعنا، فلقد عانينا بما فيه الكفاية، يا أبانا اللطيف اجعلنى أحيا كى أنعم ببهجة أخذ يد ابنتى البكر إلى ظلة الزواج».

ورفعتْ يديها عاليًا، وأشرقتْ عيناها بسعادة غامرة حانية، فانفجرت «شوشا» فى البكاء، فهتفت «باشيل»:

- ماذا دهاني؟ لقد صام طوال النهار، كنزى الغالى، وريثى الغالى، لسوف تتناولان الطعام حالاً بعد قليل.

واندفعتْ إلى البوفيه، وعادتْ بكأس كبيرة من براندى الكرز، ولابد أن الشراب كان قائمًا هناك منذ وقت طويل ينتظر مناسبة سارة، وتلقت «شوشا»


Twitter: @ketab_n

التقدمة مثلى، وشرب كل منا نخبَ الآخر وقَبّله، ولم يكن ملمس شفتى «شوشا» كذاك الذى لطفلة، بل كذاك الذى لامرأة ناضجة، وانفتح الباب، ودخلت «تيبل» جميلة، فى فستان بدا لى جديدًا، وكنت قد التقيت بها آخر مرة فى رأس السنة اليهودية حين جاءت تشارك أمها وأختها عطلة العيد، وكانت طويلة معتدلة القوام، وتشبه أباها بشعره الأسود وعينيه البنيتين، وعلى الرغم من أنها كانت فى الثالثة من عمرها فحسب حين انتقلت الأسرة من رقم (١٠) إلى رقم (٧) فقد تذكرتنى ودعتنى بأريل، وكانت قد أحضرت معها فى رأس السنة اليهودية شريحة أناناس للتبرك بالسنة الجديدة، وحالما سمعت هى النبأ ظهر فى عينيها مزيج من السعادة والضحك، وقالت:

- أريل، أهذا حقيقى؟

وقبل أن أجيب عانقتنى وهى تمسك بى عن قرب، وأخذت تقبلنى قائلة:

- حظًا سعيدًا، حظًا سعيدًا، إنه مُقدر ومقسوم، وفى عيد الغفران!، حدثنى قلبى بذلك، أريل، ليس لى أخ، أنت من الآن فصاعدًا أخى، بل أقرب من الأخ، عندما يسمع أبى بهذا فلسوف..

وهرولت نحو الباب بالكعب العالى، فسألتها «باشيل»:

- إلى أين تجرين بسرعة هكذا؟



Twitter: @ketab_n

فردت من الممر:

- لأكلم أبى بالتليفون.

فصاحت «باشيل» فى أعقابها:

- لماذا تكلمينه؟ ما علاقته بهذا الحادث السعيد؟ لقد تركنا نعانى المرض والوحدة، وانطلق ليعيش مع فاسقة، ليت كل نيران الجحيم تلتهمها، هذا ليس أبًا بل هو قاتل، لو تُرك الأمر له لمتما معًا من الجوع.

إنى أنا التى أطعمتكما ومنحتكما آخر ما بقِى من قواى كى تعيشا، يا إله السماوات أنت تعلم الحقيقة، بسبب هذا النذل وطرقه القذرة فقدنا يبى، أسكنها الله الجنة مع القديسين والأبرار.

كل هذا قالته «باشيل» لنفسها، ولشوشا ولى حين صَفقتْ «تيبل» الباب وراءها، وسألتها «شوشا»:

- أين ستجرى «تيبل» المكالمة؟ هل دكان المعلبات مفتوح؟

- دعيها تكلمه، دعيها تتودد إليه، ذلك الداعر العجوز، إنه محرم علىّ كلحم الخنزير، لا أريد أن أرى وجهه ثانية، لم يكن أبًا حين كنا نتضور جوعًا، ونتوجع من المرض، ونكاد نلفظ أنفاسنا، لا أريده أبًا الآن إذ واتانا الحظ، ليته يبقى ملازمًا لنا، لماذا تقفين عندك كالبلهاء هكذا يا شوشيل؟ قبليه! امسكى به! إنه فى حكم زوجك، وعزيز علىَّ كابنى، نحن لم ننسه قط، لم يمر يوم دون أن نذكره، لم نكن نعلم أين هو أو إن كان


Twitter: @ketab_n

يحيا، فقد هلك كثير من الشبان فى كل المعارك عندما أبلغنا ليزر النبأ الطيب بأنه مازال على قيد الحياة ويكتب للجريدة كان ذلك يوم عيد لنا فى المنزل، ترى كم مضى على ذلك؟، إن عقلى مشوش حتى أنى لا أذكر متى كان ذلك، لسوف آخذ أنا - لا أبوك الفظ - بيدك إلى ظلة الزواج يا بنيتى الغالية، أريل، منحك الله يا ولدى مزيدًا من السعادة بقدر ما أسعدتنا الليلة.

وأخذت تبكى، وبكت معها «شوشا»، وبعد قليل وضعت المريلة، وبدأت تنشغل بالأوانى والمقالى والأطباق، وكانت الدجاجتان اللتان تم التضحية بهما فى عشية الغفران مطبوختين من قبل، فقطعتهما إلى شرائح بسرعة، وقدمتهما مع خبز الحالا[٩٤] والفجل الحار[٩٥]، ثم لامت نفسها على أنها لم تقدم سمك الجفليت أولاً، وأخذت تحوم حولى قائلة:

- كل يا بنى، أنت ضعيف من الصوم على الأرجح، الصيام ليس جديدًا بالنسبة إلىّ، فطالما ذهبت إلى الفراش بدون لقمة فى معدتى كى ينال صغارى أكبر قدر من الطعام، كلى يا شوشيل، كلى يا عروستى، لقد حقق الله مشتهاك، وتشفع لك أجدادك الصالحون، اليوم ليس نهاية عيد الغفران بالنسبة إليك، بل فرحة ختم التوراة، ماذا حدث لتيبل؟ لماذا بقيت بالخارج طويلاً هكذا؟، لقد دمرها أبوها كابنة، وهى مازالت تتقرب إليه لمجرد أن لديه شقة بديعة، ولمجرد أنه



Twitter: @ketab_n

يلقى إليها بالتافه من الأشياء من وقت لآخر، يا للخزى والعار!، يا لمعصية الله!

وجلست «باشيل» لتأكل، على أنها كانت تلتفت إلى الباب كل بضع ثوان، وأخيرًا عادت «تيبل» لتقول:

ـ لديّ أخبار طيبة لك يا أماه، ولكن ابلعى طعامك أولاً، لأنك تغصين متى انفعلت.

ـ ما الأخبار، لا أريد أخبارًا منه.

ـ انصتى إليّ يا أماه، عندما سمع أبى بأمر شوشا وأريل أصبح شخصًا آخر، لقد وقع فى حب تلك المرأة ذات الشعر الأحمر، والحب يجن الناس، لقد أخبرنى بأمرين، وأريدكم أن تسمعونى جيدًا، لأنه ينتظر الرد، أولاً: قال إنه سوف يعطى شوشا ألف زلوتى كدوطة، وهذا المبلغ وإن كان ليس كبيرًا إلا أن البدء بمبلغ صغير أفضل من البدء بدونه، ثانيًا: قال أيضًا إنك إذا وافقت على الطلاق يا أماه فلسوف يعطيك ألف زلوتى كذلك، صه!، إنه ليعلم مدى ضآلة المبلغ بالقياس إلى كل سنوات معاناتك، وأنكما مادمتما لن تجتمعا ثانية أبدًا فلا معنى أن يغيظ كل منكما الآخر، وأنت ـ إلى ذلك ـ لست كبيرة فى السن، ومازال فى مقدورك أن تجدى من يطلب يدك للزواج إذا لبست أحسن الثياب، هذا كلامه وليس كلامى، نصيحتى إليك يا أماه أن تنسى أخطاء الماضى وتسوى هذا الأمر تسوية نهائية.


Twitter: @ketab_n

وكان وجه «باشيل» منقبضًا من الاشمئزاز ونفاد الصبر طوال الوقت و«تيبل» تتكلم، فقالت:

- الآن يسعى إلى طلاقى - أعندما تجمد دمى وجف النقى فى عظامى يصنع ذلك؟ لم أعد بحاجة إلى زوج، ولا رغبة عندى فى إسعاد أحد، كل حياتى عشتها فقط من أجل ابنتى، من أجلكما أنتما فحسب، لقد وجدت «شوشا» الآن من قسمه الله لها، ولم يعد لى سوى رغبة واحدة أن تصنعى نفس الشىء يا تيبل، لا يهم أن يكون كاتبًا أو عالمًا، فماذا يكسب الكاتب على كل حال؟ لا شىء ألبتَّة، لسوف أرتضى أن يكون تاجرًا أوكاتبًا فى متجر بل صاحب حرفة يدوية، فهل هناك أهمية أو فرق لما يعمله الزوج؟، أهم شىء هو أن يكون طيبًا ومحترمًا، وله رب واحد، وزوجة واحدة، لا..

- الطيبة والاحترام ليستا كل شىء يا أماه، يجب أن تشعرى بشىء ما تجاه زوجك، أن تحبيه، أن تكونى قادرة على التحدث إليه، إنى لم أخلق للارتباط بترزى أو كاتب فى متجر أو للطبخ وغسل حفاضات الأطفال، ولكن لماذا نضيع الكلام فى هذا؟ الأفضل أن تفكرى فيما قلته لك، لقد وعدت أبى بالرد.

- رد الآن؟ لقد انتظرته طويلاً، هاها، أكبر زير للنساء، السبب الوحيد لوقاحته الشديدة هو أن لديه مالاً ونحن فى شدة الفقر، لن يتلقى منى ردًا فى الوقت الحاضر، اجلسى وكلى معنا فعندنا اليوم


Twitter: @ketab_n

عيدان فى هذا المنزل، نحن فقراء، ولكن لم نأت من منبت سوء، وفى أسرتنا واعظ، الواعظ رب زيكل كما يسمونه، على أبيك هذا الذى يطارد النساء أن ينتظر.

- أماه، هناك عبارة تقول اطرق الحديد وهو ساخن، وأنت أدرى بوالدى وجميع أحواله، ربما غيَّر رأيه غدًا، إذًا، فماذا أنت فاعلة حينذاك؟

- سأصنع ما كنت أصنعه فى كل تلك السنين، أتحمل وأضع رجائى فى الله، إن أريل يحب شوشا لذاتها لا لملابسها، يمكنك أن تلبسى دمية الحائك فستانًا، الشخص المتعلم ينظر إلى الروح، أليس هذا صحيحًا يا أريل؟

- أجل يا باشيل.

- أوه، من فضلك قل لى يا أمى، أطال الله عمر أمك إلى مائة وعشرين عامًا، فلن يكون لديك من هو أفضل منى نصيرًا فى الدنيا كلها، لو طُلب منى - والله شاهد على ما أقول - أن أضحى بحياتى من أجل أصغر ظُفر من أظافرك ما ترددت.

وأخذت «باشيل» تكح، وقالت «شوشا»:

- ليست هناك كلمات يا أريل تستطيع أن تعبر لك عن مدى حبنا لك.

فقالت «تيبل»:

- طيب، ما دمتما أنتما الاثنان متحابين، فلا تحاولان إذًا أن تبيعانى إلى كاتب متجر، فإنى أريد


Twitter: @ketab_n

أيضًا أن أحب، لو قابلتُ الشخص المناسب لتفتحت له نفسى وهفت إليه روحى على الفور.

وفى تلك الليلة حددت «باشيل» موعد القِران ـ أسبوع الحانوكة، واقترحت علىَّ أن أكتب خطابًا فى الحال إلى أمى فى «ستيكوف القديمة»، حيث كان شقيقى «موشيه» حاخامًا محل أبى فى ذلك الوقت.

وتساءلت «تيبل»، وهى عملية دومًا:

ـ أين سيسكن العروسان الجديدان؟ الشقة كالذهب هذه الأيام.

فردت «باشيل»:

ـ سيسكنان معى، وما أطبخه لاثنين يكفى ثلاثة.

## (٢)

لقد ارتكبت أسوأ غلطة فى حياتى، ولكنى لم أندم عليها، كذلك لم يحملنى ذلك على الزهو بنفسى شأن أولئك الغارقين فى الحب عادة، وفى اليوم التالى لعيد الغفران أخطرتهم فى شارع «ليزنو» بأنى سوف أخلى السكن فى نهاية الشهر، لقد حكمتُ على نفسى الفقر المدقع إن لم يكن بالموت حينذاك، على أن حجرتى كانت لا تزال فى حوزتى لمدة أربعة أسابيع مقبلة، وفى وسعى أن أدفع نفقات طعامى لـ«باشيل» إلى ما بعد أيام العيد بقليل، وتعجبت من رعونتى، ولكنى لم أذعر، وسمعت أن «سام دريمان» أجرى العملية فى



Twitter: @ketab_n

المستشفى اليهودى بشارع «شيستا»، وأنه سوف يرحل مع «بتى» للنقاهة، ولما سمعت «تيكلا» أنى سوف أنتقل بعد العيد اليهودى جاءت لتسألنى عن السبب قائلة: هل أنت غير راض عن الخدمة؟ هل أهملت، «تيكلا» فى نقل أية رسالة مهمة إليك؟ هل أساءت إليك على نحو ما؟، ولأول مرة رأيتُ الدموع فى عينيها فاتحتى الزرقة، فأحطتها بذراعى وقبلتها وقلت:

ـ كلا، يا عزيزتى تيكلا، هذا ليس سببه خطأ منك، لقد كنت كريمة معى، لسوف أذكرك حتى آخر أنفاسى.

ـ أين ستسكن؟ هل أنت ذاهب مع السيدة بتى إلى أمريكا؟

ـ كلا، إنى باق هنا فى وارسو.

فقالت بعد شىء من التردد:

ـ لسوف تمر أوقات عصيبة باليهود هنا.

ـ أجل، أعلم.

ـ إذا قامت الحرب فلن يجنى المسيحيون خيرًا أيضًا.

ـ هذا صحيح، ولكن تاريخ كل بنى البشر سلسلة متصلة من الحروب.

ـ لماذا تقوم الحروب؟ ماذا يقول المتعلمون ـ أولئك الذين يؤلفون الكتب؟


Twitter: @ketab_n

ـ أفضل ما توصلوا إلى قوله إن الحروب إذا لم تقع وكذلك الأوبئة والمجاعات تكاثر الناس مثل الأرانب ولم يعد من الطعام ما يكفى أكل جميع الناس.

ـ ألا يوجد فى الحقول جَاودار كافٍ لصنع الخبز؟

ـ لا يكفى آلاف الملايين من الناس.

ـ لماذا لم يجعله الله كثيرًا يكفى حاجة الجميع؟

ـ لا أملك الإجابة على ذلك.

فقالت «تيكلا»:

ـ هل تعلم أين ستسكن؟ لسوف أفتقدك، أنا عاطلة أيام الآحاد، ولكنى لسبب ما لا أتصور أن أقيم علاقة مع أى شخص، الخادمات الأخريات يذهبن مع جنود أو أشخاص يلتقين بهم فى الشارع أو فى مَطرَح «كارسلاك»... أما أنا فلا يمكننى أن أصادق جلفًا يُقبلك يومًا ولا يريد أن يعرفك فى اليوم التالى، إنهم يسكرون ويتشاجرون ويجعلون الواحدة تحبل منهم ولا يريدون معرفتها، أليس هذا صحيحًا؟

ـ كلا يا تيكلا.

ـ أحيانًا أفكر أن أصبح يهودية؛ فالأولاد اليهود يقرءون الجرائد والكتب ويعرفون ما يدور فى العالم، ويعاملون الفتاة أفضل من بنى ديننا.

ـ لا تفعلى ذلك يا تيكلا، لأنه حين يأتى النازى فلسوف يكون اليهود أول ضحاياه.


Twitter: @ketab_n

- إلى أين ستنتقل؟

- إلى رقم (٧) بشارع كروتشمالنا.

- هل أستطيع الحضور لزيارتك يوم الأحد؟

- أجل، انتظرينى عند البوابة وقت الظهيرة.

هل ستكون هناك قطعًا؟

- أجل.

- أهذا وعد مقدس؟

- أجل يا عزيزتى.

- ستسكن مع شخص ما، إيه؟

- أيا كان الذى سأسكن معه، فلسوف أفتقدك.

واندفعت «تيكلا» خارجة من حجرتى بسرعة، فسقطت فردة شبشب من قدمها، فالتقطتها بيد، وكممت فمها باليد الأخرى لكيلا تسمع مخدومتها بكاءها.

وفى أصيل ذلك اليوم جلستُ لكتابة صور وصفية، ثم لكتابة رواية مبنية على حياة المسيحِ الزائف «يعقوب فرانك»، وكنت قد جمعتُ عنه المادة الأساسية، وأتممت فى يومين ثلاث صور وصفية، وأخذتها إلى الجريدة التى كانت تنشر أعمالى من قبل، وكان التوتر على أشده والأمل مفقودًا تمامًا، ولدهشتى قبِل رئيس التحرير القطع الثلاث جميعها، بل وطلب منى أن أكتب له قطعًا قصيرة أخرى؛ ولذا


Twitter: @ketab_n

فإن القوى التى توجه الإنسان إلى ما قُدر له قد أجلت الحكم بموتى، ومنحنى هذا التوفيق الشجاعة أن أخاطب «سيليا» بالتليفون، فأخبرتها بكل شىء، وهى تنصت إلىّ وتتنهد وتطلق ضحكة قصيرة من وقت لآخر، فلما فرغتُ من حديثى قالت:

- احضرها لأراها، مهما يكن من شىء فحجرتك مازالت جاهزة هنا فى انتظارك، فى وسعك أن تنتقل إليها مع من تحب.

- سيليا، إنها أشبه بالطفلة - متخلفة عقليًا وجسمانيًا.

- طيب، وماذا عنك أنت؟ وماذا عن كل الكُتاب؟ مجانين.

وبدأت الأمور تسير بهدوء كما لو كانت بشكل آلى، فقد تخليت عن حرية الاختيار وتمت الغلبة لعدم التعمد، فتركت «تيكلا» ومخدومتها تعلمان أنى سوف أبقى شهرًا آخر، وهنأتنى كل منهما معربة عن أملها فى أن أبقى مدة أطول، وفى اليوم الأخير من عيد المظال دعتنى «تيبل» إلى شقتها؛ فقد أراد «زيلج» مقابلتى، فلبست بدلتى المناسبة، واشتريت حلوى لـ«تيبل»، وركبت درشكية لكيلا أصل مبللاً بالعرق، وقد ذهبت الفتاة التى تشارك «تيبل» الشقة إلى الأوبرا، وجلس «زيلج» إلى منضدة فى غرفة الجلوس قد جُهزت بالشراب والطعام، ولم يبد علَيه أنه أكبر كثيرًا مما كان عليه منذ عشرين عامًا بسبب شعره


Twitter: @ketab_n

ولحيته المصبوغين، وكان عريض المنكبين وقصيرًا وقويًا وممتلئ الجسم وذا عنق قصير وكرش بارز، وكان أنفه أحمر وذا عروق متقطعة مما يُعهد عن السكير، وخاطبنى بطريقة أعضاء جمعية دفن الموتى التى تخلو من التهذيب، وهو يدخن السيجارة تلو الأخرى، وتفوح منه رائحة الكحول، وقال إنه لو كان فى مثل سنى لما تزوج كسولة مثل «شوشا»، واشتكى إلىَّ أن «باشيل» رفضت الطلاق منه، وحرمته سنوات عديدة من الزواج بالمرأة التى يحبها، وشبهها بالكلب الجالس على كومة من القش لا يقدر أن يأكل منها ولا يدع غيره يفعل، واطلعنى على ما علمته من قبل أنه قد أعد نفسه لحضور حفل زفاف «شوشا»، وأنه سوف يمنحها دوطة قدرها ألف زلوتى، وسألنى كما ينبغى لحَمَا حقيقى عن احتمالات كسب العيش من الكتابة، وصب لنفسه نصف كأس من الفودكا التى أخرجتها «تيبل»، وسألنى بطريقة جافة:

- كن صريحًا، ما الذى تراه فى ابنتى شوشا؟ لا صدر ولا ظهر، فلنسمها لوحًا خشبيًا وثقبًا.

فصاحت «تيبل»:

- أبى، أنت تخجلنى.

- ما الذى نخجل منه؟ نحن نعلم الحقيقة فى جمعية دفن الموتى، المرأة تصلح من شأنها من أجل المظهر الخارجى، وتحجب كل شئ بأحمر الشفاه



Twitter: @ketab_n

والبودرة والمشدات، أما عندما نجردها من ملابسها لنكفنها..

ونبهته «تيبل»:

- إذا لم تكف فلسوف أنصرف!

- حسنًا، لا تغضبى يا ابنتى؛ فهذا حالنا؛ ولهذا نشرب، وبدون الإفراط فى الشراب ما بقى أحد.

والتفت إلىّ متسائلاً: أنت لا تشرب، إيه؟

- نادرًا.

- قل لزوجتى إنها انتظرت طويلاً بما فيه الكفاية، إذا أرادت أن تتزوج مرة أخرى فالوقت مناسب الآن، وإلا فلن تتزوج أبدًا، لو أرجأت ذلك بضع سنوات أخرى فلسوف تصبح عذراء من جديد، ها ها ها.

- إنى ذاهبة يا أبى.

- طيب، لن أنطق بكلمة أخرى، انتظر يا أريل، لدىّ هدية من أجلك.

وتناول «زيلج» ساعة وسلسلة من جيب الصدارى؛ فاندفع الدمُ إلى وجهى، وقال:

- أيًا ما كنت، وأيًّا ما يُقال عنى، فإنى مازلتُ والد شوشا، وإذا رزقتُ بطفل - ولا أتصور كيف إلا أن يجروا لها عملية قيصرية - فلسوف أكون جدًا، إنى أعرف والدك رحمه الله، فقد كنا جيرانًا لسنوات، وكنتُ أستدعى لإكمال النِصاب أحيانًا عندما يكون



Twitter: @ketab_n

هناك قِران فى منزلكم، كان ينكبُّ دائمًا على الجمارا، وأذكر والدتك أيضًا، لم تكن قبيحة المنظر، ولو أنها كانت هزيلة أكثر مما ينبغى فى تقديرى، أنت تشبهها، ماذا عن هتلر هذا؟! الناس مرتعبون جميعًا، ولكنى لستُ كذلك، لسوف أحفر لنفسى قبرًا إذا ساءت الأمور بما فيه الكفاية، ثم أتناول جرعة براندى وأذهب للرقود هناك، عندما ترى الموت كل يوم تكف عن الخوف منه، ما الحياة على أى حال؟ ضغطه على الحلق وينتهى كل شىء، خذ هذه الساعة، إنها هدية الزفاف لك، إنها من الفضة ولها سبعة عشر حجرًا أعطانيها والد باشيل لأرقد مع ابنته، وهأنذا الآن أعطيك إياها لترقد مع ابنتى، ولربما أعطيتها أنت يومًا ما للشخص الذى سوف يصنع معروفًا فى ابنتك إذا حافظت عليها.

- أوه، يا أبى ماذا أصنع معك؟

- كفى يا تيبل، أنت لا تستطيعين أن تصنعى معى شيئًا، لدىّ هدية لك أنتِ أيضًا حين تجدين الزوج المناسب، لا يوجد إله، ذهبتُ إلى الكنيس فى رأس السنة اليهودية وعيد الغفران، ولكنى لم أصل كثيرًا.

فسألته «تيبل»:

- إذًا، من أين جاء العالم؟

فأمسك «زيلج» بلحيته؟ وقال: من أين جاء كل شىء؟، إنه موجود، وهذا كل ما فى الأمر، كان ثمة صديقان فى براغ ومرض أحدهما، وقبل أن يموت


Twitter: @ketab_n

اتفق مع صديقه على أن يعود ليسلّم عليه، إن كان ثمة عالم آخر، وطلب منه أن يضىء الشموع فى مصباح الحانوكة فى آخر يوم من أيام فترة الحداد، فلسوف يجىء هو ليطفئها، وقد فعل الصديق مثلما طُلب منه، وأضاء مصباح الحانوكة فى آخر يوم من أيام الحداد، على أنه كان متعبًا من العمل فغلبه النعاس، واستيقظ فجأة، فقد سقطت شمعة من المصباح وأحدثت حريقًا، واشتعلت النار فى جلبابه الجبردين، فجرى إلى الخارج، وتمرغ فى القناة، واضطر إلى قضاء شهرين فى المستشفى.

ـ وما المراد من ذلك؟

ـ لا شىء، لا يوجد شىء اسمه الروح، لقد دفنت حاخامات ويهودًا أتقياء أكثر من عدد شعر رأسك، أنت تضعهم فى المقبرة، حيث يتحللون ويتعفنون وهذا كل ما هنالك.

ولم يتكلم أحدُنا لبرهة، ثم سألنى هو:

ـ ألم تعد شوشا تنام كثيرًا؟ كانت تنام العام بأكمله تقريبًا حين أصابها مرض النوم، وكانوا يوقظونها ويطعمونها فتعود للنوم من جديد، كم مر على ذلك؟ خمسة عشر عامًا تقريبًا، إيه؟

فصاحت «تيبل»:

ـ أبى ـ ماذا دهاك؟

ـ لقد سكرت، ولم أقل شيئًا، لقد شفيت هى الآن.



Twitter: @ketab_n

# الفصل العاشر

## (١)

كان يتعين على «دورا» الذهاب إلى روسيا منذ شهور مضت، ، على أنها ظلت في وارسو، ونادتني أختها «ليزا» في اتحاد الكتَّاب لتخبرني أنها - أي دورا - قد حاولت الانتحار بتحسي اليود، إذ يبدو أن «وولف فلهندلر» - وهو شيوعي ذهب إلى روسيا قبل ذلك بسنة ونصف - قد فرَّ من منفى السوفييت وتسلل عائدًا إلى بولندا، وكانت الأخبار التي أتى بها معه تثير الفزع؛ إذ أعدم «إيرك» رميًا بالرصاص هناك، وهو أفضل صديق لدورا، وكل مجموعة الرفاق الذين ذهبوا إلى الاتحاد السوفيتي إما في السجن أو أرسلوا إلى الشمال للتنقيب عن الذهب، وعندما ذاعت تلك الأخبار اتهمه الستالينيون في وارسو بأنه عميل فاشي وجاسوس لحساب إدارة المباحث السرية البولندية، ومهما يكن من شيء فقد تلقت الثقة في عدالة ستالين لطمة قوية داخل بولندا، بل أن خلايا بأكملها قد تحررت من الوهم قبل هذا ؛ فجنحت إلى التروتسكيين وتحول كثير من الشيوعيين إلى الجمعية



Twitter: @ketab_n

السياسية اليهودية أو إلى الحزب الاشتراكى البولندى، كما صار آخرون صهاينة أو تحولوا إلى الدين، وبعد أن أفرغت معدة «دورا» رتبت لها «ليزا» أن تقضى بضعة أيام فى أوتوك، ولدى عودتها إلى شقتها من هناك، اتصلت بى تليفونيًا، فذهبت لزيارتها فى المساء، ومن وراء الباب سمعت صوت رجل، كان صوت «فلهندلر»، ولم يكن لدى أدنى رغبة فى لقائه، فقد اعتاد أن يهدد غير الشيوعيين فى نادى الكتاب بأنه لدى قيام الثورة سوف يراهم مشنوقين فى أقرب عمود إنارة، ومع ذلك قرعت الباب، وفى دقائق معدودات فتحت لى «دورا»، ومع أن الممر كان شبه مظلم، فقد رأيتها شاحبة هزيلة، وقبضت على يدى قائلة:

ظننت أنك لاتريد أن ترى وجهى ثانية.

- سمعت ضيفًا عندك.

- إنه فلهندلر، سينصرف حالاً.

- لا تبقيه هنا، فإنى لا أطيق صبرًا عليه.

- لم يعد هو الشخص نفسه، فقد كابد الجحيم.

تحدثت إلى «دورا» بنعومة ورفق، ولم تدع يدى وهى تقودنى إلى حجرة الجلوس، حيث جلس «فلهندلر» على رأس المائدة، ولولا أنى كنت أعرفه حق المعرفة لما تعرفت عليه، فقد صار أكثر نحولاً، وبدا عليه الكبر وتساقط شعره، وكان موقفه منى يتسم



Twitter: @ketab_n

بالغطرسة دائمًا، ويخاطبنى كما لو كانت الثورة قد قامت وعين هو مفوضًا (قوميسيرًا)، على أنه وثب على قدميه واقفًا فى تلك اللحظة، وابتسم، فرأيت أسنانه الأمامية مخلوعة، ومد إلى يدًا رطبة لزجة، وقال:

- اتصلت بك تليفونيًا، ولكنك لم تكن فى المنزل.

حتى صوته صار وديعًا مسالمًا، ولم أستطع أن أحمل نفسى على التشفى أو الانتقام من شخص مهزوم كهذا، وذلك بالرغم من علمى أنه لو كان ذا نفوذ وسطوة لأخضعنى لذات المعاملة التى تلقاها، وقال:

- لقد خطرت ببالى أكثر مما تتصور، أما اتقدت أذناك قط؟

فعلَّقت «دورا» قائلة:

- عندما تتكلم عن شخص ما تتقد أذناه، وليس عندما تفكر فيه أو يخطر ببالك.

ـ أنت محقة بالطبع، لقد بدأت أخيرًا أنسى الأشياء، بل وأنسى أسماء أفراد عائلتى من مدة قصيرة، لعلك سمعت بما حدث لى، حسنا، لقد سددت ديونى كما يقولون، إنى لم أفكر فيك فحسب، بل تحدثت إليك فعلاً، لقد تقاسمت زنزانة مع رجل يدعى مندل ليترمان، كان قارئًا للمجلة الأدبية فيما مضى، أربعون منا كدسوا فى زنزانة معدة أصلاً


Twitter: @ketab_n

لثمانية، كنا نجلس على الأرض ونتحدث، الامتياز العظيم أن تكون بجوار الحائط لتسند رأسك إليه.

وحسبت أن فلهندلر» سوف يحيينا وينصرف، ولكنه بدلاً من ذلك استقر فى مكانه ثانية، وقد تهدلت بدلته عليه بحيث بدت عليه وكأنها ليست مقاسه، وكان يلبس دائمًا ياقة منشاة وربطة عنق فى الماضى، أما فى تلك اللحظة فكانت ياقته مفتوحة تكشف عن عنق أعجف، وقال:

ـ نعم، أذكر كلماتك ، لقد تنبأت بكل شىء تفصيلاً، لعلك نبى من نوع ما فلعنتنى، لا أقصد معنى سيئًا، لم أصل بعد إلى تلك المرحلة من الهراء المبنى على الخرافات، لكنى لم أنس كلماتك، ففى الليل حين كنت أرقد على الأرضية العارية مريضًا وقذرًا تدور رأسى من نتن دلو الفضلات، هذا لو تركونى أرقد ولم يجرونى للاستجواب ولم أسمع الأبواب تفتح ليأخذوا شخصًا آخر لتعذيبه، كنت حينذاك أساءل نفسى: ماذا يقول هارون جريدنجر إذا رأى كل هذا؟ لم يخطر ببالى لثانية واحدة أنى سوف أعيش لألقاك وأتحدث إليك مرة أخرى، فقد حكم علينا جميعًا بالموت أو بالعمل فى مناجم الذهب التى هى أسوأ من الموت، لا، فما كانوا ليتركوك تموت بسرعة ويسر، ذات مرة استجوبونى لمدة ست وعشرين ساعة متصلة، هذا النوع من التعذيب الجسمانى. ناهيك عن الألم النفسى ـ لا أتمناه لألد أعدائى، أو حتى لصنائع



Twitter: @ketab_n

ستالين، لا أكاد أصدق أنهم قساة على هذا النحو أثناء الاستجواب أو أن ذلك يتم فى سجون موسولينى، فى وسع المرء أن يتلقى التعذيب من عدو، ولكن عندما ينقلب الصديق عدوًا يكون الألم فوق طاقة الاحتمال، لقد أرادوا شيئًا واحدًا منى ـ أن أعترف بأنى جاسوس أرسلته إدارة المباحث السرية البولندية، لقد رجونى بالحرف الواحد أن أصنع فيهم معروفًا بأن أعترف، على أنى أقسمت مع نفسى أن أصنع أى شىء إلا هذا.

فقالت «دورا»:

ـ وولف، كف عن هذا الكلام، فهو يسبب لك المرض.

ـ إيه؟ لا يمكن أن أكون أكثر مرضًا من هذا، لقد قلت لهم كيف أكون جاسوسًا بولنديًا وقد قضيت معظم الوقت فى كل سجن بولندى من أجل غايتنا؟ وكيف أكون فاشيًا وقد قضيت السنوات رئيسًا لتحرير مجلة تهاجم الصهاينة والجمعية السياسية اليهودية والـ P.P.S، وقد كنت أبشر علنا بدكتاتورية البروليتاريا، وعائلتى من أفقر الفقراء، وقد عانيت طوال حياتى من الجوع والعوز، والاشتراكية هى عزائى الوحيد، لماذا أصبح جاسوسًا للنظام البولندى الرجعى المعادى للسامية؟ ما المنشآت العسكرية التى سمح لى بالاقتراب منها؟ أين ذهب حكمكم الصائب على الأمور؟ وقلت كذلك إنه حتى فى الجنون يتعين


Twitter: @ketab_n

أن يكون شىء من المنطق، على أن الشـــخص الذى جلس فى مواجهتى راح يعبث بمسدسه طوال الوقت ويدخن السجائر ويشرب الشاى بينما أنا واقف متورم القدمين وكل شىء بداخلى يضعف من نقص الطعام والماء والنوم، وقال وهو يحدق إلىَّ وعيناه تنمان على الغدر: لقد سمعت تبريراتك القذرة، أنت كلب فاشى، وخائن مضاد للثورة، وجاسوس لهتلر، وقع الاعتراف قبل أن أنزع لسانك من فمك الخنزيرى، ثم أشعل شمعة، وأخرج إبرة وقربها من اللهب وقال: إذا لم توقع فسأدفع هذه تحت أظافر أصابعك القذرة، وكنت أعلم مدى ما ينطوى عليه ذلك من ألم، لأن الفاشيين البولنديين قد صنعوا ذلك معى، ولكنى مع ذلك لم أرتض لنفسى أن أعد جاسوسًا، فنظرت إليه، وهو الشخص الذى كان يجب عليه أن يدافع عن الطبقة العاملة والثورة، وبدأت أضحك من شدة تألمى، كان هذا مسرحًا رديئًا، وأسوأ نوع من العروض الغثة، بل أن نوفازينسكى فى أشد حالات جموح خياله المريض لم يكن يحلم بمثل هذه الحبكة المتسمة بالبلاهة، ومددت يدى قائلاً: هيا اصنع بى ما تشاء إذا كان هذا ما تحتاجه الثورة، ولكنه اُستدعى وحل محله جلاد جديد، جلاد مستريح وشبعان، هذه هى الطريقة التى استجوبت بها لمدة ست وعشرين ساعة، لقد ناشدتهم بأن يعدمونى بالرصاص ويضعوا حدًا لهذا التعذيب.

فصاحت «دورا»:


Twitter: @ketab_n

ـ لا يمكن أن أستمع إلى المزيد.

ـ ألا تستطيعين؟ يجب أن تسمعى! كلنا مسئولون عن هذا، فنحن الذين قمنا بالدعاية لجلبها إلى هنا، وعندما بدأت الأنباء تنتشر عام ١٩٢٩ ضد تروتسكى أسميناه عميل البيلسدسكيين والموسولينيين والروكفلريين والماكدونالديين، لقد سددنا آذاننا ورفضنا أن نسمع الحقيقة.

فقلت:

ـ فلهندلر، لا أريد أن ألهب جروحك، لو كان تروتسكى فى السلطة لما اختلف تصرفه عن ستالين فى شىء.

فقال «فلهندلر»، وقد تبدى فى عينيه مزيج من السخرية والغضب:

ـ كيف جاءك العلم بالطريقة التى كان سوف يتصرف بها تروتسكى؟، وكيف تجرؤ على استخلاص نتائج عن أشياء لم تحدث قط؟

ـ إنها أمور تحدث فى كل الثورات، فكلما أريق دم باسم الإنسانية أو الدين أو لأى سبب آخر أدى حتمًا إلى ذلك النوع من الإرهاب.

إذًا فعلى قولك هذا يجب على الطبقة العاملة أن تلزم الصمت عما يحدث فى روسيا، وأن تدع هتلر وموسولينى يستوليان على العالم، وأن تداس هى نفسها بالأقدام كالنمل، أهذا ماتبشر به؟


Twitter: @ketab_n

- أنا لا أبشر.

- نعم، أنت تبشر، إذا قلت إن تروتسكى لن يكون أفضل من ستالين فهذا يعنى أن الجنس البشرى كله فاسد، وليس ثمة أمل - أى لابد أن نستسلم لكل القتلة والسفاكين الفاشيين الذين يحرضون على المذابح المنظمة ويعيدون عقارب الزمن إلى الوراء، إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش والحروب الصليبية.

- فلهندلر، إنجلترا وفرنسا وأمريكا لم تلجأ إلى محاكم التفتيش والحروب الصليبية.

- أوه، لم يلجئوا إليها؟ لقد أغلقت أمريكا أبوابها ولم تدع أحدًا يدخل، وفعلت نفس الشىء إنجلترا وفرنسا وكندا وأستراليا - كل البلاد الرأسمالية. وفى الهند يموت من الجوع آلاف من الناس كل يوم، هذا مايسلم به الرحالة الإنجليز أنفسهم، وكلما تفوه غاندى - وهو الطيع لهم - بكلمة ألقوا به فى السجن، أهذا حقيقى أم لا؟ وهو يهذى بالمقاومة بالسلبية، فياللخداع!، كيف تكون المقاومة سلبية؟ هذا بالضبط مثلما تقول: الثلج الحار والنار الباردة.

- إذًا أنت مازلت تؤيد الثورة؟

- أجل، ياهارون جريدنجر، أجل!، إذا ذهبت إلى طبيب أسنان فخلع لك ثلاث أسنان سليمة عن عمد بدلاً من سنة فاسدة، فهذا مأساة وجريمة. بالتأكيد،


Twitter: @ketab_n

ولكن السنة الفاسدة تظل فى حاجة إلى الخلع، وإلا أعدت كل الفم، وقد تؤدى إلى الغرغرينا.

فهتفت «دورا» قائلة:

- صحيح مائة بالمائة.

فقلت: لا أريد أن أحطم أحلامك، ولكنى أسوق إليك نبوءة أخرى: لسوف تكون ثورة تورتسكى الدائمة، أوأيًا تكون الثورة، نسخة مطابقة تمامًا لما يصنعه الستالينيون الآن، لا أريدك أن تضطر ثانية إلى القول بأنى كنت على حق؛ فقد عانيت أنت بما فيه الكفاية.

فقال: «فلهندلر»:

- كلا، لو أنى أفكر بطريقتك لشنقت نفسى هذه الليلة بالذات.

فقالت «دورا»:

- كفى، فلسوف أعد الشاى.

## (٢)

شربنا الشاى، وأكلنا رنجة مع الخبز، وروى لنا «فلهندلر» عن تجاربه من وقت أن عبر الحدود إلى روسيا والتقى به مندوب من الكومنترن[٩٦]، فقد ذهب به هذا إلى موسكو وخصص له حجرة مع مندوب آخر من بولندا هو الرفيق «فيسوكى» من سيليزيا العليا، وكانا يحضران فى كل مساء عروض المسرح أو الأوبرا


Twitter: @ketab_n

أو فيلمًا سوفيتيًا جديدًا مجانًا، وفجأة فى منتصف ليلة كان ثمة طرق على الباب، وألقى القبض عليه هو، وظل خلف القضبان خمسة أسابيع وهو لا يعرف التهم الموجهة إليه معزيًا نفسه بفكرة أن اعتقاله خطأ متعلق بفلهندلر آخر، وأن كل شىء سوف يتضح فى التحقيق ويتم تداركه، وكان يشاركه فى زنزانة سجناء سياسيون ومجرمون على حد سواء؛ فكان اللصوص والقتلة ومغتصبو النساء يضربون السياسيين ويسلبونهم حصصهم من الطعام، وكانوا يلعبون الورق فيما بينهم مستعملين فى ذلك قصاصات ورق، ويقامرون بحصص الطعام والملابس وحق النوم على المقعد الخشن بدلاً من الأرضية وعندما يفقد أحد اللاعبين كل ما يملك كان يلعب على «ضربات أو لطمات» ، فكان الفائز يلكم الخاسر أو يضربه بعنف، وكان كثير من المجرمين يمارسون اللواط، وإذا لم يرتض سجين جديد مشاركتهم أرغموه على ذلك، ولم تكن السلطات الحمراء تبذل أدنى جهد لحماية الضحايا، وقال «فلهندلر» أيضًا:

ـ فى السجون البولندية، بل فى سجن صارم مثل رونكى، حيث قضيت ثلاث سنوات، كانوا يعطوننا الكتب، وقد أتيت على مكتبة بأكملها هناك، أما فى أرض الاشتراكية فكنا ـ نحن المكافحين ـ من أجل العدالة نجلس أسابيع على حافة الجنون، ونتخذ قطع شطرنج من الخبز الشبيه بالصلصال الذى كانوا يعطوننا إياه، ولم يكن ثمة متسع من الأرضية يكفى



Twitter: @ketab_n

لأن نجعله رقعة نلعب عليها، ولم يكن لدى السياسيين أدنى فكرة عن الجرائم التى اعتقلوا بسببها، ومع ذلك بقى كل واحد منهم تقريبًا مخلصًا لقضيته، وكانوا يلقون باللائمة على صغار الموظفين فى إدارة الشرطة السرية دون أن يتهموا ستالين ولو مرة واحدة، أو أحدًا من اللجنة المركزية أو المكتب السياسى، ولكنى صرت مدركًا بالتدريج الرمل الناعم الذى أُستدرجنا إليه، فقد أفضى إلى بعض السجناء أنهم أجبروا على إلصاق التهم الكاذبة بأقرب الرفاق إليهم.

وحين انصرف «فلهندلر» كان الوقت منتصف الليل، وحالما أغلق الباب انفجرت «دورا» فى البكاء، وهى تقول: ماذا يصنع المرء؟ كيف له أن يحيا؟، وقبضت على معصمى، وقربتنى إليها وأسندت جبينها إلى كتفى وأخذت تنشج، ووقفت هنالك أحدق ببله إلى الحائط المقابل من يوم تركت منزل والدى وأنا أحيا فى حالة يأس مستمر، لقد فكرت أحيانًا فى التوبة والعودة إلى اليهودية الحقة، ولكن أيمكن أن أحيا مثل أبى، وأجدادى لأبى، أجدادى العظام، بدون إيمانهم وإخلاصهم - أهذا ممكن؟ وفى كل مرة ذهبت فيها إلى المكتبة أحس بارقة أمل فى أن قد يكون فى أحد الكتب بيان أو إشارة ما عن كيفية التوافق مع النفس لشخص فى مثل وضعى تعاديه الدنيا، فلم أجد، لا فى تولستوى أو كوربوتكين أو إسبينوزا أو وليم جيمس أو شوبنهور أو الكتب المقدسة، لا ريب أن الأنبياء ينادون بالأخلاق السامية، ولكن ما كانت


Twitter: @ketab_n

لتغرينى وعودهم بمحاصيل وفيرة وشجر زيتون مثمر وكروم حافلة بالعناقيد أو بحماية الشخص من أعدائه، وإنى لأعلم أن العالم دومًا قد كان قائمًا ولسوف يظل دومًا كذلك كما هو الآن، وأن ما يسميه الفضلاء وأساتذة علم الأخلاق شرًا هو جزء من نظام الحياة فى الواقع، ومسحت «دورا» دموعها وقالت:

ـ أريل، لابد أن أنتقل من هنا فى الحال، فالشقة لا تخصنى، وحتى لو كانت تخصنى، فلن أستطيع سداد أجرتها، كما أخشى كذلك أن يشى بى الرفاق السابقون لدى إدارة المباحث السرية.

ـ إدارة المباحث السرية تعلم عنك على أى حال.

ـ فى وسعهم أن يقدموا لها الدليل اللازم، وأنت تعلم كيف تجرى الأمور مع الستالينيين، إذ لابد من تصفية مَنْ ينشق عنهم.

ـ كنت تحثين على ذلك.

ـ للأسف نعم.

التروتسكيون يتبعون نفس المبادئ.

ـ ماذا أصنع؟ خبرنى أنت.

ـ لا أستطيع أن أخبرك بشىء.

ـ قد يقبض علىَّ فى أى يوم، فى المرة الأخيرة التى نمت أنت فيها هنا كان قلبى لايزال عامرًا بالأمل، بل لقد حلمت بأنك سوف تجىء إلى فى روسيا عاجلاً أو آجلاً، أما الآن فلا أتطلع إلى شىء.



Twitter: @ketab_n

- لقد قبلت تروتسكية فلهندلر منذ نصف ساعة.

- لم أعد متأكدة، يجب أن ألقى بنفسى من النافذة بدلاً من احتساء اليود.

وفى تلك الليلة رقدت إلى جانب «دورا»، وهذا كل ما كان، ولم أستطع النوم، وفى كل مرة كان الجرس يدق فيها عند بوابة المنزل كنت أظن الشرطة قادمة لاقتيادنا، ونهضت عند الفجر، وقبل أن أذهب أعطيت «دورا» بعض ما معى من نقود، فقالت:

- شكرًا لك، إذا سمعت أنى قضيت على نفسى، فلا تبتئس، لن أترك ورائى أى أثر.

- دورا، لا تتورطى مع التروتسكيين فى الوقت الحاضر، فالثورة الدائمة هى فى حكم الجراحة الدائمة تقريبًا.

- ماذا ستصنع؟

- أوه، أحيا من يوم ليوم ومن ساعة لساعة.

وحيا كل منا الآخر، وخفت أن يكون مخبر سرى فى انتظارى عند البوابة للقبض علىَّ، على أنه لم يكن ثمة أحد هناك، وتوجهت عائدًا إلى حجرتى ومخطوطى، وفى الطريق ألقيت نظرة عجلى على برج الكنيسة السامق فى شارع «نوفوليبكى»، وكانت الراهبات - عرائس المسيح - يسكن فى مبان قائمة حول الفناء البالغ الرحابة والمحاط بسور من الحديد المدبب، وكثيرًا ما رأيتهن سائرات فى طريقهن، وقد


Twitter: @ketab_n

لبسن قلانسهن المنشاة وأرديتهن السوداء الطويلة وأحذيتهن التى تليق بالرجال أكثر مما تليق بالنساء، وصدورهن مزينة بالصلبان، وفى شارع «كارميلكا» مررت بـ «دار العمال»، نادى الجناح الأيسر لصهيون العمالى، حيث يناصرون الشيوعية والصهيونية على حد سواء معتقدين أنه إذا استولت الطبقة العاملة على السلطة فى آخر الأمر فلسوف يكون اليهود قادرين على إقامة وطنهم الخاص بهم فى فلسطين ويصبحون أمة اشتراكية، وفى رقم (٣٦) بشارع «ليزنو» كانت مكتبة «جروس» التابع للجمعية السياسية اليهودية فضلاً عن محل تجارى تعاونى للعمال والعائلات، وكانت الجمعية ترفض الصهيونية تمامًا، وبرنامجهم هو الاستقلال الثقافى والنضال الاشتراكى ضد الرأسمالية، وقد انقسم أعضاؤها أنفسهم إلى فريقين: فريق لصالح الديمقراطية وفريق لصالح دكتاتورية الطبقة العاملة الحالية، وفى فناء آخر كان نادى الإصلاحيين - أتباع جابوتنسكى، غلاة الصهاينة، وكانوا يشجعون اليهود على تعلم استخدام الأسلحة النارية ويقولون بأن أعمال الإرهاب ضد الإنجليز الذين يتولون الانتداب هى فقط التى يمكن أن تعيد فلسطين لليهود، وكان لدى الإصلاحيين فى وارسو وحدة شبه عسكرية تقوم من حين لآخر بعرض فى الشوارع حاملة سيوفًا خشبية وتهتف بشعارات ضد أولئك الصهاينة - من أمثال وايزمان - الذين يؤمنون بمهادنة إنجلترا وتسوية الخلافات


Twitter: @ketab_n

معها، وكان لكل الأحزاب السياسية فى هذه المنطقة نواديها تقريبًا، وفى كل عام تنضاف جماعة منشقة جديدة ومكتب آخر، لقد حزت نصرًا معنويًا على «دورا» و «فلهندلر» ورفاقهما، على أن كل شىء ازداد تعقيدًا إلى حد بعيد حتى لم أعد أسخر ممن يتشبث برأيه الخاطئ ويكابر فى الأمور الواضحة، وذهبت إلى حجرتى التى قررت الاحتفاظ بها فى تلك الفترة حتى اتمام الزفاف، ولكنى لم أعمل من شدة التعب، فتمددت على الفراش، وغفوت، وأنا أقلِّب فى عقلى كلام «فلهندلر» وتفجع «دورا»: ماذا يصنع المرء؟ كيف له أن يحيا؟


Twitter: @ketab_n

# الفصل الحادى عشر

## (١)

قبل الزفاف ببضعة أيام وصلت أمى و «موشيه»، فاستقبلتهما عند محطة «دانزج»، حيث توقف القطار فى الساعة الثامنة صباحًا، وقد تعرفتُ عليهما بالكاد، إذ لاحت أمى أصغر حجمًا ومحنية كالهرمة، واستطال أنفُها وتقوس مثل منقار طائر، وحفرت التجاعيد أخاديد عميقة فى جبينها وخديها، وإن ظلت عيناها الرماديتان تنمان عن حدة الشباب، ولم تعد - إلى ذلك - تضع شعرًا مستعارًا، بل تغطى رأسها بمنديل، وتصل تنورتها إلى الأرض، وترتدى بلوزة أذكرها من وقت كنت أعيش معها، أما «موشيه» فقد طالت قامته، وكان ذا لحية شقراء شعثاء وخصلات أذن تصل إلى الكتفين، وكانت قبعته الحاخامية ملطخة جرياء ومعطفه الفرائى رثًا، وكشفت قبة قميصه غير المزرر عن عنق طفل رقيق، وحدق هو إلى بعينيه الزرقاوين مشدوهًا، وقال: ألمانى قُح، وبعد أن قبلتُ أمى سألتنى: أريل، هل أنت مريض لا سمح الله؟!، أنت شاحب وساهم كأنك خارج توًا من فراش المرض، أرجو ألا تكون كذلك.



Twitter: @ketab_n

- لم أنم ليلة بأكملها.

- لقد قضينا فى الطريق يومين بليلهما، العربة التى أقلتنا إلى القطار فى رافاروسكا انقلبت فى الطين، معجزة أننا لم نصب بأذى، امرأة واحدة كُسرت يدها، هذا هو السبب فى أننا لم نلحق القطار الذى انتوينا أن نستقله واضطررنا إلى انتظار قطار آخر عشرين ساعة، لقد أصبح الأغيار جامحين فقد أرادوا أن يقصوا خصلات شعر أذن موشيه، اليهودى عاجز عديم الحيلة، إذا كان الأمر سيئًا على هذا النحو الآن، فكيف إذا جاء القتلة؟، الناس تقشعر جلودهم من الخوف.

فقال «موشيه»:

- لسوف يعيننا الله يا أمى، لقد كان هناك العديد من الهامانات وانتهوا جميعًا نهاية سيئة.

فردتْ أمى:

- قبل أن ينتهوا نهاية سيئة يكونون هم قد قتلوا الكثير من اليهود.

لقد استأجرتُ حجرة لأمى و «موشيه» فى نُزل شرعى بشارع «جنونيا»، مالكه حسيدى، وناديتُ على درشكية لتقلهما إلى هناك، فقال «موشيه»:

- إنى لا أركب الدرشكيات.

- لم لا؟



Twitter: @ketab_n

- قد يكون المقعد من الكتصوف[٩٧].

وبعد نقاش طويل تقرر أن تبسط أمى شالها على المقعد، وكان «موشيه» قد أحضر معه سلة مغلقة بسلك وقفل صغير من ذلك النوع الذى يستعمله طلاب المعهد الدينى، وحملت أمى معها أشياءَها ملفوفة فى ملاءة، وكان المارة يتوقفون ليحدقوا إلينا، وسار السائق ببطء، إذ سدت الطريق عربات الترولّىّ وسيارات الأجرة وعربات الشحن والحافلات، وبدا الفرس هيكلاً عظميًا، وهو يتقدم بصعوبة، وأخذ «موشيه» يتمايل ويغمغم، فهو إما أن يبدأ صلواته أو يرتل المزامير، وقالت أمى:

- أريل يا طفلى لابد أن أشكر الله؛ لأنى عشت كى أراك مرة أخرى، وفوق ذلك توشك أن تكون عريسًا، ولكن لماذا لم يعش أبوك هو أيضًا ليشهد ذلك؟ لقد درس التوراة لآخر دقيقة تقريبًا، لم أكن أدرك أنا نفسى كم هو ملاك، وأسفاه، لقد ألححت عليه مرارًا كى يجرنا إلى ذلك الجحر البعيد وتقبل هو ذلك كله بروح طيبة، إن الحزن ليذيب قلبى الآن وأنا لا أنام الليل بسبب ذلك، كل ما نزل بى من عقاب أستحقه، أريل، لا أستطيع البقاء فى «ستيكوف القديمة» بعد الآن، لا أريد أن أتكلم فى حق زوجة «موشيه»؛ كنت أتمنى لها دوام الصحة والعافية، غير أنى لا أستطيع العيش معها؛ فهى فتاة ريفية وأبوها فلاح، فى جاليشيا مسموح لليهود بتملك الأرض، وهى تفعل



Twitter: @ketab_n

وتقول أشياء تُكَدّرنى، فهى تصرخ فى أذنى وكأنى صماء مع أنى أسمع جيدًا والحمد لله، وعقلها دائمًا فى الأشياء التافهة، الحقيقة أنى أرتكب ذنبًا، ولكن إلى أى حد يستطيع أن يتحمل الإنسان؟

فوضع «موشيه» أصبعين على شفتيه ـ تَوِّمئه إلى أن كلام أمه يعد غيبة، وإلى أنه غير مباح له الكلام فى الصلاة آنذاك.

ـ طَيِّب، طَيِّب هنا، وطَيِّب هناك! كلامى بالتأكيد حرام، ولكن ما يتحمله اللحم والدم له حد، هى تكرهنى لأنى أقرأ الكتب، وهى تعرف بالكاد كيف تصلى، ولكن ماذا أملك أنا الآن غير كتبى؟، حين أفتح «واجب القلوب» أنسى أين أنا وما آل إليه حالى فى الكبر، أريل، لا أريد أن أموت فى «ستيكوف القديمة»، حقيقة أن أباك دُفِن هناك، ولكنى لا أريد أن أقضى السنوات أو الشهور القليلة التى قُسِم لى إن أَدبها هنا وهناك فى هذه الدنيا ـ بين فلاحين أجلاف، والحال مؤلم كذلك بالنسبة إلى موشيل، فهم لا يدفعون له أجرًا، وفى أيام الأخمسة يدور الخادم بجوال ليجمع فيه حفنات من القمح والذرة والبُرغل، وهى الطريقة التى يدفع بها الروس لكهنتهم، وتشبه الشحاذة، وغير اليهود هناك من الروثينيين ويتفاخر بعضهم بأن هتلر إلى صفهم، وهم يتقاتلون فيما بينهم كذلك، أحدهم قطع بفأس رأس فتاة خارج نافذتنا مباشرة، لمجرد أنها تمشّت مع شخص آخر، حياتنا فى خطر كل


Twitter: @ketab_n

دقيقة، إنى أدعو على نفسى بالموت، وأتوسل إلى الله كل يوم أن يأخذنى من هنا، ولكنك تعيش مادمت تريد أن تموت.

ـ طَيِّب، طَيِّب.

ـ كف عن هذه الطيـــبـــات، فلن تذهب أنت إلى جهنمى، أريل، أود أن أقول لك شيئًا على ألا تغضب منى، إنى لن أعود إلى ستيكوف القديمة حتى ولو اضطررت إلى النوم فى الشوارع، فلسوف أبقى هنا فى وارسو.

فقلتُ: لن تنامى فى الشوارع يا أماه.

ـ أتشفق علىّ، لقد سمعتُ أنه لم يعد هناك حاخام فى شارع كروتشمالنا، أيمكن لموشيل أن يحصل على عمل هنا؟ أنا نفسى على استعداد أن أدخل المنزل العتيق أو أى مكان أجد فيه موضعًا لرأسى، أى صنف من البنات شوشا هذه؟ كيف اخترتها؟ طيِّب، كله من عند الله.

وتوقفت الدرشكية أمام بوابة فى شارع جنونيا، حيث كان عمر بعض الأفنية هنالك يربو على مائة عام، وكانت توجد أزقة يفد إليها الفلاحون من القرى المجاورة فى الفجر بمنتوجاتهم، وكان البيض يُختزن فى الكلس بالأقبية، كما كان يوجد فى رقم (٢) منزل درس «كريل»، حيث كنت أذهب لأقرأ صفحة من الجمارا دون عون من أحد بعد أن تركت الحدير، كذلك كان يوجد فى رقم (٥) كنيس ومنزل درس آخر،


Twitter: @ketab_n

ويوجد على مقربة حمام شعائرى لايزال شغالاً، حيث كانت أمى تذهب وهى امرأة صغيرة، بل أن رائحة الكُسْب والحمص مع الفول وكعك البطاطا قد فاحت كما أذكرها، فقالت أمى:

- لا شىء قد تغير.

وكان العديد من العربات التى تجرها الخيول قد أُوقفت أمام المبنى الذى عَرَّجنا عليه، حيث كانت الخيول تأكل خليطًا من الشوفان والتبن من أكياس التغذية، ويلتقط الحمام والعصافير الحب الذى يسقط منها، وينقل رجال - ذوو معاطف قصيرة من جلد الغنم وقبعات - أجولة وأقفاصًا وسلالاً، ومن خلال النوافذ التى يعلوها الصقيع جزئيًا كان يمكن رؤية الزجاجات والأوانى و «حفاضات» الأطفال المعلقة لتجف، ومن نافذة انبعث صوت أطفال يتلون ترتيلة من الأسفار الخمسة - إنه حدير، وكانت سلالم موحلة تؤدى إلى النُزُّل فى الدور الثالث، فكانت أمى تتوقف بعد كل نصف مجموعة سلالم قائلة: لست معتادة على صعود السلالم أكثر من ذلك، وفى الدور الثالث فتحتُ بابًا يؤدى إلى مدخل مظلم، وكان النُزُّل يتكون من حجرة جلوس وبضع حجيرات، وفى حجرة الجلوس كان ثمة رجل يصلى وهو يلبس شال الصلاة ويضع التمائم، وآخر يرص صناديق ورق فى جوال وثالث يأكل إفطاره، فضلاً عن امرأتين - إحداهما تضع شعرًا مستعارًا والأخرى تضع قلنسوة - جلستا


Twitter: @ketab_n

على مقعد طويل تصلحان معطف فراء بإبرة ضخمة وخيط، وأدخلنا المالك ـ وهو ذو لحية حالكة السواد ويلبس قلنسوة محكمة ـ حجرة بسريرين، حيث ستقضى أمى و «موشيه» الليلة، وقال «موشيه»: لقد تأخر الوقت وأريد أن أصلى، أيوجد بيت عبادة هنا؟

ـ يوجد بيتان للعبادة فى الفناء ـ أحدهما لكوزينكا الحسيدى وآخر لبيلندو الحسيدى ـ، ويوجد كنيس أيضًا، ولكن كل الذين يصلون فيه لا طفيون.

ـ سأذهب إلى بيت صلاة كوزينكا.

وسأل المالك أمى: أتريدين شيئًا من الإفطار؟

ـ أهو شرعى خالص؟

ـ ياله من سؤال! إن الحاخامات يأكلون هنا.

ـ أرجو كوبًا من الشاى الآن ـ

ـ وشيئًا معه يُقضَم؟

ـ لقد فقدت أسنانى، ألديك بعض الخبز الطَّرى؟

ـ لا يوجد شىء ليس عندى.

وذهب ليحضر الخبز والشاى، وكان ثمة مغسلة قائمة فى ركن من الحجرة بها حوض ماء ومعها «كوز» وفوطة قذرة مُعلَقة فى خُطاف، فقالت أمى:

ـ بالقياس إلى ستيكوف القديمة هذه قصر، فنحن نسكن فى كوخ ذى سقف من القش، وهو يرشح،


Twitter: @ketab_n

ويوجد موقد، لكن الأنبوبَ مكسورٌ، والدخان لا يتصاعد من المدخنة، متى أذهب لرؤية العروس؟

- سأحضرها إلى هنا.

## (٢)

كانت أول ليلة للحانوكة، فأضاء مالك النُزُّل أُوُلى شموع العيد الثمانى لنزلائه وباركها، إلا أن أمى و«موشيه» لم يقبلا أن يؤدى عنهما شخص آخر تلك الشعيرة المقدسة للغاية، علاوة على أنه - أى الملك - أشعل شمعة وليس فتيلاً مغموسًا فى الزيت، فنزلت أنا إلى الشارع واشتريت مصباح حانوكة من الصفيح، فضلاً عن زجاجة زيت وفتائل وشمعة خاصة تسمى «المُعَاوِنة» تستخدم فى إشعال الفتائل، وفى حجرتهما صب «موشيه» الزيت فى الإناء الأول الصغير، وثبت الفتيل فى مكانه المناسب، وأضاء الشمعة المُسَاعِدة، ومس بها الفتيل، وتلا دعاء البركة، ثم بدأ ينشد: «يا حصنى، وصخرة خلاصى..........»، وكانت نغماته هى نغمات والدى، بل وحركاته، وفى بادئ الأمر امتنع الفتيل عن الاشتعال، وكان على «موشيه» أن يحاول إشعاله مرة بعد مرة، وعندما اشتعل فى النهاية صدر عنه دخان وطقطقة، ووضع «موشيه» المصباح الصغير فى النافذة وفقًا للشرع، إذ يجب إظهار معجزة الحانوكة للعالم، ولو أن الفناء من أسفل كان له ثلاثة حوائط مسدودة، ولم يكن ثمة أحد هناك، ولم تكن النافذة مانعة من نفاذ الهواء، فكان يهب عليها على


Twitter: @ketab_n

غير توقع، فيضطرب ضوء الفتيل كل بضع ثوان، ولكن دون أن ينطفئ، فقال «موشيه»: مثل حال الشعب اليهودى تمامًا: يَهَبُّ أعداؤنا فى كل جيل للقضاء علينا، فينقذنا تبارك وتعالى من أيديهم، فقلتُ:

ـ هذا هو الوقت المناسب الذى يجب فيه على أعدائنا أن يصلوا طلبًا للمعجزات. فقبض «موشيه» على لحيته بشدة، وقال:

ـ مَنْ نكون نحن حتى نقول له ماذا يجب عليه أن يعمل ومتى، بالأمس فقط قلت أنت لأمنا أن الفلكيين كلما أمعنوا التفكير فى أمر النجوم وقدروا حجومها استبان لهم كم هى ضخمة، وقلت أنت أيضًا إن كثيرًا منها أضخم من الشمس، فكيف ـ إذًا ـ يتسنى لمخلوقات ضئيلة مثلنا وبأمخاخنا الصغيرة جدًا أن نفهم ما يصنعه؟

كان «موشيه» يتكلم كأبى، فمنذ بضع سنوات فقط حاجنى أبى قائلاً:

ـ فى استطاعتك أن تدلق الحبر، لكنه لن يكتب خطابًا من تلقاء نفسه، الكفار ليسوا أشرارًا فحسب، بل وحمقى أيضًا.

وانصرف «موشيه» إلى منزل الدرس بعد أن راقب ضوء الحانوكة لمدة نصف ساعة، وقد وجد هناك الكتب التى لم يستطع الحصول عليها فى «ستيكوف القديمة»، وابتاع بالنقود القليلة التى معه «زئير الأسد» و «ترنيمة الحاخام أكيفا إيجر» و «وجه



Twitter: @ketab_n

يُوشَع»، وكان قد وعد أمى بألا يتأخر، فجلست هى فى فراشها وأسندت ظهرها إلى وسادة، وحدقت عينيها الرماديتين الواسعتين إلى الضوء الخافق بفضول كأنها ترى ضوءًا كهذا لأول مرة، وأذكر أنها كانت متوسطة الطول، وأطول من أبى قليلاً بعض الشىء، ولكنها بدت حينذاك ذاوية العود وذابلة ورأسها تومئ باستمرار أن نعم، ثم قالت:

- أريل، لا سمح اللّه، لا أقصد أن أضايقك، أنت الآن راشد، وأتمنى لك طول البقاء من بعدى، ولكن ما المبرر لهذا؟

- ماذا تعنين؟

- أنت تعلم تمامًا ما أعنيه.

- أماه، ليس كل ما يفعله المرء يجب أن يكون مفهومًا أو معقولاً.

فلاحت فى عينيها بادرة ابتسامة، وقالت: ما هذا؟ أهو حب؟

- يمكن أن تسميه ذلك.

- هناك مثل يقول: الحب أعمى، ولكن ما من حب بلا سبب تمامًا، فصبى الإسكافِ لا يقع فى حب أميرة، كما أنه لا يتزوج منها بالتأكيد.

- حتى هذا يحدث.

- ماذا؟ فى الروايات وليس فى الحياة الواقعية، حينما كنا نسكن فى وارسو اعتدت قراءة الروايات


Twitter: @ketab_n

المسلسلة فى الجرائد، كان والدك - رحمه الله - يكره الجرائد وكُتَّابها، ويقول إنها تدنس الحروف العبرية، ولكن حينما بدأت الحرب وكان يريد معرفة الأخبار كان يلقى نظرة عاجلة على الجريدة، حتى فى تلك الروايات التافهة كان يوجد شىء من المنطق، وهأنت تجىء وتتزوج من شوشا، صحيح أنها بنت لطيفة ورقيقة وإن كانت لسوء الحظ مريضة، ربما كانت ضحية والدها، ولكن ألم تجد فى وارسو كلها مَنْ هى أفضل منها؟ إنى أقترف ذنبًا، أعلم أنى اقترفته، إذ لا ينبغى لى أن أتفوه بمثل هذه الأمور، انظر، لقد خبا الضوء.

وجلسنا أنا وأمى فى سكون، وشاعت فى الجو رائحة زيت محترق وشىء ما حلو طال نسيانه، وواصلت هى قولها:

- يابنى، كل شىء مقدر ومكتوب، لقد اشتهر أبى، جدك - تغمده الله برحمته - بالعبقرية، كان فى وسعه أن يصبح حاخامًا فى مدينة كبيرة، ولكنه قنع بالبقاء فى زاوية ضيقة فى قرية مهجورة، وظل هناك حتى الممات، أما جدك من جهة الأب، الوحيد من تومازو، فقد احتجب عن الناس تمامًا، وكتب شروحًا وتعليقات فى القبالاة طوال سنوات عمره، وقبل وفاته استدعى أحد أحفاده وأمره بأن يحرق مخطوطاته، وبقيتْ بالصدفة صفحةُ واحدة، فأكد أولئك الذين قرءوها أنها مليئة بأسرار التوراة، لقد كان غير دُنْيَوى إلى حد


Twitter: @ketab_n

أنه لم يكن يعرف الفرق بين عملة وأخرى، ولولا أن جدتك «تيمرك» كانت تقتر وتدخر لما كان هناك قطعة خبز فى المنزل، لقد كانت قديسة بطبعها، وعندما ذهبتُ لزيارة حاخام «بيلز» دعاها للجلوس على كرسى مع أنها امرأة، مَنْ أكون أنا بالقياس إليهم؟ إنى منقوعة فى الذنب، إنى أحبك بالطبع، وأود أن توفق إلى زوجة صالحة، ولكن إذا كان الله قد قدر غير ذلك فيجب أن أمسك لسانى، لقد قلت هذا كله لأذكرك بأنه يجب ألا تنسى أصلك، نحن لم نجئ إلى هذه الدنيا لكى ننساق وراء عواطفنا، انظر إلىَّ وتأمل ما حدث لجسدى، كنت فتاة جميلة؛ حين كنت أمر فى شارع لوبلين كان الناس يتوقفون ليحدقوا إلىَّ، كان لى أصغر قدمين فى المدينة، كنت أُلَمِّعُ حذائى كل يوم حتى عندما تمطر، تعودتُ أن أُلَمِّعَه بالفرشاة مئات المرات، كان لدىَّ تَنُّورة ذات ثنيات كنت أكويها كل يومين، اتهمنى الناس وفضحونى عند جدك لكونى مزهوة بنفسى، كم كان عمرى إجمالاً فى ذلك الوقت؟، خمسة عشر ربيعًا، فى الخامسة عشرة والنصف خُطِبت لوالدك، وبعد عام أُصحِبتُ إلى ظُلَّة الزفاف، لا يباح للبنت أن تدرس التوراة، إلا أنى كنت أقف وراء الباب وأُصغى إلى جدك وهو يحاضر تلاميذ المعهد الدينى، وإذا أخطأ أحدهم تبينت أنا خطأه، وبدأتُ أيضًا أطالع كتب الأخلاق بالعبرية، وفى ذلك الوقت أدركتُ أنى هوجاء وأنه يتعين علَىّ أن أتحكم فى


Twitter: @ketab_n

اندفاعى ونزواتى، كيف حدث هذا لى؟، أتمنى من الله أن يجىء الأولاد مثلك لا مثل شوشا.

- أماه، لن يكون لدينا أطفال.

- لم لا؟ السماء تريد أن يكون هناك دنيا ويهود.

- لا أحد يعلم ما تريده السماء، لو كان الله يريد العيش لليهود لما خلق أمثال هتلر.

- واكرياه، إذ تتفوه بأشياء كهذه.

- لم يصعد أحد إلى السماء وتحدث إلى الله.

- لا يحتاج المرء إلى الصعود إلى السماء، فهو يعاين الحقيقة هنا على الأرض مباشرة، قبل فوز «إستير» ابنة «ميتل» بورقة اليانصيب بثلاثة أيام رأيتُ فى حلم ساعى البريد يناولنى ورقة مليئة بالأرقام، فأردتُ أخذها، ولكن «ميتل» تجسدت فجأة - وكانت ميتة فى ذلك الوقت - وكان وجهها أصفر، وتلبس بُرْنسًا أبيض، وقالت لى: إنها ليست لك، لسوف تفوز ابنتى إستير بنقود كثيرة بموجب هذه الورقة، وَأعطتْ ساعى البريد حزمة من أعواد القش، وكنت أنا فى ذلك الوقت طفلة فى العاشرة من العمر فحسب، ولم أكن أعرف حتى شيئًا اسمه ورقة اليانصيب، وقصصت الحلم على كل شخص فى منزلنا، فهزوا أكتافهم، وبعد ثلاثة أيام وصلت برقية تقول إن إستير كسبت الجائزة الكبرى، وحينما حلمتُ هذا الحلم لم تكن الأرقام قد سُحِبت بعد، وبعد سنتين شهِدتُ حالة


Twitter: @ketab_n

مَنزلٍ مسكون بالأشباح، فقد استمرت روح شريرة تدق على إطار النافذة لمدة أسابيع فى منزل الجزار الشعائرى «إبراهام»، وأُرسِل العساكر ليفتشوا الحجرات والقبو والعلية، ولكنهم لم يجدوا ما يدعو لإثارة هذه الضجة، العالم يابنى ملىء بالكثير جدًا من الألغاز بحيث لو استمر العلماء فى البحث مليون سنة فلن يستطيعوا حل جزء من مليون منها.

- أمى، كل هذا لن يجلب الراحة أو العزاء لليهود المعذبين فى داخاو وغيرها من مواطن الجحيم الأخرى.

- الراحة فى ألا يكون هناك موت، شوشاك أنبأتنى بأن أختها الميتة قد زارتها، وهى ليست لئيمة إلى حد أن تختلق أكذوبة من هذا النوع.

(٣)

عزمت «باشيل» على دعوة أمى و «موشيه» إما للغداء أو العشاء، إلا أن أمى أخبرتنى بصراحة أنها لن تأكل طعامًا فى منزلها، فلا هى ولا «موشيه» لديهما ثقة فى أن الطعام المعد فى مطبخها شرعى بالمعنى الدقيق، ومع ذلك - ولكى لا يكسفانها - فقد قبلا الحضور لتناول الشاى والفاكهة، ولا أدرى كيف علموا أن زوجة الحاخام السابق وولديه سوف يزورون منزل «باشيل»، فحين جئت بأمى و «موشيه» من النُزُّل فى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبًا، وفتحتُ باب



Twitter: @ketab_n

منزل «باشيل» رأيت لدهشتى حجرة مكتظة بالناس، رأيت نسوة عجائز يلبسن قلانس بالخرز والشرائط ورجالاً ذوى لحى بيضاء وخصلات شعر جانبية، ورأيت أيضًا قلة من الشبان والفتيات الذين فيما يبدو يقرءون الجريدة الأدبية، وكان يوجد - إلى ذلك - أكواب شاى وقُرص وأطباق صغيرة بها مربى عنب الثعلب على المائدة المغطاة بمفرش الأعياد، وقد أحضرت العجائز هدايا صغيرة ملفوفة فى مناديل: كعكة بالزنجبيل وكيكة وزبيب وبرقوق مجفف وخوخ مجفف ولوز، يا إلهى نحن لم ننس بعد تمامًا شارع كروتشمالنا!، لقد أعانت الحرب والأوبئة والجوع ملاك الموت ومع ذلك ظل على قيد الحياة قلة من أولئك الذين يعرفون أسرتنا، واهتزت القلانسى وغمغمت الأفواه الضامرة بالتحيات والبركات، وهاجت ذكرى الأوقات الخوالى، وانحدرت الدموع على الخدود الذاوية، وقد كان الرجال جميعًا أتباعًا لحاخام «رادزمين» السابق الذى قضى نحبه دون وريث يخلفه، وانفرطت محكمته. قال الحسيديون إنه لو كان قد قبل إجراء عملية جراحية له لبقى حيًا، ولكنه إلى اليوم الأخير كان مخلصًا لاقتناعه بأن السكين هى لقطع الخبز لا لقطع لحم الإنسان، ثم أسلم روحه المقدسة بعد معاناة طويلة، وجاء إلى جنازته حاخامات من بولندا كلها، ودُفِن بالقرب من قبر جده الحاخام «يانكل» الذى خاض حربًا مع الشياطين طوال حياته، وقام بمعجزات لا تُحصى،



Twitter: @ketab_n

فقد عُرِف عنه أن الجثث تأتى إليه بالليل لتعترف له بذنوبها التى ارتكبتها وهى حية، وأن عليته تعج بالأرواح،وفى حين رحب الحسيديون بـ «موشيه»، وسألوه عن المحاكم الحسيدية فى «جاليشيا» ـ محاكم «بيلز» و «شيناوا» و «روبتشيكا» قدم الشبان والفتيات أنفسهم إلىَّ، وأثنوا على صورى الوصفية ومقالاتى التى أكتبها، وتحدثوا إلىَّ بييدية أدبية تشوبها أخطاء العوام، وقالوا إنهم سمعوا عن مسرحيتى التى أخفقت، وشكوا من حالة المسرح الييدى، إذ تُقدَم فيه للجمهور مسرحيات رديئة مبتذلة ترجع إلى خمسين عامًا مضت رغم أن الحضارة على شفا الانهيار، وجاءتْ «تيبل» إلى حفلة الاستقبال وقد أحضرت معها عاشقها كاتب الحسابات، وهو رجل قصير القامة ذو كرش وأسنان ذهبية فى مقدمة فمه، والتف بعض الفتيات حول «شوشا»، وسمعتُ واحدة منهن تسألها :

ـ ما إحساس التى تُخطَب لكاتب؟

فردت «شوشا»: لا شىء، مثل أية إنسانة تمامًا.

فسألتها فتاة أخرى: كيف تلاقيتما؟

فقالت «شوشا»: كنا نسكن معًا فى رقم (١٠)، وكان أريل يسكن فى الشقة التى بها شرفة، كانت نوافذنا مواجهة للفناء قُبالة إسطبل الخيل مباشرة.

ونظرت الفتيات كل منهن إلى الأخرى وابتسمن، وتبادلن نظرات جانبية متسائلة: ما الذى يراه فيها؟ وأجلست «باشيل» «موشيه» على رأس المائدة، والرجال


Twitter: @ketab_n

العُجُز على كلا جانبيه، وألمح «موشيه» إلى أنه ليس فى العرف الحسيدى أن يجلس الرجال والنساء على مائدة واحدة، فوضعت «باشيل» كراسى فى منتصف الحجرة للنساء العجائز، وبقى الأولاد والبنات واقفين، واستمر الحسيديون فى مناقشة موضوعات حسيدية، ما الفرق بين محكمة «بيلز» ومحكمة «بوبو»؟، ولماذا يناهض الحاخامات المجريون المنظمة العالمية لليهود الأرثوذكس؟ وأى صنف من القديسين هو حاخام «ريدتك»؟ وهل صحيح أن حاخام «روزفادو» قد ورث روح الفكاهة عن والد جده حاخام «روبتشيكا»؟، وقالوا إنه مما يدعو للأسف أن المعروف عن حاخامات جاليشيا فى هذا الجزء من البلد قليل جدًا، فسأل «موشيه»:

- ما أهمية أن نعرف؟ كل شخص يخدم الله بطريقته الخاصة فسأله أحدهم:

- ماذا يقولون فى جاليشيا عن محن زمننا وبلاياه؟

فرد «موشيه» على السؤال بسؤال:

- ما الذى يمكن أن يُقال؟ هذه أوجاع ولادة المسيح، لقد تنبأ النبى من قبل أن الرب سوف يأتى بالنار فى آخر الزمان، ومعه عرباته مثل ريح عاصف ليعبر عن غضبه بشدتها وعن توبيخه بألسنة اللهب، الأشرار لا يستسلمون بسهولة هكذا، وعندما يدرك الشيطان أن مملكته تتداعى يُحدث هياجًا وعنفًا فى كل مكان من العالم، بل وتوجد أيضًا قوى شريرة فى الأفلاك


Twitter: @ketab_n

العليا، فما المنطقة الحرام؟ الخير والشر مختلطان معًا، وجذور الشر تمتد بقدر ما تستطيع إلى عرش المجيد، ولما كان على الإله أن يخلق الفراغ ويقلل من نوره لكى يخلق العالم كان عليه أن يحجب وجهه، وبدون تقليل قوة بهائه ما كان يمكن أن توجد حرية اختيار، والخلاص لن يأتى مرة واحدة، بل بالتدريج، ولسوف تستغرق حرب الإله مع العمالقة(٩٨) وقتًا طويلاً وتجلب كربًا عظيمًا وكثيرًا من الإغراءات، وقد قال أحد حكمائنا عن المسيح: فليأت، أما أنا فلا أبتغى العيش كى أراه، لقد تنبأت المشنا بأن غطرسة البشر سوف تبلغ ذروتها قبل مجىء المسيح.

و...... فقال «مندل فيزكوفر»، وهو حسيدى عجوز، بزفره:

- الويل لنا، لقد بلغ الماءُ أعناقنا.

فقال «موشيه»:

- ماذا؟ الشر يمتلك قوى هائلة، فى أوقات الهدوء والاستقرار يحاول الأشرار إخفاء نواياهم، ويتخفون فى هَيئة حملان وديعة بريئة، أما فى أوقات اتخاذ القرار فيكشفون عن وجوههم الحقيقية ويقول سفر الجامعة(٩٩): «ورأيت أيضًا تحت الشمس الظلم حيث كان يجب أن يكون العدل»، فالظالمون يتوقون إلى عالم يسوده القتل والانغماس فى الشهوات والسرقة والنهب، ويريدون أن يُنْظَرَ إليها على أنها فضائل، وغايتهم أن تنمحى كلمة «لا» من الوصايا العشر، وهم


Twitter: @ketab_n

يخططون لوضع الأمناء والصادقين فى السجن وجعل اللصوص قضاة لهم، المجتمعات بأكملها منحلة، ماذا كان من شأن سدوم مع قاضييها «شيلك» و «بيلك»؟ وماذا كان شأن نَسّل الطوفان؟ ومن هم العصاة الذين شيدوا برج بابل؟ نعجة واحدة يمكن أن تتقل العدوى إلى القطيع كله، وشرارة نار واحدة يمكن أن تحرق قصرًا، هتلر - محا الله اسمه - ليس الوغد أو الشرير الوحيد، فهناك «هتالرة» فى كل مدينة وفى كل مجتمع، لو نسينا الله لحظة واحدة لأصبحنا فى عداد الأنجاس على الفور.

فقال عجوز آخر وهو يتأوه: واهًا، إن هذا صعب جدًا، وآه.

فتساءل «موشيه»:

- أين كُتِب أن الأمور يجب أن تكون هينة؟

فَأَنَّ عجوز ثالث وقال: لقد وهنت قوانا.

فرد «موشيه»: إن من يداوم على طاعة الله تتجدد قواه.

وبقيت النسوة العجائز ساكنات يضعن إيديهن خلف آذانهن ليسمعن أفضل، كما التزم الصمت الشبان والفتيات الذين حضروا لمناقشتى فى أمور الثقافة واليدية والتقدم.

وفجأة سألت «شوشا»: أماه، أهذا موشيه حقًا؟

وكان ثمة ضحك، حتى العجائز ضحكن بأفواههن الخالية من الأسنان.



Twitter: @ketab_n

فاعترى «باشيل» الارتباك، وقالتْ:

- ماذا دهاك يا بُنيتى؟

- أوه يا أمى، إن موشيل حاخام حقيقى مثل أبيه تمامًا.

ثم غطت «شوشا» عينيها بالمنديل وبكت.

## (٤)

بدأت السماء تمطر ثلجًا قبل زفافى بيومين، واستمرت بدون انقطاع، ولما توقفت أخيرًا حل الصقيع، ودُفنت الشوارع تحت ركام ثلج جاف كالملح، فلم تستطع حتى زلاجات الجليد أن تشق طريقها خلاله، وتدلت من أفاريز المبانى والشرفات هُدّبٌ جليدية، وازدادت ثخانة الأسلاك الممتدة فوق سطوح المنازل، وتلألأت بوميض الصقيع، وبرز من الثلج هنا وهناك منقار طائر أو رأس قطة، وفى شارع كروتشمالنا كان الميدان مهجورًا، وندف الثلج تُدوِّم فى الجو، ويحاول الأولاد العفاريت الإمساك بها من أذنابها، وقد توارى اللصوص والعواهر والقَوَّادون فى حجراتهم القبوية أو عُلياتهم، كما اختفى أيضًا البائعون الذين كانوا يجلسون عادة أمام ساحة ياناش، وكان مقررًا لإتمام زفافى الساعة الثامنة فى ذلك المساء بمنزل حاخام بشارع بانسكا، وقد أمكن لباشيل «- بمساعدة زيلج - أن تعد جهاز عروس متواضعًا لشوشا»: بعض الفساتين والأحذية والملابس الداخلية،


Twitter: @ketab_n

أمـا أنا فلم أقم بأى ترتيبـات من أى نوع، فـمن القطع الأدبيـة القـصـيـرة التى بعتـهـا والنقـود القليلة التى حصلتُ عليها من ناشرى مقابل التـرجمة جَمَعتُ ما يكفى نفقات أمى و «موشيه» فى النُزُل، وكان المتبقى معى قليلاً جدًا.

وفى صباح يوم زفافى استيقظت متأخرًا أكثر من المعتـاد، إذ بقيتُ ساهرًا إلى الفجر وأنا أسمع دقَ ساعةِ الجدِ وعويلَ الريح، وكانت الساعة العاشرة حينما نهضتُ من الفراش وبدأت أغتسل وأحلق ذقنى.

ودفعت «تيكلا» الباب فاتحة إياه قائلة:

- هل أحضِّر لك الإفطار؟

- أجل، يا تيكلا، إذا أحببت.

وانصرفت، على أنها سرعان ما عادت قائلة:

- حضرت سيدة ومعها أزهار لك.

كنتُ قد اعتزمتُ أن يبقى كل شىء سرًا، فهممتُ بأن أطلب من «تيكلا» ألا تُدخل أحدًا، على أن البـاب انفـتـح فى تلك اللحظة، ورأيت «دورا» وهى ترتدى معطفًا وحذاء حال لونهما وقبعة تشبه الإناء المقلوب، وتمسك باقة زهر ملفوفة فى ورق ثقيل، وعبست «تيكلا»، وأدارت وجهها، وقالت «دورا»:

- يا عزيزى، لا توجد أسرار، تهانىَّ!

وكان خداى يغطيهما الصابون، فوضعتُ الموسى، وسألتها:



Twitter: @ketab_n

- ما هذا الهراء؟

- ألا تعلم أنك لا تستطيع أن تخفى أى شىء عنى، صحيح أنك لم تدعُنى إلى الاحتفال، ولكن ثمة صلة قرابة بيننا على الدوام، ما من أحد يستطيع أن يمحو السنوات التى قضيناها معًا، فى هذا المكان أتمنى لك السعادة والتوفيق.

- مَنْ أخبرك بهذا، إيه؟

- أوه، لدىّ اتصالات، الذى يعمل مع المباحث السرية يعلم كل ما يحدث فى وارسو.

وكانت تشير بذلك إلى الستالينيين الذين كانوا يتهمونها - منذ أن تركت الحزب - بأنها عميلة للشرطة السرية البولندية، فتناولتُ الأزهار منها على مضض، ووضعتُها فى الإبريق الذى يحتوى ماء الغسيل، وقالت هى:

- نعم، إنى أعلم كل شىء، وكان لى شرف لقاء عروسك أيضًا.

- كيف تم لك ذلك؟

- أوه، خبطتُ على بابها، وتظاهرتُ بأنى أجمع نقودًا لغرض خيرى، وخاطبتها باليديدية فلم تفهم ما قلتُه لها، وظننتُ أنها تتكلم البولندية فقط، ولكنى سُرعان ما أدركتُ أنها لا تعرف جيدًا البولندية كذلك، لا أريد أن أضايقك، على أى حال ما الفرق مادمت تحبها؟ الناس يقعون فى حب العمياء والصماء والحدباء، هل لى أن أجلس؟


Twitter: @ketab_n

ـ أجل يا دورا، اجلسى، ما كان يجب أن تنفقى نقودًا فى شراء أزهار.

فطرفت بعينيها، وجلست على حافة الفراش، وانسابت جداول الثلج الذائب من حذائها على أرض الحجرة، وأخرجت سيجارة وأشعلتها قائلة:

ـ أردت أن أحضر لك شيئًا، لدىّ أسبابى، لسوف أتزوج أنا أيضًا، وإذا قدمتُ لك هدية فلسوف يكون لزامًا عليك أن تقدم هدية لى، إن لدىَّ دافعًا آخر خفيًا لكل ما أصنع.

فسألتها: فلهندلر؟

ـ أجل، يا أعز الناس، فكلانا خارج على الحزب وفاشستى وخائن وعميل للشرطة السرية، تُرى هل توجد زيجة أكثر اكتمالاً من هذا؟ لسوف نقف معًا خلف المتاريس ونطلق النار على العمال والفلاحين، هذا إذا لم نكن فى السجن حينذاك، تُرى هل يعلم الرجعيون أننا أنصارهم؟ بالمناسبة، ماذا حدث للمسرحية التى كُلِفت بكتابتها؟ لقد انجرفت بعيدًا عنى، بيد أنى أذكر كل ساعة قضيناها معًا، وعندما يُنشَر لك شىء أقرؤه مرة بل ثلاث، سمعت أن فيتلزوهن يخطط لإصدار مجلة.

ـ لقد خطط لهذه المجلة منذ سنوات.

وفتحت «تيكلا» الباب بأصبع قدمها، وأحضرت صينية الإفطار، فدعوتُ «دورا» قائلاً: هلا شاركتينى.



Twitter: @ketab_n

ـ لقد أفطرت، شكرًا لك، بيد أنى أريد قدحًا من القهوة.

وعندما ذهبت «تيكلا» لإحضار القهوة، أخذت «دورا» تنظر حولها، وسألتنى:

ـ هل ستأتى زوجتك لتعيش معك هنا أم ستسكن معها، أنا فضولية كعهدى دائمًا.

ـ لا أدرى بعد.

ـ إنى لا أفهمك، ولكن ما جدوى أن أضايقك بالأسئلة؟، على أى حال أنت لا تعرف الإجابة، أما فيما يتعلق بى فإنى لا أحب وولف، وإن تشابهنا أكثر مما ينبغى، لقد أصبح ساخرًا جدًا فى المدة الأخيرة، ويداوم على تأليف تلك النكات الفظيعة، على أى حال وجودنا معًا لا فائدة منه، فهو إما أن يُقبَض عليه هو أو أن يقبض علىّ أنا، الشرطة تلعب معنا مثلما تلعب القطط مع الفئران، ولكن مادمنا باقين فى هذه الناحية من القضبان، فإنا لا نرغب فى أن يكون كل منا بمفرده، فهو حالما يغادر المنزل أبدأ فى النظر إلى السقف بحثًا عن خُطَّاف، وعندما أضطر إلى عبور الشارع أتحاشى رفاقى السابقين، وإذا رأونى بصقوا ولَوَحُّوا بقبضاتهم، لقد أخبرتنى من قبل عن أشياءٍ لم أفهمها فى حينها، ولكنها بدأت تتوارد إلى ذهنى منذ أن وقع كل هذا ـ

ـ ما هذه الأشياء؟


Twitter: @ketab_n

ـ أوه، إنك لا تقدر أن تساعد الجنس البشرى، وأن أولئك الذين يقلقون أكثر مما ينبغى على مصير الإنسان لابد أن يصبحوا قساة غلاظ القلوب عاجلاً أو آجلاً، كيف عرفت هذا؟، إنه يعز علىّ أن أقول هذا، بيد أنى أرقد إلى جواره فى الفراش وأفكر فيك، إنه ساخر وكالح معًا، إنه يبتسم وكأنه يعلم الحقيقة القاطعة المؤكدة، وأنا لا أطيق تلك الابتسامة المغرورة، فهى الابتسامة عينها التى كان يبتسمها وهو ستالينى، وكذلك لا أطيق البقاء بمفردى أكثر من ذلك.

فسألتها: هل استقر عندك؟

ـ لا أستطيع دفع الإيجار وحدى، لقد حصل على عمل جزئى فى نقابة.

وانفتح الباب مرة أخرى، ودخلت «تيكلا» ومعها قدح من القهوة، وقد تألقت عيناها بالضحك، وأعلنت:

ـ السيدة بتى هنا ومعها أزهار.

وقبلٍ أن أرد ظهرت «بتى» على عتبة الباب فى معطف فراء أشقر، وقبعة من الفراء تتلاءم معه، وحذاء عالى الساق مزين بالفراء، وهى تحمل باقة زهور ضخمة، ولما رأت «دورا» ارتدت خطوة إلى الوراء، فاستبدت بى رغبة عارمة فى الضحك، وقلتُ:

ـ وأنتِ أيضًا؟

ـ هل أدخل؟



Twitter: @ketab_n

- طبعًا، ادخلى يا بتى.

- ثمة عاصفة ثلجية عاتية فى الخارج، لابد أن سبع ساحرات شنقن أنفسهن.

- بتى، هذه دورا التى حدثتك عنها، دورا هذه بتى سلونيم.

فقالت «دورا»:

- أجل أعلم، ممثلة من أمريكا، عرفتك من صورتك فى الجريدة.

- ماذا أصنع بالزهور؟

- تيكلا، هلا أحضرت زهرية.

- كل الزهريات مملوءة، السيدة تحفظ فيها الكاشا(١٠٠).

- احضرى ما هو موجود، خذى الزهور.

ومدت «تيكلا» يدها، وقد بدا أنها تفعل كل شىء بطريقة ساخرة.

وبدأت «بتى» تثب داخل حذائها قائلة:

- صقيع رهيب، لا يمكنك أن تعبر الشارع، الجو هنا بالكيفية التى عليها فى موسكو، ومثل الذى فى كندا أيضًا، إنهم يزيلون الثلج فى نيويورك على الأقل من الشوارع الرئيسية، ساعدنى أن أخلع معطفى، أنت على وشك أن تتزوج فكن شهمًا.

فساعدتها على خلع معطفها، وكانت ترتدى فستانًا أحمر يتنافر مع شعرها الأحمر، وقد بدت شاحبة نحيفة، وقالت:



Twitter: @ketab_n

ـ لعلك تتساءل عن سبب مجيئى، لأنك كما تجىء بزهور لعريس تجىء به لجثة إنسان، وعندما يكون العريس جثة كذلك فهو يستحق باقة مضاعفة.

وقد تفوهت بهذه الكلمات كأنما أعدتها مقدمًا، فابتسمت «دورا» قائلة:

ـ قول لا بأس به، سأنصرف، لا أريد إزعاجكما.

فقالت «بتى»:

ـ أنت لا تزعجين أحدًا، ما أنا مضطرة إلى قوله يمكن أن يسمعه الجميع.

فتساءلت «تيكلا»: هل أحضر قهوة أخرى؟

فقالت «بتى»:

ـ ليس لى، ربما تناولت عشرة أقداح اليوم، هل تسمح لى أن أدخن؟.

وأخرجت «بتى» سيجارة وأشعلتها، وبعد قليل قدمت واحدة لـ «دورا»، وحينًا بعد حين بدت المرأتان معًا وكأنهما تتبارزان بطرفى سيجارتيهما بما يشبه بقية من شعيرة وثنية.

## (٥)

ظلت «دورا» جالسة على الفراش، فأعطيتُ «بتى» كُرْسيًا، وجلستُ على مقعد طويل بجوار المغسلة، وتحدثت «بتى» عن «يوجين أونيل»؛ فقد تُرجِمتْ


Twitter: @ketab_n

إحدى مسرحياته إلى اليديَة، وهى المسرحية التى كانت سوف تظهر فيها فى وارسو، فقالت:

- إنى أعلم أنها سوف تفشل فشلاً ذريعًا، فهم لا يفهمون أونيل حتى فى أمريكا، فكيف يفهمه يهود وارسو إذًا؟ والترجمة ليست جيدة كذلك، غير أن سام مُصرٌّ على أن أظهر فى بولندا قبل عودتنا إلى أمريكا، أوه، لكم أحسد الكاتب!، فهو ليس مضطرًا إلى أن يتعامل مع الناس طوال الوقت، فهو يجلس إلى مكتبه مع الورق والقلم ويقول كل ما يريده، أما الممثلون فيعتمدون دائمًا على الآخرين، أحيانًا تستبد بى الرغبة فى الكتابة؛ ولذا جربت أن أكتب مسرحية، ورواية أيضًا، فلما قرأتُ ما كتبت لم يرق لى، ومزقته فى الحال، تسوتسك، هل لى أن أدعوك بهذا الاسم كما كنتُ أفعل؟ الموقف هنا فى بولندا يتدهور بسرعة، أحيانًا يقلقنى البقاء هنا.

فقالت «دورا»:

- بجواز سفر أمريكى لا يوجد ما يستوجب القلق، فلن يبدأ هتلر بأمريكا.

- ما جواز السفر؟ قطعة ورق، ما المسرحية؟ ورق أيضًا، وما المجلات؟ ورق مرة أخرى، طيّب، الشيكات السياحية وأوراق النقد إن هى إلا ورق فحسب، ذات مرة لم أستطع النوم فأخذت أفكر، فى الماضى كان عصر الحجر، أما الآن فنحن فى عصر الورق، وقد بقيت بعض الأدوات من عصر الحجر، أما عصر


Twitter: @ketab_n

الورق فلن يبقى شىء منه، بالليل تخطر ببالى معظم الأفكار الغريبة، ذات مرة استيقظت وأخذت أتأمل سلسلة نسبى، إنى أعلم القليل جدًا فقط عن أجدادى وجداتى، ولا أعلم شيئًا ألَبَتَّة عن آبائهم وأمهاتهم، وماذا عن جدود الجدود؟ أظن أنكما لوعدتما إلى الوراء بقدر كافٍ لوجدتما أن كل شخص قد نشأ من آلاف الجدود، وورث سِمة ما أوصفة من كل واحد منهم، لا يعدو هذا أن يكون فكرة عابرة بالنهار، أما بالليل فهو ملازم لى بصورة مخيفة ومفزعة، تسوتسك، أنت تكتب عن الأرواح المتلبسة، الأجيال الماضية هى أرواح تتلبسنا، فهى تقعد فى داخلنا وتبقى فى الغالب ساكنة، ولكن إحداها تصرخ فجأة، الجدات لسن مخيفات، إلا أن الأجداد يفزعوننى إلى حد الجنون، الفرد بلا مبالغة مقبرة، حيث تُدفَن أعداد غفيرة من جثث تعج بالحياة، تسوتسك، ألم يحدث لك ذلك قط؟

- كل أنواع الأفكار المجنونة خطرت ببالى.

فاستطردت «بتى»:

- من المحتمل أن يكون هناك مجانين من بين الأجيال، ويتحتم علينا سماع أصواتهم، أنا لست مقبرة فحسب، بل توجد فى دماغى مستشفى أمراض عقلية كذلك، إنى أسمع المخابيل وهم يجأرون بضحكهم الوحشى الشاذ، ويشدون القضبان محاولين


Twitter: @ketab_n

الهـرب، الخـلايا الموروثة لم يضع أثرها، إذا كـان الإنسـان ينحـدر من قـرد فهـو يحمل جـينات قـرد بداخله، وإذا كان ينحدر من سمكة ففيه شىء منها أيضًا، ألا يثير هذا الضحك والفزع فى آن واحد؟!

وسحقت «دورا» عقب سيجارتها، وقالت:

- معذرة يا آنسة سلونيم، ألا ترين أن هذه الأفكار تنطوى على مسحة اجتماعية؟، إذا كان لديك قطع ورق - كما تصفينها - جواز السفر والشيكات والتذكرة إلى أمريكا، وكانت سليمة، ففى وسعك الانغماس فى الترف والوقوف على كل صنوف الملذات والتنعم بها، أما إذا كان يجب عليك أن تدفعى الإيجار فى اليوم التالى وأنتِ ليس معك جروشن واحد، وكنتِ معرضة للإلقاء بك بالقوة فى البرد، وكانوا على وشك أن يزجوا بك فى السجن عن جرم لم تقترفيه، وكنت - إلى ذلك - جائعة، فإن هذا كله لا يحدث لك إلا حين تركزين على الواقع، إن تسعين بالمائة من البشر، بل تسعة وتسعين غير واثقين من غدهم ومن يومهم كذلك فى أغلب الأحيان، وأكثر ما يشغلهم عن أى شىء آخر هو الحاجات الأساسية، وعندما يطالعنا كُتّاب مثل «هـ.جـ ويلز» و «هانز هاينز إيفرز» أو حتى صاحبنا «هارون جريدنجر» بقصص الخيال الجامح عن الحروب بين الكواكب، أو عن فتاة تلبسها روحان يريد كل منهما الزواج منها - ومعذرة على غلظتى هذه،


Twitter: @ketab_n

فكل منهم إنما يوجه كلامه إلى الآخر، لم أقرأ قط للكاتب «أونيل»، إلا أن لدىّ إحساسًا بأنه واحد من أولئك الذين يختلقون الأحلام ويقصونها، آنسة سلونيم يجب أن تظهرى فى شىء يمس كل إنسان ويتعلق به، وحينئذ سوف تكونين مفهومة ويكون لك جمهور، اغفرى لى صراحتى.

فقالت «بتى» بروح عدائية:

- ماذا يجب أن أمثل؟ مسرحية دعائية تبشر بالشيوعية، أولاً: سوف يقبضون علىّ ويغلقون المسرح، ثانيًا: لقد جئت من روسيا ورأيت الشيوعية على حقيقتها، ثالثًا:...

فقاطعتها «دورا» قائلة:

- لم أقترح عليك أن تمثلى مسرحية شيوعية، كيف خطر هذا ببالك؟، لا يعلم أحد أين تنتهى الستالينية وأين تبدأ الفاشية - أو أيًا كانت التسمية التى تختارينها، ومع ذلك تبقى حقيقة أن الجماهير تعانى، وأن معاناتها تزداد سوءًا باستمرار، وإذا هاجم النازى بولندا، فلسوف يكون الفقراء هم الضحايا، ولسوف يفر الأثرياء جميعهم إلى الخارج، إذا أظهرت دفتر حساب مصرفى وبه مائة ألف دولار، وإذا سافرت من أجل المتعة على وجه التحديد، فإن العالم كله سوف يفتح لك ذراعيه وقتئذ، بل ويدخلونك فلسطين كذلك إذا أظهرت ألف جنيه إسترلينى، أصحيح هذا أم لا يا هارون؟



Twitter: @ketab_n

فقلتُ:

- الرواية أو المسرحية التى تقول كل هذا لا تغير شيئًا، الجماهير تدرك الآن حقائق الأمور، وفوق هذا فقد قلتِ أنتِ عكس هذا الذى تقولينه الآن تمامًا.

- لم أقل العكس، إن لى شكوكى، ولكن الجماهير مازالت عزيزة لدىّ، ويجب تعليمها كيف تقاوم الاستغلال.

- دورا، أنت تتكلمين عن الجماهير كما لو كانت حملانًا وديعة بريئة، وترين أن قلة من الأشرار فقط هم وحدهم المسئولون عن مأساة الإنسانية، الحقيقة أن قسمًا كبيرًا من تلك الجماهير نفسها يريد أن يقتل ويسلب وينهب ويفعل دائمًا ما يفعله هتلر وستالين وما شاكلهم من الطغاة، ولم يكن قوزاق شملنيسكى أو قتلة «بتلورا» رأسماليين، «بتلورا» نفسه كان معدمًا إلى الوقت الذى اغتاله فيه «شفارتز بارد»، لقد تضور جوعًا فى باريس.

- من الذى أرسل مائة ألف جندى ليموتوا فى فردان(١٠١)؟ أليس فلهلم وفوش؟

- ما كان فلهلم وفوش ليستطيعا إرسالهم لولا أن نسبة كبيرة منهم كان لديها الرغبة فى الذهاب، الحقيقة البشعة أن عددًا ضخمًا من الرجال - الشباب على وجه الخصوص - لديهم الميل إلى القتل، وهم فى حاجة إلى ذريعة أو سبب فحسب، تارة من أجل الدين، وتارة أخرى من أجل الفاشية أو الدفاع عن


Twitter: @ketab_n

الديمقراطية، وحافزهم إلى القتل هو من القوة بحيث يتغلب على خوفهم من أن يُقْتَلُوا هم، هذه حقيقة محظور التفوه بها برغم أنها حقيقية وصادقة، وأولئك النازيون المستعدون للقتل والموت من أجل هتلر لديهم الاستعداد كذلك لأن يفعلوا الشىء نفسه من أجل ستالين تحت ظروف أخرى، فالناس ليسوا على استعداد لأن يموتوا بسبب مطمح يتسم بالغباء أو الجنون، ولو صار اليهود مستقلين لكان فى مقدورك أن تشعلى حربًا بين اللاتفيين والجاليشيين.

- إذا صح هذا فمعناه أن ليس ثمة أمل.

- مَنْ قال إن هناك أملاً؟

فقالت «بتى» بعد انصراف «دورا»:

- منافقة! لقد رأيت من هم على شاكلتها فى روسيا، وهم يلبسون سترات جلدية، ويعلقون مسدسات على أعجازهم، إذ أصبحوا من الشرطة السرية، وقد تم تصفيتهم جسديًا فى الوقت الراهن، وهم يستحقون ذلك تمامًا، تسوتسك، تعال قبلنى للمرة الأخيرة.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفصل الثانى عشر

## (١)

بدأ الثلج ينهمر بغزارة فى الأصيل، وتَبدَّى ضباب أغبش من خلال زجاج النوافذ، ولاحت السماء منخفضة ورمادية، لاهى ملبدة بالسحب ولا هى صافية، فبدا العالم من خلال ماطرأ عليه من تغيير فى بعض الخلق والتكوين كأنما اكتسب مناخًا آخر، تُرى أين كُتب أن العصر الجليدى لن يعود بغتة؟ ما الذى حال دون انفلات الأرض من قوة جذب الشمس وحال دون شرودها من درب اللّبانة والانطلاق صوب مجرة أخرى؟

بعد انصراف «دورا» و «بتى» ساد الغرفة هدوء، إذا لم يَرَّن التليفون، ولم تأت «تيكلا» لتسَّوى أو تأخذ الصينية، فانطرحتُ بملابسى على الفراش غير المرتب، وأغمضتُ عينى، وفى السابعة والنصف تقريبًا كان علىَّ أن آخذ درشكية أو مركبة جليد أو عربة وأذهب إلى النُزُل فى شارع جنونيا، حيث تنتظرنى أمى وموشيه، وهى ولاريب جالسة على كرسى أو فى الفراش مستغرقة فى (واجب القلوب) الذى أحضرته معها، وقد سلبها زواجى من «شوشا» أملها الأخير فى



Twitter: @ketab_n

العودة إلى وارسو، أما «موشيه» فهو على الأرجح فى منزل الدرس يتصفح الكتب على مهل هناك، ومع أنه لم يتفوه بكلمة واحدة فى حق «شوشا»، فقد ضحكت عيناه للحظة أول ما سمع اسمها، إذ اعتاد الصبية فى الحدير الذى كان يذهب إليه أن يسخروا منها، وكنت متأكدًا أنه كان يفكر فى أن أولئك الذين يحيدون عن طريق الصلاح والتقوى يحيدون عنه كذلك عندما يتعلق الأمر بالشئون الدنيوية الصِّرْفة، طيِّب، إذا كان هذا شأن «موشيه»، فما بال «فيتلزوهن» و «سيليا» و«هايمل»؟، حتى «تيبل» كان رد فعلها ينطوى على الاستخفاف والزراية عندما سمعت أنى سوف أتزوج أختها، لقد عزمتُ من قبل على ألا آخذ «شوشا» معى إلى نادى الكتاب، فهم سوف يسخرون منها ومنى، وهبط المساء على نحو مفاجئ، وأظلمت حجرتى، واتخذت السماء مسحة بنفسجية، فنهضتُ من فراشى، ووقفتُ إلى النافذة: لم يكن المارة يسيرون، بل يقاومون عاصفة ثلجية عنيفة ويتراقصون مع الريح الدَوَّامة بين الفينة والفينة، وقد أحالت أكوام الثلج الضخمة الشارع وديانًا وتلالاً، وساءلتُ نفسى: تُرى ماذا تصنع العصافير الآن؟ وفقًا لرأى «إسبينوزا» فكلنا - الصقيع والطير وأنا - أشكال لمادة واحدة، إلا أن أولها يصفِر ويلعلع ويدفع موجة باردة من القطب الشمالى وثانيها يختبئ فى تجويف حائط وهو يرتعد ويعانى الجوع، أما ثالثها فيتهيأ للزواج من «شوشا»، ولم تكن الساعة قد بلغت بعد السابعة حينما خرجت للبحث عن درشكية،ولبستُ بذلتى الجيدة وقميصًا


Twitter: @ketab_n

جديدًا، وقد حجز لنا «هايمل» و «سيليا» غرفة فى فندق بـ «أوتوك» لقضاء أسبوع هناك، وكان هذا هدية العرس منهما لنا وشهر عسلنا، وملأتُ حقيبة بمخطوطاتى وبعض الملابس وفرشاة أسنان، وقد قمتُ بكل هذا مستشعرًا أن القرار فيه لم يكن قرارى، بل الذى قرر نيابة عنى هو قوة مجهولة، وتلاشى وهم الاختيار بداخلى، ألا يحتمل أن تكون هذه هى الطريقة التى يتزوج بها كل الناس؟ ألا يجوز أن تكون هذه هى الكيفية التى بها يسرق الأشخاص أو يذهبون إلى الحرب أو ينتحرون؟ وضحك شىء ما بداخلى فالمؤمنون بالقضاء والقدر - إذًا - على حق برغم كل شىء، ولن ألوم أحدًا على أى شىء، ووقفتُ أمام البوابة لمدة خمس عشرة دقيقة، على أن كل مركبات الجليد وسيارات الأجرة كانت مشغولة، ولم تكن عربات الترولى التى يعلو الصقيع نوافذها متجهة إلى شارع «جنونيا»، فانطلقتُ على قدمى وأنا أحمل حقيبتى، وقد تناثر الثلج على صفحة وجهى، وانتفخت جفونى، وألقت ذيولاً من الضباب أضواءُ مصابيح الشارع المغطاة بالثلج، وسرتُ أتخبط فى عَماء شتوى يلازمنى عدم تيقن إنسان أعمى، ورغم أنى كنت ألبسُ جرُموقًا من المطاط فقد تبللت قدمى سريعًا، ومررت بشارعى «سولنا» و «إلكترفالنا» ومن «زيمنا» خرجت إلى «جنونيا»، كيف آخذ أمى و«موشيه» إلى «بانسكا» فى عاصفة كهذه؟، إن أمى تتحرك الخطوة بصعوبة فى الجو العادى، ونظرتُ إلى ساعة يدى فلم أستطع قراءة الأرقام المدونة على



Twitter: @ketab_n

وجهها، وصعدتُ مجموعات السلم الثلاث الزلقة والمبللة التى تؤدى إلى النُزُل، حيث جلستْ أمى فى حجرة الجلوس فى رداء مخملى، وعلى رأسها منديل حريرى، وقد بدا وجهها حاد التقاطيع وأبيض، ورأيت فى عينيها تسليم ورع بحكم الله ومسحة تهكم من أحوال الدنيا فى الوقت نفسه معًا، أما «موشيه» فكان يلبس معطفه الحاخامى المصنوع من الفراء المقلم ذا الياقة البالية فضلاً عن قبعته ذات الحافة العريضة،وكان ثمة رجال آخرون ونساء أخريات فى الحجرة، وهم من النزلاء والنزيلات الذين يقضون الليلة هناك، ويحتمل أن تكون العاصفة الثلجية قد حاصرتهم فى وارسو، وكان من الواضح أنهم يعرفون مَنْ هو الشخص المرتقب، ويخمنون الظروف، فما أن دخلتُ عليهم حتى وقعت جلبةٌ وانفجرت عاصفة من التصفيق، وصاح أحدهم:

- حظ سعيد، العريس هنا

وغطى وجهى دُوَّامة من البخار، فلم أر للحظة شيئًا، وسمعتُ فحسب خليطًا من ضحك ذَكرىَ ونِسوى، وتطوع شاب - لعله مستخدم فى النُزل - لينزل السلالم ويساعدنا فى الحصول على مركبة جليد أو درشكية، ولم تستطع أمى الصعود إلى الدرشكية؛ فكان علىَّ أن أرفعها وأجلسها فى مقعدها، ولم يتخل «موشيه» عن شكه فى أن غطاء المقعد من قماش محرم، فبسط عليه منديله كحائل، وكانت الدرشكية


Twitter: @ketab_n

قد تحركت حين تنبهتُ إلى أنى لا أحتفظ بحقيبتى، فـأخـذتُ أصـيح على السـائق أن يتـوقف، وفى تلك اللحظة ركض الشاب إياه خلفنا، وألقى الحقيبة إلى جوارى، فوصفته أمى بأنه ملاك من الـ[illegible] وردت أن أكافئه، على أنه لم يكن معى فكة، فزعقتُ أشكره، فذهبت كلماتى أدراج الريح، وكانت ظلة الدرشكية إلى أعلى؛ فسادت الظلمة داخلها، وسمعت «موشيه» يقول:

- حسنًا، شكرًا لله أن جئت يا أريل، فلقد تأخر الوقت، وخشينا أن يكون شىء قد وقع، أنت تعلم كم تقلق أمك.

- لم أستطع الحصول على درشكية، فاضطررت إلى أن أمشى الطريق كله.

فقالت أمى :

- أرجو ألا يكون قد أصابك برد لا سمح الله. اطلب قرص إسبرين من باشيل.

فقال «موشيه» :

- كله من عند الله، إليه عاقبة الأمور، ثمة عقبات تعترض الإنسان فى كل ما يصنعه كى يتبين عون العناية الإلهية له، لأنه لو سارت الأمور فى سهولة ويسر لقال الإنسان إن قوتى وشدة ساعدى هما اللذان جلبا لى هذه الثروة، ولاعتقد الأشرار أنهم إذا ما حققوا نجاحًا أن ذلك يرجع إلى مقدرتهم، ولو أن طريق الشر لا ينتهى دائمًا بالنجاح، ولسوف ينال


Twitter: @ketab_n

«هتلر» ـ محا الله اسمه ـ عقابه، ولن يُفلح أبدًا ـ لا هو ولا ذاك المِسْخ الشرير ستالين.

فقالت «أمى»:

ـ إلى أن يتلقيا العقاب الذى يستحقانه مَنْ يدرى كم من الأبرياء سوف يهْلكان.

ـ إيه؟، الحساب مدخر فى السماء، لقد قال الحاخام شولوم بيلز مرة:

لن يتم التغاضى عن قبضة سُعوط فى مجلس العدل الإلهى!، إن مَنْ يعرف الحقيقة يتوكل على الله حق توكله.

ومضت الدرشكية فى طريقها ببطء وهى تَتَرَجَّح، وكان الحصان يتوقف من آن لآخر، ويلتفت برأسه وينظر إلى الخلف، وكأنه ـ فيما يبدو ـ يتساءل عن السبب الذى يدعو الناس إلى السير فى جو كهذا.

وقال السائق باليديية.

ـ فى ليلة كهذه لا خير فى درشكية ولا قيمة لمركبة جليد، ومن الأفضل الجلوس إلى جانب الموقد وتناول الحساء مع المكرونة.

فهمستْ أمى:

ـ عليك أن تعطيه بضعة جروشنات إضافية.

ـ أجل يا أمى، سأفعل.

وعندما بلغنا منزل الحاخام كان الجميع فى انتظارنا: شوشا وباشيل وزيلج وتيبل وفيتلزوهن


Twitter: @ketab_n

وهايمل وسيليا، فحيونى بالبسمات والغمزات، وبدت عينا «سيليا» كأنما تسألانى: أأنت أعمى حقًا إلى هذا الحد؟ أم أنك ترى مالايراه الآخرون؟ ولعلهم ظنوا أنى سوف أغير رأيى فى الدقيقة الأخيرة، وحملت ملابس أمى العتيقة الطراز امرأة الحاخام على الظهور بمظهر التفوق، ولكن فى غير جرح للشعور، وهى ـ أى الأخيرة ـ امرأة بدينة ، ذات شعر أسود مجعد مستعار، ووجه عريض، وصدر ضخم ، ولم يكن فى نظرتها النسوية المتفرسة ما ينبئ عن حب الخير للآخرين أو تمنيه، وكان يوجد سبعة من الذكور بما فيهم الحاخام وابنه، وهو شاب داكن اللون ذو سوالف لا تذكر وياقة صلبة لشبه حسيدى وشبه غُندور؛ ولهذا بعث الحاخام ابنه للأخذ بخناق ثلاثة رجال من الفناء أو الشارع لاستكمال النصاب ، وكانت «شوشا» ترتدى فستانًا جديدًا، وشعرها بتسريحة بومبادور، وقد جعلها حذاؤها العالى تبدو أطول، وعندما دخلت مدت ذراعيها وبدرت منها حركة كما لو كانت ستجرى نحونا، على أن «باشيل» أشارت إليها بأن تلتزم الوقوف ساكنة، وكانت قد أحضرت معها ـ أى باشيل ، زجاجة من النبيذ وأخرى من الويسكى وكيسًا به فطائر، وكان الحاخام رجلاً منتصب القامة طويلها وذا لحية سوداء مدببة ولا يبدو عليه الورع مثل أبى أو «موشيه»، بل هو رجل دنيوى، والمسألة كلها عنده «شُغل»، وكان ثمة تليفون فى الشقة، ونظر كل من أمى و «موشيه» إلى الآخر دهشًا، فلم يخطر ببال والدى أن يضع آلة كهذه فى منزله، ولما كان «زيلج» قد أودع



Twitter: @ketab_n

ألف دلوتى عند محام ليؤديها إلى «باشيل» بعد إتمام الطلاق فقد تجنب الزوجان السابقان كل منهما الآخر، وراح هو يذرع المكان جيئة وذهابًا فى بذلة سوداء وياقة صلبة، وربطة عنق بها دبوس لؤلؤى، وقد أخذ حذاؤه يُصر، وكان يدخن سيجارًا، وكان على الأرجح سكران بما يلائم عضو فى جمعية دفن الموتى، ودعا أمى بـ «نسيبته» وَذَكَّرها بوقت أن كنا جيرانًا، وتبادل «فيتلزوهن» الحديث مع «موشيه» مظهرًا فيه معرفته بالجمارا والمدراش، وسمعت.. موشيه يقول: أنت متبحر، ولكن التبحر يقتضى ممارسة.

فرد «فيتلزوهن»:

ـ إذًا فأنت تحتاج ما ينقصنى وهو الإيمان.

ـ الإيمان يأتى أحيانًا فى مرحلة لاحقة.

وكان «فيتلزوهن» قد التقى من قبل بـ « شوشا» فى منزل «سيليا»، وامتدح لى جمالها الطفولى، وقال إنها ذكَّرته بصديقة له إنجليزية فى أيامه الخوالى، كما تحدث عن إشراكنا ـ أنا وهى معًا ـ فى رحلته الروحية المقبلة، وأضاف قائلاً:

ـ تسوتسك، إنها فى عينى أكثر سحرًا وفتنة من تلك الممثلة الأمريكية مليون مرة، ما اسمها؟ لو تزوجتها لاعتبرتُ ذلك مهانة لك وضَعَة.

وجلس الحاخام ليفرغ عقد الزواج، ومسح طرف قلمه فى طاقيته الصغيرة، ولما سأل عما إذا كانت العروس عذراء رد.. زيلج»: مضمونة، وعاد ابن


Twitter: @ketab_n

الحاخام ومعه ثلاثة رجال يلبسون سترات مبطنة وأحذية بساق طويلة وطواق من الفرو، ويضع أحدهم حبلاً معقودًا حول حقويه، وإذ لم تكن لديهم الرغبة فى انتظار الوجبة الخفيفة عقب إتمام مراسم الزواج فقد صبوا لأنفسهم كئوسًا من الويسكى فى الحال، وكانت وجوههم مهترئة من البرد فى الخارج ومُسودة ومتغضنة من أثر السن والعمل الشاق، وتعبر عن الازدراء لكل آمال الشباب وتطلعاتهم، وكانت أعينهم الدامعة المتوارية خلف حواجبهم الكثيفة تقول إن انتظروا بضع سنين فحسب لتقفوا على حقيقة ما وقفنا عليه نحن، وأحضر ابن الحاخام ظُلة وأربعة قوائم من خلف الموقد، وتلا الحاخام عقد الزواج المكتوب بالآرامية بسرعة وهو يبتلع الكلمات، وقد تعهدتُ فيه أن أدفع فيه لـ «شوشا» مائتى جيلدر فيما لو طلقتها، ولها المبلغ نفسه من ميراثى فيما لو ترملت هى، ولم أكن قد اشتريتُ خاتم زفاف، إذ أخبرتنى «باشيل» بأن أى صائغ ليس فى مقدوره أن يزودنا بخاتم يناسب أصبع «شوشا» السبابة النحيل كأصبع طفلة، وأعطتنى وقتذاك الخاتم الذى أعطاه لها «زيلج» منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وكان علىّ أن أنتفع به فى هذه المناسبة فحسب، وانفجرت هى تبكى إذ بدأ الحاخام يترنم بالكلمات المقدسة، ومسحتَّ «تيبل» دمعة فرت من عينها اليسرى بطرف منديلها، وحركت «شوشا» شفتيها عدة مرات كأنما تهم بالسؤال عن شىء أو أن تقول شيئًا، فكانت «باشيل» تهز رأسها فى كل مرة محذرة، ولاحظتُ أن أمى تكاد لا تقوى


Twitter: @ketab_n

على الوقوف، وتترنح من حين لآخر، وتمسك بذراع «موشيه» الذى كان هو الآخر يتمايل وكأنه يهمهم بدعاء، وقد خطط «هايمل» و «سيليا» لاستقبالنا فى مطعم، ولكن ذلك تم العدول عنه، لما عرف عن أمى و «موشيه» من عدم الثقة فى مطاعم المدن الكبرى، إذ قد لا يكون طعامها شرعيًا على نحو خالص، فضلاً عن أن القطار الأخير إلى «أوتوك» - حيث هُيئت حجرةٌ لى أنا وشوشا هنالك - يغادر المحطة مبكرًا بحيث لا يدع وقتًا يكفى لمثل هذا الاستقبال ، وكانت «باشيل» قد لفَّتْ لنا عشاء لنأكله فى القطار، وعزمتْ أمى و «موشيه» على العودة إلى «ستيكوف القديمة» أول شىء فى الصباح التالى يرافقهما إلى المحطة «هايمل» و«سيليا» ، ولقد تقرر أن أنتقل أنا و «شوشا» إلى منزل آل «شنتشينر» حين نعود من «أوتوك» ، وأدركتُ أن كل من حضر المراسم قد أحس (بل ولعل باشيل وشوشا قد أدركتا فى قرارة نفسهما ذلك أيضًا، حيث يبقى دائمًا أثر من سلامة الحكم) أنى ارتكبت حماقة بالغة، وإن كان الجو العام هو جلال المناسبة الممزوج بالبهجة الغامرة، وقد تصرف فيتلزوهن، نفسه بطريقة أبوية تقريبًا، وهو الذى اعتاد على إطلاق النكات حتى فى الجنازات إظهارًا لمدى تمسكه بكلبيته، فقد ضغط على يدى وتمنى لى حظًا سعيدًا، وانحنى مقبلاً يد «شوشا» الصغيرة بكياسة ولطف، وكذلك بكى «هايمل» و«سيليا» كلاهما معًا، وقال زيلج، : الزواج والموت هما الشيئان اللذان لا يمكنك أن تتجنبهما، وناولنى حزمة من أوراق النقد


Twitter: @ketab_n

ملفوفة فى ورق شبه شفاف، ولم تبك أمى، وعانقتها وقبلتها، ولكنها لم تقبلنى من جانبها، وقالت: بما أنك قد أقدمت وعملتها، فمن الواضح أنه مقدر.

## (٢)

كان محددًا للقطار أن يقوم فى الثانية عشرة إلا الثلث، ولكنه لم يتحرك حتى منتصف الليل، وكانت العربة التى جلسنا فيها خاوية، والمصباح الغازى البالغ الصغر يعشى الأبصار أكثر مما ينير، وكانت «باشيل» و «تيبل» اللتان رافقتانا إلى القطار قد عادتا إلى المنزل، وكان داخل العربة باردًا كخارجها تقريبًا، فارتديتُ سترتين كنت قد وضعتهما فى حقيبتى، وكانت «شوشا» قد أحضرتْ معها طوقًا ومِشْمَلَةَ يدين من الفراء ربما يرجع تاريخهما إلى ما قبل الحرب ويخصان أمها ولا ريب، وكان الطوق ذا رأس ثعلب وعينين زجاجيتين، والتصقت هى بى وجسدها يهتز كحيوان صغير، هل ارتكبنا خطأ وركبنا قطارًا خاويًا تقرر له أن يقف طوال الليل فى المحطة؟، وأردت أن ألقى نظرة على العربات الأخرى، على أن «شوشا» تشبثت بى وقالت إنه لا يمكن أن أتركها وحدها، وأخيرًا سمعنا صافرة، وأخذ القطارُ ينزلق برفق على القضبان الملساء، وفتحت «شوشا» الكيس الذى أعطتنا إياه «باشيل» وأكلنا وجبة باردة، وقد استغرق كل شىء منها وقتًا طويلا: فتح الكيس ، تقرير ما يخصها من الطعام وما يخصنى، وبدا أنها ترتعد مع


Twitter: @ketab_n

كل قضمة، وكنت قد وعدت «هايمل» و «سيليا» . هذان الكريمان المحسنان إلينا . أن تساعد «شوشا» فى أعمال المنزل وتدبير شئونه حينما نسكن معهما، لأن «مريانا» فى طريقها للزواج ، ولكن تردد «شوشا» فى كل مرة يجب عليها فيها أن تختار بين أبسط الأمور أقنعنى بأنها سوف تكون قليلة النفع، فهى تلتقط قطعة من المخلل لتسقط من أصابعها، وتتناول من الرغيف لتضعها ثانية، ولم تكن لأصابعها النحيلة أظافر تقريبًا، ولم أتبين ما إذا كانت قد قضمتها أم توقفت عن النمو، وتأخذ هى فى المضغ ثم لا تلبث على نحو ما أن تنسى أن طعامًا فى فمها، ومررنا بمقبرة «براغ»: مدينة من شواهد حجرية ملفوفة فى أكفان من الثلج ، فقالت «شوشا»:

- يبى ترقد هنا.

- أجل، أعرف.

- أوه ، أريل، إنى خائفة.

- فسألتها : مم تخافين؟

فلم تجب، فقدرتُ أنها نسيت ما سألتها بشأنه.

ثم قالت: ربما ضل القطار طريقه.

- كيف؟، القطار يجرى على خط سكة حديد.

ففكرت «شوشا» فى ذلك مليًا.

- أريل، لن أكون قادرة على إنجاب الأطفال، الطبيب قال مرة إنى ضيقة أكثر من اللازم، أنت تعلم أين؟


Twitter: @ketab_n

- لا أريد أطفالاً، أنت طفلتى.

- أريل، هل أنت زوجى الآن؟

- أجل ، يا شوشيل.

- وهل أنا حقًا زوجتك؟

- وفقًا للشرع.

- أريل، إنى خائفة.

- مم تخافين الآن؟

- آوه، لا أدرى ، من الله، من هتلر.

- هتلر فى ألمانيا حتى الآن وليس هنا، وفيما يتعلق بالله فـ...

- أريل ، نسيت أن أحضر معى مخدتى الصغيرة.

- لسوف نعود بعد أسبوع وتستعيدين مخدتك.

- بدون مخدتى لن أتمكن من النوم.

- لسوف تنامين، لسوف نرقد فى فراش واحد.

- أوه، أريل، لسوف أبكى.

وانفجرت فى بكاء صاخب كفتاة صغيرة، فطوقتها بذراعى،، وهى ترتعد، فأحسست بخفقان قلبها، وأخذت أحصى ضلوعها من خلال فستانها، وجاء مفتش القطار ليثقب التذاكر ، وسألنى: لماذا تبكى؟

- أوه، لقد نسيتّ أن تحضر معها مخدتها.

- ابنتك، إيه؟



Twitter: @ketab_n

ـ كلا، أجل.

ـ لا تبكى أيتها الفتاة الصغيرة، لسوف تحصلين على مخدة أخرى.

وألقى إليها قبلة، وانصرف.

وفى غمرة البكاء أخذت تضحك قائلة: ظنك أبى.

ـ إنى لكذلك.

ـ كيف يجوز هذا؟ أنت تمزح.

وأخلدتْ هى إلى الهدوء، فوضعتُ خدى إلى خدها وكان خدها حارًا رغم أنها كانت ترتعد من البرد، وكنت أنا أيضًا بردانًا، ومع ذلك فقد استبدت بى فى الوقت نفسه رغبة تختلف عما أحسست به من قبل، رغبة هى فى غنى عن المشاركة، أو التفكير، كأنما البدن أو القوام المادى يتصرف بمفرده، فاسلمت لها قيادى، وقد تملكتنى واستحوذت علىّ: ، ولو جاز القول بأن المعدن يحس لكان إحساسى هو ما تحسه إبرة منجذبة إلى مغناطيس، ولابد أن «شوشا» قد قرأت ما يدور فى خلدى ، إذ قالت:

ـ أوه ، إن لحيتك تخزنى مثل الإبر.

وهممت بالرد عليها، ولكن العجلات أخذت تصر، ثم كفت عن الحركة، حيث كنا فى موضع ما بين «وافر» و «ميدزين»، ومن وراء لوح زجاج النافذة امتدت أرض قاحلة بيضاء، وكان الثلج قد توقف عن


Twitter: @ketab_n

الانهمار، وعكست السماء صورته، وبالرغم من الجليد فقد بدا الجو وكأنه يتألق بصيف آخر، ومرَّ المفتش وأعلن على عجل أن القضبان قد كساها الثلج، فقالت «شوشا».

- أريل، إنى خائفة.

- خائفة مم؟

- لقد كبرت أمك فى السن كثيرًا، وبدت قريبة من الموت.

- إنها ليست بهذا الكبر.

- أريل، أريد العودة.

- ألا تريدين أن تكونى معى؟

- أجل، معك ومع أمى.

- ليس قبل أسبوع.

- أريد ذلك الآن!

فلم أرد، ووضعتْ رأسها على كتفى، وجثم علىَّ شعور باليأس يخالطه عزاء مبعثه معرفة أنى لست مسئولاً عن هذه الورطة، وفى شبه العتمة غمزت لذاتى الأخرى، حاكمى المستبد، وهنأتها على انتصارها الهزلى، وأغمضت عينى وأحسست بالدفء ينساب من رأس شوشا إلى وجهى، ما الذى كان علَىَّ أن أخسره؟ لا شىء أكثر مما يخسره جميع الناس على أى حال.



Twitter: @ketab_n

# (٣)

كنا المسافرين الوحيدين اللذين يتعين عليهما أن ينزلا فى «أوتوك»، فضللنا فى منطقة مشجرة، ولابد أنى كنت شبه نائم، إذ هممت بمخاطبة شخص ما فتبين لى أنه شجرة، ولزمت «شوشا» الصمت على غير المعهود، وعلى حين بغتة برز لنا رجل، كأنما انشقت عنه الأرض، وأرشدنا إلى الفندق، وتمتم بأنه الخادم المبعوث للقائنا عند المحطة، وقد افتقدنا، وظل صامتًا طوال الطريق، وسار مسرعًا بحيث تبعته «شوشا» بجهد ومشقة، وكان كل بضع ثوان يضل منا بين الشجر، ثم لا يلبث أن يظهر فجأة من جديد، وكأنا نلعب «الاستخفاء» بجوف الليل، وكانت الحجرة التى أعطوها لنا فى العلية ـ واسعة وباردة، وبها سرير كبير من النحاس الأصفر، فضلاً عن سرير صغير ضيق، وقد زُوِد كل منهما بوسائد ضخمة وبطاطين ثقيلة تنبعث منها رائحة الصنبوبر والخُزامى، ومن خلال لوح زجاج لم يعلُه الصقيع رأينا أشجار الصنبوبر محملة بكيزان يغطيها الثلج ومزينة بكتل جليدية متدلية منها كأشجار عيد الميلاد عند المسيحيين، وخجلت «شوشا» أن تخلع ملابسها أمامى، فكان علىَّ أن أقف فى مواجهة النافذة وهى تتهيأ لدخول الفراش، ومع أنى قَدَّرتُ أن السير على غير هدى خلال الأجمة الباردة قد أصابها بالذعر، فقد بدا لى أن الخطر الحقيقى هو أن أتركها دون اكتراث أو مبالاة، ورأيتُ صورتها المنعكسة على الجزء النظيف


Twitter: @ketab_n

من زجاج النافذة وهى تخلع «القميصول» وترتدى ثياب النوم، وبعد هرج ومرج مع الأزرار والخطاطيف استغرق وقتًا طويلاً دخلتْ الفراش، وصاحت: أريل، الفراش بارد كالثلج، وطلبت منى أن أنام على السرير الصغير، ولكنى رقدت إلى جوارها، وكان جسمها دافئًا، على حين كان جسمى نصف متجمد، وأخذت هى ترتعد بين ذراعى مثل دجاجة يُضَحَّى بها، وفيما عدا ثدييها الصغيرين اللذين كانا يماثلان ثديي فتاة بادئة فى النضج، كانت جلدًا على عظم، ورقدنا معًا بهدوء ننتظر أن يسخن الفراش، وكان البرد ينفذ من إطار النافذة، وألوح الزجاج تخشخش، والريح تصفر من وقت لآخر، وتنتهى بأنين ممطوط كذاك الذى يصدر عن امرأة تلد، وكنا نسمع أحيانًا عويلَ أصواتٍ مختلفة كأن قطعانًا من الذئاب تتجول فى أحراش «أوتوك».

- أريل، إنهما تؤلمانى.

- ما هما؟

- ركبتاك، أنت تخزنى بهما.

فأبعدت ركبتى.

- إن معدتى تقرقر.

- إنها معدتى، لا معدتك.

- كلا، إنها معدتى، هل تسمع؟ مثل بكاء طفل.

فتحسست بطنها، فارتعدت قائلة:



Twitter: @ketab_n

- أصابعك باردة.

- سأدفئ نفسى فيك.

- أوه، أريل، لا يحل لك أن تصنع هذا مع أنثى.

- إنك زوجتى يا شوشيل.

- أريل، إنى خجلة، أوه، إنك تدغدغنى.

وبدأت تضحك، ثم استحال الضحك نشيجًا على حين بغتة.

- لماذا تبكين يا شوشيل؟

- كل هذا غريب جدًا، عندما كان ليزر الساعاتى يجىء ليقرأ لنا ما كنت تكتبه فى الجريدة كنت أقول لنفسى: كيف يكون هذا؟ أهو حقًا هناك؟ وكنتُ أخرج الأوراق التى رسمتها أنت بالألوان، وقد جفت، ولقد ذهبنا للبحث عنك فى الجريدة، فصاح فى وجهنا رجل عجوز يقدم الشاى هناك، «ليس هنا»!، فلم نعد نذهب إلى هناك، وذات ليلة كنتُ ألهو مع ظل على الحائط قفز فجأة وصفعنى، أوه، إن لك شعرًا على صدرك! لقد رقدت سنة بكاملها مريضة وقال الطبيب «كنياسلر» أنى سوف أموت.

- متى حدث ذلك؟

فلم تجب، بل غلبها النعاس وهى تتكلم، وكان تنفسها يصدر سريعًا وناعمًا، وجذبتها إلىَّ، فاحتضنتنى فى نومها بقوة كأنما تحاول خرق أحشائى، وساءلت نفسى: كيف لمخلوقة ضعيفة كهذه



Twitter: @ketab_n

أن تشع مثل هذا القدر الكبير من الحرارة؟ ألهذا سبب فسيولوجى؟ أم أن له صلة بالعقل؟، وأغمضتُ عينىّ، وتلاشت رغبتى العارمة فيها، تلك الرغبة التى استولت علىَّ فى القطار، أتراني صرت عنينًا فجأة؟ واستغرقت فى النوم، وحلمُت بأن شخصًا ما يصرخ بوحشية، وأن حيوانات ذات خراطيم طويلة تجرنى وتقتطع أجزاء من لحمى بمخالبها وأنيابها، كما حلمت بأنى أتجول فى قبو هو أيضًا سلخانة ومقبرة مفروشة بجثث غير مدفونة فى الوقت نفسه، فاستيقظت مثارًا، وأمسكت بـ «شوشا» وجامعتها حتى قبل أن تستيقظ، فاختنقت وقاومت، وألهب سيل من الدم الحار فخذى، فحاولت تهدئتها، على أنها انفجرت فى العويل والنحيب، وإنى لعلى يقين أنها قد أيقظت كل مَنْ بالفندق، أتراني قد آذيتها؟، وبارحتُ الفراش أبحث عن مفتاح النور، فلم أهتد إليه، ودخلتُ فى الموقد وأنا أتحسس خطاى هنا وهناك، وفى محنتى دعوت الله أن يحفظها.

- لاتبكى يا شوشيل، الناس سيأتون جريًا، كل هذا بدافع الحب.

- أين أنت؟

ووجدت المفتاح، فأضأت النور،ولم أر للحظة. كانت توجد مغسلة عليها إبريق ماء وفوطتان معلقتان إلى جانبها، وكانت «شوشا» جالسة فى الفراش، وقد كفت عن البكاء، فقالت:

- أريل، أأنا زوجة الآن؟


Twitter: @ketab_n

## (٤)

فى ثالث يوم لنا بأوتوك بينما أنا جالس مع «شوشا» فى حجرة الأكل بالفندق نتناول طعام العشاء استدعيت للتليفون، وكانت المكالمة من وارسو، وكنت واثقًا أنها من «سيليا»، على أنه اتضح لى أنها من «فيتلزوهن»:

- تسوتسك، لدىّ أنباء طيبة لك.

- أنباء طيبة لى؟ ، هذا شىء أسمعه لأول مرة.

- أجل، أنباء طيبة، ولكن خبرنى أولاً كيف الحال فى شهر العسل؟

- رائع، أشكرك.

- لا أزمات؟

- أجل، ولكن.....

- ألم تمت شوشاك من الخوف؟

- تقريبًا ، ولكنها عادت سعيدة من جديد الآن.

- إنى أحبها، لسوف تنمو موهبتك وهى إلى جانبك.

- من بقك لباب السما.

- تسوتسك، لقد أخبرتُ شابيرو - رئيس تحرير الجريدة المسائية، ترى ما اسمها؟ أنك تكتب رواية عن يعقوب فرانك(١٠٢)، فأبدى رغبته فى أن تكتب له سيرة فرانك ليطبعها فى ستة أعمدة أسبوعيًا، وسوف


Twitter: @ketab_n

يدفع لك ثلاثمائة زلوتى فى الشهر ، لقد أخبرته أن هذا المبلغ ضئيل للغاية، لعله يرفعه بضعة زلوتات.

- ثلاثمائة زلوتى مبلغ ضئيل للغاية؟! إنه ثروة.

- شىء من الثروة! إن لديك كل مقومات النجاح ياتسوتسك، لقد قال إن بوسعك مط السيرة لمدة سنة أو قدر ما يسعفك الخيال.

- هذه ضربة حظ فى الحقيقة!

- هل استقر رأيك على السكنى مع آل شننتشيز؟

- لن أفعل هذا فى الوقت الحاضر، لسوف ينحل جسم شوشا بدون أمها.

- لا تفعل ذلك ياتسوتك، أنت تعلم أنى لست غيرانًا منك، بل على العكس، السكنى هناك ليست فكرة طيبة، تسوتسك، لسوف أفلس بسبب هذه المكالمة، لسوف نحتفل بكما حين تعودان ، تحياتى لشوشا، أستودعك الله.

وودت لو قلتُ لفيتلزوهن كم أنى ممتن له، وأنى سوف أدفع له أجر المكالمة، على أنه وضع السماعة آنذاك؟ وعدتُ إلى المائدة قائلاً: شوشيل، لقد جلبت الحظ إلىَّ، فقد حصلتُ على عمل فى جريدة، لن ننتقل إلى منزل سيليا!

- أوه، أريل، لقد استجاب الله لدعائى، لا أريد أن أسكن هناك، لقد دعوت بذلك؛ فهى تحاول انتزاعك منى، ماذا ستعمل فى الجريدة؟


Twitter: @ketab_n

- سأكتب سيرة مسيح دجال يوعز إلى الناس بأن الله يريدهم أن يأثموا، وهو نفسه قد ضاجع ابنته وزوجات أتباعه.

- ألديه سرير واسع إلى هذا الحد؟

- ليس كلهم فى وقت واحد، أو لعلهم جميعًا معًا، إذ كان فى مقدرته أن يشترى سريرًا يسع أوتوك كلها.

- أو تعرفه؟

- لقد توفى منذ مائة وخمسين عامًا.

- أريل، لقد دعوت الله، فاستجاب لكل ما طلبته، حينما ذهبت إلى مكتب البريد جاء رجل أعمى، فأعطيته عشرة جروشنات؛ ولهذا السبب فعل الله كل هذا، أريل، إنى أحبك حبًا شديدًا، وأود أن أكون معك فى كل دقيقة وفى كل ثانية، عندما تذهب إلى دورة المياه أبدأ فى القلق عليك فربما ضللت طريقك أو سقطت، لقد افتقدت أمى أيضًا، لم أرها منذ مدة طويلة، أود أن أكون معك ومعها ليل نهار عشرة آلاف سنة.

- شوشيل، لسوف تُطلق أمك فى القريب العاجل، وقد تتزوج مرة أخرى، ولسوف يكون مستحيلاً أن أبقى معك فى كل دقيقة، إذ يجب علَىَّ فى وارسو أن أذهب إلى رئيس التحرير وإلى المكتبة، ويجب علىّ أن ألتقى بـ«فيتلزوهن» أحيانًا؛ فهو الذى حصل لى على عمل.

- أليس لديه زوجة؟


Twitter: @ketab_n

ـ لديه نساء كثيرات، وليس لديه زوجة واحدة.

ـ أهو المسيح الدجال؟

ـ إلى حد ما يا شوشيل، هذه مقارنة ليست رديئة.

ـ أريل، أريد أن أخبرك بشىء، ولكنى خجلة.

ـ ليس لديك ما تخجلين منه، فقد رأيتك عارية.

ـ أريد المزيد.

ـ المزيد مم؟

ـ أريد أن أرقد فى الفراش، أنت تعرف ما أعنى.

ـ متى؟ الآن؟

ـ أجل.

ـ انتظرى، فالنادلة لم تحضر الشاى بعد.

ـ لستُ عطشانة.

وجاءت النادلة بكوبين من الشاى وقطعتين من كعكة سكر على صينية، وكنا نحن فقط نزلاء الفندق، وينتظر قدوم زوجين آخرين، ولكن ليس حتى اليوم التّالى، وتوقفتْ السماءُ عن إمطار الثلج، وأشرقتْ الشمسُ، وكنت قد عزمتُ على التنزه مع «شوشا»، ربما إلى «سويدر»، إذ كنت أريد أن أرى عما إذا كان النهر قد تجمد كله، وكيف يبدو الشلال بدلاته الجليدية الضخمة وهى تتلألأ فى ضوء الشمس، إلا أن كلام «شوشا» غَيَّر كل شىء، ولم تتجه النادلة إلى المطبخ مباشرة، وكانت امرأة قصيرة ذات وجه عريض



Twitter: @ketab_n

وخدود بارزة عالية وعينين سوداوين براقتين، بل قالت:

ـ سيد جريدنجر، لقد أكلت كل شيء على حين تركت زوجتك كل شيء، ولهذا فهي نحيفة للغاية، إنها لمست بالكاد فاتح الشهية والحساء واللحم والخضر، ليس مستحبًا أن تأكل قليلاً هكذا، الناس يأتون إلى هنا ليزداد وزنهم لا أن يفقدوه.

فبدا الضيق على وجه «شوشا» وقالت:

ـ لا أستطيع أن آكل كثيرًا، لأن معدتي صغيرة.

ـ إنها ليست المعدة يا سيد جريدنجر، فقد اعتادت جدتي أن أقول «المصران لا قاع له»، إنها الشهية، إن رئيستي هنا فقدت شهيتها، فذهبت إلى الطبيب «شمالتزياوم»، فوصف لها الحديد، فاكتسبت عشرة أرطال من جديد.

فسألت «شوشا»:

ـ حديد؟ أو يمكنك أن تأكلي الحديد؟

فضحكت النادلة كاشفة عن فم ممتلئ بالأسنان الذهبية، وضاقت عيناها إلى حجم ثمرتي العُلَّيق، وقالت:

ـ الحديد دواء، لم يقل أحد أن المسامير تؤكل.

وسارت مبتعدة، وحذاؤها الضخم يحتك بالأرض، ولما بلغت باب المطبخ ألقتْ نظرة ضاحكة ناحيتنا، فقالت «شوشا»:


Twitter: @ketab_n

ـ إنى لا أحـبـهـا، إنـى أحـبـك أنت وأمى فـحـسـب، وأحب «تيبل» أيضاً، ولـكن ليس بقدر حبى لكمـا أنتمـا الاثنان، أود أن أكون معكما ألف سنة.

## (٥)

كان الليل طويلاً، فـقـد ذهبنا لننام قبل التـاسـعـة، واستيقظنا معًا فى الثانية عشرة، وسألتنى «شوشا»:

ـ أريل، ألن تنام بعد الآن؟

ـ كلا، يا شوشيل.

ـ ولا أنا، فى كل مـرة أسـتيـقـظ فيـهـا أرى الأمـر كله حكاية خـيـاليـة، أنت والـزفـاف وكل شـىء، ولـكن هـأنذا ألمسك وأراك هنا.

ـ فـيـمـا مـضـى كان هناك فـيلسـوف يعـتـقـد أن كل شىء حلم، وأن الله يحلم والعالم حلمه.

فسألت «شوشا»:

ـ أهذا مكتوب فى الكتب؟

ـ أجل، فى الكتب.

ـ أمس، كـلا، أمس الأول، حلمت بأنـى فى البـيـت وأنك دخلت، وبـعـد أن أغلقـتّ البـاب دخلت ثانيـة، ولم يكن يوجد أريل واحد، بل اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، عشرة صف بأكمله أريل، ما هذا الحلم؟

ـ لا أحد يعرف.


Twitter: @ketab_n

- ماذا تقول الكتب؟

- الكتب لا تعرف أيضًا.

- كيف هذا؟ أريل، يقول ليزر الساعاتى إنك غير مؤمن، أهذا حقيقى؟

- كلا، ياشوشيل، إنى أؤمن بالله، ولكنى لا أؤمن بكشفه عن نفسه وإخباره الحاخامات بالشرائع المتزمتة التى يضيفونها عبر الأجيال.

- أين الله؟ فى السماء؟

- لابد أنه فى مكان ما.

- لماذا لم يعاقب هتلر؟

- أوه، إنه لا يعاقب أحدًا، لقد خلق القطة والفأر، والقطة لا يمكنها أن تأكل العشب، لابد أن تأكل اللحم، لا يعيبها أن تقتل الفئران، والفئران ليست مذنبة بالتأكيد، ولقد خلق الذئاب والغنم والجزارين والدجاج، كما خلق الديدان والأقدام التى تدوس عليها.

- أليس الله طيباً؟

- ليس كما نرى الطيبة نحن.

- أليس لديه رحمة أو شفقة؟

- ليس كما نفهم الرحمة أو الشفقة نحن.

- أريل، إنى خائفة.

- إنى خائف أيضًا، ولكن هتلر لن يأتى الليلة، قربى منى، هكذا.


Twitter: @ketab_n

ـ أريل، أريد أن يكون لدىّ طفل منك، طفل صغير ذو عينين زرقاوين وشعر أحمر، ويقرأ الكتب مثلك، قال الطبيب إنهم لو فتحوا بطنى لخرج طفل حى.

ـ وأنتِ هل تريدين ذلك؟

ـ أجل يا أريل، طفلك، لوجاء صبيًا فلسوف يقرأ الكتب مثلك.

ـ الأمر لا يستحق فتح البطن لقراءة الكتب.

ـ الأمر يستحق، سأرضعه، ولسوف يكبر ثدياىّ.

ـ إنهما كبيران فى نظرى.

ـ ماذا فى الكتب غير ذلك؟

ـ أوه، كل أنواع الأشياء، لقد اكتشفوا أن النجوم تفر هاربة بعيدًا عنا، عشرات الآلاف من الأميال كل يوم.

ـ أين تفر؟

ـ فى الفضاء الخالى البعيد جدًا.

ـ ألن تعود أبدًا؟

ـ لسوف تنطفئ لسوف تبرد أولاً، وتظل حرارتها تقل بنفس القوة التى ازدادت بها، ثم تبدأ المهمة العنيفة بأكملها من جديد.

ـ ماذا تقول الكتب عن مكان يبى؟

ـ إذا كانت توجد روح فهى فى مكان ما، أما إذا كانت لا توجد فهى إذًا...


Twitter: @ketab_n

- أريل، إنها هنا، إنها تعرف عنا، لقد جاءت لتتمنى لى حظًا سعيدًا.

- متى؟ أين؟

- هنا أمس، كلا، أمس الأول، كيف عرفت أننا فى أوتوك؟

لقد وقفت عند الباب بجوار ميزوزاه(١٠٣) وابتسمت، كانت ترتدى فستانًا، أبيض وليس كفنًا، وعندما كانت حية كانت سنان من أسنانها الأمامية مخلوعتين، أما الآن ففمها ملىء بالأسنان.

- لابد أن هناك فى الآخرة أطباء أسنان مهرة.

- أريل، هل تسخر منى؟

- كلا، لست أسخر منك.

- لقد جاءت إلىَّ فى وارسو كذلك، كان ذلك قبل أن تأتى أنت لزيارتنا أول مرة، كنت جالسة على الكرسى ودخلتْ هى، كان الباب مغلقًا بالمزلاج، كانت أمى بالخارج، هى التى طلبت منى ذلك بسبب الأشرار، فجأة كانت يبى هناك، كيف استطاعت ذلك؟ لقد كلمتنى مثلما تكلم أخت أختها، وكان شعرى مفكوكًا فضفرته لى، ولعبت معى سرير القطة الهزاز، ولكن بدون خيط، ثم رأيتها فى اليوم السابق على عيد الغفران فى حساء الدجاج، وكان على رأسها أكليل من الأزهار مثل عروس غير يهودية، وعرفت أن شيئًا ما سيحدث، لم أكن أريد أن أقول شيئًا عن هذا وأنت


Twitter: @ketab_n

هناك، كُلَّما ذكرت يبى صرخت فىّ أمى، وقالت إنى مجنونة.

ـ لست مجنونة.

ـ إذًا ماذا أكون؟

ـ روح حلوة رقيقة.

ـ ماذا تفهم من هذا؟

ـ لعلك حلمت بها.

ـ فى منتصف النهار؟

ـ يحلم المرء أحيانًا بالنهار.

ـ أريل ، إنى خائفة.

ـ مم تخافين هذه المرة؟

ـ من السماء والنجوم والكتب، احك لى حكاية العملاق، نسيت اسمه.

ـ أوج، ملك بيسان.

ـ أجل، عنه، أصحيح أنه لم يجد زوجة لأنه ضخم جدًا؟

ـ ها هى الحكاية: عندما حدث الطوفان، وركب نوح وأبناؤه الفلك، وكذا جميع الحيوانات والطير ، لم يستطع «أوج» الدخول لضخامته البالغة، فجلس فوق السطح، وأمطرت عليه السماء أربعين يومًا وأربعين ليلة، ولكنه لم يغرق.

ـ أكان عاريًا؟



Twitter: @ketab_n

ـ مَنْ الترزى الذى كان يستطيع أن يفصل بنطلونًا من الكبر بحيث يسعه؟

ـ آوه، أريل، إنه ليطيب لى أن أكون معك، ما الذى سوف تفعله عندما يأتى النازيون؟

ـ لسوف نموت.

ـ معًا؟

ـ أجل ياشوشيل.

ـ ألن يأتى المسيح؟

ـ ليس بسرعة هكذا.

ـ أريل، تذكرت أغنية منذ لحظات.

ـ ما هى؟

وبدأت «شوشا» تغنى بصوت رفيع:

كان يُدعى فاصوليا

أما مكرونة فهو اسمها

تزوجا يوم الجمعة

ولم يأت أحد

واحتضنتنى قائلة:

ـ أوى، أريل، ما أسعدنى أن أرقد إلى جانبك حتى ولو متنا.



Twitter: @ketab_n

# الفصل الثالث عشر

## (١)

فى جريدة ما بعد الظهر التى امتد فيها نشر سيرة «يعقوب فرانك» لمدة شهور، وهى فى الحقيقة مزيج من السيرة والخيال، أمست الأنباء أكثر سوءًا؛ فقد التقى «هتلر» و «موسولينى» فى ممر برنر، وهما ولاريب قد توصلا إلى قرارات بشأن تدمير بولندا وهدمها والقضاء على اليهود، وواظب قسم كبير من الصحافة البولندية على مهاجمة الأقلية اليهودية وكأنها أعظم خطر يتهدد الأمة، وجاء إلى بولندا ممثلو حكومة هتلر، فاستقبلهم الجنرال الدكتاتور «ريدزسمجلى» ووزراؤه، وفى الاتحاد السوفيتى أصبحت عمليات التطهير والاعتقالات الجماعية ومحاكمة التروتسكيين وقدامى البلاشفة والمناشفة اليمينيين واليساريين والصهاينة والعبرانيين. أصبحت مصدر فزع ورعب دائمين، وفى المدن البولندية ازدادت البطالة وتفاقمت، وفى القرى، حيث يسكن الروس البيض والأوكرانيون، كان الفلاحون يموتون من الجوع، وأعلن كثير من الألمان فى بولندا


Twitter: @ketab_n

أنهم نازيون، وقام الكومنترن بحل الحزب الشيوعى البولندى، وأثار اتهام «بوخارين» و «كامنيف» و «زينوفيف» و «ريكوف» بالتخريب والجاسوسية، وتسميتهم بأذناب الفاشيين وعملاء هتلر. أثار استنكارًا حتى بين الستالينيين البالغى الولاء للستالينية، على أن توزيع الصحف اليدية فى وارسو، بما فيها صحيفة ما بعد الظهر التى أعمل لحسابها. لم ينخفض، بل العكس؛ فقد ازداد الإقبال على قراءة الصحف فى تلك الفترة أكثر من ذى قبل، وكان يتعين أن تنتهى قصة المسيح الدجال «يعقوب فرانك» وأتباعه عند هذا الحد، ولكنى كنت مستعدًا بقائمة مسحاء لدجالين آخرين: «ريفينى» و «شلومو مولخو» و «شبتاى تسفى»(١٠٤).

وجاءت أوقات كنت أضطر فيها إلى اختلاق الحجج والأعذار كلما عدتُ إلى المنزل متأخرًا أو عند عدم عودتى ألبتَّة، على أن «باشيل» و «شوشا» بدأتا تتعودان بالتدريج على عدم السؤال عن ذلك، إذ ما الذى تعرفانه هما عن مهنة الكتابة؟، وقد أخبرت «ليزر» الساعاتى بأنى أعمل محررًا ليليًا مرتين فى الأسبوع، فشرح هو لهما ذلك، وكان هو يأتى كل يوم ويقرأ لهما آخر حلقة من سيرة «يعقوب فرانك»، وكان كل شخص فى شارع «كروتشمالنا» يقرؤها - اللصوص والبغايا والستالينيون التقليديون والتروتسكيون الناهضون الجدد، وعندما كنت أسير فى الشارع أحيانًا أسمع باعة السوق وهم يتحدثون عن «يعقوب


Twitter: @ketab_n

فرانك» - معجزاته وعربدته وحماقاته الكبرى، وظل اليساريون يتشكون أن هذا النوع من الكتابة يخدر الجماهير، على أن هذه كانت بحاجة إلى مخدر بعد فراغها من قراءة الأنباء السياسية فى الصفحة الأولى والأنباء المحلية فى الصفحة الخامسة. قبل أن أنتقل إلى التجويف فى شقة «باشيل» دهنت هى الحوائط ووضعت موقدًا حديديًا ورمت الأجولة والخرق التى ظلت مكومة نيفًا وعشرين عامًا، ولم يكن من الممكن ترك «شوشا» بمفردها ساعة واحدة؛ ففى اللحظة التى تُترَك فيها وحدها تسيطر عليها الكآبة والانقباض، ولم يكن فى وسعى أن أبقى معها طوال الوقت من ناحية أخرى، كما أنى لم أتخل عن حجرتى بشارع «ليزنو» أو أخبر المالك بأنى تزوجت، والواقع أنى قلما قضيت الليل هناك، بل أن «تيكلا» أيضًا قد اكتشفت أن الكُتّاب أشخاص مضطربون ذوو نزوات وأهواء، فكفت عن أن تسألنى عما أصنع أوعمن أقضى الوقت معه أو أين أُمضى الليل، وكنت أدفع لها أجرة السكنى، وأمنحها زلوتًا كل أسبوع، كما كنت أحضر لها هدية كذلك فى عيدى الميلاد والفصح، وفى كل مرة كنت أمنحها فيها شيئًا يحمر وجهها، وتحتج بأنها لا تريده ولا لزوم له، وتمسك يدى تقبلها كما يصنع الفلاحون طوال أجيال، ولما كنت لا أستطيع أن أكون مع «شوشا» طوال الوقت، فقد كانت عودتى إلى المنزل تثير الدَّهشة لدىَّ، فقد كان لديها هى و «باشيل» طعام مُعد لى لآكله قبل أن


Twitter: @ketab_n

أنام، أرز باللبن وشاى مع كعكة السبت وتفاحة مشوية على النار، وكانت «شوشا» تغتسل كل ليلة، وتغسل شعرها كذلك فى أغلب الأحيان، وتناقشنى فى آخر حلقة من قصة «يعقوب فرانك»، كيف يمتلك رجل نساء كثيرات على هذا النحو؟ أهو سحر أسود؟ هل باع روحه للشيطان؟ كيف يأتى أب تلك الأفعال مع ابنته؟ وكانت «شوشا» تمدنى بالجواب أحيانًا: تلك أزمنة مختلفة، ألم يكن للملك سليمان ألف زوجة؟، إذ كانت تتذكر ما كنتُ أقصه عليها حين كنا نسكن فى رقم (١٠).

لقد بقيت «شوشا» كما هى أساسًا ـ نفس الوجه الطُفولِى، ونفس السمت الطفولى، ومع ذلك فقد أصبح التغير واضحًا عليها، وفى المرات السابقة كانت «باشيل» هى فقط التى تعد وجباتنا، ولم تكن تسمح لـ «شوشا» بالاقتراب من المطبخ أو تعهد إليها بابتياع الحاجات من السوق، بل تكتفى بإرسالها أحيانًا إلى الدكان القريب لابتياع نصف رطل سكر أو بضع أوقيات من الزبد أو قطعة جبن أو رغيف خبز، وجميعها أشياء مشتراة على الحساب، وكنت أشك فى معرفتها قيمة النقود، وفجأة لاحظتُ كثرة حركتها وانهماكها داخل المطبخ، وأنها تصحب أمها إلى السوق فى ساحة «ياناش»، كما سمعتها أيضًا تناقشها فى أطباق الخضر التى لا تفسد هضمى، وكان الاهتمام بنظام تغذيتى يربكنى دائمًا، فلم أتعود أن يُعنى أحد بحاجاتى، إلا أنى بالنسبة لـ «شوشا» كنت زوجها،


Twitter: @ketab_n

وبالنسبة لـ «باشيل» زوج ابنتها، ولم يخطر ببالى قط أن تُخَيِّط «شوشا» أو ترفو، ولكنى رأيتها ترفو جواربى أثناء تناولى لكوب شاى، وقد بدأت كذلك تُعنى بقمصانى ومناديلى وياقاتى، وتأخذ حذائى إلى مُصلح الأحذية ليصنع له كعبًا، وما كان يمكننى أو كنت أود أن أصبح زوجًا بالمعنى المتعارف عليه إلا أن «شوشا» قد قامت بواجبات الزوجية شيئًا فشيئًا، وحينما كنت أعود إلى المنزل فى المساء كنت أجدها جالسة فى مقعدها، ولم تعد محاطة بلعبها أو تقرأ فى كتبها المدرسية، وكانت المفاجآت دائمًا فى انتظارى، فقد حرصت على لبس أحذية ذات كعب عالٍ وجوارب بلون اللحم، لا عند خروجها للزيارة فحسب، بل فى المنزل أيضًا، وكانت أمها تبتاع لها الفساتين وثياب النوم المزينة بشرائط، وتغير هى طريقة تسريحة شعرها من وقت لآخر، وتزايد اهتمامها بكتاباتى، وكانت رواية «يعقوب فرانك» قد انتهت، أما الرواية الجديدة فكانت عن «شبتاى تسفى»، وهى تصف بكثير من التفصيل تَشوُّف اليهود إلى الخلاص فى فترة تبرز أوجه الشبه بينها وبين فترتنا الحالية؛ فالذى توعد «هتلر» أن يصنعه باليهود صنعه «بوجدان شملينسكى» من قبل منذ ثلاثمائة عام، وقد عاش اليهود وهم يتوقعون الموت أو مجىء المسيح منذ أن نُفوا من أرضهم، وفى بولندا وأوكرانيا والأراضى التى يحكمها الأتراك وجميعها داخلة فى الأراضى المقدسة سعى القباليون إلى استعجال


Twitter: @ketab_n

الآخرة عن طريق الصلاة والصوم وذكر الأسماء المقدسة، واستقصوا أسرار سفر دانيال، ولم ينسوا قط الفقرة الواردة فى الجمارا التى تقرر أن المسيح سوف يجىء حينما يكون النسل طاهرًا وخاليًا من الذنوب فى مجموعه أو العكس تمامًا، وكان «ليزر» يضطر كل يوم إلى قراءة آخر حلقة لـ «شوشا»، ويفسر لها المعانى بالرجوع إلى الشريعة والتاريخ اليهوديين، وسمعتها تقول لأمها:

- أوه يا أمى، هذا مشابه تمامًا للوقت الحاضر.

لم تكن «تيبل» قد وجدت زوجًا بعد، واشتكت «باشيل» أنها - أى تيبل - من طول ما دققت فى الاختيار أصبحت عانسًا، وبدلاً من أن تتخذ زوجًا اتخذت عاشقًا هو كاتب حسابات متزوج وله خمسة أطفال، ويتذرع فى أى وقت بأنه سوف يطلق زوجته، لأنها امرأة فاجرة، على أنه قد مضى عامان دون أن يلوح طلاق أمام ناظريها، وبدلاً من أن تقر - تيبل - بخطئها ألحقت العار بأمها لاغير، وكانت «تيبل» تزور أمها وأختها فى أحيان كثيرة، وتحضر لهما هدايا صغيرة، وتحضر لى أحيانًا كتابًا أو مجلة أو مفكرة، ويروق لها أن تناقشنى «يعقوب فرانك» و «شبتاى تسفى» ومريديهما، وكان عاشقها يقضى الليالى تباعًا فى المنزل مع زوجته، وقالت «تيبل» إنه قد أصبح موسوسًا، فقد أقنع نفسه بأنه يعانى مرضًا فى القلب، وحينما كانت «باشيل» تذكر «تيبل» بأن الوقت


Twitter: @ketab_n

قد تأخر، وعليها ألا تنطلق إلى منزلها فى ساعة كهذه، كانت «تيبل» تمزح قائلة وهى تشير إلىَّ أنا و«شوشا»: لسوف أتمدد على الفراش معهما، أو تقول: ما الفرق؟ كلنا سوف نموت على أى حال.

وفى الفراش بالليل لم تعد «شوشا» تتحدث عن الدمى واللعب، أو عن أطفال الجيران الذين كانت تعرفهم منذ عشرين عامًا، بل كانت تتحدث مرارًا عن الأشياء التى أهتم بها، أيوجد إله فى السماء حقًا؟ هل يعلم أفكار كل إنسان؟ أهو حقًا يحب اليهود أكثر من غيرهم؟ هل هو الذى خلق غير اليهود كذلك أم أنه خلق اليهود وحدهم؟ وتسألنى أحيانًا: كيف يمكننى أن أتأكد مما حدث منذ مئات عديدة من السنين؟ هل قرأت ذلك فى كتاب؟ أم أنه من تأليفى؟ وتطلب منى أن أروى لها حلقة الغد وحلقات الأيام القابلة، فكنت أقص عليها مالم أكتبه بعد، وأمارس تجربة أدبية معها - أن أترك لسانى ينطلق بحرية وأقول كل ما يرد إلى شفتى؛ فقد قرأت وسمعت من «مارك إلبنجر» عن الكتابة التلقائية (أو العفوية)، وكذلك قرأت فى مجلة أدبية عن نوع من الكتابة يسمى «تيار الشعور»، واختبرت ذلك كله مع «شوشا»، وكانت تنصت إلى كل ما أتفوه به بحب الاستطلاع المعهود لديها نفسه: قصص الأطفال التى سمعتُها من أمى حين كنت فى الخامسة أو السادسة من عمرى، الأهواء والنزوات الجنسية التى لم يكن ليسمح كاتب ييدى لنفسه أن ينشرها، فروضى وأحلامى عن الإله،


Twitter: @ketab_n

خلق العالم، خلود الروح، مستقبل الجنس البشرى، وإلى هذا: أحلام اليقظة بالانتصار على هتلر وستالين، وقد أنشأت طائرة من مادة مضغوطة إلى أقصى حد: السنتيمتر المربع الواحد يتحمل ثقل آلاف الأطنان، وهى تطير بسرعة مليون ميل فى الدقيقة، وتخترق الجبال، وتنفذ من الأرض، وتصل إلى أبعد الكواكب، وتشتمل على تليفون قدرته خارقة بحيث يطلعنى على أفكار وخطط كل كائن إنسانى على وجه الأرض، وأصبحت أنا من القوة بحيث جعلت كل الحروب مهملة ومعطلة، ولما سمع بقواى البلاشفة والنازيون والمعادون للسامية (لليهود) والمحتالون واللصوص والمختطفون والمغتصبون استسلموا على الفور، وأرسيت نظامًا دوليًا مؤسسًا على فلسفة اللعب عند «فيتلزوهن»، وفى طائرتى احتفظت بحريم مكون من ثمانى عشرة زوجة، على أن الملكة والمسيطرة لن تكون إلا «شوشا» نفسها دون غيرها.

- وأين ستكون أمى؟

- سأعطيها عشرين مليون زلوتى، وأسكنها قصرًا.

- وتيبل؟

- ستصبح أميرة.

- سأفتقد أمى.

- سنأتى كل سبت لنراها.

ولم تتكلم «شوشا» وقتًا طويلاً، ثم قالت:


Twitter: @ketab_n

- أريل، إنى أفتقد يبى.

- سأعيدها إلى الحياة.

- كيف يمكن هذا؟

وأسهبت فى القول لـ «شوشا» عن نظرية أن تاريخ العالم كتاب فى مقدور الإنسان أن يمضى فى قراءته إلى الأمام فقط، وليس فى مقدوره أن يقلب صفحاته إلى الوراء، وأن كل ما مضى لايزال - مع ذلك - محتفظا ببقائه، فـ «يبى» تحيا فى مكان ما، ومازال الدجاج والإوز والبط الذى ذبحه الجزارون كل يوم فى ساحة «ياناش» - مازال حيًا يقرقر ويصيح ويبطبط فى الصفحات الأخرى من كتاب العالم - الصفحات اليمنى، لأنه مكتوب باليدية التى تُتلى من اليمين إلى اليسار.

فحبست «شوشا» أنفاسها:

- أو نحيا فى رقم (١٠)؟

- أجل، يا شوشيل، فمازلنا نحيا فى رقم (١٠) فى الصفحات الأخرى من الكتاب.

- ولكن أناسًا مختلفين انتقلوا.

- إنهم يسكنون هناك فى الصفحات المفتوحة وليس فى الصفحات المنتهية.

- قالت أمى مرة قبل أن ننتقل إن خياطًا كان يسكن هناك محلنا.


Twitter: @ketab_n

ـ الخياط يحيا هناك أيضًا.

ـ الكل معًا؟

ـ كل فى زمن يختلف عن الآخر.

بدأت أكف عن الخجل من «شوشا» شيئًا فشيئًا، إذ أخذت تلبس على نحو أفضل، وتبدو أطول قامة، فأخذتها إلى منزل «سيليا»، وقد سحرت كلاً من «سيليا» و «هايمل» ببساطتها وصدقها وسذاجتها، وكنت قد علمتها كيف تمسك بالشوكة والسكين، وكانت تتكلم بطريقة طفولية ولكن تخلو من الغباء، وفى إحدى الزيارات اكتشفت «سيليا» وجهًا للشبه بينها وبين ابنتها الراحلة، فاطلعتنى على صورة ضوئية مصغرة لطفلة، فصعقت، إذ كان ثمة شبه لاريب فيه، وتلاعب «هايمل» ـ الذى ازداد ميله إلى التصوف والإيمان بالقوى الخفية وإمكان إخضاعها لسيطرة البشر ـ تلاعب بفكرة أن روح ابنتهما الصغيرة قد حلت فى «شوشا»، وأننى زوج ابنته من «سيليا» فى الحقيقة، فالأرواح لا تضيع أو تفقد، بل تعود باحثة عن أجساد تتبدى من خلالها لأحبائها، فلا شىء اسمه الصدفة، فالقوى التى هدت الإنسان ووجهت مصيره هى التى وحدت دومًا أولئك الذين كُتِب عليهم أن يتلاقوا.

وتصادف أن «إلبنجر» كان فى زيارة آل «شننتشينر» فى ذلك المساء، فردد ما قاله عن «شوشا» فى مناسبة سابقة عن اعتقاده من أنها تمتلك مقومات الوسيط،



Twitter: @ketab_n

وأن كان الوسطاء الحقيقيون الذين التقى بهم يظهرون نفس الروح الفطرية ونفس الاستقامة والصدق، وفى مناسبة أخرى أجرى محاولة لتنويمها، وحالما طلب منها ذلك استغرقت فى نوم عميق، وقد وجد صعوبة فى إيقاظها، وقبل أن ينصرف قبَّل جبينها، وبعد انصرافه قالت هى:

- إنه ليس إنسانًا؟

فسألها «هايمل» و «سيليا» فى نفس واحد:

- إذًا، فماذا يكون؟

- لا أدرى.

فسألتها «سيليا»:

- أهو ملاك؟ أهو شيطان؟

فردت «شوشا» : لعله من السماء.

فربت «هايمل» على جبينه، وقال:

- تسوتسك، هذه ليلة لا تُنسى بالنسبة إلىَّ، وإنى لن أنساها ما حييت.

## (٢)

فى ليلة الجمعة هذه عدت كالعادة إلى «شوشا»، ولم أكن أقيم أحكام الشرع اليهودى، فلم تكن «شوشا» تذهب إلى الحمام الشعائرى، على أنى أذعنت لرغبة «باشيل»، فكنت أتلفظ بأدعية البركة على النبيذ ليلة



Twitter: @ketab_n

الجمعة وصباح السبت، وكانت «باشيل» تعد لى وجبات السبت النباتية، وتطبخ لى أيضًا اليخنى بالكاشا والفاصوليا، فضلاً عن الـ «كيجل» المصنوع من الأرز والقرفة، وكانت «شوشا» تبارك الشموع كل يوم جمعة قبل حلول ظلمة أول الليل، وتضعها فى الشمعدانات الفضية التى أهدانا إياها «هايمل» و«سيليا»، وكان ثمة رغيفا خبز الحالا قد غطيا بقطعة قماش طرزتها «باشيل» منذ ثلاثين عامًا لـ «زيلج»، وكانت الأسرة تمتلك أيضًا سكينًا ذا مقبض مصنوع من عرق اللؤلؤ محفورًا عليه عبارة «السبت المقدس»، وفى مساء الجمعة ذاك أكلت «باشيل» هى و «شوشا» سمك الجفليت مع لحم الدجاج، على حين صنعتا لى مكرونة بالجبن الحلوم وجزرًا مسلوقًا، وكانتا ترتديان ملابس السبت وأحذية أنيقة، ومن خلال النافذة المفتوحة رأيت شموع السبت فى الشقق وسمعت تراتيل المائدة، وتَغَنَّى بسطاء اليهود: «السلام والنور لليهود فى يوم الراحة ويوم البهجة»، وأنشد الحسيديون قصيدة قبالية من نظم «إسحق لوريا» المقدس بالآرامية تحكى عن بستان تفاح سماوى، وعروسين سماويين، وعن شبائن عرائس سماويات وأفضل الرجال، وكلها تحتوى على أبيات مثيرة للشهوة الجنسية إلى أقصى حد مما قد يصدم قراء ونقاد وقتنا الحاضر هم أيضًا، وتحدثت «باشيل» و «شوشا» عن غلاء سعر الطعام، وعن الصعوبة المتزايدة فى العثور على مكان بالعلية لتعليق الغسيل، وأشارت


Twitter: @ketab_n

«باشيل» بحنين وحزن إلى ما كان متبعًا فى السنوات الماضية من فرش الرمل الأصفر على أرض الحجرات قبل يوم السبت، إذ اعتاد فلاحو القرى المجاورة أن يحضروا عربات رمل قد عُبئ فى براميل خشب صغيرة وينادوا على بضاعتهم فى الشوارع، فهذه العادة قد اندثرت وعفا عليها الزمن، أما فى الوقت الحاضر فتفضل النسوة طلى أرضياتهن بطلاء اللَّك، وأشارت «باشيل» كذلك إلى شىء آخر ألا وهو أن العقائل التقيات كن قد اعتدن الذهاب من بيت إلى بيت وجمع أرغفة الحالا والسمك والكرش، بل وأقماع السكر أيضًا للفقراء، ولكن الجيل الجديد لا يعتقد بمثل هذا النوع من الإحسان، ويأتى الشيوعيون فى طلب النقود لليهود فى «بيروبيدچان»، وهو إقليم فى روسيا موغل فى البعد، فى مكان ما عند حافة العالم، ويقولون إنه توجد أرض يهودية هناك، ويعلم الله وحده إن كانوا يقولون الحقيقة أم لا.

- أماه، ماذا يوجد بعد حافة العالم؟ أهى مظلمة هناك؟

فهزت «باشيل» رأسها قائلة:

- خَبِرها يا أريل.

- لا توجد حافة للعالم، الأرض مستديرة كالتفاحة.

فتساءلت «شوشا»: أين يعيش السود؟

- فى إفريقيا.


Twitter: @ketab_n

- وأين هتلر؟

- فى ألمانيا.

فقالت «شوشا»:

- أوه، تعودوا أن يعلمونا هذا فى المدرسة، ولكنى لا أتذكره، هل يوجد حقًا فى أمريكا رجل يهودى كبير لابد أن يوقع على كل دولار أو أية نقود لا تساوى شيئًا؟ ليزر الساعاتى قال هذا.

- أجل يا شوشا، ولكنه لا يوقع بيده، فهم يطبعون توقيعه.

فقالت «باشيل»:

- فى يوم السبت يجب ألا يتحدث أحد عن النقود، كان يوجد حاخام صغير تقى اسمه رب فيڤكا يتحدث فى يوم السبت باللغة المقدسة فقط، وكان يسكن فى شارع سموكزا، اعتاد فى يوم الجمعة أن يذهب هنا وهناك فى ساحة ياناش ومعه جوال، ويجمع الطعام للفقراء، ويتوقف عن الكلام بعد الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة، لأن ما بعد ظهر يوم الجمعة مقدس تقريبًا كيوم السبت، وعندما يعطونه الصدقات يومئ فقط أو يغمغم ببضع كلمات باللغة المقدسة، وذات جمعة لم يأت بجواله، وقال شخص إنه مريض فى الملجأ، وبعد بضعة أسابيع عاد ثانية بجواله، على أنه توقف عن الكلام تمامًا، وكان يذهب من دكان إلى دكان كالأخرس، وقال شخص إنه قد أجرى عملية


Twitter: @ketab_n

جراحية فى حنجرته، وقطعوا له القصبة الهوائية، وفى يوم جمعة دخل دكان جزار، فأعطاه بعض أرجل الدجاج أو قوانصه، وتصادف أن كان بالدكان رجل من جمعية دفن الموتى ـ حفَّار قبور، فلما رأى رب فيڤكا أطلق صرخة مروعة وسقط مغشيًا عليه، فاختفى رب فيڤكا فى الحال، وأنعشوا الحفَّار بماء بارد وتبدليك صدغيه بالخل، فلما عاد إلى وعيه أقسم بأغلظ الأيمان إن رب فيڤكا قد توفى وأنه دفنه بنفسه، ولم يصدق الناس ذلك، وقالوا إن الرجل مخطئ، على أن رب فيڤكا لم يعد مرة أخرى، وتحرى بعض الفضوليين الأمر فوجدوا أرملته، ولقد علمت أنه قد مات منذ شهور عندما حدث ذلك، لأن «زيلج» كان لا يزال يأتى إلى المنزل بين الحين والحين، وكان الحفَّار أعز صديق له.

فقلتُ: على قدر علمى فإن زوجك السابق لم يكن يعتقد بأشياء كهذه.

فقالت «باشيل»:

ـ كان لايزال شخصًا محترمًا فى ذلك الحين، أما الآن فهو لا يعتقد بشىء.

فقالت «شوشا»:

ـ أوه، لسوف أخاف أن أذهب للنوم.

فقالت «باشيل»:

ـ لا شىء يدعو للخوف، لا يصبح الطيبون خبثاء أو حاقدين بعد الموت، وإنما العكس تمامًا، لا تشعر


Twitter: @ketab_n

الجثة أحيانًا أن صاحبها قد مات، فتغادر قبرها وتسعى بين الأحياء، لقد سمعت عن رجل كان يأتى إلى المنزل عندما كانوا يقيمون عليه الحداد لمدة سبعة أيام، ويفتح الباب، وعندما يرى زوجته وبناته جالسات على الكراسى المنخفضة ـ التى بدون ظهر أو ذراعين ـ فى جواربهن الطويلة، والمرآة مغطاة بملاءة سوداء، وقد شق أبناؤه طيات ستراتهم، يسأل: ماذا يحدث هنا؟ مَنْ مات؟، فتجيبه زوجته المشهورة بسلاطة اللسان والخسة: أنت!، فيختفى فى الحال.

ـ أوه، لسوف أحلم أحلامًا مزعجة.

فنصحتها «باشيل» بقولها:

ـ قولى فحسب «استودع روحى بين يديك»، ولسوف تنامين فى أمن وسلام.

وبعد تناول الفاكهة قدمت «باشيل» الشاى مع قُرص السبت التى خبزتها بنفسها، ثم خرجتُ أنا مع «شوشا» للنزهة على الأقدام من رقم (٧) إلى رقم (٢٥). إذ كان فى وسع الفرد أن يمشى تلك المسافة آمنًا حتى فى الليل، فإذا بَعُد عن ذلك فثمة خطر أن يهاجمه قاطع طريق أو سكران، وفى بعض الشوارع كانت توجد دكاكين يهودية تبقى مفتوحة فى يوم السبت أما فى شارع كروتشمالنا فلا تجد ذلك اللهم مقهى واحد كان يفتح بابه نصف فتحة يشرب فيه الزبائن الشاى على الحساب؛ فلم يكن مسموحًا حتى للشيوعيين أن يدفعوا نقدًا، وقد أخبرتنى «باشيل»


Twitter: @ketab_n

أنها تذكر أوقات أن كان قطاع الطريق يهاجمون الأزواج الصغار فى السن أو حديثى العهد بالزواج ويحملونهم على دفع جروشنات قليلة كل أسبوع، لكى لا يضايقونهم أو يتحرشون بهم، على أن ذلك كان يحدث فى السنوات الماضية؛ إذ شن الاشتراكيون - فى زمن الثورة عام ١٩٠٥ - الحرب على عتاة المجرمين فى عالم الرذيلة والإجرام، وضربوا على أيدى عدد كبير من اللصوص والقوادين والمبتزين، وحطموا عددًا من المواخير وبيوت الدعارة، وشتتوا الداعرات، وعادت المواخير وبيوت الدعارة واللصوص، على أن النصابين والسُرَّاق بالإكراه قد اختفوا إلى الأبد.

ومشيت أنا و «شوشا»، ومررنا بالساحة الخالية تقريبًا، وعندما بلغنا رقم (١٣) قبالة رقم (١٠) من الشارع توقفت هى وقالت:

- لقد سكنا هنا فيما مضى.

- نعم، لقد قلت هذا مِرارًا كلما مررنا من هنا.

- كنت تقف فى الشرفة وتصطاد الذباب.

فقلت: لا تذكرينى بهذا.

- لِمَ لا؟

- لأننا نصنع بمخلوقات الله ما يصنعه النازيون بنا.

- الذباب يلسع.

- لابد أن يلسع، فهذه هى الطريقة التى خلقه الله بها.


Twitter: @ketab_n

فسألت «شوشا»:

ـ لماذا خلقه الله بهذه الطريقة؟

ـ شوشيل، لا توجد إجابة لهذا.

ـ أريل، أريد أن أنظر إلى داخل بوابة رقم (١٠).

ـ لقد فعلت ذلك آلاف المرات من قبل.

ـ خلنى أذهب.

وعبرنا الشارع، ونظرنا إلى داخل الفناء المظلم. كل شىء قد بقى على حاله كما كان منذ عشرين عامًا عدا معظم السكان فقد ماتوا. وقالت «شوشا»:

ـ أمازال يوجد حصان فى الإسطبل؟ عندما كنا نسكن هنا كان الحصان لونه بنى، وله غُرة بيضاء على أنفه، كم يعيش الحصان؟

ـ عشرين عامًا تقريبًا.

ـ ولِمَ لا يعيش أطول من ذلك؟، الحصان قوى جدًا.

ـ يعيش الحصان أحيانًا حتى الثلاثين.

ـ ولماذا لا يعيش حتى المائة؟

ـ لا أعرف.

وقالت «شوشا»:

ـ عندما كنا نسكن هنا دخل عفريتٌ الإسطبلَ بالليل، وجدل ضفائر صغيرة فى ذيل الحصان وعُرْفِه، وامتطاه، وسار به من الحائط إلى الحائط طوال الليل، وفى الصباح كان الحصان مبللاً بالعرق تخرج



Twitter: @ketab_n

الرغوة من فمه، ومات تقريبًا، لماذا تفعل العفاريت مثل هذه الأشياء؟

- لست متأكدًا من صحة هذا.

- لقد رأيت الحصان في ذلك الصباح، كان مبللاً كله، أريل، أريد أن أنظر إلى داخل الإسطبل لأرى إن كان الحصان لايزال كما هو.

- داخل الإسطبل مظلم.

- إنى أرى ضوءًا هناك.

- أنتِ لا ترى شيئًا، فلنذهب.

واستأنفنا المشى حتى وصلنا إلى رقم (١٦)، ثم توقفت «شوشا»، وكان هذا ينبئ دائمًا عن أنها تود أن تقول شيئًا، إذ هى لا تقدر على الكلام، وهى ماشية.

- ماذا هناك يا شوشا؟

- أريل، أريد أن يكون لدىّ طفل منك.

- لماذا فجأة؟

- أريد أن أكون أمًا، فلنذهب إلى المنزل، أريدك أن...

- شوشيل، لقد قلتُ إنى لا أريد أطفالاً.

- أريد أن أكون أمًا.

واستدرنا عائدين، فقالت:

- أنت تخرج للجريدة، وأكون أنا وحدى، إنى أجلس هناك وتخطر ببالى أفكار غريبة، وأرى وجوهًا غريبة مضحكة.



Twitter: @ketab_n

- أى وجوه؟

- لا أعرف، إنها تكشر وتقول أشياءً لا أفهمها، إنها ليست لأناس، وتضحك أحيانًا، ثم تبدأ كلها فى العويل كما فى الجنازة، لمن هذه الوجوه؟

- لا أدرى، خبرينى أنت.

- إنها كثيرة، بعضها يشبه وجوه الجنود، وتركب خيولاً أيضًا، وتغنى أغنية حزينة، أغنية هادئة، إنى خائفة.

- شوشيل، أنت تتخيلين أشياءً، ربما تحلمين.

- كلا يا أريل، أريد طفلاً ليتلو الكاديش[١٠٥] من أجلى حين أموت.

- لسوف تحيين.

- كلا، إنهم ينادوننى للذهاب معهم.

ومررنا برقم (١٠) مرة أخرى، فقالت «شوشا»:

- فلننظر إلى داخل البوابة.

- مرة أخرى؟

- خلنى!


Twitter: @ketab_n

# الفصل الرابع عشر

## (١)

توفى والد «هايمل»، وترك له عـمـائر وأرض وأطيانًا زراعية قيمتها ملايين من الزلوتات، ونصحه الأصدقاء والأقارب بالانتقال إلى «لودز»، لرعاية أهم أملاكه هناك، على أنه قال لى:

ـ تسوتسك، الآدمى مثل الشجرة لاتستطيع أن تقتلعه من جذوره وتغرزه فى تربة أخرى، لدىّ هنا موريس وأنت وأصدقائى فى صهيون العمالى، وفى مكان ما فى المقبرة هنا تستقر عظام ابنتى الصغيرة، أما فى لودز فلسوف أنظر إلى وجه زوجة أبى كل صباح، والأهم من ذلك أن سيليا سوف تشعر بأنها غير سعيدة هناك، فمن ذا الذى تتحدث إليه؟ دع السلام يعم العالم فحسب، ولسوف نقضى السنين بطريقة ما أو بأخرى أينما نكون.

وكان «فيتلزوهن» قد عزم يومًا ما على العودة إلى أمريكا، إلا أنه تخلى عن هذه الفكرة منذ وقت بعيد، وقد كتب إليه من فلسطين نفر من أصدقائه أن لو قدم إلى هناك لتوافرت له فرصة طيبة أن يحصل



Twitter: @ketab_n

على منصب بالجامعة العبرية فى القدس، ولكنه رفض، وقال لى:

- اليهود الألمان يديرون شئون الجامعة هناك، وعدد كبير منهم أكثر بروسية من البروسيين، لو كان علىَّ أن أنسجم معهم لكان انسجامى بقدر ما تنسجم أنت مع الإسكيمو.

لقد كنا جميعًا نحيا من أجل الحاضر، الجماعة اليهودية كلها، وكان كل يوم يمر هو هبة من الله ونعمة مادام «هتلر» لم يشن هجومًا بعد، ومادامت الثورة لم تندلع والمذبحة لم تقع، وقد شبه «فيتلزوهن» هذه الفترة بعام ١٠٠٠ حين انتظر المسيحيون فى كل أوروبا المجىء الثانى للمسيح ودمار العالم، وكان يذكر كثيرًا فيلسوفه الأثير «فاينجز»[١٠٦] وفلسفته «كأن»، وأنه سوف يأتى يوم يتم فيه التسليم بالحقائق كلها كتعريفات تحكمية، وبالقيم كقواعد لعبة، وأخذ يتلهى بتصميم مبنى - معبد لعب - مبنى للأفكار ولعيناتٍ من التباين الثقافى وأنماط السلوك فضلاً عن أديان من غير طريق الوحى، إنه نوع من المسرح يأتى إليه الناس ليجسدوا أفكارهم ويعبروا عن أحاسيسهم، ويكون الجمهور فيه هم الممثلين، أما أولئك الذين لم يقرروا بعد أى نوع من اللعبات يفضلون فلهم أن يشتركوا معه فى رحلات روحية أو مع شخص له مواهبه العقلية للوقوف على ما يسليهم أو يثيرهم ويشوقهم أكثر، ولقد سمعت «فيتلزوهن» يقول:


Twitter: @ketab_n

ـ تسـوتسك، إنى أعلم تمامًـا أن هذا كله مـحض هُراء، فـهتلر لن يقبل أية لعـبـة أخرى غيـر لعـبتـه، وكذلك ستالين، بل وبعض المتعصبين منا كذلك، إلا أنى ـ مع ذلك ـ أضطجع فى الفـراش بالليل، وأتخـيل عـالمًا كله يموج باللعب ـ آلهة لـعب، أمم لعب، زيجـات لعب، علوم لعب، مـاذا حـدث للرياضـيـات بعـد لوباتشـيفـسكى[١٠٧] وريمـان[١٠٨]؟ وما مـجموعة المجـموعـات لـدى كـانتـور[١٠٩]؟ أو نظرية النسـبـيـة لإينشتاين؟ لا شىء سوى تلاعب بالألفاظ، وما أجزاء الذرة تلك التى تنمـو كلهـا كـالفطر عـقب المطر؟ ومـا الكون الآخـذ فى التـقلص أو الانكمـاش؟ العـالم سـائر فى الاتجـاه الـذى تسلكه أنت يا تسـوتسك ـ كل شىء فى طريقه إلى أن يصبح رواية، لماذا تكشّر يا هايمل؟ أنت أكثر مناصرة لمذهب المتعة منى.

فرد «هايمل»:

ـ إذا كان قد حُكِم علينا أن نموت فلنمت معًا، لدىّ اقتـراح!، فى منزل «سوكـازوف» للدرس تأتى الفـرحة الكبرى فى الليلة الثانية للعيد، فلنقرر نحن فى منزلنا وجـوب أن يكون كل يوم هو الليلة الثـانيـة للعـيد، مَنْ يمنعنا من ابتـداع تقـويمنا أو عـيدنا الخـاص بنا؟ إذا كـانت الحـيـاة كلهـا ليـست إلا إيهـامًـا للنفس فلنوهم أنفسنا بأن كل ليلة هى الليلة الثـانية للعـيد، ولسـوف تعد لنا «سيليا» وجبـة عـيد، ونتلوا القـاديش، ونترنم بترانيم المائدة، ونتحدث عن الحسيدية، ولسوف تكون


Twitter: @ketab_n

حاخامى يا موريس، وتكون كل كلمة من كلماتك حافلة بالحكمة ومحبة الله، وليكن هنالك خشية من الإله تتسم بالهرطقة - أعنى أن تأثم وأنت مازلت تخاف منه، فلم يكن شبتاى تسفى كاذبًا، فقد كان متفهمًا لحقيقة الأمور، والحسيدى الحقيقى لا يخشى الوقوع فى الإثم كثيرًا، ولك أن تُخّوف غير الحسيدى من جهنم وفراش المسامير، أما نحن فلا، لماذا كانت جهنم أدنى مرتبة من الفردوس مادام كل شىء جزءًا من الألوهية كما يفترض؟ إنى أتطلع إلى المتعة وأبحث عنها، ولكن الناس فى الوقت الحاضر يحتاجون إلى موسيقى صاخبة وأغان مبتذلة ونساء يرتدين فراء الشنشلا ابتغاء البهجة، ومن يدرى ماذا غير هذا؛ ورغم ذلك يعم الاكتئاب، أنا أذهب إلى منزل «لورس» للدرس، إلى «زيمانسكا»، فأراهم جالسين يحدقون إلى مجلات بها صور عاهرات وحكام مُطَلَّقِين، ولا أثر للنعيم الذى اعتدنا أن نحظى به فى منزل درس «سوكازوف» بكتبه الممزقة ومصباح السقف الغازى ومجموعة اليهود الملتحين ذوى السوالف غير المعتنى بها وجلاليب الجبردين الطُّلس الرثة التى تعرفها يا موريس، وأنت أيضًا ياتسوتسك، إذا كان الرب فى حاجة إلى هتلر وستالين وريح ثلجية وكلاب مسعورة، فدع ذلك له، أما أنا فأحتاجك يا موريس وأنت يا تسوتسك، وإذا لم يكن ثمة حقيقة رحيمة، فإنى ألجأ إلى الكذب الذى يمنحنى الدفء ولحظات البهجة.


Twitter: @ketab_n

فقال «فيتلزوهن»:

- لسوف ننتقل إلى منزلك يومًا.

- متى؟ عندما يقف هتلر على أبواب وارسو.

واقترح «هايمل» على «فيتلزوهن» أن ينشر مجلة كان قد خطط لها منذ سنوات، وأن يؤلف كتابًا عن إحياء المسرحية وتحديثها يسميه (Hasidis)، ويتولى هو (أى هايمل) تمويلهما معًا، والعمل على ترجمتهما إلى عدد من اللغات مؤكدًا أن كل التجارب الثورية والعظيمة قد نشأت وجرت فى ظروف قلقة محفوفة بالمخاطر، وكذلك اقترح أن يبنى أول هيكل لعب فى القدس أو فى تل أبيب على الأقل، وقال إن اليهود على خلاف غيرهم لم يسفكوا دمًا على مدى ألف عام وأنهم الجماعة الوحيدة التى تلعب بالكلمات والأفكار بدلاً من السيوف والبنادق، وأنهم سوف يسافرون إلى أرض إسرائيل على جسر مصنوع من الورق لا على جسر مصنوع من المعدن لدى مجىء المسيح طبقًا للأسطورة اليهودية، طيِّب، أهى صدفة محضة أن يسيطر اليهود على هوليوود وعالم الصحافة ودور النشر؟ لسوف يُقدم اليهودى للعالم حرية اللعب ويكون موريس فيتلزوهن هو المسيح.

فقال لى «موريس فيتلزوهن»:

- قبل أن أصبح المسيح هل لك أن تقرضنى خمسة زلوتات؟



Twitter: @ketab_n

## (٢)

لبثت الليلة مع «هايمل» و «سيليا»، وقد أصبحت علاقتى بـ «سيليا» أفلاطونية فترة من الوقت، وإن جاءت أوقات كنت أسخر فيها من هذه الكلمة وما تعنيه، وفى الآونة الأخيرة لم أولِ أنا ولا «سيليا» التجارب الجنسية اهتمامًا كبيرًا، وقد ظلت تحاول هى و «هايمل» كلاهما إقناع «فيتلزوهن» وأنا - ومعى شوشا - بالانتقال إلى شقتهما والسكنى معهما كأسرة واحدة، ثم صار لون «سيليا» رماديًا، وذكر «هايمل» أنها فى رعاية طبيب، وسوف تذهب إلى «كارلسباد» أو «فرانزنباد» أو أى منتجع معدنى آخر فى الظروف العادية، ولكنه لم يشر إلى ما بها، وفى تلك الليلة كما كان يحدث فى كثير من الليالى من قبل انتهى الحديث بسؤال عن أسباب عدم تركنا وارسو، وأجاب كل منا عنه نفس الجواب تقريبًا، فأنا لا أستطيع أن أترك «شوشا»، و «هايمل» لن يرحل بدون «سيليا»، ثم ما معنى الفرار فى حين يبقى ثلاثة ملايين يهودى؟ زد على ذلك أن بعض أصحاب المصانع الأثرياء فى «لودز» قد فروا إلى روسيا عام ١٩١٤، ثم قتلهم البلاشفة بعد ثلاث سنوات، فأدركتُ أن «هايمل» يخشى عناء السفر أكثر مما يخشى اضطهاد النازيين، وسمعت «سيليا» تقول: لو أحسست أن القوة مازالت لدىَّ لأبدأ فى مكان آخر لما بقيت هنا يومًا آخر، لقد ماتت أمى وجدتى وأبى كذلك فى مثل


Twitter: @ketab_n

سنى - صغارًا فى الحقيقة، إنى مستمرة بقوة القصور الذاتى فحسب أو سمها كما تشاء، لا أريد أن أذهب إلى أرض أجنبية وأرقد فى حجرة بفندق أو مستشفى، أريد أن أموت فى بلدى، لا أريد أن أرقد فى مقبرة غريبة، ماذا يستطيع «هتلر» أن يفعل أكثر من ذلك؟، لا أذكر مَنْ القائل إن الجثة فى منتهى القوة لأنها لا تخشى أحدًا، وأن كل حى يود ويأمل دومًا أن يحقق لنفسه ما يتمتع به الموتى من سلام تام واستقلال كامل، وقد جاءت أوقات كنت أرتعب فيها من الموت، ولا يمكنك أن تذكر هذه الكلمة فى حضورى، وحين أبتاع جريدة أتخطى النعايا بسرعة، وبدت لى فكرة أنى سوف أكف يومًا عن الأكل والتنفس والتفكير والقراءة، بدت لى مرعبة إلى حد أن لم يطب لى شىء فى الحياة بعد ذلك، ثم بدأت أتصالح مع فكرة الموت شيئًا فشيئًا، بل وزاد على ذلك أن أصبح الموت حلاً لكل المعضلات ومثلى الأعلى فى الواقع، وعندما أبتاع الجرائد فى الوقت الحاضر أنتقل إلى النعايا بسرعة، وإذا ما قرأت أن شخصًا توفى أحسده، والأسباب التى تمنعنى من الانتحار : أولاً، هايمل، فإنى أود الرحيل معه، ثانيًا، أن الموت هو من الأهمية بحيث لا يُجرع مرة واحدة، فهو مثل نبيذ فاخر يجب الاستمتاع به على مهل، إن المنتحرين يريدون الإفلات من الموت دفعة واحدة وإلى الأبد، أما الذين ليسوا على هذا النحو من الجبن فيعرفون كيفية الاستمتاع بمذاقه.


Twitter: @ketab_n

وذهبنا للنوم فى وقت متأخر، وأخذ «هايمل» يغط فى نومه فى التو، وسمعت «سيليا» تتقلب فى فراشها وتتنهد وتغمغم، وأضاءت المصباح الليلى ثم أطفأته، إذ ذهبت إلى المطبخ لتصنع شايًا لنفسها أو ربما لتتناول قرص دواء، لو أن كل شىء لا يعدو أن يكون لعبة كما يؤكد «فيتلزوهن»، فإن لعبة حبنا تكون قد انتهت أو تأجلت إلى أجل غير معلوم على الأقل، إنها فى الواقع لعبته هو أكثر مما هى لعبتنا نحن، لأنى أستشعر وجوده دائمًا عندما أكون معها، وهى كثيرًا ما كررت أقواله حرفيًا حينما تتحدث إلىَّ، فقد اكتسبت رطانته الجنسية ونزواته وطرائفه فى الكلام والسلوك، بل وكانت تسمينى موريس وتدعونى ببعض أسمائه المحببة، وكلما فشلت لعبة حبنا كان هو الحائل بيننا حتى تصورت أنى أشم شذا سيجاره، وكان الوقت فجرًا حين استغرقتُ فى النوم، وأقبل الصبحُ مغيمًا ورطبًا قليلاً، فقد أمطرت السماء فى منتصف الليل، وإن كان ثمة شواهد تنبئ عن صفاء فيما بعد، وبعد الإفطار ذهبت إلى منزل «شوشا»، وبقيت إلى وقت الغداء، ثم انصرفت متوجهًا إلى حجرتى فى شارع «ليزنو»، وعلى الرغم من أن المروق من شارع «إيرون» هو الأسرع، فقد اجتزت «جنونيا» فـ «زيمنا»، ثم «أورلا»، إذ أنت معرض للضرب من فاشستى بولندى فى شارع ليزنو، لقد نأيت عن حيى اليهودى، فثمة شوارع معينة خطرة دائمًا، وأخرى تسير فيها بجراءة بالنهار لا بالليل، وثالثة مازالت آمنة تقريبًا في ذلك


Twitter: @ketab_n

الوقت وكان ملتقى شارعى «ليزنو» و «إيرون» يمثل درجة معتدلة من الخطر، وعلى الرغم من عدولى عن سلوك الطريق اليهودى فقد كنت أحمل على كاهلى عبءَ الشّتَات، ولما اقتربت من البوابة أخذت أجرى، والتقطت أنفاسى لدى إحساسى بالأمن فى الداخل، وصعدت مجموعات السلم الثلاث ببطء، وكان لدىّ الكثير من العمل فى ذلك اليوم والأيام التالية يجب أن أؤديه، فقد تأخرت فى كتابة روايتى للجريدة، وكنت قد وعدت بقصة لمجموعة قصص مختارة، وكنت - إلى ذلك - بدأت فى رواية أخرى عن حركة «شبتاى تسفى» فى بولندا، وفى نيتى أن تكون عملاً جادًا، لا أن تنشر متسلسلة فى جريدة يومية بعد الظهر، ودقَقتُ الجرس، ففتحتْ لى «تيكلا» الباب، وكانت تُلمِّع أرضية الممر وفستانها مشمور عن ساقيها العاريتين، وابتسمت قائلة:

- حزر مَنْ اتصل بك ثلاث مرات الليلة الماضية؟

- مَنْ؟

- حزر.

وذكرت عدة أسماء، على أنها هزت رأسها وقالت:

- هل تقر بعجزك؟

- أجل، أقر.

- الآنسة بتى.

- بتى من أمريكا.


Twitter: @ketab_n

- إنها هنا فى وارسو.

وصمتُ لحظة، فلقد علم «فيتلزوهن» من أحد السياح الأمريكان أن «سام دريمان» قد توفى وترك لـ «بتى» نصيبًا كبيرًا من إرثه، وأن أرملة سام وأولاده اعترضوا على الوصية، والآن تأتى «بتى» إلى وارسو، ومتى؟، فى وقت يحلم فيه كل يهودى بالفرار، وبينما أنا واقف هنالك مدهوشًا دق جرس التليفون، وقالت «تيكلا»:

- إنها هى، قالت إنها سوف تتصل بك فى الصباح.

(٣)

بالرغم من أنه لم يبد لى أن وقتًا طويلاً جدًا قد مضى على عودة «بتى» إلى أمريكا مع «سام دريمان»، فقد تعرفت بجهد على المرأة التى قابلتها فى ذلك اليوم بفندق «بريستول»، إذ بدت أكبر سنًا تشارف خريف العمر، وأصبح شعرها خفيفًا، ولم يعد أحمر طبيعيًا، بل صار خليطًا منفرًا من الأصفر والأحمر، ولاح وجهها على نحو ما أعرض وأكثر جاذبية تحت البودرة والروج، وإن كان ثمة تجاعيد وآثار شعر على شفتها العليا وذقنها، أتراها كانت مريضة طوال الوقت؟ أتراها حزنت لوفاة سام حزنًا بالغًا؟ فثمة شيء قد حدث لأسنانها، وكذلك لاحظتُ بقعة على رقبتها لم تكن لها من قبل، وكانت تلبس كيمونو وخفًا، وقاستنى من رأسى إلى مقدم حذائى، وكررت ذلك


Twitter: @ketab_n

ثانية، ثم قالت: أأصبحت أصلع تمامًا بهذه السرعة؟ مَنْ جردك من شعرك هكذا؟ حسبتك أطول قامة، أيمكن أن تبدأ فى التضاؤل وأنت فى هذا العمر؟ طيِّب، لا تأخذ الأمر مأخذ الجد، فإنى أتصرف وفقًا لما أتأثر به تمامًا، وأفتقد الإدراك التام لما تسمونه الحقيقة الموضوعية، لقد تعرفت على وارسو بصعوبة، حتى الفندق لم يعد كما كان، قبل أن نغادر بولندا جمعت كومة بأكملها من الصور الضوئية لك وللآخرين، ولكنها ضاعت مع كثير من أوراقى، اجلس، لابد أن نتكلم، ماذا أقدم لك؟ شاى؟ قهوة؟... لا شىء ما معنى لاشىء؟ سأطلب لك قهوة.

وطلبت «بتى» قهوة بالتليفون، وكانت تتكلم بخليط من البولندية والإنجليزية، وجلستْ على مقعد مريح فى مواجهتى، وقالت:

- لعلك تتساءل عن سبب مجيئى، وعلى الأخص فى مثل هذا الوقت، أنا نفسى أتساءل، أو بالأحرى: لقد توقفت عن التساؤل لا عما يفعله الآخرون فحسب، بل عما يصدر عنى من أفعال كذلك، لعلك علمت أن سام قد توفى، لقد عاد إلى أمريكا واعتقدت أنه بصحة جيدة، وانغمس فى العمل بهمة ونشاط كما كان دائمًا، وفجأة سقط ميتًا، فى ثانية كان حيًا، وفى الثانية التالية كان ميتًا، ورغم حزنى حسدته، الموت بالنسبة لأناس مثلى عملية طويلة، فنحن نبدأ نموت حالما نبدأ النضج.


Twitter: @ketab_n

وتغير صوتها ـ أشد بحة، وثاقبًا إلى حد ما، وقرع الساقى الجرس، وهو يدفع عربة عليها طقم فضة، وكان الطقم يحتوى على قهوة وقشدة ولبن ساخن، فناولته «بتى» دولارًا، واحتسينا قهوتنا، وقالت:

ـ استمر كل شخص على ظهر السفينة يسألنى نفسى الشىء، لماذا أنت ذاهبة إلى بولندا؟ فقد كانوا جميعًا ذاهبين إلى باريس، لقد أخبرتهم بالحقيقة أن لى عمة عجوزًا فى سلونيم، وهى عين المدينة التى أحمل اسمها، وأريد أن أراها قبل أن تموت، وهم يعتقدون جميعًا أن هتلر سيبدأ الحرب اليوم أوغدًا، ولكنى لست على يقين من هذا، فما النفع الذى يعود عليه من الحرب مادام كل الذى يريده يقدمونه إليه على طبق كبير من الفضة؟ لقد فقد الأمريكيون والعالم الديمقراطى كله أثمن ما يملكون ـ الشخصية، هناك نوع من التسامح والتساهل أسوأ من مرض الزهرى وأسوأ من القتل، وأسوأ من الجنون، لا تنظر إلىَّ بهذه الطريقة، إنى نفس الإنسانة، ومن الحق أن أقول إنى قد عشت أعمارًا كاملة فى الوقت الذى عاش فيه كل منا بعيدًا عن الآخر، لقد عانيت من انهيار عصبى تام، لقد سمعت هذه العبارة تستعمل، ولكنى لم أكن أدرك معناها، وقد اتخذ ذلك شكل اللامبالاة التامة فى حالتى، ففى ليلة ذهبتُ إلى الفراش وأنا سليمة ظاهريًا، ولما صحوت من النوم كنت على قيد الحياة من الناحية البدنية، على أنه لم يكن بى جوع أو عطش أو حتى أدنى رغبة فى النهوض


Twitter: @ketab_n

من الفـراش، ولتـسـامـحنى لـم أكن أريد حـتى الذهاب إلى الحـمـام، ورقدت طوال النـهـار، وذهنى فـارغ، بعد وفاة سام بدأت أدخن بشراهة وأشرب أكثر مما ينبغى أيضًـا رغم أنى لم أكن مـولعـة بالشـراب قط، فـقـد ذهبت بى إلى المحكمـة امـرأة سـام الشكسـة وأبناؤه الجشعون بسبب الوصية، وكان محاميهم من الخبث والدهاء بحيث يجزم الشيطان نفسه أنه من صنعه وابتكاره، وكان النظر إلى وجهه فحسب يسبب لى المرض، لقد تخليتُ عن كل شىء، وفررتُ حفاظًا على حياتى، ولما اكتشف الممثلون أن سام ترك لى جزءًا من ثروته صاروا حذرين فى معاملتى مثلما هم يفعلون مع دُمل أو ورم، بل ومنحونى العضوية فى نقابة الممثلين العبرية، ووعدت بأدوار رئيسية وما إليها، على أن طموحى إلى المسرح كان قد انقضى، فما المسرح على أى حال؟إنه تقليد زائف، والأدب نفس الشىء، لم يكن سام رحمه الله يقرأ أى شىء، وكنت أجادله فى ذلك كثيرًا، فقد كنت قارئة نهمة منذ طفولتى، أما الآن فإنى بدأت أفهمه، لماذا لم ترد على خطاباتى؟

- أى خطابات؟ لقد تلقيت خطابًا واحدًا منك فقط لا يشتمل حتى على عنوانك.

- كيف حدث ذلك؟ لقد كتبت إليك عدة مرات، وأبرقت إليك بالكبل أيضًا.

- متى؟ أقسم بكل ماهو مقدس إنى ما تلقيت منك إلا خطابًا واحدًا.



Twitter: @ketab_n

- أى مـقـدس لديك؟ أولاً، لقـد كـتـبت إليك على عنوانك بليزنو، ولما لم ترد كتبت إليك على طريق نادى الكُتَّاب.

- لم أعد أذهب إلى نادى الكُتَّاب.

- ولكنه بيتك الثانى.

- قررت التوقف عن الذهاب.

- وقادر على التمسك بقرار؟ ترى أمازالت خطاباتى مستقرة هناك؟

- ماذا كان فحوى البرقية؟

- أوه، لم يعد ذلك مهمًا، الحياة حافلة بالمفاجآت، إذا ظن الإنسان أن مزيدًا من المفاجآت لا ينتظره، فذلك لأنه يغمض عينيه ولا يريد أن يرى، ماذا عنك؟ هل فارقت تلك «الفلتة» شوشا؟

- فارقتها؟ من أين جاءتك تلك الأفكار الغريبة؟

- إذًا، فكيف احتفظت بتلك الحجرة القديمة؟ لم أتصل بك تليفونيًا، هناك اعتقاد منى بأنى سأجدك، كل ما رجوته فحسب أن يكونوا على علم بعنوانك الجديد.

- إنى أعمل هناك، فهى مكتبى.

- ألديك شقة أنت وهى؟

- نحن نسكن مع أمها.

وتَبَدَّى أثر ضحكة فى عينى «بتى» وهى تقول:



Twitter: @ketab_n

ـ فى ذلك الشارع المشبوه بين اللصوص والمواخير.

ـ أجل، هناك.

ـ ما نوع الحياة التى تحياها معها إذا جاز لى أن أسألك؟

ـ نوع من الحياة.

ـ أما تذهبان إلى أى مكان؟

ـ نادرًا.

ـ ألا تخرجان من المنزل أبدًا؟

ـ أحيانًا نقوم بجولة قصيرة حول صندوق القمامة بالليل لنشم قليلاً من الهواء.

ـ حسنًا، لقد بقيت كما كنت، أنت مجنون على طريقتك على الأقل، فى نيويورك استوقفنى فى الشارع ممثل يؤدى أدوار ضيف هنا، وأخبرنى أنك أحرزت نجاحًا كبيرًا، ونشرت لك رواية يقرؤها كل شخص، هل هذا حقيقى؟

ـ لدىّ رواية مطبوعة فى جريدة، ولا أكاد أكسب ما يكفى إطعامنا.

ـ لعلك تجرى هنا وهناك مع عشر أخريات.

ـ هذا ليس حقيقيًا أيضًا.

ـ إذن، فما الحقيقى؟

فسألتها:



Twitter: @ketab_n

ـ ماذا عنك؟ طبعًا لديك علاقات غرامية.

ـ هل أنت غَيْرَان؟ فى وسعى ذلك، فمازال الرجال يطاردوننى، ولكن حين تمرض إلى حد الموت، وتمر بك أزمة كل يوم بل ألف تكون عازفًا عن العلاقات الغرامية وغير راغب فيها، أما زال ذلك المحتال المخادع «إلبنجر» فى وارسو؟

ـ أجل، وقع فى غرام امرأة غير يهودية كانت خليلة الوسيط الشهير كلوسكى.

ـ أظن أنى سمعت عنه مرة، ماذا يعمل؟

ـ الموتى يأتون إليه ويتركون آثار أيديهم فى دلو من البارافين.

ـ أنت تسخر، إيه؟ الحقيقة أنى أؤمن بأن الموتى جميعًا حولنا فى مكان ما، ماذا جرى لذلك الرجل القصير الثرى؟ نسيت اسمه الآن، كانت زوجته محبوبتك.

ـ هايمل وسيليا، إنهما هنا.

ـ أجل هما، كيف بقيا فى وارسو؟ سمعت أن كثيرًا من أثرياء اليهود هربوا إلى الخارج.

ـ لأنهم يبتغون الموت.

ـ طيِّب، إنك فى واحدة من تلك الحالات النفسية إياها اليوم، لقد افتقدتك، تلك هى الحقيقة.


Twitter: @ketab_n

## (٤)

لم أصدق أذنى، فبعد كل هذه الكلمات الغاضبة عن المسرح عمومًا والمسرح اليدى على وجه الخصوص قالت «بتى» إنها قدمت إلى وارسو بمسرحية وتبحث لها عن مُخرج، ولم أتعجب من ذلك، فكثير من زملائى الكُتَّاب يتصرفون على هذا النحو تمامًا، فهم يعلنون أنهم وضعوا أقلامهم جانبًا (أو قصفوها)، وبعد قليل يطرحون علينا رواية أو قصيدة طويلة، بل ويعلنون عن خططهم لكتابة ثلاثية، وهم ينهالون بالقدح على ناقد مؤكدين أنه لا يملك أى تصور أو فكرة عن الأدب، ثم يلتمسون منه فى اليوم التالى أن يكتب عنهم بضع كلمات لطيفة. لقد كانت المسرحية التى أحضرتها «بتى» من تأليفها، فبقيت الليل معها وقرأناها معًا، وهى دراما عن امرأة شابة فنانة (جعلتها بتى رسامة) غير قادرة على التكيف مع أية بيئة، فلم تجد زوجًا مناسبًا أو عاشقًا أو حتى صديقة مسلية، وتظهر المسرحية محللاً نفسيًا يحاول أن يقنع البطلة بأنها تكره أباها وتغار من أمها بينما هى فى الحقيقة تجل والديها، ويوجد منظر تبحث فيه البطلة عن نهاية لوحشتها وتوحدها بمحاولة أن تصبح مساحقة فتفشل، وتنطوى المسرحية أيضًا على إمكانات للفكاهة، ولكن «بتى» تناولت كل شىء بطريقة مأساوية، وحشت المنولوجات بعبارات مبتذلة، وحفلت المسرحية الواقعة فى حوالى ثلاثمائة صفحة



Twitter: @ketab_n

بملحوظات عن التصوير الزيتى صادرة عن شخص لا يفقه شيئًا عنه، وبدأ الفجر ينبلج فى الوقت الذى فرغت فيه من قراءة الفصل الرابع، فقلتُ لـ «بتى»:

ـ المسرحية جيدة فى جوهرها، إلا أنها لا تصلح لوارسو، مثلما لا تصلح مسرحيتى لأى مكان.

فسألتنى:

ـ إذًا، ما الذى يناسب وارسو؟

ـ أخشى ألا يكون هناك ما يناسب وارسو بعد الآن.

ـ هذه المسرحية فيما يبدو لى مناسبة تمامًا ليهود بولندا، فهم مثل بطلتى لا يستطيعون التكيف فى أى مكان، لا مع الشيوعيين، ولا مع الرأسماليين، ولا مع الفاشست طبعًا، أحيانًا أرى أنه لم يُترك لهم سوى الانتحار.

ـ سواء كان هذا صحيحًا أم لا، فإن يهود وارسو لا يريدون سماعها، فى المسرح بالتأكيد.

وقد تعبت من القراءة إلى درجة أنى انطرحت على الفراش بملابسى، واستغرقت فى النوم لقد أردتُ أن أقول لـ «بتى» إنها هى نفسها دليل على أن أى شخص أو جماعة لا يملك القدرة الكاملة على تقبل الظروف الجديدة دون تذمر أو شكوى، بيد أنى كنت منهوكًا إلى حد عدم التلفظ بالكلام، وفى نومى أعدتُ قراءة المسرحية، وأسديت النصح لـ «بتى»، بل وكتبتُ مناظر جديدة، وكانت «بتى» قد تركت الأنوار مضاءة، فكنتُ


Twitter: @ketab_n

أفتح عينى من حين إلى آخر، وهى مشغولة فى الحمام، وقد ارتدت ثوب نوم رائعًا، وأتت إلى الفراش، وخلعتْ حذائى، ونضتْ عنى قميصى، وفى نومى ضحكتُ منها ومن رغبتها فى الاستحواذ على جميع الملذات فورًا، وكذلك حال المنتحرين فيما أظن، أو حال العاكفين على الملذات إذ يحاولون الاستمتاع بقدر من الإثارة يفوق طاقتهم، وهذا الاحتمال هو الجواب على اللغز المتعلق بى، وفتحت عينى لأرى الوقت نهارًا، و «بتى» جالسة إلى المكتب فى ثوب النوم والشبشب، والسيجارة فى فمها، وهى تكتب شيئًا ما على فرْخ ورق، وساعة يدى تشير إلى الثامنة إلا بضع دقائق، فاستويت جالسًا، وسألتها:

- ماذا تفعلين؟ أتعيدين كتابة المسرحية؟

فالتفتت برأسها نحوى، ووجهها شاحب شحوب الموتى، وعيناها قد صارتا صارمتين وراسختى العزم والتصميم على نحو غريب، وقالت:

- لقد نمت أنت، أما أنا فلم أغمض عينى، كلا، المسرحية ليست هى السبب، فهى فى نظرى ميتة تعوزها البهجة والحياة، ولكنى أستطيع إنقاذك.

- ماذا تعنين؟

- اليهود هنا فى طريقهم إلى الهلاك، أنت قاعد مع شوشا تلك إلى أن يدخل هتلر البلد، لقد قرأت جريدة منتصف الليل، ما معنى هذا الذى تفعله؟ ما فائدة أن تموت بسبب هذه البلهاء؟


Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تقترحين أن نفعل؟

ـ تسوتسك، لا مبرر لبقائى هنا بعد أن أرى عمتى، إلا أنى مع ذلك أود مساعدتك، على ظهر السفينة قابلتُ موظفًا فى القنصلية الأمريكية، وتحدثنا فى موضوعات شتى حتى أنه بدأ يغازلنى، بيد أنه ليس من النوع الذى يستهوينى، فهو رجل عسكرى وسكير، إنهم يتخلصون من كل شىء بالويسكى، وهو جوابهم على كل المشاكل، لقد سألتُه عن مدى إمكان إحضار شخص ما إلى أمريكا، فأجاب بأن ذلك مستحيل خارج الحصة المقررة، ولكن من السهل الحصول على تأشيرة سائح إذا ما وضعت هدفًا نصب عينيك وبرهنت على أنك لن تكون عبئًا على الدولة، وعندما يتزوج سائح من مواطنة فى أمريكا يحصل فى الحال على تأشيرة خارج الحصة المقررة ويُسمَح له بالبقاء، أريد أن أخبرك بشىء: إنى أعرف مقدمًا أن كل أهدافى وآمالى سوف تخفق وتنتهى إلى لا شىء، ولكن إذا كان فى إمكانى أن أساعد شخصًا ما قريبًا إلى نفسى قبل أن أموت فلسوف أفعل، وإنى لأراك قريبًا إلى نفسى وعزيزًا علىَّ وذلك بالرغم مما قلته لى بفظاظة ليلة أمس وأعدمنى الرجاء فيك، فالواقع أنك أقرب شخص إلىّ بعد سام ـ رحمه الله ـ وبعد إخوتى وأخواتى الذين فقدتهم فى مكان ما من جهنم الحمراء، ولا أدرى إن كان أحد منهم لايزال حيًا أم لا، تسوتسك، مادمت قد أكدت لى أن المسرحية تستحق الركل كما يقول ليتفاكس، فلم يعد لدىّ الكثير أفعله


Twitter: @ketab_n

هنا، ولا أستطيع العودة إلى أمريكا وحدى ألبتة، أستطيع دون جزم أن أدبر لك تأشيرة سائح وتذهب معى، ألديك أوراق رسمية فيما يتعلق بشوشا؟ هل تزوجتما فى المحكمة؟

- عن طريق حاخام فحسب.

- هل مدون فى جواز سفرك أنك متزوج؟

- لا شيء.

- يمكنك أن تحصل على تأشيرة سائح فورًا إذا أعطيتك إقرارًا خطيًا مشفوعًا بيمين، لسوف أقول إنك كتبت مسرحية ونريد أن نعرضها فى أمريكا، وإنى سوف أظهر فيها، وهنالك فرصة أيضًا أن يحدث ذلك حقيقة، وأستطيع أن أريهم دفتر الحساب المصرفى وكل ما يطلبون، إنى لا أرى فى الموت مأساة، فهو فى الحقيقة تحرر من كل المتاعب، أما أن تحيا مع الموت كل يوم فهذا شيء فوق احتمال الطاقة حتى بالقياس إلى مازوكى مثلك.

- ولكن ماذا أصنع بشوشا؟

- لن يمنحوها تأشيرة سائحة، ولن يمنحوك تأشيرة إذا ألقوا عليها نظرة واحدة.

- بتى، لا أستطيع تركها هنا.

- لا تستطيع إيه؟ هذا معناه أنك على استعداد للتخلى عن حياتك فى سبيلها.

- إذا كان يجب علىّ أن أموت، فلأمت.



Twitter: @ketab_n

ـ لم أكن أعلم أنك تحبها هكذا إلى حد الجنون.

ـ إنه ليس حبًا فحسب.

ـ ماذا إذًا؟

ـ لا أستطيع أن أقتل طفلة، ولا أستطيع أيضًا أن أخلف وعدى.

ـ لعل هناك فرصة أن ترسل فى طلبها إذا ذهبت إلى أمريكا، أو تكون قادرًا على إرسال نقود إليها على الأقل، أما والحال هكذا فلسوف يهلك كلاكما.

ـ بتى، لا أستطيع أن أفعل ذلك.

ـ مادمت لا تقدر فلن تقدر، لم تكن تراعى شعور النساء إلى هذا الحد حسبما قلت لى، كنت إذا مللت من واحدة بحثت عن أخرى.

ـ أولئك رشيدات ولهن عائلات وصديقات وأصدقاء، أما شوشا....

ـ طيّب، لست فى حاجة إلى اختلاق المبررات والتماس الأعذار لنفسك، الإنسان عندما يكون على أهبة الاستعداد لتقديم حياته من أجل آخر يدرك بوضوح ما يفعله، لم أكن أعتقد أنك قادر على مثل هذه التضحية، وإن كنت لا تدرى معنى أن يكون المخلوق البشرى قادرًا عليها، إن من يبذلون التضحيات ليسوا دومًا قديسين، فقد ضحى أناس بأنفسهم من أجل ستالين وبتلورا وماشنو وكل مدبر مذبحة منظمة أو مشارك فيها وهم ليسوا كذلك،



Twitter: @ketab_n

ولسوف يسلم ملايين البلهاء عقولهم الفارغة لهتلر، أحيانًا أرى الرجال يطوفون بشمعة بحثًا عن فرصة للتضحية بأنفسهم.

ولم يتكلم كل منا بعض الوقت، ثم قالت هي:

- أنا منصرفة الآن لزيارة عمتي، ولن نلتقي أبدًا مرة أخرى، قل لي لماذا فعلتَ هذا؟ أريد أن أسمع ما ستقوله حتى ولو كذبت عليَّ؟

- أتعنين زواجي من شوشا؟

- أجل.

فقلتُ، وقد هالتني كلماتي:

- لا أدري حقيقة، ولكني سأخبرك على أي حال، إنها المرأة الوحيدة التي يمكن أن أثق بها.

فالتمعت عيناها بالضحك، وقد عادت شابة من جديد في لحظة، وقالتْ:

- يا إلهي، تلك هي الحقيقة وبمثل هذه البساطة!

- ربما.

- أنت تجمع في آن واحد بين الفاسق الملحد واليهودي المتعصب - متزمت مثل جدي الأكبر! كيف يمكن هذا؟

- نحن نَفِرُ وجبل سيناء يلاحقنا، هذه المطاردة قد جعلتنا مرضى ومجانين.

- لا تشملني، إني مريضة ومجنونة، ولكن لا دخل لجبل سيناء بذلك، فالحقيقة أنك تكذب، أنت لست



Twitter: @ketab_n

خائفًا من جبل سيناء أكثر منى، إنه كبرياؤك الهزيل وخوفك الساذج من أن تفقد شرفك الذكورى النجس، لقد أخبرتنى مرة عما قاله أحد أصدقائك الحميمين عن استحالة أن تداوم على الخيانة ولا يفتضح أمرك على الإطلاق.

- لا أذكر، إما فيتلزوهن أو هايمل.

- لا يمكن أن يقوله هايمل، طيّب، لا يهم ذلك، أنت مجنون، على أن عددًا كبيرًا من البلهاء الآخرين ممن هم على شاكلتك يذهبون إلى حتفهم إنقاذًا لسمعة عاهرة ما، لا لن تخونك شوشا مالم يغتصبها نازى.

- الوداع يا بتى.

- الوداع إلى الأبد.

## (٥)

غادرت الفندق بدون إفطار ، فلم يكن فى وسعى البقاء، لأن النادلة القائمة على خدمة الحجرة كانت سترانى، لقد تخليت عن فرصة إنقاذ نفسى للمرة الثانية، وسرت على غير هدى، فقادتنى قدماى من تلقاء نفسهما من شارع «تريباكا» إلى مبنى المسرح، ولم يكن لدىّ أدنى شك فى أن البقاء فى وارسو فى هذا الوقت معناه الوقوع فى أيدى النازيين، إلا أنى - مع ذلك - لم أشعر بالخوف بأى وجه من الوجوه، وكنت متعبًا من قلة النوم ومن قراءة مسرحية «بتى» فضلاً عن حديثها، لقد أتاحت لها فرصة احتقارى


Twitter: @ketab_n

مما جعل افتراقنا أقل وقارًا وهيبة، وخطر ببالى فى تلك اللحظة فقط أنها لم تذكر من قبل عمتها الموجودة ببولندا وأنها لم تذهب لرؤيتها قط، وأنها بالتأكيد لم تأت إلى بولندا فى ذلك الوقت لرؤيتها، وأنها مثلى مستعدة للهلاك، وورد إلى ذهنى مقطع من الأسفار الخمسة:

«إنى على شفا الموت، فما فائدة حق البكورية لى»[١١٠]، لقد طرحت عنى أربعة آلاف عام من اليهودية، واستعضت عنها بأدب لا معنى له، وبالييدية والفيتلزوهنية، وكل ما تركت معه دفتر عضوية من نادى الكُتَّاب وكتابات بخط يدى لا قيمة لها، وتوقفتُ عند واجهات محل وأخذتُ أحدق إليها، قد يبدأ التدمير والتخريب فى أى يوم، على أنهم فى الوقت نفسه يعرضون آلات بيانو وسيارات ومجوهرات وثياب نوم فاخرة وكتبًا جديدة، وترجمات من الألمانية والإنجليزية والروسية والفرنسية وكتابًا واحدًا يحمل عنوان «فجر إسرائيل»، والواقع أن السماء كانت زرقاء صيفية والأشجار على كلا جانبى الشارع خضراء ذكية الرائحة، والنساء يلبسن أحدث أنواع الفساتين والقبعات والأحذية ويمسكن بأحدث أنواع حقائب اليد، والرجال يتفحصونهن بنظرات تقييم خبيرة، ومازالت سيقانهن فى جوارب النيلون تَعِد بمتع لا سبيل إلى بلوغها، وبالرغم مما قُدِّر علىَّ فقد ألقيت بنظرة عجلى على الأوراك وربلات السيقان والصدور والرقاب، وقلتُ لنفسى إن الأجيال القادمة بعدنا


Twitter: @ketab_n

سوف تعتقد أننا قد لقينا حتفنا جميعًا نادمين مستغفرين، وتعتبرنا لذلك شهداء أطهارًا، وتتلوا على أرواحنا القاديش، و «يا إلهنا الموفور رحمة.....»، والواقع أن كلا منا سوف يموت ومعه نفس المشاعر التى كان يحيا بها، وكانوا لا يزالون يمثلون الأوبرات المألوفة فى دار الأوبرا - «كارمن»، و «عايدة»، و«فاوست» و «حلاق أشبيلية»، وقد أفرغوا لتوهم من شاحنةٍ المناظر الباهتة التى سوف تشكل فى المساء خدع الجبال والأنهار والحدائق والقصور ومضيت إلى مقهى وحركت شهيتى رائحة القهوة والأرغفة الطازجة، وأحضر لى النادل مع قهوتى جريدتين، أكد المارشال «ريذر سميجلى» من جديد للأمة أن القوات المسلحة البولندية لديها الوسائل لصد الهجمات من اليمين واليسار، وتلقى وزير الخارجية «بيك» ضمانات جديدة من إنجلترا وفرنسا، وهاجيم «نافاشينسكى» العجوز المعادى للسامية اليهود الذين يتآمرون هم والبناءون الأحرار (الماسون) والشيوعيون والنازيون ورجال المصارف الأمريكان على تقويض الديانة الكاثوليكية وإحلال المادية الوثنية محلها، وظل يستشهد ببروتوكولات حكماء صهيون، لقد كان لدىّ تقريبًا قدر ما من الإيمان بحرية الإرادة، أما فى هذا الصباح فقد استشعرت بيقين أن الإنسان يمتلك من الحرية قدر ما يمتلكه النظام الآلى لساعة يدى أو قدر ما تمتلكه الذبابة الواقفة على حافة فنجانى، وأن قوى واحدة هى التى تسيِّر «هتلر» و «ستالين» والبابا


Twitter: @ketab_n

والحاخام «جير»، فضلاً عن الجزىء الموجود فى باطن الأرض، والمجرة التى تبعد بلايين السنين الضوئية عن مجرة التبانة، قوى عمياء؟ قوى مبصرة؟ لم يعد يهم، لقد قُدِّر لنا أن نلعب ألعابنا الصغيرة وأن نسحق.

## (٦)

كان من عادتى حينما لا أقضى الليل فى منزل «شوشا» أن أعود فى اليوم التالى على الغداء، على أنى فى هذا الصباح قررت أن أعود مبكرًا، فقد كنت من شدة التعب بحيث لم أحاول الجلوس إلى مكتبى بشارع «ليزنو»، ودفعت ثمن إفطارى، وذهبت إلى مبنى البنك عن طريق شارع «سناتور» ومنه إلى «جنونيا» فـ «كروتشمالنا»، وكان الناس ينطلقون فى الشوارع اليهودية فى سرعة وعجل ككل يوم، وفى بيوت السمسرة فى «برزشونديا» كانوا يحددون قيمة الزلوتى فى مقابل الدولار، أما أولئك المتعاملون فى السوق السوداء فكانوا يدفعون بضعة سنتات زيادة للحصول على الدولار، وفى المعاهد الدينية كانوا يدرسون التوراة، وفى منازل الدرس الحسيدية كانوا يتحدثون فى موضوعات حسيدية، وفى ذلك الصباح خامرنى إحساس بأنى أرى كل هذا للمرة الأخيرة، وحاولت أن أحفر فى ذاكرتى كل حارة وكل مبنى وكل دكان وكل وجه، وأحسب أن تلك هى الكيفية التى ينظر بها المحكوم عليه بالإعدام إلى العالم وهو فى


Twitter: @ketab_n

طريقه إلى المشنقة، وأخذت أودع كل بائع متجول وحمَّال وبائعة سوق، بل وخيول الدرشكيات، وأبصرت فى كل منهم تعبيرات لم ألحظها من قبل، بل وتراءى لى أن هذه الخيول تدرك أن هذه رحلتها الأخيرة، فقد كان ثمة دراية ورضا فى عيونها الواسعة ذات البؤبؤ الأسود، وفى شارع «جنونيا» توقفت لحظة عند منزل الدرس الكبير فى رقم (٥)، وعلى الرغم من أن الحوائط مُسَوَّدة والكتب ملطخة وممزقة فقد كان الشبان بسوالفهم الطويلة لايزالون يتمايلون على هذه المجلدات القديمة ويرتلون الكلمات المقدسة بالنبرات الحزينة ذاتها، وكان قائد المرتلين واقفًا إلى المقرأ بجوار تابوت العهد يحمد الله ويسبحه أن وعد بإحياء الموتى وبعثهم من جديد، وكان رجلاً ضئيلاً ذا وجه أصفر ولحية صفراء يبيع الحمص والفاصوليا المغليين ويعطيها بتقتير فى كوب خشبى، أتراه اليهودى الخالد؟ أيكون واحدًا من الستة والثلاثين قديسًا الذين هم أعمدة الدنيا؟ أهو حكيم صهيون متنكر ارتبط بميثاق سرى هو وروزفلت وجوبلز وليون بلوم لإيجاد مملكة الشيطان؟ ودخلت شارع «كروتشمالنا» وبوابة رقم (٧)، وكانت ابنة الخباز تقف هنالك بسلال كعك ساخن كبيرة، ولابد أنها واحدة من قرائى لأنها ابتسمت لى وغمزت، وتخيلتها تقول لى: لابد أن أؤدى دورى مثلك حتى آخر دقيقة، وعبرتُ الفناء، وفتحت الباب المؤدى إلى شقة «باشيل»، وكان ما رأيته قد أربكنى كثيرًا إلى درجة أنى وقفت أحدق عند مدخل


Twitter: @ketab_n

الباب، فقد كانت «تيكلا» تجلس إلى المائدة تشرب الشاى أو القهوة بالهندبا البرية من كوب كبير، و «شوشا» تجلس بجوارها، وظننت أن شيئًا قد حدث لأمى وأن برقية لابد قد وصلت تعلن وفاتها، ورأتنى «تيكلا» فى التو، فقفزت على قدميها، وكذلك نهضت «شوشا»، وصفقت بيديها قائلة:

- أريل، الله وحده هو الذى أرسلك!

- ما الذى يجرى هنا؟ أوترانى الآن فى عالم الوهم؟

- ماذا؟ ادخل يا أريل، هذه الفتاة جاءت، وقالت إنها تبحث عنك، وطلبتك بالاسم، وأحضرت سلة بها ملابسها، هاهى، وقالت شيئًا ما عن خطيبها ـ لا أدرى عما تتكلم عنه، من الخير أن ذهبت أمى للتسوق، وإلا ظنت شيئًا ما يدرينا ماهو، لقد أخبرتها أنك لا تكون فى المنزل قبل وقت الغداء، ولكنها قالت إنها سوف تنتظر.

ووقفت هنالك «تيكلا»، وهى تتوق إلى الكلام على نحو بين، ولكنها انتظرت «شوشا» باحترام حتى تفرغ، وقد بدت شاحبة ومشعثة الشعر وكأنها لم تنم، ثم قالت:

- سامحنى يا سيدى، فقد وقع مكروه لى، فى الليلة الماضية طرق شخص باب المطبخ، فحسبت أن المسألة تتعلق بجارة تعيد كوب ملح اقترضته، أو بإحدى الخادمات جاءت من الفناء، وفتحتُ الباب فدخل


Twitter: @ketab_n

جلف، واحـد من نوعنا، مـسـيـحى، يلبس زى المدينة، قال : تيكلا، ألا تعرفيننى؟ كان بوليك خطيبى السابق، عاد من فرنسا من مناجم الفحم، قال إنه يريد الزواج منى، ففزعت إلى حد الموت، قلتُ له لماذا لم تكتب إلىَّ كل هذه السنوات؟ لقـد رحلت بعـيـدًا كـأن الأرض ابتلعتك، قـال: لم أكن أستطيع الكتابة لا أنا ولا أى أحـد من المُعَدِّنين[111] الآخرين، والعجيب فوق هذا وذاك أنه جلس على سريرى، وبدأ يتحدث كأن شيئًا لم يحدث منذ أن رأى كل منا الآخـر آخـر مـرة، بل وأحضـر لى أيضًـا هدية، هدية تافهة لا قيمة لها، معجزة الإله أنى لم أمت فى الحال، قلتُ له: بوليك، مادمت لم تكتب إلىَّ منذ مدة طويلة جدًا فلم نعد مخطوبين، وكل شىء بيننا قد انتهى، على أنه أخذ يزعق: ماذا جرى؟ أوجدت شخصًا آخر؟ أم تراك عشقت ذلك اليهودى الذى كتب إلىَّ تلك الخطابات من أجلك؟ كان سكران يمسك سكينًا، سمعتْ سيدتى الهياج فجاءت تجرى، وبدأ هو يلعن اليهود ويهدد بقتلنا جميعًا، فقالت: اخرج من بيتى، فهتلر ليس هنا بعد، فاستدعى «والدك» الشرطة، إلا أن رجل الشرطة لم يصل إلا بعد ثلاث ساعات من ذهاب بوليك الذى أقسم إنه سوف يعود مرة أخرى اليوم وحذرنى إن أنا لم أذهب معه إلى الكاهن فورًا وأتزوجه فلسوف يقتلنى، وبعد انصرافه جاءت السيدة وقالت: تيكلا، لقد خدمتينى بإخلاص، إلا أنى عجوز وضعيفة ولا قوة لدىَّ لمثل هذه الأمور، خذى متاعك وارحلى،


Twitter: @ketab_n

فأقنعتها بأن تسمح لى بقضاء الليلة، وهذا الصباح دفعت لى ما أستحقه وزادت عليه خمسة زلوتات، ثم صرفتنى، وقد أعطيتنى أنت مرة عنوانك على شارع كروتشمالنا، ولذا أتيتُ إلى هنا، قالت السيدة الشابة إنها زوجتك، وأنك ستعود للغداء، فأين كنت سأذهب؟، إنى لا أعرف أحدًا فى وارسو، إنى متأكدة أنك لن تطردنى.

- أطردك؟ تيكلا، إنى صديقك مدى الحياة.

- أوه، شكرًا لك، ماذا سأصنع؟ إنى لا أستطيع العودة إلى قريتنا، إذ قال بوليك إنه سوف يأتى فى أعقابى إذا فعلت، وأن لديه عصابة بأكملها من السفاحين الذين خدموا معه فى الجيش وعادوا بمسدسات وحراب، وقال إنه ادخر ألف زلوتى علاوة على بعض نقود فرنسية، إلا أن قلبى لم يعد متعلقًا به، وفى وسعه أن يجد كثيرًا من الفتيات الأخريات، كانت رائحة الفودكا الكريهة تنبعث منه وهو يتكلم كالجلف، لقد نشأت غير متعودة على هذا النوع من الخشونة.

فقالت «شوشا»:

- أريل، حين تعود أمى وتسمع هذا الكلام، فلسوف تثور، يجب ألا تذهب إلى ذلك المكان إذا كان الرجل يهدد بسكين، أما هى فماذا ستفعل هنا؟ إن لدينا بالكاد مكانًا نضع فيه رؤوسنا، وفى كل مرة تخرج فيها أمى تنبه علىَّ ألا أدخل أحدًا، تعودت هى على ذلك عندما كنا نسكن فى رقم (١٠)، أتذكر؟.


Twitter: @ketab_n

- أجل، أذكر يا شوشا، تيكلا فتاة طيبة ولن تسبب مشكلة لأحد، لسوف أخذها بعيدًا عن هنا فى دقيقة.

وأردفت باليدية:

- شوشيل، لسوف أذهب معها بعض الوقت، فلا تخبرى أمك بشىء حين تعود.

- أوه، لسوف تعلم على أى حال، كل شخص فى الفناء يطل برأسه من النافذة، وعندما يدخل شخص أو يخرج وهو لا يسكن هنا يعرفونه فى الحال، ويبدءون فى القيل والقال: ماذا تصنع هنا؟ ماذا تريد؟ والنساء الصغيرات مشغولات بأطفالهن أما العجائز فيريدون معرفة كل شىء.

- طيبٌ، لسوف أعود قُرب وقت الغداء، هلم معى يا تيكلا.

- هل أحمل سلتى؟

- أجل، أحمليها.

- أريل، لا تتأخر، فأمى تقلق عليك حين تتأخر وتظن أنك لم تعد تريدنا وما شابه ذلك، وأبدأ أنا نفسى أفكر فى كل أنواع الأشياء، نمت بصعوبة قليلاً الليلة الماضية، إذا كانت جائعة فيمكن أن أعطيها خبزًا ورنجة تأخذهما معًا.

- لسوف تأكل، هلم يا تيكلا.

وسرنا بخطى واسعة تحت نظرات عيون محدقة مترقبة، نظرات بدت وكأنها تتساءل: إلى أين هو



Twitter: @ketab_n

ذاهب فى هذا الوقت المبكر مع هذه الفتاة الريفية؟ وماذا تحمل فى السلة؟ فأجبت عليهم فى بالى: قد تجربون حل الألغاز فى الجريدة، أما أسرار الحياة فهيهات أن تصلوا إليها أو تفكوا مغالقها، قد تحكون جباهكم سبعة زيام بلياليها مثل حكماء[١١٢] وتظلون مع ذلك دون التوصل إلى جواب شافٍ.

وقفت وقتًا طويلاً أمام البوابة أفكر فيما يجب علىّ أن أفعله بعد ذلك، أيجب أن أبحث لها عن حجرة؟ أيجب أن أذهب معها إلى مقهى وأبحث عن إعلانات مكاتب تشغيل الخادمات؟ سأدعها تمكث مع «شوشا» بعض الوقت، ولكنى لم أخبرها لا هى ولا «باشيل» عن حجرتى فى شارع «ليزنو»، فهما تعتقدان أنى أنام فى الجريدة، لسوف تأخذ «باشيل» فى استجوابى طويلاً، وفجأة أدركتُ ما يجب علىَّ أن أفعله، فالحل كان من البساطة بحيث تعجبت أن لم يخطر ببالى فى الحال، فسرت مع «تيكلا» إلى دكان المعلبات فى رقم (١٢)، وطلبت منها أن تنتظر بالباب، ودخلت لأتصل بسيليا تليفونيًا، فمنذ بضعة أيام فقط كانت تشكو وتتوجع من عدم قدرتها على العثور على خادمة مناسبة منذ تركتها ماريانا، وسمعت صوتها غائمًا، صوت يصعب التعبير عنه بالكلمات، ولا يوحى أيًا ما كان وصفه بالأمل فى شىء فقلت: سيليا، إنى تسوتسك.

- تسوتسك، ماذا جرى؟ هل جاء المسيح؟

- المسيح لم يجئ، ولكن لدىّ خادمة من أجلك.



Twitter: @ketab_n

ـ خادمة؟ أنت؟ من أجلى؟

ـ أجل يا سيليا، ونزيل جزئى فوق ذلك.

ـ يا إلهى إن كنت أفهم ما تعنيه، مَنْ النزيل؟

ـ أنا النزيل.

ـ أتهزأ بى؟

فأطلعتها على ما حدث، وقلتُ:

ـ لا أستطيع البقاء فى حجرتى بشارع ليزنو بعد الآن، إذ يهددنى أنا وتيكلا فلاح ماكس.

ويبدو أن تطور الأحداث قد زذهلها، فلم تقاطعنى، وسمعت صوت تنفسها على الطرف الآخر من الخط، وكنت ألقى من حين إلى آخر نظرة سريعة من خلال الباب الزجاجى، حيث تقف «تيكلا» منتظرة فى صبر وذلة، ولم تضع السلة الثقيلة على الأرض، بل أمسكتها بكلتا يديها وهى تضغطها إلى بطنها، وفى المنزل الكائن بشارع ليزنو كانت تبدى فطنة أهل المدينة الكبيرة ونباهتهم، أما هاهنا فالبادى أنها قد فقدتهما تمامًا بين عشية وضحاها وأصبحت فلاحة من جديد.

ـ هل ستحضر شوشا معك؟

ـ كلما كانت قادرة على البقاء بعيدًا عن أمها.

وقد تراءى لى أن «سيليا» تفكر مليًا فى فحوى كلامى، فقالت:



Twitter: @ketab_n

ـ أحضـرها كلمـا أردت، فلسـوف يكون هـذا منزلك الثانى، أينما ذهبت أنت فعليها أن تذهب هى.

فهتفتُ: لقد أنقذت حياتى يا سيليا!

وسكتت هى قليلاً : تسوتسك، استقل سيارة أجرة، وتعال فى الحـال، لو طال بى العمر قليـلاً، فقد يتـحقق الخـيـر حـتى لى أنا أيضًـا، هذا إذا لم يكن قـد فـات الأوان.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الخاتمة

## (١)

مضى ثلاثة عشر عامًا، وفى نيويورك ادخرتُ ألفى دولار من أجرى بالجريدة اليدية، وكذلك تلقيت خمسمائة دولار مقدمًا عن رواية سوف تُترجم إلى الإنجليزية، وقد قمت برحلة إلى لندن وباريس وإسرائيل، وكانت لندن لاتزال فيها الحفر والأنقاض التى خلفتها القنابل الألمانية، وفى باريس أكلتُ فى مطعم يحصل على طعامه من السوق السوداء، وفى مرسيليا ركبتُ سفينة متجهة إلى حيفا توقفت فى جنوا، وكان غناء المسافرين حديثى السن يدوّى طوال الليالى - الأغانى القديمة المألوفة بالإضافة إلى الأغانى الجديدة التى انبثقت من الحرب مع العرب بين عامى ١٩٤٨، ١٩٥١، وبعد ستة أيام وصلنا إلى حيفا، وإنها لتجربة أن أرى اللافتات العبرية تعلو الدكاكين، وأن أرى الشوارع تحمل أسماء الكُتّاب والحاخامات والقادة، وأن أسمع العبرية تُنطَق بطريقة اليهود الشرقيين، وأن أرى الجنود من كلا الجنسين،



Twitter: @ketab_n

وفى تل أبيب نزلت بفندق فى شارع «ياركون»، ومع أن تل أبيب كانت مدينة جديدة فقد بدت المنازل قديمة وحقيرة، ولم يكن التليفون يعمل بطريقة مرضية، وقلما كان حوض الاستحمام (البانيو) يحتوى على ماء ساخن، وكثيرًا ما انقطع التيار الكهربى بالليل، وكان الطعام رديئًا، وكان ثمة إشعار فى صحيفة ينبئ بوصولى، وبدأت أتلقى زيارات من كُتَّاب وصحفيين وأصدقاء قُدامى من وارسو فضلاً عن أقارب بعيدين، وكان البعض منهم يحمل رقمًا موسومًا على ذراعه من «أوشفيتز»(١١٣)، والبعض الآخر قد فقد أبناءه فى المعارك من أجل القدس أو صفد، وسمعتُ عن فظائع النازى ووحشية إدارة الشرطة السرية السوفيتية. سمعتُ القصص المرعبة ذاتها التى سمعْتها فى نيويورك ولندن وباريس وعلى ظهر السفينة، وبينما كنت أتناول طعام الإفطار فى غرفة الطعام بالفندق ذات صباح دخل رجل دقيق الحجم ذو لحية بيضاء كالحليب ومنتشرة كالمروحة، ويرتدى قميصًا مقفلاً بياقة بيضاء مفتوحة وقبعة من القش وبنطلونًا رثًا وصندلاً فى قدميه العاريتين، وكنت واثقًا أنى أعرفه من قبل، وإن لم أستطع تحديد من هو بالضبط، وساءلت نفسى: كيف يكون لرجل ضئيل كهذا مثل هذه اللحية الكبيرة؟واقترب من مائدتى بخطا حثيثة، وكانت له عيون سوداء تشبه الزيتون الموضوع فى طبقى، وأشار بأصبعه وهو يقول بييدية وارسو المألوفة: هاهو ذا، السلام عليكم ياتسوتسك لقد كان


Twitter: @ketab_n

«هايمل شنتشينر»؛ فنهضتُ، وقبَّل كل منا الآخر واحتضنه لحظة، وغطت لحيته وجهى، وطلبت منه أن يتناول طعام الإفطار معى، ولكنه أخبرنى بأنه قد أكل، فطلبت له قهوة، وكنت سمعت أنه و «سيليا» قد قضيا نحبهما فى حى اليهود بوارسو، إلا أنه لم يعد يدهشنى لقاء الذين كنت أظنهم فى عداد الموتى، وكنت أعلم أن «فيتلزوهن» لم يعد حيًا، إذ قرأت عن موته فى الصحف منذ سنوات، وشربت القهوة أنا و «هايمل» وقال هو:

- سامحنى أن أسميتك تسوتسك، فهذا الاسم سيبقى تعبيرًا عن محبتى لك.

- نعم، ولكنى كلب عجوز الآن.

- لسوف تبقى بالنسبة إلىَّ تسوتسك دائمًا، لو كانت سيليا على قيد الحياة لدعتك بنفس الاسم، كم عمرك؟

- ثلاثة وأربعون.

- لست كبيرًا فى السن، أنا فى أواخر العقد الخامس، يخيل إلىَّ أنى متوشالح، يا للأحداث التى مررنا بها خلال هذه الاعوام!، ليست حياة واحدة، بل مئات.

- أين كنت خلال هذه الفترة؟

- أين كنت؟ قل أين لم أكن، فى فيلنا، فى كوفنو، فى كييف، فى موسكو، فى كازاخستان، بينْ القلموق،


Twitter: @ketab_n

وسونشيز، أو أيًا كانت الأسماء التى تطلق عليها، لقد رأيت ملك الموت بعينى مئات المرات، ولكن عندما يقدر لك أن تظل حيًا تحدث المعجزات، ومادام فى الجسم نفس يتردد فهو يزحف كالدودة، ولهذا زحفت وتحاشيت الأقدام التى تسحق الدود حتى أتيت إلى الأرض اليهودية، وها نحن قد عانينا هنا ويلات الحرب والجوع والخطر الدائم من جديد، لقد تطاير الرصاص من فوق رأسى، وانفجرت القنابل على بعد خطوات منى، ولكن لا أحد هنا قد ذهب مثلما تذهب الخراف إلى السلخانة؛ فلقد تحول فجأة شبابنا من وارسو ولودز ورافا روسكا ومنسك إلى أبطال كالمقاتلين فى زمن الماسادا، يا ألطاف الله! إن أكثر الناس تفاؤلاً ما كان ليصدق حدوث شىء كهذا، لعلك علمت بما حدث لسيليا.

- لا شىء.

- كيف ذلك؟ ما رأيك فى الخروج إلى الشرفة؟ أحب أن أنظر إلى البحر.

وذهبنا إلى الشرفة، وجلسنا إلى مائدة فى الظل، وجاء النادل فطلبتُ مزيدًا من القهوة والشطائر، وأخذنا نحدق معًا وقتًا طويلاً إلى البحر الذى تحول لونه من الأخضر إلى الأزرق، وعند الأفق كان شراع قارب يتأرجح، وقد حفل الشاطئ بحشود من الرجال والنساء، منهم مَنْ يتربصن أو يلعب الكرة، ومنهم من يأخذ حمام شمس أو يرقد تحت شمسية أو يرش


Twitter: @ketab_n

الماء على جسمه عند حافة الماء أو يسبح بعيدًا عن الشاطئ، وكان ثمة رجل يحث كلبًا على النزول فى الماء، ولكن الحيوان كان عازفًا عن الاستحمام، وقال «هايمل»:

ـ طيِّب، أرض يهودية وبحر يهودى، مَنْ كان يصدق هذا منذ عشر سنوات، إنها فكرة فاقت حد الجسارة؛ فقد كانت كل أحلامنا تتركز حول كسرة خبز أو طبق برغل أو قميص نظيف، لقد قال فيتلزوهن شيئًا كثيرًا ما أردده أنا: تتعدم القدرة على التخيل لدى الإنسان عند تشاؤمه أو تفاؤله، مَنْ كان يَحسَب أن غير اليهود سيصوتون إلى جانب الأمة اليهودية؟ لا، ولكن آلام الولادة مازالت بعيدة من ناحية أخرى، فالعرب لا يريدون عقد معاهدة صلح معنا، والموقف هنا صعب، فآلاف المهاجرين يسكنون أكواخًا من الصفيح، وأنا نفسى أسكن واحدًا منها، والشمس تشويك طوال النهار وفى الليل تتجمد من البرودة، والنساء يكثرن من الشجار والنقار، واللاجئون القادمون من إفريقيا لم يروا منديلاً قط، وهم بحق أناس من عهد إبراهيم، وما أدرانا مِمَّن يكونون ـ لعلهم أحفاد «قَطُورَة»[114]، لقد سمعتُ أنك أصبحت كاتبًا مشهورًا فى أمريكا.

ـ أنا بعيد عن الشهرة.

ـ طيِّب، أنت معروف، لقد اعتادوا أن يقرءوا كتبك فى المعسكرات الألمانية، كانت كتاباتك يُعاد طبعُها ثانية فى الصحف هناك، وكلما رأيت اسمك صحت


Twitter: @ketab_n

«تسوتسك»، فظنوا أنى مجنون، وعندما رأيت الإشعار فى (هَايوم) أنك هنا، أخـذت أقـفـز فى الهـواء، فسألتنى زوجتى - فقد تزوجت أنا من جديد: مـاذا حدث؟، هل جننت؟

- هنا؟

- كلا، فى لاندسبـرج، فـقـد فـقـدت هـى زوجـهـا، وانتزع منها أطفالها لإلقائهم فى غرفة الغاز، وكنتُ أنا أهيم على وجهى وحيدًا، ولم أكن أحتاج إلى أحد قدر احتياجى إلى مَنْ يعد لى كوبًا من الشاى، وإنى لأذكر كلماتك «العالم مجزر وماخور»، كنت أراك تبالغ وقتها، إلا أنها الحقيقة المرة، إنهم يرونك صوفيًا بينما أنت فى الحقيقة واقعى بكل معنى الكلمة، مازال كل شىء يُفَرضُ علينا بالقوة حتى الأمل، فالدكتاتور المؤله فى عليائه ستالين يقول: لابد أن تأمل، وإذا قال ذلك تحتم علينا أن نأمل، ولكن ماذا آمل الآن؟ اللهم سوى الموت فحسب، أين السكر؟

- ها هو ذا.

- هذه القهوة مذاقها كماء الغسيل، منذ متى رأيتك آخر مرة؟ ثلاث عشرة سنة، أجل، فى سبتمبر القادم سوف يكون قد مضى ثلاث عشرة سنة بالضبط، لم تعد شوشا على قيد الحياة، إيه؟

- لقد توفيت شوشا فى اليوم التالى لمغادرتنا وارسو.


Twitter: @ketab_n

ـ توفيت؟ فى الطريق؟

ـ أجل، مثل الأم راشيل.

ـ لم نعلم شيئًا، لم نعلم ألبتة، الأنباء تصلنا عن طريق الغير، ثمة يهود فى بيالستوك وفيلنا أصبحوا سعاة بريد ورسلاً، كانوا يأتون بالرسائل إلى الزوجات عبر الحدود، لقد اختفيت أنت مثلما يختفى حجر فى الماء، فماذا حدث لك؟ كانت أول مرة اكتشف فيها أنك حى عام ١٩٤٦، إذ بلغتُ ميونخ مع مجموعة كبيرة من اللاجئين، وأعطانى شخص جريدة تُطبع وتُنشَر هناك، ففتحتُها ورأيتُ اسمك، قالت الجريدة إنك فى نيويورك، كيف نجحت فى الوصول إلى هناك؟

ـ عن طريق شنغهاى.

ـ من أرسل إليك الإقرار المشفوع باليمين؟

ـ أتذكر بتى؟

ـ ياله من سؤال! أذكر كل شخص.

ـ تزوجت بتى من غير يهودى، كولونيل فى الجيش الأمريكى، هو الذى أرسل إلىَّ الإقرار.

ـ أكنت تعرف عنوانها؟

ـ عرفته بالمصادفة.

ـ طيبٌ، إنى لست متدينًا، ولا أصلى، ولا أبالى بالسبت، ولا أؤمن بإله، إلا أنى أدرك أن يدًا تقود عالمنا، وهذا مالا ينكره أحد، وهى يد قاسية، يد دموية، ورحيمة أحيانًا، أين تسكن بتى فى نيويورك؟


Twitter: @ketab_n

- انتحرت منذ عام.

- لماذا؟

- لا أحد يدرى.

- ماذا حدث لشوشا؟ لا داعى للحديث إذا كان يؤلمك.

- سأخبرك على أى حال، لقد توفيت بالضبط مثلما رأيتُ فى حلم قبل ذلك ببضع سنوات، كنا نسير فى الطريق المؤدية إلى بيالستوك، وكان ذلك قُرب المساء، وكان الآخرون يغذون السير، ولم تستطع هى مجاراتهم، وبدأت تتوقف كل بضع دقائق، ثم جلست فجأة، وتوفيت بعد دقيقة، لقد قصصت هذا الحلم على سيليا، وربما عليك أنت أيضًا.

- لم تقصه علىّ وإلا تذكرته، لكم كانت طفلة حلوة، كانت قديسة بطريقتها، ماذا أصابها؟ نوبة قلبية؟

- لا أدرى، أظن أنها ببساطة لم تكن راغبة فى العيش أكثر من ذلك.

وسألنى «هايمل»:

- ماذا حدث لأختها؟ ما اسمها؟ تيبل؟ وماذا عن أمها؟

- لقد هلكت باشيل بالتأكيد، أما عن تيبل فلا أدرى ما وقع لها، لعلها فرت إلى روسيا، كان لها صديق، كاتب حسابات، ولعلها هنا، ولو أن ذلك غير محتمل، إذ لم أسمع عنها شيئًا طوال هذه السنوات.



Twitter: @ketab_n

- أخشى أن أسأل ماذا حدث لأمك ولأخيك؟

- بعد عام ١٩٤١ أنقذهم الروس بأخذهم في قطار مواش إلى كازاخستان، واستغرقت الرحلة أسبوعين، التقيتُ برجل كان معهما في نفس القطار فأخبرني بالتفاصيل، لقد مات كلاهما، كيف بقيت أمي شهورًا عديدة بعد تجربة هذه الرحلة، ذلك مالا أفهمه حتى الآن، لقد أُخذا إلى غابة في منتصف الشتاء الروس، وطُلِب منهما أن يقيما لنفسيهما كوخًا خشبيًا، لقد مات أخي في الحال تقريبًا بعد وصوله.

- ماذا حدث لصديقتك الشيوعية، ما اسمها؟

- دورا؟ لا أدري، ربما سحقها الأخيار أو الأشرار في مكان ما.

- تسوتسك، سأعود حالاً، لا تذهب بعيدًا.

- ياله من قول!

- كل شيء جائز الحدوث.

وانصرف «هايمل»، والتفتُ ناحية البحر مرة أخرى، كانت امرأتان ترش كل منهما الأخرى بالماء، ومن شدة الضحك فقدتا التوازن، وكان أب وابنه يلعبان ببالون، وكان يهودي شرقي حافي القدمين وذو عباءة بيضاء ولحية شعثاء وسوالف تصل إلى كتفيه وهو يدور يتسول على الشاطئ، ولا أحد يعطيه شيئًا، وتساءلت تُرى من ذا الذي يدور يتسول على شاطئ؟ أغلب الظن أنه ليس في تمام عقله، وفي تلك اللحظة



Twitter: @ketab_n

سمعت اسمى فى مكبِّرِ الصوت العمومى، إذ كنت مطلوبًا علىٰ التليفون.

## (٢)

عدت من التليفون، وكان «هايمل» يجلس إلى المائدة موليًا وجهه شطر الباب بلهفة كالطفل، وحينما تبديت له صدرت عنه حركة كأنما سيقوم، إلا أنه ظل فى مقعده، فجلستُ، فسألنى:

- أين ذهبت؟

- ذهبت إلى التليفون.

- حين تجىء إلى هنا لن يتركوك دقيقة واحدة بمفردك، طيّب، كان ثمة إعلانات عنك فى الصحف، ولكن كيف علموا أنك هنا عند مجيئى؟، الناس يتصلون تليفونيًا بمَنْ تقادم دفنهم، كل لقاء كهذا يشبه بعث الموتى، مَنْ يدرى؟ ما دمنا قد عشنا لنرى معجزة أن أصبح لليهود دولة من جديد، فلعلنا نرى مع ذلك مجىء المسيح، أترى يُبعَث الموتى؟ تسوتسك، تعلم أنى ملحد، إلا أن ثمة إحساسًا بداخلى أن سيليا هنا، وأن موريس هنا، وأن والدى رحمه الله هنا، وأن شوشاك هنا أيضًا، كيف يتلاشى الشخص مع كل هذا ببساطة؟، كيف يختفى تمامًا الشخص الذى عاش وأحب وداعبه الأمل واشتد فى الجدال مع الخالق ومع نفسه؟ لا أدرى كيف وعلى أى وجه من الوجوه أستشعر وجودهم، بيد أنهم هنا، بما أن الزمن وهم


Twitter: @ketab_n

وخيال فلماذا لا يبقى كل شىء؟ سمعتك مرة تقول أو تستشهد بقول شخص - إن الزمن كتاب يمكن قلب صفحاته إلى الإمام لا إلى الخلف، قد لا نستطيع ذلك ولكن تستطيعه قُوًى ما، كيف أمكن أن تتوقف سيليا عن أن تكون سيليا؟ أو كيف توقف موريس عن أن يكون موريس، إنى أحيا معهما وأتحدث إليهما، وأسمع «سيليا» تكلمنى أحيانًا، قد لا تصدق هذا - أنها هى التى طلبت منى أن أقترن بزوجتى الحالية، كنت أرقد فى ذلك المعسكر القريب من «لاندسبرج» مريضًا جائعًا متوحدًا مكتئبًا، وفجأة سمعت صوت سيليا: هايمل تزوج جينيا، فهذا اسم زوجتى، يمكنك بالتأكيد أن تفسر هذا من الناحية النفسية، فإنى أعرف ذلك، أعرفه، ومع ذلك سمعت صوتها، فماذا تقول فى هذا، إيه؟

- لا أدرى.

- أمازلت لا تدرى، إلى متى تظل كذلك؟ تسوتسك، يبدو أنى قادر على مصالحة كل شىء عدا الموت، كيف يُقال إن الأجيال جميعهم أموات، وأننا - نحن البلهاء - وحدنا الأحياء كما نزعم أو نتوهم، أنت تقلب الصفحة ولا تستعيدها، ومع ذلك فتلك الأجيال يَقْظَى تمامًا فى صفحة كذا وكذا من سجل الأرواح.

فسألته: ماذا تصنع تلك الأجيال هناك؟

- جواب هذا لا أملكه، ربما نحن هناك نحلم نفس الحلم، إما أن كل شىء حى أو أن كل شىء ميت، أود


Twitter: @ketab_n

أن تعلم أن موريس قد أصبح عظيمًا بعد رحيلك فقط، فهو لم يكن عظيمًا قط مثلما كان فى تلك الشهور، فلقد سكن معنا فى شارع زلوتا حتى حُشِد اليهود فى الجيتو فى أكتوبر عام ١٩٤٠، وقد دام ذلك أكثر من عام بعد دخول الألمان، وكما تعلم كان فى وسعه أن يذهب إلى إنجلترا بالإضافة إلى أمريكا قبل الحرب، لقد حثه القنصل الأمريكى على المغادرة، ولم تكن الحرب مع أمريكا قد بدأت حتى عام ١٩٤١، وكان يستطيع السفر عبر رومانيا وهنغاريا (النمسا)، بل وألمانيا أيضًا، إذ كانوا يدعونك تمر بتأشيرة أمريكية، على أنه بقى معنا، وقد قلتُ مرة لسيليا: إنى مستعد أن أموت، ولكن أريد منك معروفًا - ومن الله إن كان موجودًا - ألا أرى نازيًا أبدًا، فقالت هى لى: هايمل، أعدك ألا ترى وجوههم، كيف وعدت بشىء كهذا؟ لقد ارتفعت منزلتها عندى، ولم تعد هى سيليا التى كنت أعرفها، إن موقفنا وانتقال موريس للسكنى معنا قد رفعها إلى منزلة لا يمكن أن تعبر عنها الكلمات، لقد غدت جميلة!

- أكنت تغار منه؟

- لا تقل هذا الهراء، فقد نضجت بعض الشىء، كان ملاك الموت يلوح بسيفه إلا أنى أخرجت له لسانى، وفى الخارج كان يتم تخريب المعبد، كحاما أما فى داخل منزلنا فقد استمر الاحتفال بفرحة ختم التوراة وعيد الغفران معًا، وصرتُ بدورى مثلهما


Twitter: @ketab_n

مبتهجًا كذلك، أنا لا أروى هذه الأحداث بالتسلسل المضبوط، إذ كيف تتكلم عن أحداث كهذه بالتسلسل؟ لقد مات عمى فى شهر أكتوبر، ولم يكن من الممكن الذهاب إلى لودز، إذ لم يكن اليهودى يستطيع أن يُظهر وجهه فى أى مكان، ومع ذلك تحديت الأخطار، وسرت المسافة كلها على الأقدام، كانت الرحلة إلى هناك والعودة منها أوديسا حقيقية، وكانت سيليا كما تعلم قد بدأتْ فى إعداد حجرة وأنت لاتزال فى وارسو أسميناها مغارة مكفيلة(١١٥)، ولكنهم يوم أذاعوا فى الراديو أن كل الناس قد أخذوا يعبرون جسر براغ وقررت أنت أن ترحل مع شوشا أصبحت الحجرة فى ذلك اليوم حجرة فيتلزوهن ومكانى المفضل الوحيد، حيث كنا نأكل وننام ويكتب موريس مؤلفاته، لقد أحضرت نقودًا من لودز، لم تكن نقودًا ورقية، بل دوكات ذهبية تركها لى والدى مع عمى، كانت مدخرة من زمن الروس، والحقيقة أن عودتى بمثل هذه الثروة إلى وارسو بدون أن أُفتَش أو أقتل فى الطريق هو أمر بعيد عن التصديق، على أنى عدت، وعلاوة على ذلك كان لدى سيليا مجوهراتها أيضًا، فى ذلك الوقت كان يمكنك الحصول على كل شىء مقابل النقود، وظهرت السوق السوداء فى الحال تقريبًا، وبعد أوديستى استنفدت آخر قطرة من شجاعتى بحيث نضبت تمامًا، فلم أسع إلى الشارع مثل موريس، وأصبحت سيليا هى وسيلة اتصالنا بالعالم الخارجى، وفى كل مرة كانت تذهب فيها لم


Twitter: @ketab_n

نكن متأكدين أننا سنراها مرة أخرى، وكذلك كانت تيكلا تقضى لنا حوائجنا من الخارج، كانت تخاطر بحياتها، ثم اضطرت إلى العودة إلى قريتها، لأن أباها توفى، كانت أيام حزن وأسى، وكانت حياتنا تبدأ بالليل، ولم يكن يوجد الكثير لنأكله، كنا نشرب الشاى الساخن وموريس يتكلم، ولم أسمعه من قبل يتكلم بمثل ما تكلم به فى تلك الليالى، فقد استيقظ بداخله تراث الأجداد، وأخذ يقذف كبريتًا فى حق الله، وتلتهب كلماته بالحمية الدينية فى الوقت نفسه، وراح يؤنب الخالق ويلومه بشدة على خطاياه منذ بدء الخليقة، وظل مصرًا على أن الكون كله لعبة، إلا أنه ارتفع بها لتصبح إلهية، وهذه هى الكيفية التى كان يتكلم بها الرب بونيم رائى «لوبلين» والـ «كوتزكر» على الأرجح، وكانت خلاصة كلماته أنه مادام الرب ساكتًا على نحو أبدى فإننا لاندين له بشىء، ويخيل إلىّ أنى سمعت منك مرة كلمات مشابهة، أو ربما كنت تستشهد بأقوال موريس، وحاول أن يبرهن على أن الدين الحقيقى لا يكون بإطاعة الرب وإنما بإغاظته والنكاية فيه، فإذا ود هو الشر طمحنا نحن إلى العكس، وإذا أراد هو الحروب ومحاكم التفتيش والمحن القاسية والهتالرة فينبغى أن نتعمد نحن الاستقامة والصلاح والحسيدية والميل إلى العفو والرحمة، وقال إن الوصايا الشعر ليست من عند الرب وإنما هى من صنعنا نحن، وأن الرب يريد من اليهود أن يستولوا على أرض إسرائيل من الكنعانيين


Twitter: @ketab_n

ويشنوا حروبًا على الفلسطينيين، إلا أن اليهودى الحقيقى هو الذى بدأ بما ينبغى أن يكون عليه فى النقى، وأراد الجمارا وشروحها والزوهار وشجرة الحياة وبداية الحكمة، وقال موريس كذلك إن الأغيار لم يجبرونا على الجيتو؛ فاليهودى يتصرف من تلقاء نفسه، لأنه مل من شن الحروب وتربية المقاتلين والأبطال لساحات القتال، كان موريس يقيم بناءً جديدًا كل ليلة، إلى أن حبسوا اليهود فى الجيتو، كان فى وسعنا أن نهرب، فقد كان الناس يكثرون من الذهاب إلى روسيا والعودة منها، وكان فى بايلوك يهودى من وارسو، نصف كاتب ونصف مجنون، وشهيد بالكامل، اسمه يونكل بنتزاك، استمر يسافر من بايلوك إلى وارسو ويعود مرة أخرى ـ نوع من المراسلين المقدسين أو المهربين السماويين، كان يهرب الرسائل فينقلها من الزوجات إلى أزواجهن ومن الأزواج إلى زوجاتهن، ولك أن تتخيل المجازفة المرتبطة بتلك الرحلات!، وفى النهاية قبض عليه النازيون، ولكنه ظل يعمل كساعى بريد مقدس إلى أن قاموا بذلك، وقد أحضر لى بضع رسائل، فقد ذهب بعض أصدقائى إلى هناك ورجونا أن نلحق بهم، ولم تكن سيليا تريد ذلك، وكذلك موريس، فلم أتخل عنهما أو أتركهما بالرغم من ذلك، ماذا كان يوجد لصالحى فى هذا العالم الغريب الأجنبى عنى؟ طائفة بأسرها من الكُتَّاب والقادة التى كانت ترسل تحياتها إلينا اتخذت وجهة مغايرة تمامًا بين عشية وضحاها، وأصبح



Twitter: @ketab_n

أولئك من غلاة الشيوعيين، وكانت وشاية الرفيق برفيقه هى الوضع السائد، وتضمنت كتاباتهم مديحًا لستالين، وكانت المكافأة على هذا تبدأ أولاً بطبق برغل وفراش وتنتهى فيما بعد بالسجن والنفى والتصفية، لقد توصلت إلى نتيجة مؤداها أن ما يسميه الناس حياة هو موت وأن ما يسمونه موتًا هو حياة، لا تسل أية أسئلة، تُرى أين كُتِب أن بق الفراش يعيش والشمس غائبة؟ تُرى هل من سبيل آخر حولنا؟، الحب؟، ليس الحب ببساطة، تسوتسك، تُرى هل معك ثقاب؟ الواقع أنى اكتسبتُ تمامًا عادة التدخين فى الأرض اليهودية.

وذهبت لأحضر ثقابًا لهايمل وأشترى له فى الوقت نفسه علبتى سجائر أمريكية، فهز رأسه قائلاً: أهما من أجلى؟ أنت مبذر إذ تساعدنى.

- لقد أخذت منك ماهو أكثر من علبتى سجائر.

- إيه؟، نحن لم ننسك، استمرت سيليا تسأل عنك، لعل أحدًا يكون سمع عنك شيئًا، أو لعل شيئًا من كتاباتك يكون قد طُبع؟ إلى أين ذهبت بعد أن غادرت وارسو؟ ليس إلى بايلوك؟

- إلى دروسكينك.

- أقدرت أن تصل إلى هناك؟

- تسللت.

- ماذا صنعت فى دروسكينك؟


Twitter: @ketab_n

- اشتغلت فى فندق.

- حسنًا، لقد عملت طيبًا بالبقاء بعيدًا عن الكُتَّاب، لأنك لم تكن تستطيع أن تكون شيوعيًا، ولأن المعادين للشيوعية كانوا يُرسلون إلى سيبيريا فورًا، وقد صنعوا نفس الشئ فيما بعد مع غلاة الستالينيين، ماذا صنعت عام ١٩٤١؟

- واصلت الذهاب.

- إلى أين؟

- جررت نفسى قُدمًا حتى صلت إلى كوفنو، ومن هناك ذهبت إلى شنغهاى.

- أحصلت على تأشيرة، إيه؟ وماذا صنعت فى شنغهاى؟

- أصبحت منضد حروف طباعة.

- ماذا كنت تنضد؟

- The Shitah Mekubbetzet.

- حسنًا، اليهود فى سباق مجنون، سمعت أنه يوجد معهد دينى يهودى هناك ينشر الكتب، ألم تكتب؟

- فعلت ذلك أيضًا.

- متى سافرت إلى أمريكا؟

- فى مطلع عام ١٩٤٨.

- لقد تركت أنا وارسو عام ١٩٤١،، توفى موريس فى مارس.



Twitter: @ketab_n

- لماذا لم تصحب سيليا معك؟

- لم يكن ثمة أحد أصحبه؟

- أكانت مريضة؟

- لقد ماتت بعد موريس بشهر بالضبط بما يسمونه وفاة طبيعية.

## (٣)

شققت أنا و «هايمل» طريقنا بالضغط فى الحافلة الذاهبة إلى «ها دار يوسف»، ضاحية «تل أبيب» التى أُعدت لإيواء المهاجرين الجدد، وكان الركاب يشتمون بعضهم بعضًا باليدية والبولندية والألمانية والعبرية المكسورة، والنسوة يتشاجرن من أول المقاعد إلى آخرها، والرجال يتحيزون لهذه أو تلك، وكانت امرأة قد أحضرت معها دجاجة حية، فانفلتت من السلة وطارت فوق رءوس الركاب، وصاح السائق بأنه سوف يلقى من الحافلة أى شخص يسبب الإزعاج، وبعد قليل هدأت الأمور، وسمعت «هايمل» يقول: حقًا، أمة يهودية، القادمون الجدد فقدوا صوابهم - ضحايا هتلر، حزم من الأعصاب، يخامرهم الشعور دائمًا بأنهم مضطهدون، فى البداية كانوا يلعنون هتلر، أما الآن فهم يلعنون بن جوريون، إذا لم ينزل الله بهم نكبة جديدة فربما يغدو أطفالهم أو أحفادهم أسوياء، ماذا تدرى عما نكابده أو نعانيه؟!، أنت لم تقل شيئًا، لعلك تتساءل عن سبب زواجى مرة أخرى بعد «سيليا»، كنت


Twitter: @ketab_n

أنا و «جـيـنـيـا» من قـبـل دودتين تدبان على الأرض متباعدتين فأخذتا تدبان معًا، كنا نسكن حتى وقت قريب فى كوخ من الصفيح، ثم حصلنا على الشقة التى نسكنها الآن، إلى أى حد يمكن لجسم أن يتحمل؟ ليست هى «سيليا»، ولكنها - مع ذلك - إنسانة طيبة، كان زوجها معلمًا فى مدرسة ييدية فى بيتركوف، وعضوًا فى جمعية أمريكية ألمانية موالية للنازية، آمنت «جينيا» بستالين بعض الوقت حتى ذاقت المر على يده، ومن العجيب أنها عرفت فيتلزوهن، فقد ذهبتْ مرة إلى محاضرة له كان يلقيها عن شبنجلر[١١٦] ووقع لها كتاب، وهى ممرضة فى مستشفى، حيث يأتون بالجرحى إليها فى سيارات الإسعاف، نجمة داوود الحمراء، وهى فى إجازة اليوم بالصدفة المحضة، وهى تعلم كل شىء عنك، لقد أعطيتها كتبك لتقرأها، ووصلنا إلى «هادار يوسف»، حيث امتدت حبال الغسيل من سطح شقة إلى سطح أخرى، والأطفال النصف العراة يلعبون فى الرمل، وأفضى بنا درج أسمنتى إلى داخل مطبخ «هايمل» مباشرة، وفى الخارج كانت تنبعث رائحة النفايات والأسفلت ورائحة شىء آخر ثقيلة وحلوة إلى حد من الصعب تحديدها، وكانت تنبعث من المطبخ رائحة الحُماض والثوم، وبجوار موقد الغاز وقفت امرأة قصيرة ذات شعر قصير مصفف - أسود يخالطه الرمادى، وكانت ترتدى فستانًا من الشيت، وتضع شبشبًا مشقوقًا فى قدميها العاريتين، وكان من


Twitter: @ketab_n

الواضح أنه قد أُجريت لها عملية جراحية، إذ كان وجهها مضغوطًا مَن الجانب الأيسر ومليئًا بالندوب من تحت الذقن وفمها ملتويًا، وكانت تروى زهرة فى أصيص حين دخلنا، فهتف بها «هايمل»:

- حزرى مَنْ هذا؟

- تسوتسك.

فبدا عليه الارتباك:

- إن له اسمًا.

فقلت: لا يهم، بل على العكس تمامًا.

فقالت «جينيا»:

- لا تؤاخذنى، فعلى هذا النحو نشير إليك، أربع سنوات وأنا أسمعه يردد: تسوتسك، تسوتسك، حينما يفكر زوجى فى شخص ما فإنه يتكلم عنه بلا توقف، هأنا أخيرًا أراك شخصيًا، لقد شرفت بلقاء الدكتور فيتلزوهن، أما أنت فأعرفك من الصورة التى ظهرت فى الصحيفة اليدية فقط.

والتفتتْ إلى «هايمل» قائلة:

- لماذا لم تخبرنى بأنك سوف تحضر أحدًا إلى المنزل؟ سأرتب المكان.

وأردفت: نحن هنا فى كفاح مستمر مع الذباب والخنافس، بل والفئران أيضًا، فى السنوات الماضية لم أكن أعتبر تلك الحشرات أو الفئران مخلوقات الله، ولكن منذ أن عُوملتُ أنا نفسى كالخنفساء


Twitter: @ketab_n

عوملت على أن أتقبل الأشياء التى لا يرغب الشخص فى تقبلها، من فضلكما ادخلا الحجرة الأخرى، ضيف كبير غير متوقع، ياله من شرف!

وأشار «هايمل»: أترى خدها؟ لقد ضربها النازى عليه بقطعة ماسورة.

فقالت «جينيا»: طيّب، لماذا تخوض فى هذا الأمر؟ اذهبا إلى الحجرة الأخرى، معذرة للحالة التى عليها المنزل.

ودخلنا الحجرة الأخرى، حيث قامت أريكة كبيرة مما يُستعمل كأريكة بالنهار وسرير بالليل، ولم يكن بالشقة حوض استحمام (بانيو)، بل مرحاض ومغسلة فقط، ويبدو أن تلك الحجرة قد أعدت لاستخدامها كحجرة نوم وحجرة طعام معًا، وكان ثمة خزانة كتب، حيث اكتشفت «الهرمونات الروحية» لفيتلزوهن والعديد من كتبى.

وقال «هايمل»:

- هذه أرضنا، وهذا منزلنا، ولعلنا نحظى بالموت هنا إذا لم نقذف إلى البحر.

ودخلت «جينيا» بعد قليل، وأخذت تسِّوى ونحن جلوس، وكنست الأرض، وفرشت قطعة قماش على المائدة، واعتذرت تكرارًا عن «اللخبطة»، وبدأ المساء يهبط فى الوقت الذى قدمت هى فيه طعام العشاء: بعض اللحم لها ولهايمل، وخُضرًا لى، وضدمنى أن



Twitter: @ketab_n

الزوجين قد خلطا طبقيهما بمنتجات اللبن، إذ ظننت أن «هايمل» سيراعى اليهودية فى أرض إسرائيل على الرغم من تحدثه كهرطيق، فسألته:

- ما دمت غير متدين فلماذا تطلق لحيتك؟

فوضعت «جينيا» ملعقتها، وقالت:

- ذلك ما أود معرفته.

فرد «هايمل»: أوه، يجب أن يكون لليهودى لحية، يجب أن يكون مختلفًا على نحو ما عن غير اليهودى.

فقالت «جينيا»:

- أنت غير يهودى كذلك بالطريقة التى تحيا بها.

- ما دمت لا أقتل أحدًا أو أؤذيه أستطيع أن أسمى نفسى يهوديًا.

فقالت «جينيا»:

- إنه مكتوب فى موضع ما أن مَنْ يخرج على إحدى الوصايا العشر لابد أن يخرج عنها جميعًا.

- جينيا، الوصايا العشر كتبها إنسان لا الله، مادمت لا تؤذين أحدًا تستطعين أن تحيى بالطريقة التى تروق لك، لقد أحببت فيتلزوهن، لو طلبوا منى أن أتخلى عن حياتى لكى يحيا من جديد ما ترددت، وأُشهِد الله على ما أقول إن كان له وجود، وإنى أحب تسوتسك أيضًا، لسوف ينقضى زمن الملكية وينشأ إنسان ذو غرائز جديدة هى غرائز الاقتسام، هذه كلمات موريس بحذافيرها.


Twitter: @ketab_n

فسألته «جينيا»:

- إذًا، لماذا كنت مناهضًا كبيرًا للشيوعية في روسيا؟

- لأنهم يريدون الاغتصاب لا الاقتسام.

وخيم الصمت، وسمعت جَدجدًا،[١١٧٥] الصوت عينه الذى كان ينبعث من الجدد وهو يصر فى مطبخنا حين كنتُ صبيًا، وامتلأت الحجرة بالظلال.

وقال «هايمل»: إنى متدين على طريقتى الخاصة، إنى متدين! أؤمن بخلود الروح، إذا كان الصخر يبقى ملايين السنين فلماذا نميز بينه وبين الروح أو أيًا كان الاسم الذى تخلعه عليها، إنى مع أولئك الذين ماتوا، أحيا معهم، لحظة أُغمضُ عينى يكونون معى جميعًا، إذا كان الشعاع يرتحل بلايين السنين ويشع، فلماذا لا تفعل الروح ذلك؟ إن علمًا جديدًا مؤسسًا على هذه المقدمة سوف يبزغ.

فسألتُه: متى تعود الحافلة إلى تل أبيب؟

فقال: تسوتسك، فى استطاعتك أن تنام هنا.

- شكرًا يا هايمل، ثمة شخص سوف يأتى لرؤيتى فى الصباح الباكر.

ورفعت «جينيا» الأطباق من على المائدة، ومضت إلى المطبخ، وسمعتها قريبة من الباب الأمامى، ولم يضئ «هايمل» الأنوار، وكان ثمة وهج خفيف يأتى من النوافذ، وأخذ «هايمل» يحدثنى ويحدث نفسه ولا أحد على وجه الخصوص: إلى أين تمضى السنون



Twitter: @ketab_n

جميعًا؟ من ذا الذى سوف يتذكرها بعد أن تمضى؟ لسوف يسجل الكُتَّاب، ولكنهم سوف يجدون كل شىء رأسًا على عقب: فوضى، لابد أن يكون هناك موضع فى مكان ما يُحفظ فيه كل شىء، ويُسجَل فيه أدق تفصيل، فلنقل إن ذبابة قد سقطت فى نسج عنكبوت وأن العنكبوت قد امتصها جافة، هذه حقيقة الكون التى لا يمكن إغفالها أو نسيانها، وإذا أغفلت أو تنوسيت فلسوف يُحدث ذلك تشويهًا للكون ويُلحق به نقصًا، هل تفهمنى أم لا.

- أجل، يا هايمل.

- تسوتسك، تلك كلماتك.

- لا أذكر أنى قلتها.

- لا تذكر أنت، إنما أذكر أنا، إنى أذكر كل ما قاله موريس، وكل ما قلته أنت وما قالته سيليا، كنت تتلفظ بسخافات مضحكة أحيانًا أذكرها أيضًا، إذا كان الإله حكيمًا فكيف تكون هناك حماقة؟ وإذا كان الإله هو الحياة فكيف يكون هناك موت؟ إنى أرقد بالليل، رجل ضئيل، ذبابة نصف مسحوقة وأتحدث إلى الأموات وإلى الأحياء، وإلى الإله إن كان موجودًا، وإلى الشيطان الموجود يقينًا وأسألهم: ما الحاجة إلى كل هذا؟ وأنتظر الجواب، فماذا ترى يا تسوتسك؟ أيوجد جواب فى موضع ما أم لا؟

- لا يوجد جواب.


Twitter: @ketab_n

- لم لا؟

- لا يوجد أى جواب يتعلق بالمعاناة أو يتعلق بمن يعانى.

- إذًا، فماذا أنتظر أنا فى مثل هذه الحالة؟

وفتحت «جينيا» الباب، وقالت:

- لماذا تجلسان أنتما الاثنان فى الظلام، إيه؟

فضحك «هايمل»:

- نحن فى انتظار جواب.



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# هوامش المترجم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## الفصل الأول:

(١) اليدية (أو اليبيدش) لهجة ألمانية قديمة تُكتَب بحروف عبرية، ويتحدث بها يهود شرق أوروبا منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث.

(٢) الآرامية: فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية،وأقربها إلى العبرية وتُسمى أحيانًا الكلدانية، ولكن العلماء يذهبون الآن إلى أن الكلدانية لغة مستقلة عن الآرامية.

(٣) التلمود: من أهم الكتب الدينية عند اليهود، ويحتوى على مجموعة كبيرة من من التعاليم الخاصة بالأحكام الشرعية سجلها حاخامات اليهود باللغة العبرية، ونسبوها إلى سيدنا موسى عليه السلام، وأطلقوا عليها أيضًا التوراة الشفوية، وهى عندهم بمنزلة التوراة المكتوبة إن لم تفقها، وهناك تلمود أحدهما فلسطينى والآخر بابلى.

(٤) الحدير: كلمة عبرية معناها حجرة، والحدير يشير إلى مدرسة أولية خاصة ظهرت منذ القرن الثالث عشر الميلادى، وكان لأى شخص لديه إلمام بالشريعة أن يقيمها بعد الحصول على موافقة الحاخام، وكان معلمها يتقاضى أجره من أولياء أمور التلاميذ، وكانت هذه المدرسة توجد غالبًا فى منزل المعلم، وكان الأطفال يلتحقون بها ما بين سن السادسة وسن الثالثة عشرة،


Twitter: @ketab_n

وكان التعليم فيها إجباريًا، ولم تكن تُدرَّس سوى المواد الدينية، وقد لاقت هجومًا من دعاة التنوير لما اتسم به منهجها من عقم واتسمت به طرق التدريس من سوء، وقد تمكن الصهاينة فى نهاية القرن التاسع عشر من تطويرها تحت مسمى «حدير متوكان» حيث جمعت مناهجها بين المواد الدينية والمواد غير الدينية، كما تم طبع المواد الدينية بالطابع القومى.

(٥) حسيدى: وهى كلمة معناها تقى أو ورع، وهى تشير إلى جماعات دينية كانت تتسم بالحماس الدينى والتقوى فى القرن الثانى قبل الميلاد، كما تشير إلى الحركة الصوفية التى ظهرت فى ألمانيا فى القرن الثالث عشر، ثم أصبحت تشير إلى أتباع الحركة الحسيدية التى ظهرت فى بولندا فى القرن الثامن عشر وهى حركة دينية صوفية حلولية أسسها وتزعمها بعل شيم طوف، وقد بدأت فى جنوب بولندا وقرى أوكرانيا وخصوصًا فى مقاطعة بودوليا التى انتشرت منها الحسيدية، وبلغت أقصى تركيز لها فى الأراضى البولندية التى ضمتها روسيا إليها، وقد نجحت الحسيدية فى تحقيق قدر من الاستقلال عن المؤسسة الحاخامية.

(٦) الجمارا: وهى شروح مطولة ألحقها حاخامات اليهود بالمشنا باللغة الآرامية، وهى تحتوى على كثير من القصص والأساطير، كما أنها مشحونة بأنواع الاستطراد والتفريع،. ومن المشنا والجمارا معًا يتكون التلمود.

(٧) المشنا: لفظة عبرية معناها المثنى أو المكرر أو النص الوارد بطريق المشافهة والمشنا هى التعاليم المذكورة.

(٨) البُرش: حساء خضر روسى.

(٩) البراجم: مفردها بُرجمة، وهى مفصل الإصبع، والبراجم لعبة تُوضع فيها البراجم على الأرض.

(١٠) القَبَّالاة: علم التصوف اليهودى، ويحدد خطوط فلسفتها الرئيسية كتاب (الزوهار) وقد اكتسبت طابعًا عمليًا فى



Twitter: @ketab_n

القرن السادس عشر فيما يُعرف بالقبالاة اللوريانية نسبة إلى يتسحاق لوريا، وكان للقبالاة عمومًا سواء كانت نظرية أو عملية أثر كبير فى شريعة الحسيدية، إذ أكدت على أهمية الصلاة وقيمتها، وعلى النية والحب العميق باعتبارها جميعًا سبيلاً للسمو الروحى، وعلى أن الصلاة قادرة على الوصول إلى أعلى مرتبة للتأثير على إرادة الرب وإنزال الفيض الإلهى.

(١١) الزوهار: كلمة عبرية تعنى الضياء أو الإشراق، وكتاب الزوهار أهم كتب التراث القبالى كما سبق، وهوتعليق صوفى مكتوب بالآرامية على المعنى الباطنى للعهد القديم، وهو يحتل مكانة عالية بين اليهود فاقت التلمود خصوصًا بعد ظهور الحركة الحسيدية، ويستند إلى قراءة غنوصية قوامها رموز الحروف العبرية ومقابلها العددى، كما يستخدم أربع طرق للشرح والتعليق وصولاً إلى المعنى الخفى وهى التفسير الحرفى والانتفاضة من أهم الحوادث التاريخية التى أثرت فى الجماعات اليهودية فى شرق أوروبا، وهى تعود إلى عدة أسباب منها أن النبلاء البولنديين المستقرين فى وارسو كانوا بعيدين عن أقطاعياتهم الموجودة فى أوكرانيا، ولم يكن يهمهم سوى الحصول على ريعها؛ ولذا كانوا يوكلون أمر إدارتها إلى اليهود فيما يعرف بنظام الأرندا، وهؤلاء كانوا يقومون بجباية الضرائب الباهظة من الفلاحين ومنها ضريبة يدفعها الفلاحون الأرثوذكس مقابل فتح باب الكنيسة للصلاة أو غيرها من العبادات، كما كانوا يقومون ببيع السلع التى احتكرها النبلاء لأنفسهم مثل الملح والخمور بأسعار مرتفعة جدًا، وكانوا ينتشرون بين الفلاحين القوزاق والأوكرانيين فى مدن صغيرة «شتتلات»، وتقوم على حمايتهم فرق بولندية مسلحة، وقد استمر الجفاف عشر سنوات فازداد الأرثوذكسين حال الفلاحين سوءًا، وازداد سخط الأرثوذكسيون بسبب محاولات الكنيسة الكاثوليكية فرض نفوذها على شرق



Twitter: @ketab_n

أوروبا، وقد شجع على الانتفاضة ما لحق بولندا من ضعف نتيجة عوامل داخلية وخارجية وتوجت الانتفاضة بحصول عدة مقاطعات أوكرانية على الحكم الذاتى عام ١٦٤٩، ثم ضم أوكرانيا وسمولنسك إلى روسيا عام ١٦٦٧، ولا شك أن ما أصاب يهود الأرند من ذعر وفرار عدد كبير منهم إلى بولندا قد هيأ تربة صالحة لظهور شبتاى تسفى وغيره وظهور الحركة الحسيدية فضلاً عن نمو الحركة الصهيونية.

(١٢) أرشميدس (٢٨٧؟ ـ ٢١٢ ق.م): رياضى وفيزيائى يونانى اكتشف مبدأ الثقل النوعى.

(١٣) كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣): نيقولاس كوبرنيكوس عالم فلك بولندى، يعتبر مؤسس علم الفلك الحديث، قال إن الأرض والكواكب السيارة الأخرى تدور حول الشمس وحول نفسها مخالفًا بذلك ما كان مستقرًا منذ عصر بطليموس من أن الأرض هى مركز الكون الثابت، وقد أدانت الكنيسة الكاثوليكية ما قال به كوبر نيكوس باعتباره مخالفًا لنصوص الكتاب المقدس.

(١٤) نيوتن (١٦٤٣ ـ ١٧٢٧): السير إسحق نيوتن رياضى وفيزيائى إنجليزى يعتبر لدى الكثيرين أعظم عالم فى جميع العصور، فقد اكتشف قانون الجاذبية العام وقوانين الحركة ووضع علم التفاضل والتكامل واكتشف ألوان الطيف السبعة التى يتكون منها الضوء الأبيض.

(١٥) أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م): فيلسوف يونانى وعالم، له أعمق الأثر فى تاريخ الفكر الغربى، وقد امتد أثره إلى الفكر الإسلامى، وهو واحد من أعظم الفلاسفة فى جميع العصور.


Twitter: @ketab_n

(١٦) ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠): رينه ديكارت فيلسوف وفيزيائى ورياضى فرنسى يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة، ومكتشف الهندسة التحليلية ومن أشهر مؤلفاته «مقال فى المنهج».

(١٧) ليبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦): البارون جوتفريد ولهلم فون ليبنتز فيلسوف ورياضى ألمانى، قال بعدم التعارض بين الإيمان والعقل.

(١٨) إسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧): باروخ إسبينوزا فيلسوف هولندى من أصل يهودى ومن أهم كتبه (الأخلاق): تناول فيه مذهب وحدة الوجود مستخدمًا المنهج الاستدلالى الهندسى، فالله والكون والطبيعة عنده جوهر واحد له فكر وامتداد وكل ما فى الوجود من معقولات ومحسوسات مظاهر الفكر والامتداد، والفكر تبدو مظاهره فى عقل الإنسان والامتداد تبدو مظاهره فى، والله عنده جملة صفات لا حد لها نعرف منها فقط الفكر والامتداد، ومع ذلك فقد نفى «إسبينوزا» فى بعض رسائله القول بوحدة الله والطبيعة، وفسر ذلك بأن الله (حاضر) فى الطبيعة لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه، لأنه لا انفصال عن اللانهاية وهى الله، وكأنما أراد القول بأنه لا تناقض بين كمال الله ووجود الكائنات التى تتحيز فى فضاء محدود أو تجرى إلى أمد محدود.

(١٩) زينون: يعرف الفكر الفلسفى اليونانى فيلسوفين بهذا الاسم هما زينون الكتيومى (نحو ٣٣٦ ـ ٢٦٤ ق.م) نسبة إلى كتيوم من أعمال قبرص، وزينون الإيلى (٤٩٠ ـ ٤٣٠) نسبة إلى إيليا فى الجنوب الغربى من ناحية الساحل بإيطاليا ـ ولم يحدد النص الروائى أيهما المقصود مما يتعين معه التنويه عنهما معًا.

زينون الكتيومى: ويسمى زينون الرواقى، لأنه كان يحاضر تلاميذه فى أحد الأروقة، وقد أطلق على فلسفته تبعًا


Twitter: @ketab_n

لذلك «الرواقية»، وهى من أعظم المذاهب الأخلاقية فى العالم القديم (ولا سيما العالم الرومانى)، وأهم تعاليمها سعى المرء إلى السعادة من داخل نفسه عن طريق المران أو الاستقلال عن العالم الخارجى والعيش وفقًا للطبيعة أى اتباع العقل بوصفه المبدأ الأعلى فى الإنسان وإطاعة قانون «اللوجوس» أو العقل الكونى الشامل لكل شىء، وبذلك تكون الحياة أسمى واجب للإنسان بالسير على هذين المبدأين.

ويقال إن زينون الكتيومى قد كتب عن جمهورية لا تعرف الجريمة ولا الطبقات ويسود الحب بين سكانها الذين هم من الناس العاديين ومن ثم ليست فى حاجة إلى قانون.

زينون الإيلى: اشتهر بحججه الربع ضد الحركة التى حاول أن يثبت بها أن الحركة وهم لا حقيقة.

(٢٠) العالم الأكبر (الماكروكوزم) والعالم الأصغر (الميكروكوزم)، الأول هو الكون فى جملته والآخر هو الإنسان بوصفه جزءًا من الكل ومعبرًا عنه أو رمزًا له وباعتبار أن تعقده الداخلى مشابه للنظام الخارج للطبيعة ومن ثم قام التلازم بين الاثنين.

(٢١) نشيد الإنشاد: وهو من الأغانى الشعبية للأفراح والزفاف، ويُقال إنه نشيد غزل بين الإله وجماعة يسرائيل، ويُنسب إلى سيدنا سليمان عليه السلام.

(٢٢) يوم التاسع من آب: يمثل هذا اليوم ذكرى حزينة لدى اليهود؛ إذ قام الرومان فى مثل هذا اليوم باقتحام الهيكل الثانى لليهود فى أورشليم وتدميره.

(٢٣) جروشن: من قطع العملة الصغيرة فى بولندا.

(٢٤) عيد الفصح: يحتفل به اليهود لمدة ثمانية أيام تبدأ من الخامس عشر من نيسان من السنة اليهودية إحياءً لذكرى نجاة بنى إسرائيل من فرعون وخلاصهم من


Twitter: @ketab_n

العبودية فى مصر، ولذا سمى «الفَسْح» أى الفرج بعد الضيق، وهو عيد الربيع عندهم، كما يسمى عيد الفطير، إذ يجب عليهم أن يأكلوا فيه خبزًا لا يدخله خميرة أو ملح مثلما فعل أجدادهم عند فرارهم من وجه فرعون إذا لم يكن لديهم الوقت أو فراغ البال لانتظار العجين حتى يخمر.

(٢٥) التوسافوت: مجموعة كتابات تلمودية ترجع إلى القرن ١١ - ١٢.

(٢٦) عيد الظلل أو المظال: واسمه بالعبرية «سكوت»: الأصل فيه أنه عيد زراعى كان يحتفل فيه بتخزين المحصولات الزراعية للسنة كلها وذلك فى فصل الخريف، ومدته التقليدية تسعة أيام تبدأ من اليوم الخامس عشر من شهر تشرى ويكون الاحتفال به منذ غروب شمس اليوم الرابع عشر بحيث تكون هذه ليلة العيد، والأيام التسعة منها سبعة أيام هى عيد الظلل بذاته ويومان آخران هما الثانى والعشرون والثالث والعشرون من تشرى ولهما لون آخر فالأول منهما يسمى الثامن الختامى لأنه يختم عيد الظلل بأيامه السبعة، بل يختم كل الأعياد المكدسة فى شهر تشرى أول شهر من السنة العبرية، والثانى يفتتح دورة مديدة من قراءة التوراة ولذلك يسمى عيد فرحة أو بهجة التوراة «سِمْحَتْ توراة».

(٢٧) ليل (ليلت): شيطانة فى التراث الدينى اليهودى الشعبى، تأتى بالأحلام الجنسية للرجال وتسبب لهم القذف أثناء النوم، وتقتل الأطفال المولودين وأمهاتهم خصوصًا فى السبعة أيام الأولى بعد الميلاد، وتظهر صورتها فى سومر ببلاد الرافدين على هيئة أنثى عارية مجنحة تقف على ظهر أسد ولها مخالب طائر، ووفقًا لما جاء فى التلمود كانت ليل عشيقة آدم فى الفترة التى افترق فيها عن حواء بعد طردهما من الجنة وولدت له عدة شياطين، وفى رواية أخرى كانت ليل هذه زوجته الأولى


Twitter: @ketab_n

قبل حواء خُلقت مثله من طين لا من ضلعه ولكنهما تشاجرا، إذا لم توافق على الوطء باعتباره يمثل هيمنة الرجل عليها، فنطقت باسم يهوه وهربت وهى تقسم أن تنتقم، ومن ثم فهى تقتل أولاء حواء، إلا أنه يمكن وقف مفعول لعنتها عن طريق استخدام الحجاب المناسب. وقد ورد اسم ليل فى العهد القديم بشكل عابر (أشعياء ١٤/٣٤) باعتبارها أحد الأرواح أو أحد الوحوش المفترسة التى ستقوم بتدمير الأرض فى آخر الأيام، ثم نُسِجت حولها الأساطير ـ وقد أصبحت ليل إحدى بطلات التمركز حول الأنثى فى أمريكا وأوروبا ورمزًا للأنثى المتمردة.

(٢٨) مندلى موخير سفوريم (١٨٣٦ ـ ١٩١٧): أديب كان يكتب بالعبرية واليديشية، عُرِف بهذا الاسم فى عالم الأدب ومعناه بالعبرية (مندلى بائع الكتب)، أما اسمه الحقيقى فهو (شالوم جيكوب أبراموفيتش)، ويعتبر أحد مؤسسى الأدب اليديشى، وقد دعا إلى علمنة أسلوب حياة اليهود متأثرًا بالفلسفة الوضعية، وكان من أوائل دعاة حركة التنوير ثم الصهيونية، وأحدثت كتاباته باليديشية (المستخدمة فى التخاطب بين الجماهير) ثورة فى عالم الأدب اليديشى، إذ صور الجيتو بطريقة واقعية شاملة لا تخلو رغم قسوتها من المشاركة الوجدانية والعطف، ومن أعماله باليديشية رواية «رجل صغير» (١٨٦٤) ومسرحية «ضريبة اللحم» (١٨٦٩) وهى مسرحية انتقادية يسخر فيها من المؤسسة اليهودية، إذ أصبحت أداة فى يد القهر العنصرى، ورواية «المهر العجوز» (١٨٧٣، وهو رواية رمزية عن تجربة يهود شرق أوروبا الناطقين باليديشية، وقد عاد إلى الكتابة بالعبرية بعد عام ١٨٨٦ وحقق فيها نجاحًا يذكر.

(٢٩) شالوم عليخيم (١٨٥٩ ـ ١٩١٦): وهو الاسم الذى عُرف به (شالوم رابينوفتش) فى عالم الأدب ومعناه (السلام عليكم)، وهو من مؤسسى الأدب اليديشى، وفى مقدمة


Twitter: @ketab_n

أهم كُتَّابه، إذ استطاع أن يجسم حياة هيود شرق أوروبا بكل ما تحتويه من تفاصيل وبطريقة امتزجت فيها المأساة بالملهاة، وقداشتهرت شخصياته الأدبية بما تشير أو ترمز إليه، فمناحيم مندل يعنى الشخص الخيالى صاحب المشاريع التى لا يمكن أن تتحقق، وطُوبيا اللبان الذى يدعى العلم والمعرفة هو فى الحقيقة شخص سطحى يقتبس كلماته من العهد القديم دون أن يدرك معناها على وجه التحديد والدقة.

(٣٠) بيريتس (١٨١٥ ـ ١٩١٥): إسحاق بيريتس شاعر ومؤلف وُلِد فى بولندا، وكتب بالعبرية واليديشية، تأثر بالفكر الحسيدى، كما تأثر بفكر حركة التنوير، ومن أهم أعماله التى كانت سببًا فى ذيوع شهرته «مُونيش» التى نشرها عام ١٨٨٨ اليديشية، وهى قصيدة طويلة تناول فيها حياة اليهود الناطقين باليديشية فى شرق أوروبا، وهو من المؤسسين للأدب اليديشى.

(٣١) تولستوى (١٨٢٨ ـ ١٩١٠): ألكس تولستوى روائى روسى، فى مقدمة الروائيين الأفذاذ إن لم يكن أعظمهم، اتخذت أفكاره شيئًا فشيئًا وجهة اشتراكية جادة، أمضى نهاية عمره فى ضيعته مشغولاً بأعمال الخير، وملتزمًا بالبساطة فى معيشته ومن أهم رواياته «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا»، و«الحرب والسلام» ملحمة روائية طويلة ذروتها غزو نابليون لروسيا وحرق موسكو، ثم انسحاب جيوشه وهلاكها، وتحفل الملحمة بالأحداث والتفاصيل المتنوعة فى وحدة متسقة، وتضم ما يقرب من خمسمائة شخصية، لكل منها طابعها الذى يميزها عن غيرها من الشخصيات، وهى تكشف عن رؤية تولتسوى الفلسفية للتاريخ، إذ الذى يصنعه ويحرك أحداثه ليس هم العظماء، بل قوة غامضة تشيع بين الناس وتقودهم دون وعى منهم إما إلى النصر أو إلى الهزيمة. أما رواية «أنَّا كارنينا» فتمجد الحياة الريفية البسيطة وتقاوم مدنية المدينة.


Twitter: @ketab_n

(٣٢) دوستويفسكى (١٨٢١ ـ ١٨٨١): فيودور دوستويفسكى روائى روسى اشتهر بأنه محلل النفوس، إذ تكشف رواياته عن قدرة فائقة على الغوص فى أعماق النفس البشرية والوقوف على أدق مكنوناتها ونوازعها، ومن أشهر أعماله «الإخوة كارامازوف» و«الجريمة والعقاب».

(٣٣) سترندبرج (١٨٤٩ ـ ١٩١٢): أوجست سترندبرج روائى وكاتب مسرحى سويدى كان له أكبر الأثر فى تطور المسرحية الأوروبية والأمريكية.

(٣٤) كنوت همسن (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢): روائى نرويجى الأصل هاجر إلى أمريكا، من أشهر أعماله «جوع» و «نمو التربة»، نال جائزة نوبل عام ١٩٢٠، ويذهب النقاد إلى أن رواية «جوع» تعد واحدة من الأعمال التى غيرت مجرى الرواية، وهى ما زالت تُقرأ وتصدر على الرغم من مرور أكثر من مائة عام على ظهورها.

(٣٥) الأخوان جريم (يعقوب جريم ١٧٨٥ ـ ١٨٦٣)، (وليم جريم ١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) حازا شهرة عظيمة، إذ قاما بجمع الحكايات الشعبية الألمانية، وعملا على نشرها، وقد تُرجمت إلى معظم لغات العالم، ولاقت قبولاً كبيرًا لدى الأطفال، ومنها (ذات الرداء الأحمر)، و(هانزل وجريتل) و(عقلة الإصبع).

(٣٦) هينى (١٧٩٧ ـ ١٨٥٦): هاينريتش هينى شاعر ألمانى، يعد واحدًا من أعظم الشعراء الغنائيين الألمان.

(٣٧) داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢): تشارلز داروين عالم طبيعة بريطانى، أبرز علماء الطبيعة فى القرن التاسع عشر، من أشهر مؤلفاته (أصل الأنواع) ـ ١٨٥٩.

(٣٨) راسبوتين (١٨٧٢ ـ ١٩١٦): جريجورى راسبوتين روسى تمتع بنفوذ كبير فى بلاط القيصر نيقولا الثانى واشتهر بفسقه وتهتكه.

(٣٩) المناشفة (ومفردها المَنْشَفىّ): أعضاء فى جناح من


Twitter: @ketab_n

الحزب الديمقراطى الاشتراكى الروسى، قبل الثورة الروسية وخلالها، مؤمنون بتحقيق الاشتراكية التدريجى بالطرائق البرلمانية على خلاف ما كان يؤمن به البلاشفة، وقد جاءت التسمية من اعتبارهم أقلية فى الحزب المذكور.

(٤٠) البلاشفة (ومفردها البَلْشفىّ): أعضاء فى الجناح المتطرف من حزب العمال الاجتماعى الديمقراطى الروسى، وهو الجناح الذى استولى على السلطة فى روسيا بزعامة لينين فى ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٧، وقد جاءت التسمية من اعتبارهم أغلبية.

(٤١) بيلسودسكى (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥): ناضل منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر من أجل استقلال بولندا عن روسيا القيصرية، وقد توج هذا النضال بأن أصبح أول رئيس لدولة بولندا فى العصر الحديث، وظل يشغل هذا المنصب فى الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٢٣، واستطاع أن يصد الهجوم الذى قام به الجيش الأحمر على بولندا عام ١٩٢٠ محققًا لها النصر، وحينما وصل الحزب اليمينى إلى الحكم استقال من منصبه واعتزل الحياة السياسية (مؤقتًا) عام ١٩٢٣، ولكنه عاد فاستولى على الحكم بدعم من الأحزاب اليسارية حين تبين له أن المناقشات البرلمانية التى لا تنتهى ستودى بالدولة الجديدة، وقد رفض منصب رئيس الدولة واكتفى بمنصب وزير الحرب، على أنه كان القوة المحركة للحياة السياسية من وراء الستار، وفى عام ١٩٣٠ تخلى عنه أصدقاؤه اليساريون لتحالفه مع كبار الملاك، وبدءوا حملة لإسقاط الدكتاتور على حد قولهم فرد عليهم بيلسودسكى بمنتهى العنف، إذ ألقى القبض عليهم وحكم بولندا من خلال أعوانه الجدد، وقد احتك بيلسوديسكى بأعضاء الجماعة اليهودية فى بولندا وخصوصًا العمال منهم فى مستهل حياته السياسية وأسس الحزب الاشتراكى البولندى الذى أصدر مجلة


Twitter: @ketab_n

باليديشية، إلا أنه هاجم بشدة حزب البوند باعتباره يمثل الانفصال الدينى والتجارى اليهودى ويفضل الانضواء تحت راية روسيا على استقلال بولندا. وعندما استولى على السلطة عام ١٩٢٦ زاد تدخل الدولة فى الشئون الداخلية للجماعة اليهودية، وفرضت قيودًا متزايدة على نشاطهم الاقتصادى والاجتماعى، ومما يُذكر أن وضع الجماعة اليهودية فى بولندا كان قلقًا، وذلك لميراثهم التاريخى المرتبط بطبقة النبلاء (شلاختا) التى استغلت الجماهير البولندية وعملت ضد المصالح القومية للبلاد، ومن ثم جاء استقلال بولندا ليعمق عزلة الجماعة اليهودية فيها.

## الفصل الثانى:

(٤٢) الزِّلوتى: وحدة النقد البولندية.

(٤٣) اللا أدرى (الغنوصى): من يعتقد أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، وترجع جذور مذهب اللا أدريين إلى الفسطائيين اليونان.

(٤٤) آرثر شوبنهور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠): فيلسوف ألمانى ذو نزعة تشاؤمية، يرى أن جوهر الوجود الحقيقى قوة عمياء، تظهر فى الأفراد على صورة إرادة الحياة، وأن هناك صدامًا مستمرًا بين الإرادات الفردية المختلفة، فالأحياء فى كفاح متصل، وقوام العالم حاجات لم تُشبع، ولهذا فهو ملىء بالألم، وطريق الخلاص من الألم هو إماتة الرغبات وقتل الإرادة، ويمكن التماس طريق مؤقت لتحقيق ذلك يتمثل فى العلم والفن، وتكمن الأخلاق فى إحساس الإنسان بألم أخيه الإنسان وتعاطفه معه، ومن أهم ما كتبه «العالم إرادة وفكرة» (١٨١٨).

(٤٥) أوسكار وايلد (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠): روائى إيرلندى، من القائلين بفكرة الفن للفن.


Twitter: @ketab_n

(٤٦) كَلْبِيٌّ: من يؤمن بأن المصلحة الذاتية هى التى تهيمن على السلوك البشرى، وقد يُراد به من يؤمن بأن الفضيلة هى الخير الأوحد وبأن جوهرها ضبط النفس وهما معنيان مختلفان إن لم يكونا على النقيض.

(٤٧) ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣): كارل ماركس فيلسوف اجتماعى ألمانى، أشهر أعماله كتاب (رأس المال)، وهو من أهم الكتب التى أسهمت فى تغيير مجرى التاريخ.

(٤٨) آينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥): ألبرت آينشتاين فيزيائى ألمانى، من عباقرة العلماء فى كل العصور، له نظريات عديدة فى الفيزياء أدخلت مفاهيم جديدة للزمان والمكان والحركة والضوء والجاذبية، نشر نظرية النسبية الخاصة عام ١٩٠٥، وفرغ من وضع نظرية النسبية العامة عام ١٩١٦، فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢١.

(٤٩) التكعيبية: مذهب فى الفن يقوم على تحليل الأشكال والأشياء والمناظر والتعبير عنها برسوم هندسية، وقد نشأ هذا المذهب فى باريس فى العقد الأول من القرن العشرين، ويُعتبر «بيكاسو» و«براك» مؤسِّسى هذا الاتجاه، وكان الفنان «هنرى ماتيس» أول من استخدم تعبير «التكعيبية» وذلك عندما شاهد إحدى لوحات «براك»، وقال فى استخفاف ظاهر «إنها مجموعة من المكعبات الصغيرة».

(٥٠) التعبيرية: مذهب فى الفن يقوم على تحريف صور العالم الحقيقى كى تتماشى مع مشاعر الفنان وأحاسيسه وحالاته الذهنية إزاء ما فيه من أشياء وأحداث، ويتخذ التحريف صورًا عديدة منها تشويه الأشكال وتكثيف الألوان والتباين المثير واصطناع الخطوط القوية، وقد ازدهر هذا المذهب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

(٥١) صهيون العمالى (أو عمال صهيون): حزب يهودى تشكل فى النمسا فى أعقاب المؤتمر الصهيونى



Twitter: @ketab_n

السادس (١٩٠٣)، وكانت مؤتمراته تعقد فى بولندا كما كانت تعقد فى إنجلترا، وكان يسعى إلى تحسين أوضاع العمال اليهود وتأهيلهم لتحقيق أحلام الصهيونية فى أرض فلسطين.

(٥٢) مسمر (١٧٣٤ ـ ١٨١٥): فرانز مسمر طبيب ألمانى، درس أثر النجوم على الإنسان، وقال إن بعض الأشخاص يمكنهم أن ينقلوا «القوى الكونية» إلى غيرهم فى صورة «مغناطيسية حيوانية»، واشتهر باستخدام التنويم المغناطيسى فى علاج بعض الأمراض.

(٥٣) سفنجالى: اسم مُنوم مغناطيسى شرير ورد فى رواية «رجِل» (١٨٩٤) للكاتب جورج دى موريبه، وقد أصبح «سِفنجالى» ذلك علمًا على من يتسلط على آخر ويسخره لأغراضه الأنانية أو الشريرة.

(٥٤) سولحان عاروخ (أى المائدة المرتبة): كتاب ألفه الحاخام يوسف كارو، وهو إيطالى عاش فى القرن السادس عشر، ويحتوى على أحكام التلمود مرتبة ترتيبًا دقيقًا مع الاختصار وسهولة العثور على الحكم المراد مما أدى إلى انتشاره وكثرة طبعاته وترجماته إلى اللغات الأخرى.

(٥٥) عذراء لادومير (١٨١٥ ـ ١٩٠٥): هى فتاة تدعى (حنة بربر ماخر)، استوعبت التراث التلمودى، وأكثرت من الصلاة، فشاع عنها أنها شخصية مقدسة، ومع أنها كانت مخطوبة لرجل تحبه، فقد فسخت خطبتها منه، وأخذت تعيش حياة الرجال، وتقيم الشعائر المسموح بها للذكور فقط مثل ارتداء شال الصلاة ووضع تمائمها، وأقامت بيتًا للعبادة، وكانت تعظ الناس من غرفة مجاورة، ولما ذاع صيتها وكثر القول عما تأتيه من خوارق ومعجزات توافد عليها الآلاف يحجون إليها وتجمع حولها مجموعة من الحسيديين عُرفوا باسم «حسيديو عذراء لادومير» ورفضت عذراء لادومير الزواج، على أنها تزوجت فى النهاية مرتين ـ اسميًا ـ ثم طلقت وفقدت شعبيتها وهاجرت إلى فلسطين.


Twitter: @ketab_n

(٥٦) ستانسلافسكى (١٨٦٣ ـ ١٩٣٨): قسطنطين ستانسلافسكى ممثل ومدير مسرح ومخرج مسرحى روسى، قضى على التكلف والانفعال فى التمثيل، وعوّد الممثلين على تمثيل الأدوار تمثيلاً بسيطًا طبيعيًا وكان لنظرياته فى الإخراج المسرحى تأثير كبير فى المخرجين الأوروبيين.

(٥٧) سارة برنار (١٨٤٤ ـ ١٩٢٣): اسمها الحقيقى روزين برنار كانت ممثلة المسرح الأولى فى فرنسا، إذ كانت تملك موهبة فذة وصوتًا قادرًا على ترجمة أدق خلجات المرأة، وظلت تمثل رغم بتر ساقها عام ١٩١٥، وكانت مثالاً للإصرار وقوة الإرادة إزاء الصعاب التى قد تواجه الإنسان.

(٥٨) إيزادورا دنكان (١٨٧٨ ـ ١٩٢٧): راقصة بالية أمريكية، لم تلق نجاحًا إلا فى أوروبا، كانت تعارض الباليه الكلاسيكى معارضة شديدة، وقد أسهمت فى تطوير هذا الفن سواء من ناحية الحركة أو الملابس، إذ كانت ترى فى الحركة الراقصة تعبيرًا عن فكر.

(٥٩) بافلوفا (١٨٨٥ ـ ١٩٣١): أنّا بافلوفا أشهر راقصة باليه روسية، بدأت حياتها راقصة بفرقة الباليه القيصرية بروسيا، وما زالت أصداء شهرتها فى عالم الباليه تتردد حتى الآن، ويُقال إنها كانت فى حداثتها طفلة ضعيفة البنية، وكانت تخشى عدم نجاحها فى الامتحان الدقيق الذى كانت تجريه مدرسة سنت بطرسبورج (لينينجراد) للباليه.

(٦٠) موتسارت (١٧٥٦ ـ ١٧٩١): فولفجانج موتسارت مؤلف موسيقى نمساوى، يعتبر واحدًا من أعظم عباقرة الموسيقى فى كل العصور، كتب أول سيمفونية له وهو فى الثامنة من عمره، وأول أوبراته وهو فى الحادية عشرة، وقاد أول أوبراته وهو فى الحادية عشرة، وكتب جميع أنواع الموسيقى، ومات فقيرًا رغم كثرة إنتاجه


Twitter: @ketab_n

ومن أشهر أوبراته «زواج فيجارو» و«الفلوت الساحر» و«دون جوان».

(٦١) أديسون (١٨٤٧ ـ ١٩٣١): توماس أديسون مخترع أمريكى، اخترع أكثر من (١٣٠٠) اختراع، وأشهرها المصباح الكهربى والحاكى والتليفون الكربونى.

(٦٢) التروتسكية: نسبة إلى ليون تروتسكى (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) الزعيم الثورى الذى لعب دورًا فى الثورة الروسية عام ١٩١٧، كان يرى ضرورة الثورة العالمية لتحقيق الشيوعية، أُغتيل فى المكسيك.

(٦٣) شارلى شابلن (١٨٨٩ ـ ١٩٧٧): ممثل هزلى بريطانى، عمل فى الولايات المتحدة.

(٦٤) الحمام الشعائرى أو الطقوسى (مكفية بالعبرية): هو الحمام الذى يستخدم لتطهير اليهود من النجاسة، ولتطهير الأوعية التى صنعها اليهود، كما يتعين على المرأة اليهودية أن تأخذ حمامًا طقوسيًا بعد العادة الشهرية من أجل التطهير، ولا يبيح الشرع لليهود أن يسكنوا فى مكان لا يوجد فيه حمام طقوس، كذلك يجب على كل من يدخل فى اليهودية أن يأخذ حمامًا طقوسيًا.

(٦٥) الرُّخّ: بيدق شطرنج على شكل قلعة.

## الفصل الثالث:

(٦٦) الباجافيدا ـ جيتا: نص هندى مقدس يتصل بملحمة المهابهارتا مكتوب باللغة السنسكريتية، ويتخذ شكل حوار فلسفى بين كرشنا والأمير أرجونا فى المسائل الأخلاقية وطبيعة الإله.

المهابهارتا: ملحمة شعرية عظيمة تضارع إلياذة هوميروس مكتوبة باللغة السنسكريتية تنسب إلى الحكيم الهندى فياسًا (القرن الخامس قبل الميلاد)


Twitter: @ketab_n

وتشتمل على مائتى ألف بيت وهو تصور الحروب التى نشبت بين فريقين متنافسين من إحدى العشائر الهندية.

كرنشا: من أكثر الآلهة شعبية عند الهنود، وهو التجسيد الثامن للإله فشنو.

أرجونا: أحد أبطال المعارك التى روتها ملحمة المهابهارتا،

(٦٧) فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩): سيجموند فرويد من أعضاء الجماعة اليهودية فى النمسا ومؤسس مدرسة التحليل النفسى، ومن أهم المفكرين الغربيين، وقد أثّر التحليل النفسى فى معظم المدارس والاتجاهات الفكرية الغربية الحديثة، ويكتسب فرويد مزيدًا من الأهمية لدى الحضارة الغربية فى الوقت الراهن، إذ تشيع فكرة ما بعد الحداثة والتمركز حول الأنثى والاهتمام المتزايد بالجسد والجنس والإنسان الجسمانى، ويلاحظ أن والدة فرويد قد جاءت من برودى (فى جاليشيا) أحد أهم المعاقل الحسيدية، وكان جدها يشغل مكانة رفيعة لدى الحسيديين، ومع ذلك تزوج الوالدان على يد حاخام إصلاحى، وذلك بعد أن فقد الوالد إيمانه الدينى متأثرًا بلفحة الاستنارة، وصار مؤمنًا إيمانًا مطلقًا بالعلم والعقل المادى.

(٦٨) الهَيّولى: المادة التى يفترض أنها سبقت الوجود، وكانت فى حالة عدم تشكل.

(٦٩) عيد الحانوكة (أو عيد التدشين): ويحتفل به اليهود فى الخامس والعشرين من شهر كسلو، ومناسبته عسكرية وسياسية، وذلك حين استولى انتيوخس إبيفانس على أورشليم عام ١٦٥ ق.م، فتصدى له الكاهن الأكبر متاتيًا معلنًا المقاومة يعاونه فى ذلك أحد أبنائه يهوذا المكابى حتى استردا المعبد منه، وفى ٢٥ كسلو من هذه السنة أُخرجت التماثيل اليونانية من الهيكل وزوده متاتيا وابنه


Twitter: @ketab_n

المذكور بمذبح طاهر جديد وأعيد فتحه للشعائر الدينية، وهذا سبب تسمية هذا العيد بعيد التدشين. والطابع المميز للاحتفال بهذا العيد وهو إضاءة شموع كثيرة لمدة أسبوع كامل، وترديد القصائد والأناشيد التى تشيد بالأعمال الجليلة التى تمت فى الفترة المذكورة ولا تنسى الصهيونية استغلال هذا العيد والعمل على تأكيد القيم التعصبية السياسية والعسكرية.

(٧٠) سفر إستير: ويتحدث عن خلاصة جماعة يسرائيل على يد استير، ويسميها اليهود الملكة إستير، فقد حصلت على تصريح من أخشويروش الفارسى بالانتقام من أعداء اليهود وعلى رأسهم وزيره هامان.

(٧١) المستقبلية: حركة فى الرسم والنحت والأدب ظهرت فى إيطاليا عام ١٩٠٩ دعت إلى نبذ التقليد وإلى التعبير عن ديناميـة الحياة العصرية بجميع مظاهرها، كما مجدت الحرب ووقفت إلى صف الفاشية.

(٧٢) نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠): فردريك نيتشه فيلسوف ألمانى قال بفكرة العود الأبدى أو المتكرر، وأن الزمان يعود كما سار من قبل، فتتكرر كل حوادث العالم مثلما تتكرر فصول السنة بعد دورتها تكرارًا لا نهاية له، كما ترتكز فلسفته على إرادة القوة، إذ يذهب إلى أنه ليس صحيحًا أن الكائنات تتوق إلى الحياة وتتمسك بالبقاء فيها، بل الحياة هى التى تتوق إلى الازدهار والغزو والانتشار، والغزو والانتشار إرادة قوة وليس إرادة حياة ويستخدم نيتشه مع إرادة القوة مفهوم التسامى (أو انتصار الفرد على نفسه)، ومن أهم كتبه: «هكذا تكلم زرادشت» وهو من عيون الأدب العالمى، وكتاب «ما وراء الخير والشر»، وكتاب «أصل الأخلاق».

(٧٣) ـ جمع بفَنّج : وهو جزء من مائة من المارك الألمانى.


Twitter: @ketab_n

## الفصل الرابع:

(٧٤) قرطاس (لفظة محدثة): ورقة تُلف على هيئة القمع ليوضع فيها السكر ونحوه.

(٧٥) جاليشيا: كلمة منسوبة إلى «جاليش»، وهى عاصمة منطقة تاريخية فى جنوب شرقى بولندا وشمال غربى أوكرانيا، ويُطلق مصطلح «جاليشيا الغربية» على منطقة كراكوف ولوبلين، أما «جاليشيا الشرقية» فتشير إلى باقى المنطقة التى تقع بين المجر وبولندا من جهة، وإمارتى كييف وتولينيا الغربيتين من جهة أخرى ومن الناحية السياسية فقد ضُمَّت جاليشيا إلى بولندا عام ١٩١٩، وفى عام ١٩٣٩ قُسِّمت بولندا بين السوفييت والنازى، وفى هذا التقسيم تم ضم غرب جاليشيا إلى ما كان يعرف بالحكومة العامة البولندية التابعة للنازى، وتم ضم الجزء الشرقى منها لأوكرانيا السوفيتية، وهو ما كان يعنى ضم نحو ٥٠,٠٠٠ يهودى لحكم السوفييت.

(٧٦) درشكية: مركبة روسية.

(٧٧) عيد البوريم: (أو عيد النور أو عيد النصيب أو عيد إستير أو عيد المسخرة كما يسميه العرب) هو عيد يحتفل به اليهود بدءًا من ليلة الثالث عشر من شهر آذار من السنة اليهودية، ويصومون فى هذا اليوم نفسه، ويسمى عندهم «صيام إستير»، أما اليوم الرابع عشر فهو العيد الذى يستمر طيلته ويسمى «يوم بوريم»، ثم يكون اليوم الذى يليه وهو الخامس عشر من آذار يوم الكرنفال (أو المسخرة كما أسلفنا) وعيد البوريم احتفال تذكارى يتصل بالتمهيد لعودة اليهود من السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد بناءً على وعد صدر من ملك الفرس لإستير اليهودية.



Twitter: @ketab_n

(٧٨) ـ بوشكين (١٧٩٩ ـ ١٨٣٧) : ألكسندر بوشكين شاعر وروائى وكاتب مسرحى روسى، يعتبر أبا الأدب الروسى الحديث، من أعماله مسرحية "بوريس جودونوف" ورواية "يوجين أونيجين" وأشعار "سجين القوقاز" و "الغجر" و "الديك الذهبى".

(٧٩) ـ يسنينين (١٨٩٥ ـ ١٩٢٥) : ألكسندروفيتش يسنينين شاعر روسى عاش حياة بوهيمية مستهترة.

## الفصل الخامس :

(٨٠) ـ دوكات : عملة ذهبية أوروبية

(٨١) ـ الشماع : دعاء يردده اليهودى فى الصباح والمساء يقر فيه بوحدانية الله، ويؤكد على محبته والإخلاص له عملاً بما ورد فى سفر التثنية (التوراة) فى هذا الخصوص.

## الفصل السادس :

(٨٢) ـ المدارشى : جنس أدبى أقرب إلى المواعظ الدينية، ويستند إلى تفسير التوراة.

## الفصل السابع :

(٨٣) ـ روح العصر : مصطلح للفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠ ـ١٨٣١) يقصد به عقلية عصر معين وحياته الاجتماعية ومنتوجاته الثقافية، وخاصة عند شعب معين يشارك فى هذه الجوانب، ويجد الفرد نفسه مغموسًا فى هذه الروح، فلا يستطيع أن يتجاوز عصره أو يقفز فوقه، إذ أن مركز الكون عند هيجل يحكمه "روح مطلق" يوجه كل الموجودات بما فيها العقل البشرى، فالتاريخ من صنعه وهو المسئول عن تطور الفن والدين والفلسفة، كما هو مسئول عن نشأة الأمم وانهيارها، وقد اشتهر هيجل بمنهجه الجدلى الذى طبقه على كل مظاهر الوجود،


Twitter: @ketab_n

فالفكرة يتولد عنها نقيضها، ثم تأتلف هى ونقيضها، فينشأ من ائتلافهما معًا فكرة جديدة. وكان لآرائه أثر كبير على من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين وخاصة كارل ماركس الذى استبدل بفلسفة هيجل المثالية المادية الجدلية.

(٨٤) - جوركى (١٨٦٨ - ١٩٣٦) : مكسيم جوركى اسم مستعار لألكس مكسيموفتش بيشكوف، كاتب قصصى وروائى، من أشهر رواياته (الأم)، خلفت أعماله بتصوير منبوذى المجتمع، إذ كان يرى فيهم أمل المستقبل، تناولت رواياته الأخيرة أحداث الفترة الثورية فى روسيا من عام ١٨٨٠ إلى ١٩٣٤، كتب أيضًا "طفولتى" و "ذكرياتى".

(٨٥) - دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) : فيلسوف ومؤرخ إسكتلندى، قال إن المعرفة لا وجود لها، وأن الواقع انطباعات حسية أو ذهنية.

(٨٦) - جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨): كاتب فرنسى، كان لكتاباته أثر كبير فى تطور الديمقراطية الحديثة، من أهم مؤلفاته "العقد الاجتماعى" و "اعترافات".

(٨٧) - جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤): إدوارد جيبون مؤرخ إنجليزى، يعد أعظم المؤرخين فى عصره، من أهم أعماله كتاب "تاريخ تدهور الأمبراطورية الرومانية وسقوطها" الذى لقى استحسانًا عظيمًا، كتب أيضًا سيرة ذاتية.

## الفصل الثامن:

(٨٨) - عيد الغفران (أو يوم الكفارة) واسمه بالعبرية "يوم كِبُّور"، وهو اليوم العاشر من تشرى ويبدأ هذا العيد قبيل غروب الشمس من اليوم التاسع من تشرى ويستمر إلى ما بعد غروب الشمس اليوم التالى، فمدته حوالى ٢٧ ساعة يجب فيها الصيام ليلاً ونهارًا والتفرغ تمامًا للعبادة، وكان اسمه قديمًا "يوم هكبّوريم" أى يوم الكفارات، ولكن وقع صدفة فيه أن دمرْ بختنصر



Twitter: @ketab_n

أورشليم وأشعل النيران فيها (٥٨٦ق.م) فاقترن ذلك اليوم بتلك الذكرى السياسية الأليمة عند اليهود وأصبح أكبر أيام الحداد عندهم.

(٨٩) - إفرايم ومنَسّى : هما ولدا يوسف من زوجته أسنات، وهى ابنة "موتيفارع" (أى عطية رع إله الشمس) كاهن أون (عين شمس).

(٩٠) - الدرديدل : لعبة أشبه بالخذروف أو ألعاب الحظ يلهو بها صغار اليهود وكبارهم فى عيد الحانوكة.

(٩١) - جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢): يوهان جوته شاعر وكاتب مسرحى وروائى من أشهر أعماله "آلام فرتر" و"فاوست"، و "ديوان الغرب والشرق"، وفيه تجديد لشعر الغرب، وذلك لتعرفه على الشعر الفارسى ولاسيما شعر حافظ الشيرازى.

(٩٢) - بتهوفن (١٧٧٠- ١٨٢٧): لودفيج فان بتهوفن مؤلف موسيقى ألمانى يُعد من أبرز عباقرة الموسيقى فى جميع العصور، أصيب بالصمم فلم يقعده ذلك عن مواصلة التأليف الموسيقى وبذل العطاء للإنسانية كى ترقى وتسمو.

(٩٣) - شملينسكى (١٥٩٣ - ١٩٥٧): بوجدان شملينسكى زعيم القوزاق الذى قاد الانتفاضة الشعبية فى أوكرنياضد الاستعمار الاستيطانى البولندى وقوات الاحتلال التى كانت تحميه وكل المؤسسات التى تتبعه (الكنيسَة الكاثوليكية والوكلاء اليهود)، والذى أصبح قائدًا لأوكرانيا بعد حصولها على الاستقلال وداعية لتوحيدها مع روسيا.

## الفصل التاسع:

(٩٤) - خبزالحالا: يُخبز من الدقيق الأبيض، ويتناوله اليهود فى أيام السبت وفى أيام الأعياد، ويعد تناوله عند اليهود الشرقيين رمزًا للاحتفال بهذه المناسبات؛ إذ


Twitter: @ketab_n

أنهم يتناولون الخبز الأسود طوال الأسبوع، ويعجن هذا الخبز على هيئة ضفائر، وتُرش عليه حبات السمسم رمزًا للمانا التى ذُكِرت فى العهد القديم.

(٩٥) ـ الفجل الحار ( أو الجرجار أو فِجّل الخيل)، نبات ذو جذر غليظ، حرّيف، ضارب لونه إلى البياض، كذلك يطلقُ عليه البعض خَرْدَل الألمان من باب الشبه، والخَرْدَل نبات عشبى من الفصيلة الصليبية ينبت فى الحقول وعلى حواشى الطرق.

## الفصل العاشر:

(٩٦) ـ الكومنترن (أو الدولية الثالثة) : أنشئ بموسكو عام ١٩١٩، وكان يضم معظم الأحزاب الشيوعية فى العالم، حلته روسيا عام ١٩٤٣ لطمأنة حليفاتها فى الحرب العالمية الثانية.

## الفصل الحادى عشر:

(٩٧) ـ الكَتّصُوف: قماش خشن متين من كتان وصوف.

(٩٨) ـ العمالقة : قوم وَلَدِ عِمليق أو عِملاق بن لاود بن إرم بن سام بن نوح.

(٩٩) ـ سفر الجامعة : خواطر فلسفية تنسب إلى سيدنا سليمان عليه السلام.

(١٠٠) ـ كاشا: بُرغل حنطة سوداء، وهى كلمة من اللغة الروسية القديمة.

(١٠١) ـ ڤردان: مدينة شرق فرنسا تقع على نهر الميز، شهدت عام ١٩١٦ أطول وأشد معركة خلال الحرب العالمية الأولى، اشترك فيها نحو مليونى مقاتل، قُتِل منهم مليون رجل، ومع أن الألمان انتزعوا بعض الحصون الخارجية، فقد صدت ڤردان نفسها جميع الهجمات، وتعد المدينة مزارًا وطنيًا هى والأراضى التى جرى عليها القتال.


Twitter: @ketab_n

## الفصل الثانى عشر:

(١٠٢) - يعقوب فرانك: (١٧٢٦ - ١٧٩١): تزعم الحركة الشبتائية فى بولندا عام ١٧٤٠ فأمر أتباعه بإظهار الكاثوليكية، وجعل يحث الناس على الإغراق فى اقتراف الذنوب من أجل تعجيل ظهور المسيح، وتنسب الحركة الشبتائية إلى مؤسسها عام ١٦٦٥ المدعو شبتاى تسفى الذى زعم بأنه المسيح المنتظر أو الموعود الذى سيحكم العالم وتكون السيادة فيه لليهود، وتعد هذه الحركة من أكبر الحركات وأكثرها تأثيرًا فى التاريخ اليهودى منذ القرن الثانى الميلادى، وما زال أتباعها موجودين إلى يومنا هذا ويعيش معظمهم فى تركيا باسم الدونمة (وهى كلمة تركية معناها المتحول من دين آخر).

(١٠٣) - ميزوزاه: كلمة عبرية، وهى قطعة من جلد حيوان نظيف طبقًا لتعاليم الشريعة اليهودية مدون عليها آيات من سفر التثنية (٦:٤/٩)، (١١: ٢١/٣)، وعلى الوجه الآخر (شدَّاى) - من أسماء اللّه - يضعها اليهودى فى حرز بعد أن يلفها جيدًا، ويعلق هذا الحرز على عضد باب منزله تأكيدًا لالتزامه بأحكام الشريعة اليهودية وإظهارًا لإخلاصه وتمسكه بوحدانية اللّه، وهى عند بعض اليهود تميمة للوقاية من الأذى والشرور.

## الفصل الثالث عشر:

(١٠٤) - شبتاى تسفى (١٦٢٦ - ١٦٧٦): فى عام ١٦٦٥ والعام الذى تلاه عمت الفرحة جاليات اليهود فى شرق العالم وغربه، إذ ظهر فى تركيا شخص يهودى زعم أنه المسيح المنتظر أو الموعود، فلما حوكم عن هذا الادعاء أنكره، بل أظهر إسلامه أيضًا، ومنذ أن تظاهر بالإسلام إلى أن مات بصورة مفاجئة عام ١٦٧٦ عاش شبتاى حياة مزدوجة فكان يقول للمسلمين بأنه ليس


Twitter: @ketab_n

المسيح المنتظر، بينما كان يقول لأتباعه أن إنقاذهم وشيك قريب، وقد سار أتباعه الموجودون إلى يومنا هذا على هذا النهج إلى إستبان أن ظاهرة الازدواجية سمة سائدة بينهم، وقد عرفت هذه الحركة بالشبتائية تبعًا لاسم صاحبها وقد أسهمت عدة عوامل فى ظهور هذه الحركة وامتداد أثرها منها أن جماعة اليهود قد عانت أشد المعاناة من حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) وكانت نهايتها بداية تدهور الشبكة التجارية اليهودية العالمية، ومنها آل إليه حال النخبة اليهودية من إعراض عنهم فى الحياة السياسية على الرغم مما حققته من ثراء أثناء الحرب، فضلاً عما لحق اليهود من أضرار وقتل وتشريد أثناء انتفاضة فلاحى أوكرانيا والقوزاق تحت قيادة شيملنسكى (١٦٤٨) تلك الانتفاضة التى هزت قواعد التجمع اليهود فى بولندا، وقد كان أكبر تجمع يهودى فى العالم حينذاك، فضلاً عن حرب عام ١٦٦٥ (بين روسيا والسويد) فى مناطق تركز اليهود فى بولندا ثم هجمات القوزاق الهايدماك وتعرف هذه الفترة فى تاريخ بولندا باسم "الطوفان"، زد على ذلك تزايد نشاط محاكم التفتيش (فى إسبانيا والبرتغال) فى تلك الفترة وظهور التيار الإصلاحى فى إيطاليا بنزعته المعادية لليهود.

(١٠٥) ـ كاديش: صلاة تُتلى فى الكنيس، يؤديها أكثر الناس قرابة لميت حدادًا عليه.

## الفصل الرابع عشر:

(١٠٦) ـ فاينجر (١٨٥٢ ـ ١٩٣٣): حنا فاينجر ألمانى، صاحب فلسفة "كأن"، اعتزل التدريس الجامعى بسبب ضعف بصره، وعاش حياة دون قدراته، فجاءت فلسفته وليدة ظروفه، وقد اسماها الاختلاقية، وهى الفلسفة التى عرضها فى كتابه الرئيسى "فلسفة كأن" (١٩١١)، ومؤداها أن الواقع لا يسعف طموح الإنسان ويظل


Twitter: @ketab_n

قاصرًا دون الوفاء به، ومن ثم فهو يحتاج دومًا إلى اختلاق عالم يستكمل به هذا الواقع، وهو يعلم تمامًا أن اختلاقاته بعيدة عن الواقع أو لا أساس لها من الصحة، بل ومتناقضة مع نفسها أحيانًا، ولكنه يتمسك بها لفائدتها العملية، ويقول إن فكرة الألوهية فكرة مختلقة ومع ذلك فهى لازمة إنسانيًا، وكذلك فكرة الذرة فى العالم الطبيعى، وفكرة مادية العالم، وفكرة القوة الحيوية فى عالم الأحياء، وفكرة العقد الاجتماعى فى العلوم الاجتماعية.

(١٠٧) - لوباتشيفسكى (١٧٩٣ - ١٨٥٦): نيكولاى لوباتشيفسكى عالم رياضيات روسى، كان رائدًا فى الهندسة اللاإقليدية، ابتكر نظامًا هندسيًا لا يستخدم الفرض الخامس لإقليدس، وفى هندسته يمكن رسم أكثر من خط مستقيم واحد يمر بتقطة معينة ويوازى خطًا معينًا.

(١٠٨) - ريمان (١٨١٦ - ١٨٦٦): جورج ريمان عالم رياضيات ألمانى، أهم بحوثه تتضمن نظرية الدوال ذوات المتغيرات المركبة، وتمثيل هذه الدوال على رقائق (أسطح ريمان)، ووضع أسسًا لنوع من الهندسة اللاإقليدية (هندسة ريمان) وعمل أستاذًا بجامعة جوتنجن.

(١٠٩) - كانتور (١٨٤٥ - ١٩١٨): جورج كانتور عالم رياضيات روسى، مبدع نظرية المجموعات، كان ضحية سوء فهم معاصريه، وتوفى فى مستشفى للأمراض النفسية، أما الآن فقد شهد له العالم بالعبقرية.

(١١٠) - حق البكورية: ورد ذكره فى التوراة (سفر التكوين ٣٢: ٢٥)، وهو امتياز خاص للابن الأكبر بمقتضاه يُعطَى نصيبًا مضاعفًا من ميراث العائلة ويكون له الحق فى أن يصبح زعيمًا للعائلة يومًا ما، كما كان له أن يبيع هذا الحق أو يتخلى عنه إذا أراد، ومن ثم لا يجوز له


Twitter: @ketab_n

التمسك بتلك الزعامة إذا ما صنع هذا، وهذا ما فعله عيسو، إذ باع حق بكوريته لأخيه الأصغر يعقوب مقابل إشباع رغبته فى الطعام الذى طبخه الأخير مضحيًا بالبركات الروحية التى كان يمكنه أن يحصل عليها لو أنه ظل محتفظًا بذلك الحق. والاثنان هما ولدا إسحق من سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(١١١) ـ المعدنين جمع المُعَدّن: من يستخرج الخامات المعدنية من الأرض، ويستخلص المعادن منها.

(١١٢) ـ حكماء أورشليم: وهذه تسمية سام بن نوح لأورشليم على حد قول حاخامات اليهود.

## خاتمة:

(١١٣) ـ أوشيفتز: معسكر اعتقال نازى أقيم فى منطقة مستنقعات بالقرب من بلدة أوشفيتز البولندية، افتتح فى ١٤ يونيو ١٩٤٠ وخصص لاستقبال السجناء السياسيين البولنديين الذين كانوا النازيون يريدون تعذيبهم أو تصفيتهم، وقتل فى هذا المعسكر حسب المصادر السوفيتية حوالى ٤ ملايين شخص معظمهم من البولنديين والروس واليهود والغجر.

(١١٤) ـ قَطُورة: زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام الثانية وفقًا لما ورد فى التوراة (سفر التكوين ٢٥:١).

(١١٥) ـ مغارة مكفيلة: وتعنى المغارة المزدوجة، وهى المغارة التى اشتراها إبراهيم الخليل عليه السلام فى حبرون (أصبح اسمها فيما بعد الخليل) ليدفن فيها زوجته سارة، وقد اشتراها من عفرون بن صموحار، وعندما توفى إبراهيم الخليل عليه السلام دُفِن فيها أيضًا قبالة زوجته، وكذلك دُفِن فيها ابنه إسحق وزوجته رفقة.

(١١٦) ـ شبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦): أوزفالد شبنجلر مفكر ألمانى، اشتهر بكتابه "أفول الغرب" . ١٨١٨، ١٩٢٢ . وقد لقى كتابه (ويقع فى مجلدين) رواجًا كبيرًا وهو يتضمن فلسفته فى التاريخ إثر هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، وهى فلسفة تقوم على الحتمية،


Twitter: @ketab_n

إذ يرى أن كل حضارة فور قيامها تخضع لدورة حياة بيولوجية كالكائن الحى، وأن لها ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاءً، فربيعها ازدهار وخاصة فى المجال الحربى والدينى، وصيفها ظهور المدن إلى جانب الريف ونشوء ارستقراطية حول الزعامات القديمة وعلو شأن الفنانين واشتهارهم، أما خريفها فهو إرهاصات باستنفاد محتمل لينابيعها الروحية التى اكتمل تدفقها، ويعقب ذلك شتاؤها المتمثل فى فقدان الروح والتحول إلى مدينة أعظم إنجازاتها إدارية وتطبيق العلم فى مجالات الأغراض الصناعية، وتستغرق الدورة فى مجملها ألف سنة تقريبًا.

(١١٧) - الجُدْجُد: حشرة كالجراد يُصوّت بالليل.



Twitter: @ketab_n

# صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «أنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، جائزة الدولة التشجيعية.



Twitter: @ketab_n

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو.
رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو» .

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق
- رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد- أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - جائزة الدولة للأدب.

١٥ - الرجل البطىء / ج . م . كويتسى - رواية - جائزة نوبل.

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / جائزة كين .


Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

**مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب**

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org

Twitter: @ketab_n

إسحق باشيفيس سنجر. كاتب بولندى

ولد عام ١٩٠٤ بالقرب من وارسو عاصمة بولندا.

هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٥.

حصل على العديد من الجوائز منها جائزة الكتاب القومى مرتين الأولى عام ١٩٧٠ والأخرى عام ١٩٧٤. ثم توّجت أعماله بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٨.

من أعماله: "الشيطان فى جوراى". "إسبينوزا مالك السوق". "مالك الضيعة". "ساحر لوبين". "فى محكمة والدى".

توفى عام ١٩٩١.

## الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب:

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح.. وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

"شوشا". هى بطلة الرواية الحقيقية، المرأة/ الطفلة التى لا تنمو أو ترفض النمو، وهى الحلم المبتور المريض، الذى يحنّ كاتب مسرحى موهوب من يهود بولندا للعودة إليه.

والرواية كما يؤكد المؤلف لا تمثل يهود بولندا فى سنوات ما قبل "هتلر" بحال من الأحوال، وإنما هى قصة بضع شخصيات متفردة، أراد كل منهم رسم خلاصة الفردى من عالم يبدو كسفينة مثقوبة من جرّاء الحروب والإبادة والعنف، ويحاول كل منهم أثناء البحث عن خلاص فهم حقيقة الكون. تتوالد الأسئلة العظمى حتى نهاية صفحات الرواية لتصل إلى حقيقة إنه.. لابد وأن يكون هناك موضع فى مكان ما يحفظ فيه كل شىء يحدث فى العالم، وإذا لم يكن هذا حقيقياً فلسوف يكون الكون مشوهاً وناقصاً.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 977419571x
6 221149 000636

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٠٫٥٠ جنيه